فؤاد التكرلي

الرجع البعيد

دار ابن رشد

صمم الغلاف عماد حيدر

twitter @baghdad_library

فؤاد التكرلي

الرجع البعيد

رواية

دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - كورنيش المزرعة - بناية موسى - ت ٣١١ ٣٠٠

الطبعة الأولى ١٩٨٠
الحقوق محفوظة لدار ابن رشد
بيروت

twitter @baghdad_library

- ١ -

سارتا بخطوات وئيدة ، عابرتين شارع الكيلاني وأشعة الشمس الحمراء والظلال الطويلة ، وأخذتا بارتقاء الطريق الترابي . كلمت ام مدحت حفيدتها :

- لا تمشين حيل عيني سناء .

- نعم ، بيبي .

كان الشارع ، قبيل الغروب، صاخباً وراءهما ؛ إلا أن ريحاً خفيفة حملت ضجته بعيداً ؛ وكانتا تريان مواضع أقدامهما رغم أن المصابيح الكهربائية لم تكن قد أضيئت بعد ؛ غير أن وجوه المارين لم تكن متميزة بوضوح .

- هواية الخبز حار بيبي .

- الله يديم النعمة .

- انشالله بيبي .

- عفية عيني سناء . تعلمي تحچين هالشكل . لا تخلين اسم الله يوگع من حاگج

- نعم بيبي .

كانت حزمة الفواكه والبيض والمخضرات ثقيلة ، وكانت تشعر بأنفاسها تضيق مع كل خطوة ترقى بها الطريق المرتفع باستمرار ، فتباطأت بسيرها ونقلت حملها إلى اليد الأخرى . رأت الصغيرة تتمايل مع قنينة الحليب وأقراص الخبز الحارة .

– نوگف شوية بيبي ؟ تعبتِ أنتِ .

– لا عيني سناوي ، ما بقه شي للبيت .

عندئذ لمحته يخرج من انحناءة الزقاق القريب ؛ طويلاً بارز الصدر متعثر الخطوات. لم تعتقد أن بوسعها أن تتعرف على هوية الأشخاص في هذه الغابة من الظلال ؛ خاصة أولئك الذين نظنهم بعيدين عنا .

– اوگفي عيني سناء . أريد استراح شوية .

– نعم بيبي . آني گلت أنتِ تعبانة .

كاد ، لي تعثر خطواته الخطر . أن يصطدم بالحائط ، إلا أنه اعتدل وتراجع في اللحظة الأخيرة ؛ وسمعت القحة تهز جسمه . لم تخطيء في معرفته ، ومن المستحسن ألا تراه الصغيرة . ولكن ، أية ريح مخبولة عادت به من الكويت ؟! ثم رأته يتوقف ليشعل سيجارة ارتفع دخانها من بعده ، وسار مرفوع الرأس تنتاب خطواته هزة غريبة مثل من يتلقى لطمة على صدغه .

– عيني بيبي ، تره الخبز هواية حار .

– أي عيني . ادري . يالله دنمشي لعد .

– نعم بيبي .

تراه يسير فتظنه بشراً أو رجلاً مثل بقية الرجال ! ومن يدري ، فقد يبقى هذا الشوه حياً بعد أن يموت الجميع ! لعل الصغيرة لم تره . ولكنه كالبغل العنود ، لا يتحرك إلا كي يقف . شاغلت نفسها بما تحمله وأخذت تلتقط أنفاسها وتتكلم :

– أي عيني سناوي . لا تخلين اسم الله يوگع من حاگچ ، وإذا تردين انطيني الخبز آني اشيله .

– لا بيبي . آني ما أدير بال انشالله .

– عفية . عفية . يالله نمشي .

وسارتا .

twitter @baghdad_library

– بيبي أگلج . البارحة بالليل شفت فد حلم هواية حلو . لاكت هسه نسيته . حچيته لسها من الصبح . تدرين بيبي تگول سها لازم ما تشوفين حلم ! لويش عيني ؟ چيف آني صغيرة ؟ ليش البنات الصغيرات ما يشوفون أحلام ! آني أصلا كل ما أنام أ گول ربي خل دا أشوف حلم هواية ، هواية حلو . أحلى من سها .

ثم دفعت الصغيرة بقدمها باب الدار ودخلت مسرعة . ألقت أم مدحت نظرة أخيرة على ظله المتمايل قرب الحيطان وتبعت حفيدتها . تمنت أن تستمر سناء على ثرثرتها وهما تقطعان المجاز المظلم الضيق ، ولكنها التزمت الصمت وهي تراقب بدقة موضع قدميها . خاطبتها :

– ديري بالج عيني سناوي من الدبيب .

– نعم بيبي . شوية دا أخاف من الظلمة .

– لا عيني ، لويش دتخافين ؟ أنت عاقلة .

دفعتا الباب الكبير الآخر فصرّ صريراً عالياً وانفتحت عليهما ضجة البيت . تنفست الصعداء وهي تطرق بقدميها طابوق الحوش المتحجر وتراقب الصغيرة تسرع نحو المطبخ القريب .

سمعت ابنتها مديحة تنادي من الطابق الأول :

– منوچا ؟ يوم ؟ سناء ؟

فأجابت الصغيرة :

– أي ماما . أحنا جينا ، آني وبيبي .

ارتمت أم مدحت على كرسي واطيء في زاوية من المطبخ ، ووضعت حملها على الأرض . كانت متعبة من السير الطويل ، تشعر بقلق غامض في قلبها . ماذا جاء يفعل هنا ، هذه الأيام ؟ رأت الصغيرة تفتح قدراً كبيراً وترص فيه أقراص الخبز ، ثم تمضي نحو الثلاجة بقنينة الحليب . لعلهم طردوه من الشركة بعد أن اكتشفوا حقيقة أمره . ولكن ، هل سيعاود تمثيل تلك المهزلة معهم مرة أخرى ؟ سمعت صوت ابنتها

مديحة تكلمها من الطارمة :

– يوم ... يوم . أنت وين ؟ بالمطبخ ؟

– أي ، يوم ، اي . تعالي نزلي شوية .

– چايّة .

كانت الضجة تأتي من غرفة العجائز ، أمها واخت زوجها . انهما في معارك لسانية دائمة من أجل لا شيء . تَبدّى لها ظل ابنتها في مدخل السلم ، مقبلة نحوها ، طويلة ممتلئة . هتفت تكلمها :

– مديحة عيني ، شعلي الضوا من يمج .

توقفت ابنتها لحظة أضاء بعدها مصباح كهربائي مدخل المطبخ قامت حاملة البيض تضعه في الثلاجة فانتبهت إلى غياب الصغيرة . سألت مديحة حين صارت على مبعدة خطوات منها :

– وينها سناء ؟

– فوك .

ثم اردفت بسرعة :

– يالله يوم ، الله يخليچ ، خلي ندبر العشا بالعجل . تره أكلوا گلبي صار لهم ساعتين.

– منو ؟ عمتچ ؟

– عمتي وبيبي . عمتي صار لها ساعة تگول عيني دا أشم ريحة كباب ، وبيبي گاعدة تحلم بالعگوس والتشريب .

أوقدت أم مدحت الطباخ الغازي الصغير :

- ما راح يأكلون غير البيض المقلي والسبيناغ . أبوچ رجع ؟

جلست مديحة على الكرسي الفارغ . لاحظت بعض الاعياء في جلستها وفي ملامحها لون وجهها . سألتها مرة أخرى :

أبوچ رجع من الفاتحة ؟

twitter @baghdad_library

ـ يوم صدك شفتوا حسين يم بيتنا ؟

ثم رأتها ترفع عن صدغها خصلة شعر سوداء بحركة أكدت لها التعب الذي يتملك ابنتها :

ـ سناء گالت لچ ؟

لم يفلت من ملاحظة الصغيرة اذن :

ـ عبالي ما خليتها تشوفه . چان مثل السكران . شعلينا منه .

ـ أي .

ثم سمعتها تطلق تنهدة طويلة ، عبرت بها عن كل ما جرى لها معه . سكتت وهي تشعر بأنها لا تستطيع ـ رغم علاقتها بمديحة ـ أن تبدي رأياً بما حدث . تكلمت ابنتها :

ـ آني عرفت ما راح يبقى هناك مدة طويلة . من هذا عبد الكريم گال الكويت مالتنا تخربط وضع العراقيين هناك . وهذا حسين يريدها من الله . الدنيا حارة وشرب ماكو ... شكو باقي ؟

كانت ام مدحت منشغلة باخراج مواد العشاء من الثلاجة . التفتت إلى ابنتها :

ـ أحنا شعلينا منه يا بنتي . رجال صار له ستين تاركچ ، أنت وبناتچ . لا مراجعة ولا مصرف ، ولا خط ولا خبر . يعني لا للموت ولا للحياة . الله يقبل ها لشكل ؟

نهضت مديحة بتثاقل وأجابت :

ـ أي يوم أي . آني شدا اگول .

سمعتا صوتاً متهدجاً من الأعلى :

ـ أم مدحت . نورية . عيني نورية . راح تسوون الأكل ؟ هاي عمة مدحت تره گلبها ساح من الجوع وتگول أريد گرصة خبز حارة وشيشين كباب وخضروات وطرشي .

قالت مديحة :

– اشتغلت رحمة الله . هاي بيبيّتي . عمّتي أدزها . شكو بيبي ؟

عاد الصوت رقيقاً متوسلاً :

– عيوني مدوحة ، غمتج تريد كباب وآني أريد اتعشى عكوس . خليها كلها بصينية وهسه ادز عليها سناوي . يالله عيوني مدوحة ، الله يرجع لج أبو بناتج .

خرجت أم مدحت من المطبخ وهتفت بوالدتها :

– أنتِ ليش تصيرين لحوحة يا يوم ؟ ماكو غير البيض والسبيناغ . هسه راح نا كل كليتنا . بس خل ديجي أبو مدحت .

ثم التفت إلى مديحة :

– وينه أبوج خاطر الله ؟ والولد .. مدحت وكرومي ؟ وينهم ؟

– ابويه ما رجع من الفاتحة بعد ومدحت ديتمشى بالسطح

ارتفعت غمغمة من أعلى :

– شلون ظلم هذا وشلون سگم . الله اكبر . الشبعان ما يدري بحال الجوعان .سمعتي شد يگلون ؟ ما كوأ كل . ما كوعشا . كل هالريحة الگاعدة تصعد لخشومنا ، ويگلون ما كو ا كل . لا كباب ولا عكوس .

أجابها صوت حاد من الغرفة :

– ألنا الله .

كلمتها مديحة :

– يوم ، هذوله راح يسووها فرطنة إذا ما نسد حلوگهم . روحي، آني أسوي الاكل.

– وين أروح ؟ هسه يجي ابوج ونحضر العشا . وين راح كرومي ؟

رأتها تضع يديها بين ساقيها وتنظر إلى الأرض بسهوم :

– ما أدري والله . بس دا أشوفه هواية مشغول هالايام . يطلع يومية العصر وما يرجع

twitter @baghdad_library

لنص الليل . ما أدري شكو عنده .

شعرت بغصة خفيفة في قلبها وهي تستمع إلى كلام ابنتها . هل هنالك أمر في البيت تجهله ؟ خاصة بالنسبة لابنها الصغير :

– شنو يعني مديحة ؟ شبيه ؟ أشو آني ما شفت عليه شي . باكت ديعجبه يقرا ويه فؤاد . حچالچ شي ؟

– لاع . أشيحچي لي ؟ إذا ديحضرون للامتحان من هسه ، هواية زين .

سمعا وقع أقدام ثقيلة لشخص يخترق المجاز . قالت :

– هذا أبوچ . جبي الطاوة عيني مديحة دا أگلي البيض .

ثم قامت من مكانها . سمعت ابنتها تتكلم من خلفها :

– يوم ، لا تحچين لأبوية على حسين . بلكي تمر الحچاية سلاماة .

سكنت قليلاً قبل أن تجيب :

– انشا لله . انشا لله بنتي .

صر الباب الكبير ثم رأت زوجها يقف في مدخل المطبخ :

– مساكم الله بالخير .

– أشو تعطلت يا أبو مدحت ، هاي شلون فاتحة .

رفع سدارته السوداء وجلس على الكرسي :

– مو هذا چان آخر يوم ، ورادوا يحچزوني على العشا لاكت آني ما وافقت . ما عجبني وضعهم هالشباب . الناس گاعدة گايمة ، خاشة طالعة ، وهدوله عيونهم عشرة عشرة على الباب . يريدون الحكومة أدز لهم فد واحد ياخذ من خاطرهم يابه مو أحنا گاعدين وهلله هلله انتو والحكومة كجة مرحبا .

أجابت وهي تتناول الطاوة والبيض من ابنتها :

– مو صوچهم

مسح على جبينه ثم وجه حديثه إلى مديحة :

— وينهم الصغار ؟ أشو ماكو لا حس ولا نفس .

— خليتهم فوك يحضرون دروسهم . باچر عندهم امتحان .

فقام من مكانه :

— راح أصعد يمهم . وينه مدحت ؟

ثم مضى سائراً بخطوات بطيئة نحو مدخل الدرج دون انتظار الجواب .

كانت عيون الموقد المشتعلة تبعث حرارة مزعجة ، وقدور الطعام والدهن المحمي في الطاوة الكبيرة تهمهم وتتهامس . شعرت بابنتها تقف في زاوية من المطبخ مظلمة ، قرب الصحون البيضاء المصفوفة . أدارت نظرها إليها . كانت تمسح ببطء وذهول شيئاً زجاجياً في يدها . لم ترد أن تكلمها ، لكنها لم تستطع :

— شبيچ عيني مديحة ؟

رفعت مديحة يدها ومسحت بخفة أسفل عينيها . كانت استدارة وجهها تبين بغموض ، ولم تعلم أكانت ابنتها تبكي حقاً . أرادت أن تكرر سؤالها . همست مديحة :

— ما يفرجها الله عليّ ، عليّ وعلى البنات . شلون حظ حظي هذا !

وضعت الطاوة على جانب قرب النار :

— اگول شنو هالاذية هاي ؟ ولويش ؟ انتِ گاعدة أبيت أبوچ ، تمام لولا ؟ قابل گاعدة نزل . لازم الواحد يحمد ربه يا بنتي . ابوچ طيب وحالته زينة واخوتچ الله يخليهم ألنا . وهذا الرجال الله يرضى عليه ويجازى على گد عمله . لا عيني مديحة ، أنت عاقلة وتعرفين شگدآني اعزچ واحبچ . انت هالوحدة عندي يا عيوني .

ثم احتضنتها برفق وقبلت خدها المبلل . أحست بها طفلة في الخامسة من العمر ، لم تر من الحياة شيئاً ولم تذق علقمها بعد . أمضتها هذه الفكرة .

عادت مديحة إلى همسها :

twitter @baghdad_library

– اعرف كل هالحچي يا ..م . لاكت أشبقى لي من هالحياة الله يخليج. لا للموت ولا للحياة . والعمر دينگضي يوم ورا يوم .

– الصبر طيب يا بنّي ، وهاذي مو أول نوبة. هاذي قسمتچ يا گلبي وبلكي الله يفرجها عن قريب .

استدارت نحو الموقد وحرارته وارجعت الطاوة فوق النار . سمعت مديحة تعاود الكلام بصوت ثابت :

– لا ، لا ، يوم . آني أريد اشوفه هالنوبة . هو رجع خاطر يشوف البنات . أدري . لاكت آني ناوية أفضها وياه على وجه . أحنا مو بحاجة أله . آني دا أشتغل وعندي راتب وابويه الله يحفظه خيمة عليّ وعلى بناتي . لاكت هو لازم يعرف آني مو گاعدة يدك . زوجة احتياط ، شوكت ما يعجبه يرجع عليّ . راح ذاك الوكت .

قاطع مديحة صوت ابنتها سها :

– ماما . ماما . آني جوعانة . بيبيّي ام حسن تگول راح نا كل هاليلة لو لاع .

هتفت مديحة :

– اي ، عيني سها ، راح نا كل . هسه يلحك الا كل . خلصتوا دروسكم ؟

– نعم ، ماما . آني خلصت ، لاكت سناء بعدها . جدو يگول هاي ما بيها خير ، كسلانة .

ارتفع صوت سناء تصرخ من الغرفة :

– كذب ، ماما . آني هم خلصت . جدو ما گال عليّ شي . هاي سها كذابة .

– آني مو كذابة . هو جدو گال انّي كسلانه .

– شوكت عيني ؟

لم تشعر أم مدحت بخفة في قلبها وهي تستمع إلى تلك المحاورات العابثة ، وكانت تريد أن تنتهي من العشاء ومشاكله كي تتحدث بهدوء مع ابنتها وتفهم منها بعض أفكارها .

– حضرتي الصواني ، مديحة ؟

– نعم .

– اگول ، لو ادزين سها على خالها مدحت ، خل دينزل . شكو عنده بهالبرد بالسطح . ما ادرى كرومي راح يتعشى بره ؟

رأت مديحة تضع بعض الأواني البيضاء على المائدة القريبة . صار المطبخ حاراً وأحست بالعرق يتجمع فوق جبينها ويسيل تحت ثدييها . كان قلبها ضيقاً ، تحزه هواجسها ؛ وكانت تراقب ابنتها تتحرك آلياً كأنها لعبة لا عقل لها ولا نفس تتعذب . ثم رأتها تخرج من ظلمة المطبخ وتمسح وجهها براحة يدها وتنادي :

– سها . سها .

أجابتها الصغيرة من بعيد فطلبت منها أن تصعد إلى السطح وتخبر خالها مدحت بأن العشاء قد أعد . كان صوتها يرتجف عند بعض المقاطع ، فخطر لها أن ابنتها قد هرمت في وقت قصير جداً .

خرجت أم مدحت من غرفة نومهم تاركة زوجها يدخن سيجارته الأخيرة . كان الضوء الضعيف يضيء الطارمة وقسماً من الايوان ، وكانت السماء السوداء مرصعة بالنجوم وبعض الغيم الأبيض يلطخها . وقفت متكئة على المحجر الخشبي المتآكل . كانت ساحة الدار مظلمة كفم البئر . خطر لها أن ابنها عبد الكريم يتأخر في العودة ليلاً بشكل منتظم يثير الريبة . رأت النور مشعلاً في غرفة مدحت فسارت إليها . كانت متعبة ، تحس بثقل في نقل قدميها . تمنت لو كان بمقدورها أن تنام هي الأخرى على الفراش الوثير الدافيء قرب زوجها . لم يفهم أبو مدحت لماذا كانت تريد الذهاب إلى غرفة البنات . ظن أنها تحب أن تشاهد فيلم السهرة في التلفزيون .

أطلت برأسها في غرفة مدحت ذات الضوء القوي الأبيض . لم تجده فيها . سمعت صوتاً من الجانب الآخر للحوش :

– آني هنا . تريدين شي ؟

twitter @baghdad_library

التفتت بسرعة . لم تستطع روئية الشبح البعيد أول الأمر . كان بمواجهتها ، لا يُميز الا بصعوبة على الضوء الشاحب . كلمته :

– مدحت عيني ،شكو عندك بره ؟

– دا أتمشى . دا أتمشى .

– زين عيني ، اتمشى على كيفك . مو باردة شوية ؟

– لا . لا .

– زين . زين . لا تصير عصبي عيني .

خشيت أن تسأله عن أخيه وعن سبب تأخره في العودة كل ليلة ، انه لا يطيق الحديث الطويل معها رغم أنها تشعر شعوراً أكيداً بحبه لها . تطلعت إلى الشبح القصير المتحرك ببطء وهي تسحب قدميها على الطارمة الحجرية . ان فيه بعض صفات أبيها ؛ خاصة أعصابه المتوفزة ، وليحفظه الله من مصير كمصير أبيها .

طرقت أذنها ضجة أصوات مختلطة في غرفة ابنتها قبل أن تصل إلى الباب وتفتحه . كان الضوء في الغرفة الواسعة ، العالية السقف ، ضعيفاً كثيباً ، والحيطان قاتمة . رأت أمها وعمة مدحت جالستين على التخت الحديدي أمام التلفزيون . كانت ابنتها مديحة مستلقية على احدى القريولات الكبيرة قرب ابنتيها النائمتين . سمعت عمة مدحت تكمل حديثها :

– . . . بستاننا چانت ، هسه وين هاذا اللي يسموه الجندي المدفون ، من يم الجندي للشط ، وتمشين ويه الشط الراك الراك إلى حدود بيت السيد . هي بستان عيني لو زيزة ! الزمابل بضيع بيها اربع تيام .

– يا زمال ؟

توقفت العمة عن الكلام ، وبدا عليها أنها تزن سؤال أم حسن . استمرت :

– شنو يا زمال ؟ زمابل مال ذاك الوگت .

جلست هي على طرف القريولة جنب ابنتها مديحة فاستدارت هذه إليها . سألتها :

– ناموا البنات ؟

فهزت مديحة رأسها . كانت شاحبة الوجه ، في بشرتها اصفرار لا تخطؤه العين وفي ثنايا الشعر الأسود خيوط بيضاء لامعة . رأت مديحة تنظر بتمعن إلى عمتها ، فعادت تسألها بصوت خافت :

– تعبانة يمة مديحة ؟

فتنفست هذه بعمق وهزت رأسها . لم تفهم من ذلك شيئاً . كانت مديحة مرتكزة على كوعها ، واضعة وجهها في راحة يدها اليمنى . كلمتها :

– أشو عينج على عمتج ؟ دايخة من حچاياتها ؟

رأتها تبتسم قليلاً وتجيب :

– دا أتفرج على شعرها الأحمر . كل أسبوع ، ما تنسه تصبغه بالحنة . لويش هالوا هس ؟

التفت إلى أخت زوجها . كانت كومة عظام صغيرة مغطاة بكتلة كثيفة من الشعر الأبيض الملطخ بلون الحناء . لم تعد تكرهها بعد كل هذه السنين ، وكانت العمة تخاف منها وتتجنب مخاصمتها . بدا عليها أنها تنازلت أخيراً عن حقها في أخيها ! إلا أنها لا تزال متشبثة بأجدادها النبلاء ! ولسانها لا يهرم أو يتوقف حين تبدأ بالحديث عنهم :

– لا . لا . . . أبويه هوايه چان طويل الله يرحمه . أحنا ما طلعنا عليه . طلعنا على أمي . أمي چانت گصيرة الله يرحمها . طويل چان افراط . ينزل رأسه من چان يخش من باب الرهرب . ورجليه ، بعيني أشوفها ، رجليه تطلع من التخت من چان ينام بالسطح . وشلون جهامة ! شلون چهرة ! بدر ابو ارباطعش . وچه تگولين گرصة خبز . ومن يمشي يتمايل عيني . سيد اسماعيل بن حجي عبد الرزاق . خوما شقه . هدومه نيلي وساعته الذهب ترهج على صدره وتخش بالعين ، والفينة شوية صفح .

قاطعتها أم حسن :

twitter @baghdad_library

– ما چعت صفية ؟

سكتت العمة لحظات :

– ليش ساعة بيش ؟

– بعد ما وذن .

– يا وذان ؟

– وذان العشا .

– صايرة بركندة طابوري عيني ام حسن انتِ . وذان العشا صاح بيه من چانت هاي المگموعة دتغني على زعيمها المخبل بالتلفزيون گبل ساعتين .

– يمة آني شايفة تلفزيون ، سامعة تلفزيون .

لاحظت البسمة الخفيفة تعود إلى فم مديحة وهي تستمع إلى حوار جدتها وعمتها . لعل الساعة جاوزت العاشرة ، والا فان أمها لا تتحدث عن الطعام إلا إذا شعرت بالجوع . كلمت أمها :

– يوم إذا چوعانه اكو شوية جبن وخبز بالمطبخ ، انزل أجيبه ؟

أجابتها أمها ام حسن :

– لا عيني نورية ، شيتزلج أكوم ادور بلكي بقه شي من الكعك . كرومي الله ينطيه جاب لي او گية گبل يومين . خوش كعك ، مال السيد .

تكلمت عمة مدحت :

– أشو آني هم گلبي ساح . گومي عيني ام حسن ، أجي وياچ .

قامتا ثم سارتا ببطء تتمايلان ، تمسك احداهما بالأخرى . خرجتا وتركتا الباب مفتوحاً خلفهما . وصلتها نسمة خفيفة من نسمات ليل ربيعي منعش . كان السكون مطبقاً على البيت الكبير ، وكانت تحس بالتعب يخدر جسمها . رأت ابنتها مغمضة العينين فكلمتها برفق :

– مديحة ، يوم . گومي نامي إذا نعست .

فاعتدلت مديحة جالسة على الفراش ومسحت عينيها ثم غطت الصغيرتين النائمتين باللحاف جيداً . سألتها :

— أخذتج الغفة ؟ نامي عيني . آني هم رايحة أنام . عبالي‌اكو شي بالتلفزيون .

أجابتها ابنتها :

— هو هذا تلفزيون لو صخام ولطام . لو أناشيد وخطب ، او ماكو شي .

وأدخلت نفسها تحت اللحاف ثم سحبته حتى رقبتها . لم تدر أتستفسر منها الآن عما في ذهنها تجاه زوجها أم تترك ذلك لوقت آخر . أخبرتها بأنها لم تقل لابيها بأنهم رأوا حسين ، فلم تجب مديحة إلا بهمهمة غامضة . كانت تريد . عبثاً ، أن تستشف من ابنتها شيئاً ما عن خططها للمستقبل . لا فائدة . أحكمت تغطيتها والصغيرتين باللحاف وهي تهمس :

— مديحة بنتي . سمعي . انت ما تسوين شي إذا ما تخبريني بيه ، داتفهمين ؟ ما أريد الماي يمشي من جوه رجلي مرة لخ ، بنتي .

صمتت لحظات :

— نامت . لا حول ولا قوة الا بالله .

قامت وأطفأت الضوء ثم خرجت مغلقة الباب خلفها . لم تجد مدحت في الطارمة . كانت في الجو برودة خفيفة والسماء صافية . لا بد أنه استوفى حقه من المشي وعاد إلى غرفته .

طرقت أذنها أصوات أمها وعمة مدحت ترتفع بشكل غير اعتيادي من غرفتهم القريبة . ترددت قليلاً . لم يعجبها أن تتدخل بينهما . لكنها لا تحس بنفسها مرتاحة رغم تعبها . كانتا متربعتين . كل واحدة على فراشها . تقضمان الكعك بعد بلله من كأس ماء على الأرض قربهما . وكانتا . تحت النور الأحمر . تتكلمان في نفس الوقت وبحمية غير مألوفة . رأتها أمها حالما دخلت فوجهت الكلام إليها :

— هاي نورية . تعاي الله يخليج . شوفي حچايتنا هاذي .

هدأت العمة وشاغلت نفسها بالاكل . عادت أمها إلى الحديث . :

twitter @baghdad_library

ـ شوفي يمة نورية . مليحة مرة هذا الشيخ ابعگوبة .

قاطعتها العمة .

ـ يا شيخ ام حسن الله ينطيچ . علوچي على باب الله .

ـ هسه شعلينا . شيخ لو علوچي . فلوسه هواية والله مفضل عليه .

ـ اي . الله مفضل عليه ، لاكت هو مو شيخ عرب .

توجهت الأم بحديثها إلى أم مدحت :

ـ حچايتنا على مليحة ، ام عدنان . چم ولدعندهاوچم ابنية ؟

أجابتْ العمة بسرعة :

ـ تلث ولدوتلث بنات .

أيدتْها أم مدحت :

ـ أي تمام . حسي ويايه . عدنان الچبير وصگبان وسلمان . والبنات سليمة وفهيمة وبدعة . سليمة وفهيمة توم .

هتفت ام حسن بشك :

ـ ومنيرة ، يمة ؟ هاي المعلمة الحلوة ؟ مو بنت حليمة ؟

ضحكت ام مدحت وأرادت أن تجيب ، لكن العمة سبقتها :

ـ عيني ام حسن مخرفة . اكو وحدة ما تعرف بت بنتها ؟ منيرة مو بنت ام مصطفى ، أخت ام مدحت ؟

ـ اى صدك يا يوم . آخر شلون تخربطين بهيچي حچاية . منيرة ومليحة اخوات ، بنات اختي نجية ام مصطفى . ليش نسيتِ ؟

أجابت الأم :

ـ منو نسى ، يمة نورية ؟ اكو واحد ينسى چكرة ؟ لا گت هم بعيدين الله يسلمهم وصار لي چم شهر ما شايفة وحدة منهم . آني أريد أروح لبعگوبة بس شوية

تدفى الدنيا .

قالت العمة :

– گعدي بمكانچ أحسن . شيوديچ وشيرجعچ . هم هسه يجون على العطالة .

– منو ؟

– شنو منو ؟ منيرة وأمها غير ؟ قابل تريدين ام عدنان وچعويلها ؟

– لا عيني . هاي ام عدنان منو يريدها . صار لها چم سنة ما أحد شايفها . ملتهية تحبل وتچيب .

سارت ام مدحت ببطء وجلست على حافة فراش والدتها ام حسن ، ثم مدت ساقيها أمامها على الزولية . لم تكن مرتاحة في جلستها وكانت تحس بعظام جسمها في غير مكانها ، أعاد إلى ذهنها حديث العجوزين عن اختها وبنتيها ، شيئاً لم تعد تتذكره بوضوح الآن . كانتا مشغولتين بأكل الكعك المبلل بالماء وكانت تحاول أن تسترجع الأمر الذي أفلت من ذاكرتها قبل قليل ، حين سمعت أمها تكلمها :

– الباب دتندك نورية .

توقف فم العمة حالاً عن الحركة ، وبدا عليها الاهتمام . لحظات ، ثم قالت العمة :

– ماكو هيچي شي . منو يدك الباب بهالليل .

كررت الأم بهمس متردد :

– والله يمة آني أسمع الباب تندك كل وگت . أشو مرة يبين أگو طارش ومرة ...
أكملت العمة :

– تطلعين يا خنش .

– اي يمة ، أطلع يا خنش .

سمعن وقع خطوات يقترب من باب الغرفة . أطل مدحت برأسه وكلم أمه :

– الباب صار لها خمس دقايق دتندك . شنو كريم ما عنده مفتاح ؟

twitter @baghdad_library

جفلت وقامت من مكانها بعجلة . سمعت أمها تتكلم :

– ها عيني ؟ كل ما يجچي واحد تلطوا على حلگه .

قالت لابنها مدحت :

– شلون ما عنده مفتاح ! كل ليلة يرجع وما نحس بيه ، ليش الليلة يدك الباب ؟ انت شمدريك كريم يدك الباب عيني مدحت ؟

فأجابها وهو ينصرف :

– ما ادري . دا أگول . آني راح انزل أشوف منو بالباب .

تبعته مسرعة . كان يسير بخطوات لينة مخترقاً الطارمة الضيقة ومتجهاً نحو السلم . تملكها قلق مفاجيء وهي تجهد نفسها كي تلحق به . لم يكن أمراً مألوفاً أن تطرق الأبواب في مثل هذه الساعة من الليل ! وكان بودها أن تخبر زوجها . فكرت بذلك وهي تنزل درجات السلم بحذر . عادت الطرقات متوالية حينما كانا يتوسطان باحة الدار شبه المظلمة . كان قلبها يخفق بشدة وخطر لها عدة مرات أن لحسين علاقة بالأمر . لعله جاء يتفاهم معهم على طريقته الخاصة بعد أن عب قنينة عرق ! أشعل مدحت المصباح الكهربائي فوق الباب الكبير ، فرأت وجهه النحيل متصلباً متوتر الملامح . رن المجاز الضيق بصدى الطرق الشديد العالي وهما على بعد أمتار من الباب . هتف مدحت :

– منو ؟

فأجابه صوت عبد الكريم حالاً :

– آني . آني كريم .

ارتاحت نفسها لسماع صوت ابنها الثاني واستطاعت أن تتكلم :

– هاي شلون نكتة يا كرومي . تفززنا بالليل هذا ؟

كان مدحت يعمل يده في القفل دون كلام . بدت لها كتفاه ضيقتين على الضوء

الخافت ، فشعرت بحنان عظيم يتمازج في صدرها نحوه . كم يحبهم بسكون !

لم تلحظ شيئاً غير اعتيادي في هيئة ابنها عبد الكريم وهو يواجههما ثم يعتذر لفقدان المفتاح ويمضي أمامهما نحو الداخل . بدا صوته أكثر خشونة ، متقطعاً بعض الشيء ؛ وكان مسرعاً لغير سبب واضح .

تبعته وتأخر مدحت لقفل الباب . وجهت له الحديث طالبة منه أن يتمهل قليلاً في سيره ، لكنها لم تر منه أنه سمعها . وقفت منتظرة في باحة الدار الخافتة الضوء قرب أشجار الحديقة الصغيرة ؛ وكانت تنصت إلى خطوات عبد الكريم وهو يرتقي السلم . تعثر مرة أو مرتين ، ربما ثلاثة . لم تقل ذلك لمدحت حين جاء يسير صامتاً قربها . اخترقا الحوش ثم صعدا درجات السلم المظلم . سارت أمام ابنها وهي تجهد ساقيها كي تسبقه . كانت عازمة على أمر ما ، عرفه مدحت وقال لها متجهاً إلى غرفته :

— روحي شوفي شبيه انت بوحدچ . يمكن يرتاح أكثر

فهزت رأسها واندفعت نحو غرفة عبد الكريم المجاورة . كان ضوء الغرفة ساطعاً ، تزيده الحيطان البيضاء سطوعاً ؛ وكان عبد الكريم جالساً على سرير نومه دون سترة وهو ينظر بذهول واستغراب إلى بنطلونه ويديه . رفع عينيه إليها أول دخولها . أنبأتها نظراته بما يضطرم في داخله من قلق واضطراب . كان خائفاً ، مرتبكاً ، مستنجداً . سحبت بصرها بقعة كبيرة داكنة على القسم الأعلى من بنطلونه وأطراف ثوبه الأبيض . اراعتها نظراته وما انطبع على وجهه . اسرعت إليه فركعت قربه على الأرض :

— شبيك ابني كرومي ؟ شبيك عيني ؟

كانت ذراعاه ترتعشان ، ترتعشان ؛ هتف :

— دم ! هذا دم فؤاد . دمفؤاد هذا يوم .

ثم صرخ صرخة مجنون :

— دم فؤاد . فؤاد .

احتضنت ساقيه المرتجفتين دون أن تدري لماذا . ثم أخذت تنادي مدحت بأعلى صوتها .

twitter @baghdad_library

- ٢ -

كانوا في الايوان ، يتحدثون ويشربون الشاي ويتحدثون . وكنت ، على سرير مرضي ، أستمع إليهم . خمنت أنهم سيأتون لرؤيتي هنا . كنت أفضل أن ألبث مستمعاً إليهم دون أن أشاهدهم ، ولكن رؤيتها – كما أعلم – كانت تسرني . ولهذا بقيت منتظراً أن ينتهوا من أحاديثهم كي يأتوا إلي .

كانت الشمس تلقي بآخر أشعتها الحمراء على حائط الجيران العالي ، تحت سماء زرقاء . في أوائل حزيران ، اعتدنا أن نصعد لننام على السطح . اعتدنا أن نكون قد صعدنا منذ زمن ؛ منذ أواخر مايس . إلا أننا هذه السنة بقينا في غرفنا ، نكتفي بفتح النوافذ ليلاً . أعتقد أنني لم أرها منذ عدة أشهر ، خمسة أو ستة . منذ تعينت مدرسة خارج بغداد ، صارت أيام غيبتها تطول . وكنت أتمنى ألا أكون مريضاً هكذا ، ينتابني الدوار أثر أي حديث طويل ممل أو بعد قراءة صفحات قليلة . كان مرضي هو سببَ عدم اشتراكي في امتحان الدور الأول . لا بد أنها عرفت كل هذه الأمور عني . لا شيء يمكن أن يخفى طويلاً في هذا العالم . ثم ان المرض ليس من المستطاع تجنبه دائماً ؛ خاصة وأني لم ألق عناية كافية . إذ أن الحب لايعطي كل شيء ؛ وأمي – لذلك - لم تقدر على شفائي بحبها فقط . وهكذا لا أزال طريح الفراش لغير سبب ظاهر . أقبلوا نحو غرفتي . ان المرض إذا أخذ كحادثة طبيعية جسدية ، فانه لا يستعصي على الفهم والعلاج . دخلوا علي مسلمين . هي وأمها ومدحت وأمي ومديحة . أما إذا كان نتيجة لحاجة نفسية أو صدى لفكرة استحواذية ، فان النجاح في علاجه سيكون أمراً مشكوكاً

فيه جداً . كانت في ثياب سوداء تزيد من كثافة الكحل المحيط بعينيها الصفراوين . جلسوا حول سريري وسألوني عدة أسئلة لا أهمية لها . كانت لا تزال تضع العباءة على كتفيها ، وعلى وجهها الجميل كآبة ذكائها . كيف حصل أني فارقتها طوال هذه الفترة ! ثم رأيت القلق في عينيها . كانت خصلات شعرها الأشقر مطوية على جبهتها دون عناية وكانت تعبث بشفتها السفلى كل ما توقفت عن الكلام ، وكانت عيناها قلقتين . ذلك القلق .. ذلك القلق ، أين رأيته مرة، أين واجهته ، متى انتصب ، فيما مضى ، أمامي ؟

كنت أنظر إليها ، ذائباً في علاقتي بشعاع القلق هذا ، بروح القلق المنبعث منها . كانت منصهرة ، مثلي ومثله يومذاك ، بقوة لا انفكاك منها . وكنت أحس بهيئة فؤاد وملامحه الغامضة تحيطها وتحيطني وتربطنا إلى ذكراه القريبة .

كانت عيناه ، ذلك المساء الخريفي ، مثل عينيها ، تتألقان كآخر شعلة من الجمر : وكان يرتجف رغم الدفء ويغمرني بقلقه الفائض ، المنبثق من كل حركة صغيرة من حركات أنامله وشفتيه والتفاتاته السريعة . لم يبح لي بشيء عن باطن نفسه وما كان يحسه في تلك الأمسية من الخريف الماضي . كنت أتطلع إليه ، محاطاً بالغروب وبسماء لا اون لها في سطح مقهى (بلقيس) على شاطيء النهر . وكنت أراها هي أيضاً أمامي ، في صفرة عينيها الملتمعة سر يشابه سره . وكانت تحدثني ببعض الاضطراب ، وتسألني عن مرضي وامتحاني وكتبي وعما بي حقاً ؛ ولم أسمعها جيداً وهي تتكلم ، فشعرت بحرارة تندي جبيني . ابتسمت لها فأجابتني بشبح ابتسامة تغفر لي سهومي . لم أكن الشخص الذي تتوهمه ؛ انها تجهل الكثير عني خلال هذه الأشهر الماضية . لقد كنت مريضاً ، ولم يكن ذلك خفياً على أحد ؛ أحيا مرضي بوعي ولا أجد بديلاً عنه ؛ وهو الذي يقربنا لبعضنا . انه المرض الذي يجمعنا ؛ مرضي ومرضها . قاموا فجأة خارجين ؛ قطعوا سويعات وجودها المضيء في غرفتي ؛ بسبب والدتي . لاحظت ، كما يبدو ، حالة الضعف والانهيار التي أصابتني .

خرجوا وتأخرت منيرة لحظات خلفهم . وقفت قرب الباب مستديرة تحوي. كانت

twitter @baghdad_library

شاحبة السمرة،لا يتضح لي من خطوط وجهها غير تلك العينين الصفراوين . تمنت بجد أن ينتهي كل شيء بخير . كانت عباءتها تكشف عن مرتفع ثديها الأيسر ، ومن موجات صوتها الآسي فهمت أنها كانت تتمنى الخير لنفسها أيضاً .

فرغت الغرفة بعدهم بشكل غريب ؛ ولبثت مضطجعاً على فراشي أتساءل مرة أخرى وليست الأخيرة : لِمَ أنا مريض إلى هذا الحد ؟ ثم ، وأنا بين طيات الظلام الرمادي الذي تركوه لي ، كنت أهفو إلى الخروج خلفهم وإلى أن أصير منهم . كانت صورتها تحبذ لي أن أكون صحيحاً محباً للشمس ، وكنت — رغم ذلك — عاجزاً عن القيام للضغط على زر الضوء الكهربائي !

رأيت من نافذتي الطويلة قطعة من السماء بيضاء ناعمة ، في زرقة خفيفة ؛ وحيطان الجيران السوداء تحتها كئيبة راكدة ، لا معنى لها . قمت من فراشي ببطء وسرت ثم وقفت في اطار الباب . لم أكن بالغ الضعف كما تصورت . لا بد لي إذن أن أقبل المرض على حقيقته ؛ لا مبالغة ولا تجاهل صبياني . انفتحت السماء فوقي فاستراح لها نظري . لم يكونوا في الايوان وسمعت أصواتهم تأتي من غرفة عمتي ، وهم يتكلمون بحيوية لم تكن لديهم عندما كانوا معي . انهم يشعرون بمرضي أكثر مما أشعر به أنا ، وهم يعيشونه أحياناً — أمي على الأخص — بعمق . ولكن هذه المشاركة لم تعزني يوماً ، مع أنها يجب أن تفعل .

خرجت سها من غرفة عمتي ركضاً فلمحتني في وقفتي تلك فبدا عليها الذهول قليلاً ثم استنار وجهها وهي تخبرني بحماسة عن قرار الجماعة بالصعود إلى السطح للنوم منذ هذا المساء . كانت عصفوراً مغرداً . توقعت ، منذ مجيء منيرة ووالدتها ، أن تنتقل العائلة إلى الأعلى ؛ إذ لم يكن من السهل ايجاد مكان ملائم لاثنين بسرعة .

سررت بفكرة الصعود إلى السطح كأنني سأشارك فيها ، إلا أن دواراً خفيفاً تملكني آنذاك فأرجعني إلى السرير وجعلني أعيد التفكير في المسألة .

. . . كان ضابط البوليس يتقدم خطوتين أو ثلاثاً ثم يقف غير بعيد عن الكرسي

الذي قيدت إليه ؛ يقف كالطاووس بعينين ملتهبتين ويتخذ شكل أحد ضباط الجستابو مرة وهيئة رجل من رجال محاكم التفتيش الاسبان مرة أخرى ؛ ثم يبدأ بالكلام معي محدقاً بعينيّ :

– يجب أن تعلم أن واجبي يحتم عليّ أن أقبض عليك بتهمة القتل والاهمال والخيانة .

ثم يؤدي التحية الهتلرية التي كانت تخيفني أكثر من كلماته. كانت أطرافي متثلجة متصلبة والعرق يتصبب من جسمي ؛ ولم أكن مقيداً ولكني أحسست أني كذلك . وجاءني مرة أخرى :

– يجدر بك أن تفهم أن واجبي كموظف شريف وكمواطن ، يفرض عليّ أن ألقي القبض على كل متهم بالقتل والاهمال والخيانة . ماذا تظننا نفعل في هذا العالم ؟

تحية غريبة . عودة ثالثة :

– لا تدع لذهنك أن يختلق مسألة أخرى غير توقيفك بتهمة القتل . . والاهمال.. والخيانة .

كان يعلق صورة مدورة صغيرة في صدره ؛ ولقد ألح في الاشارة إليها بعد أن انتهى من كلامه،ولم يؤد التحية هذه المرة . وكانت الصورة تقترب بسرعة من عيني في لقطة سينمائية مقربة . عند ذاك بدأت أصرخ ؛ عند ذاك فقط بدأت أصرخ وأصرخ. كانت الصورة تخطيطاً مشوشاً مثل آثار النمل على التراب ، ولكنها تبرز بشكل عميق واضح : وجه فؤاد في لحظاته الأخيرة ...

كان بودي أن أصرخ وأن أبكي نافثاً حرقتي مع أنوار الفجر الأولى . جلست في فراشي أنظر إلى الفضاء بين النافذة وبيني . كنت أسبح بعرق بارد لزج وأنفاسي سريعة مضطربة يضيق بها صدري . أمسكت بقطعة القماش التي وضعتها أمي قريباً مني ومسحت عرقي ، ثم قمت مرتجف الأوصال أحاول الخروج من الغرفة . أنعشني بعض الشيء هواء الفجر البارد ، فأخذت أسير ببطء قاصداً الثلاجة في الايوان . شربت قليلاً من الماء المثلج ثم غسلت وجهي ببقايا الكأس . كانت الدنيا ساكنة ، ساكنة كالقبر المفتوح. لم يكن هنالك وجود للبشر معي . أمسكت بالمحجر واتكأت عليه . لماذا تحدث لي مثل

twitter @baghdad_library

هذه الأمور المريعة ؟ كنت أريد أن أمرض كما يمرض الناس . وأن أشفى كما يشفون . ولكن الفكرة هي التي تفترسني لا المرض . الفكرة المجهولة الواحدة ؛ الوحش الذي يركب كتفي . عدت إلى غرفتي . كنت مستنفذاً ، خاوياً ؛ فتمددت على الفراش . رأيت السماء من خلال الباب المفتوح، تترقرق مثل مياه الغدير . لن تشرق الشمس قبل ساعة أو أكثر . أني وحيد هكذا منذ مدة لا أتذكر بدايتها . فان لم يكن للزمن معنى في هذه الشؤون ، ألست محكوماً إذن بأن أنتهي كما أنا الآن ؟ ولن أكون مذنباً ، ولكني لن أكون بريئاً أيضاً . أن ما بي لن يعرفه سواي . ولعلي الوحيد الذي يمكنه أن يبحث . فإذا كنت أخشى الألم والحزن والحسرة وتأنيب الضمير ، وهي الأشباح التي لا تفارقني في منامي على الأقل ، فاني سأمهد بشكل أكيد لحكم أشد قسوة لن يتأخر صدوره عليّ .

اشتد النور على صفحة السماء . ليت أعماق النفس تُضاء هكذا ! أنها ليست مثله ، منيرة . لا علاقة في الشكل بينهما ؛ ولكن الروح ، ولكن الهالة التي تحيط بهما . كان يسير بمحاذاة الرصيف ، قامته النحيلة منتصبة مع انحناءة بسيطة في الظهر ، وخطواته متمايلة قليلاً والضوء الأصفر يحدده من كل الجهات . انصرفنا ، تلك الليلة ، مبكرين على غير عادتنا . كان البيت الكبير فارغاً ، وقد اعتقدت لفترة من الزمن ، بعد أن رأيتها تخرج من الغرفة وتشير إليّ إشارة خاصة فهمت منها أن الأمور سارت بشكل طبيعي أخيراً ، اعتقدت أنه سيجد راحة أو شيئاً ما يشبهها . رأيت وجهه أول ما أطل من الباب . كان الشحوب الشديد فيه يختلط بصفرة وسمرة شديدتين ؛ والعينان المحترقتان ، فارغتين منطفئتين . جرّني معه بعجلة . لم يرد أن يراها ؛ وأحسست بأصابعه باردة لزجة لا قوة فيها . سبقني في الخروج وخطا عدة خطوات على الطريق ثم توقف واتكأ على سياج الدار المجاورة . اقتربت منه قلقاً مأخوذاً . ظننت أنه مريض أو يشعر بغثيان ويريد أن يتقيأ . لم يكن باستطاعته ذلك . كان يرتجف ؛ كل جسمه ، حتى أرنبة أنفه . أمسكت به دون كلام . أحطته بذراعي ، وكان ساكناً مثل عصفور يموت . أحطته بذراعي شاعراً بألم يحرق قلبي ، ولم أنطق بحرف رغم أني لم أفهم كل

نيء . كان ذلك وقت الصمت ، حينما لا تعود للكلمات حاجة . ومرت اللحظات ، مثل سنوات العذاب الطويلة . كنا شيخين قضى عليهما مصيرهما . رأيته يغمض عينيه ثم يطلق آهة كنشجة الباكي وينسل مبتعداً عني سائراً بمحاذاة الرصيف . وهكذا ، سائراً بمحاذاة الرصيف ، سأبقيه في حياتي . لم يكن ميتاً آنذاك ، كان مثل الزهرة النضرة المغطاة بندى الفجر . ولن يجدي أحداً أن يتلاشى من الوجود . لذلك سأبقى على حق ما دمت مانعاً الفناء عنه ، عن تلك الومضة الرائعة ؛ أنه أملي في أن أعيش وأن استمر على العيش .

كنت اقرب إلى الهدوء وأنا مطروح على فراشي أتسمع إلى زقزقة العصافير الأولى على شجرة الزيتون العقيمة . شعرت أن حلي – ان كان هنالك حل – لمشكلة حياتي . هذا الحل الأعرج ، لن يقاوم السقوط طويلاً . أن البث منتزعاً نفسي من كل شيء ، أحاول أن أتجمد خلال الزمان على سرير المرض ! وكل ذلك . قبيل شروق الشمس وغروبها !

قطعت خطوات أول النازلين من السطح عليّ لحظات التأمل هذه . كان وقعاً خفيفاً لاقدام خيل إليّ أنها أقدام والدتي . انها تسير بلين هكذا ، كأنها تخشى أن تجرح احساس الأرض تحتها ! أهي ينبوع دائم للحب ؟ ولعل القلق عليّ هو الذي أيقظها في هذه الساعة المبكرة من الصباح . كان باب السلم أمام غرفتي ، وكنت أتوقع أن تبادر إلى رؤيتي حالما تجتاز الطارمة الفاصلة بيننا . لم يبق على شروق الشمس غير دقائق قليلة ؛ وكانت السماء البلورية تضيء الحوش والطارمة والحائط القديم بفيض نورها الناعم . رأيتها لحظة نزولها ، لحظة بزوغها من باب السلم . وهي تخطو بخفة الطائر خطوات بطيئة ، ثم تقف مستندة الى المحجر قربها . كانت نحيلة في ثوبها الأزرق الطويل ، وقد برزت عظمتا كتفيها وبدا قسم من رقبتها وصدرها أبيض ناصع البياض . اتكأت على المحجر بكلتا يديها واخفضت نظرها نحو الأسفل ؛ وحينذاك بدأت في نفسي لحظات سحرية لا حد لجمالها . كنت مذهولاً ، مبهوراً برؤيتها على هذا الشكل وفي نفس هذا

twitter @baghdad_library

الوقت . لم تكن هي منيرة ، ابنة خالتي التي أعرفها . كانت دفقة نور في حياتي الضائعة ، أنها حزني وماضيّ المفجع ؛ وهي حبي ولهفتي وتعاستي ومرضي . كانت ساكنة في وقفتها ، تبدو كأنها كائن علوي مقبل من عالم أثيري . رفعت يدها وأزاحت عن جبينها خصلة من الشعر الطويل ، ثم أخذت تدير نظرها بتمهل في أنحاء الدار . مرت على غرفتي مروراً عابراً . تملكني هلع من فكرة رؤيتها لي . قد يدنسها وجودي أو حتى رؤيتي . يدنس حالها ، وضعها البعيد عن وضع البشر . انها تتعبد ؛ تتأمل في نفسها وفي أمر ألهي لا علاقة لي به من قريب أو بعيد . كنت ضئيلاً وأنا أتطلع إليها تنتهي من تلك الصلاة الفجرية ، ثم تمضي ببطء سائرة كالطيف نحو غرفة عمي . شعرت بتعب بعد اختفائها ، ولم يخطر لي أن أخرج لرؤيتها . مرت على وجهي الحار نسمة باردة خفيفة ، فأغمضت عينيّ . لعلي كنت محموماً أو موشكاً على انتكاسة مرضية ، لكن قلبي كان يموج بعواطف غريبة ، ضاقت بها نفسي . أني أعاود عيش تجربة مؤلمة سابقة ؛ حياة فاجعة مضت . لم أفقد فؤاد ، ولم يغب عن عالمي. كذلك ، لم أخنه ، لم أخنه لحظة . مطلقاً . انه يحيا ، بشكل ما ، في هذه المخلوقة ذات الأبعاد المبهمة التي لم آلفها . انه يجذبني إليه من ليلي . أنا أحس به يجذبني ؛ أنه يجذبني .

كانت عيناه تلتهبان ذلك المساء الخريفي وهو جالس أمامي إلى الطاولة المتربة القذرة في سطح كازينو بلقيس . صعدنا إلى الأعلى كي نتحاشى الجالسين البلداء . رأيته يرتجف انفعالاً على غير العادة ، فراعني ذلك منه . لم يكن حاد العواطف هكذا ؛ ألفت منه التأني والاقتناع بنتائج التفكير الطويل . إلا أن قلبه خُطف منه ، كما حدثني ، دون أن يريد أو يعلم . كانت ابنة جيران سكنرا داراً متواضعة قرب بيتهم الكبير شهرين أو ثلاثة ، ثم مضوا . كانوا من أولئك الناس الذين تلاحقهم ، طوال الحياة ، أخطاؤهم . وكانت أمها بغير زوج . قيل عن الأب أنه كان ضابطاً انكليزياً أحب الأم ، الاعرابية الجميلة ، فتزوجها وأنجبت له ثم سافر مع فرقته ولم تستلم منه إلا بضع رسائل ، انقطع بعدها كل شيء . ولم يكن أخوها قادراً على توجيه هذه العائلة نحو أي شاطيء آمن ، فوقع على كاهل الأم أن تدبر أحوالهم . كان آنذاك في السابعة عشرة ،

ولم تجاوز هي الخامسة عشرة . حب أطفال ، ولكنه لم يمت . حدثني عنها بعد تردد . كان الأمر شاقاً عليه ، مخجلاً بشكل من الأشكال .لم يكلمها مرة ، ولم يرد ذلك ؛ إلا أنه بقي يتعقب أثرهم خلال السنوات الأربع التي تلت هجرتهم من الجوار . كانت كل شيء بالنسبة له ؛ رمز العالم والحياة التي يحلم بها ؛ ولم تكن تعلم شيئاً عنه ، ولا أراد هو منها أن تعرف شيئاً عنه .لقد طهرته تلقائياً بوجودها في نفسه وأشعلت فيه شعلة لا تموت . وكان بوده أن يرفض المقولات التي ورثها عن آبائه وأجداده والتي ترسم خطوطاً لبدايات الحياة ونهاياتها ؛ كان بوده أن يقف على قمة توهجه بحبها ، وألا ينتهي معها أي شيء ؛ أن يدوم كل شيء دوام الحياة . وكان يتعذب باستمرار ؛ لأن أموره لا تبدو طبيعية ولا مقبولة . أراد أن يكتب لها وأراد أن يكلمها وأراد أن يتزوجها ! ثم أراد بعد ذلك أن ينساها وأن يتركها وشأنها ؛ وكان ذلك أمراً منطقياً ومناسباً لافكاره . ما فائدة تعقبها هكذا ومراقبة الدور التي ينتقلون إليها دورياً ورصد تحركاتها ودخولها وخروجها ! ان مصيرها لا يتجه وجهته ؛ ولم يكن أمام تلك المخلوقة العزيزة ، غير الحياة الآسية ذات الاعماق المظلمة ، وكانت تنتظرها مثلما كان يفعل هو .

كان يخفي عينيه ، تلك الأمسية ، براحتيه ، صامتاً . رأيت السماء الحمراء تملؤها غيوم داكنة تسير بسرعة نحو الجنوب . لم أقطع صمته . كنت عاجزاً عن استيعاب أي شيء . حدثني مرة أنه أضاع أثرها منذ أكثر من سنة وأنه قلق عليها دون أن يدري لماذا . لم تكن أمامها غير المأساة ؛ وكان مثل محكوم بالاعدام لا يعلم متى يصدق الحكم عليه وينفذ . قال فجأة دون أن يرفع يديه عن وجهه ، أنه رآها صدفة في أحد البيوت المشبوهة .

امسكت بيديه وأنزلتهما . كنت بحاجة أن أرى عينيه كي أصدق أقواله . كانتا حمراوين مبللتين . ابتعد بنظره عني وضغط على أصابعي . شعرت ، وفواد قربي والسماء مغطاة بالغيوم والهواء البارد الخريفي يحمل رائحة النهر ، بجو غامض مأساوي

twitter @baghdad_library

يحيطنا . لم تكن في صوته نبرات حادة ولا رنة بكاء ، وهو يسرد علي كيف رآها وكيف جلس منهوك القوى ساعة يتأملها بذهول . ولم تلتفت إليه أو تعيره اهتماماً خاصاً . ألم يختر بشكل من الأشكال ، ألا يدخل حياتها ؟ ثم ما لبث حتى رأى أنه يجب أن ينصرف . كان الجلوس أمامها هكذا جحيماً حقيقياً لا يحتمل . ولم يجد الجرأة للعودة إليها بمفرده ؛ وكانت ليالي القلق والتمزق تزداد طولاً عليه . وأدركت من نظرته إليّ ومن خطوط الأرق السوداء المحيطة بالعينين المتعبتين رغم توهجهما ومن صمته ومن يديه المرميتين باستسلام على الطاولة ، أنه يناديني ويستغيث بي كي أعيش أيام حياته الشاقة هذه . ولم أحسب ، لم أحسب قط ، أن هنالك ، في نهاية الليل ، شيئاً يسمى الموت . ولذلك ربتُّ ، بقلب خفيف حقاً ، على يده الحارة سائلاً عن موعد ذهابنا إلى ذلك البيت .

كنت أعتقد ، حين دخلنا الهول في الدار الكبيرة وجلسنا منتظرين قدومها ، أنه قد انتهى إلى نتيجة مع عواطفه ووضع كل ما يتعلق بأوهامه الماضية وتخيلاته الخاصة عن الحب وغيره ، وضع كل شيء في مكانه الذي يجب أن يكون فيه . كانت نحيلة ، شديدة النحول ، في حركاتها ثقل ولا يجذب في وجهها غير عينيها ذات الأهداب السوداء . جلستْ قريباً منا . كنت أحدق فيها محاولاً معرفة السر في نوع النقاء الغامض الذي يحيطها ويغلف ملامحها وإيماءاتها ، حينما جذبت سمعي أنفاسه المتسارعة . رأيت في وجهه الشاحب المتوجه نحوها ، عمق التمزقات التي تعمل في نفسه ؛ وكانت أصابع يديه متشابكة فيما بينها . لم تتطلع لأحد وهي تعدل من حال شعرها الأسود القصير ، وكانت شرايين رقبته المستديرة تنبض بقوة مع أنفاسه المتلاحقة . لم يكن هنالك أي أمل في سعادة بشرية لمثل هذين المخلوقين . ان الأفق مسدود تماماً . ولعل هذا الطهر الذي بدا لي يحيطها ، إنما هو من تأثير كلامه عليّ وعواطفي المخلصة نحوه . إلا أني لا أعيش منهما غير حواشي مأساتهما ، وكنت أستطيع القول أنها فتاة تافهة المحتوى والمصير . لم يكن ذلك ليضيرني ؛ ولهذا كنت أتساءل بهدوء عن الحل . ولكن تلك الليلة كانت قصيرة ؛ إذ لم يتركنا أحد الحمقى نستشعر وضعنا هذا كما نريد، فأشار إليها ؛ ولم يكن

أمامه ، وأمامي ، غير الهرب . وهكذا بدأت الحلقة المفرغة . أيام من الأحاديث والتعبير عن الهواجس والقلق ثم زيارة ليلية يقطعها قرار غير مبرر . لم يصبني التعب ولا الضجر ، ولكني صرت أعاني عجزه وخجله ورعبه أحياناً . ثم بدأ الشعور المميت باللاجدوى والخزي يزحف اليّ . وكانت هي تلك الليلة ، حينما أردت .. حينما خطر لي خاطر فقط ، ولم أرد أن أفعل ذلك حقيقة ؛ كانت تلك الليلة تلبس ثوباً أخضر خفيفاً وتشوب الخفة حركاتها ونظراتها . ظننت لحظة أنها تستخف بنا ، وكنت أهم بأن أقول لها شيئاً ما ، لعله كان عتاباً أو زجراً أو دعوة .. لكني لم أقل شيئاً على كل حال . رأيته يمسك بيديها برفق ويمضي بها . ولن أنسى نظرته الخاطفة إليّ وهو يختفي وراء الباب معها . أيمكن أن يدرك كنه شيء لم يقع ؟

وكنت أود أن أسأله بعد ذلك وهو يسير أمامي ، تلك الليلة ، بعد خروجنا ، عما أراد أن يقوله لي . وشعرت وأنا أراقب شبحه يبتعد عني أن عقدة ذنب غامضة تلتف حول قلبي . تعثر مرة فناديت عليه . كان يسير بمحاذاة الرصيف ، قامته منتصبة نحيلة ، يحدها الضوء الأصفر وخطواته متمايلة . ناديت عليه مرة أخرى ؛ فرأيته يرفع ذراعه اليمنى إلى أعلى ليدلني أنه سمع ندائي ، ثم أنزلها إلى وجهه . هل كان يبكي ؟ أسرعت نحوه .. ولكني لم أصله . مرقت السيارة بجانبي أولاً ؛ وفي خلال لحظات انفجر العالم علينا بكل شروره . سقط تحت العجلات فجأة . لم تزل به قدمه ، ولكنه لم يرد أن يموت . لِمَ يجب أن يموت ؟ بأي شيء إذن يمكن تبرير هذا الحادث أو تفسيره ؟ زلت به قدمه أو تعثر في سيره ؛ ماذا يجدي كل هذا ، ما دام الأمر قد انتهى به تحت العجلات الوحشية ؟ وسحبته من الشارع ووضعت رأسه على ساقي ثم أمسكت بيده أودعه ، منعزلين عن العالم ، وداعي الأخير . كانت آلامه شديدة ، ولم يعرفني إلا بعد هنيهات . لمحت في طرف عينه دمعة كبيرة سالت على خده ، ولم يستطع الكلام . هنالك لحظات في حياة الانسان ، لحظات ليس غير ، تطول وتعمق لتتشكل بعدها الحياة بشكل آخر لا محيص عنه . كان العالم الضاج حولنا ، بعيداً بعد النجوم ؛ وكنت أتتبع أنفاسه المختنقة رويداً رويداً ، بقلبي الواجف . لم تكن حياتنا معاً قد اكتملت ،

twitter @baghdad_library

ولم أرد أن أفقده وأنا وسط أزمتي الخاصة . وهكذا كانت شهقته الخافتة وارتماءة رأسه ، إيذاناً ببدء عذابي . سحبوه من بين ذراعي محملاً بيأسي وأخذوه إلى حيث لم أره . وبعد ذلك ، لم أعلم وأنا جالس على تراب الرصيف فارغ الذراعين ، هل بكيت من أجل تلك العينين الذاهبتين إلى الأبد، أم جزعاً من أيام الشك المريع المقبلة ؟

فوجىء حسين برؤيتي جالساً في زاوية من الباص ، وأراد أن يدفع الأجرة لكني سبقته . لم أره منذ سمعت بعودته من الكويت . كانت لحيته النابتة ، سوداء لامعة ، وشعره مضطرباً ورائحة العرق تفوح من فمه . عدت من الكلية والساعة تقترب من الثانية عشرة ظهراً وأخرني شراء بعض الكعك لجدتي قبل أن أصادفه في الباص . سألني عن صحتي وعن دراستي وعن الأهل ، وكان واضحاً أنه يتجنب الاقتراب من الموضوع الذي يشغله . لم يكن موقفنا مريحاً ، ولم أرد أن نتكلم عن أشياء حساسة لا أستطيع أن أدلي برأي قاطع فيها . أخبرني أنه يزور مدحت في الدائرة بانتظام ، وأنه أراد عدة مرات أن يأتي لرؤيتي وأنا على فراش المرض . كانت رائحته كريهة حقاً رغم أن الحر لم يكن شديداً ؛ وكنت لا أريد أن أدخل في أية تفاصيل عن أي شيء . أرهقتني ، وأنا في دور النقاهة ، زيارتي للكلية ، وأزعجني ما رأيت وسمعت فيها . لاحظت عليه شروداً أثناء الحديث يجعله يدير نظره نحو الخارج ويتابع عناوين الشارع المتلاحقة ببطء . بدا لي واعياً بكل تعقيدات علاقاتنا وتصرفاتنا ومواقفنا من بعضنا ؛ وكانت امارات هم أكيد وقلق مرسومة بوضوح على وجهه الشاحب . وحينما قمت من مكاني أريد النزول من الباص ، بهت قليلاً ثم رد على سلامي بكل فخفخة ممكنة .

اشتريت عدة قطع من الكيك لعمتي وجدتي ، ثم بدأت مسيرة العودة إلى البيت خلال شارع الكيلاني . كنت أحس بظلام في نفسي بعد رؤيتي لحسين . لم يسل عن ابنتيه أو عن مديحة ، ولعله كان يعتقد بأنني لست الشخص الصحيح للكلام معه عن مثل هذه الشؤون .

كانت الشمس حارة والشارع طويلاً فارغاً مما ينسي الانسان نفسه،وكنت متعبـاً لا يواجهني إلا الانزعاج والقلق . لم أفهم معنى أن يطالبوني في الكلية بتقرير طبي مصدق ، يؤيد مرضي ويبرر غيابي عن الدوام ، رغم ما أبدوه من لطف نحوي أشعرني ببلادتي وبعزلتي . كنت متعباً ، في الروح والجسد ؛ أحس بالعرق يتصبب مني أكثر مما يجب . نسيت أن أمر على أبي في دائرته كما أوصتني والدتي . لم يوائمني الذهاب إلى الكلية هذا اليوم . لا أزال مقطوع الصلة بعالم الآخرين . ومن شعوري بمثل الصدأ في داخلي وبابتعادي عن كل شيء ، تحاشيت اثنين من أصدقائي . اربكني هذا التصرف . أن شعوراً — أم لعله فكرة ؟ — أو خليطاً من الأفكار والمشاعر تنتابني وأنا بصدد شخص أو موقف ، كي تفسر أو توضح جوانب غير مرئية من الشخصية أو الموقف . هل أتفوق بميزة ما على أمثالي ؟ ميزة قراءة ما بين سطور الحياة ، ما بين سطور بعض البشر؟ منيرة مثلاً أو أمها خالتي . ولكنهم مقتنعون — مثلي — بأني شخص مريض ، ميزتي الوحيدة هي أني لا أملك كل صفات الانسان الصحيح . عندما تشرب الشاي ، بعض الأمسيات في الايوان قرب غرفتي ، تمسك الاستكان بأنامل رقيقة وترفعه ببطء إلى شفتيها.أحياناً ، حينما ترتكن عن عالمنا أو تظن ذلك، يتوقف الاستكان قبيل وصوله الشفتين . وأرى عينيها الصفراوين تغيبان عني وتغيمان ، ثم تبدوان طافيتين على أمواه غريبة . بعدها ينحني الراس إلى جانب وتتحرك خصلات الشعر الملفوف ، ثم تعود الأنامل الرقيقة واستكانها إلى الانخفاض دون أن تمسه الشفاه . أهي في مناجاة مع نفسها، أم مع مخلوقات لا توجد ، لم توجد ؟

كانت باحة الدار خالية وأنا أخترقها سائراً ببطء نحو السلم . سمعت أصوات الجماعة ترتفع من غرفة عمتي . استرحت قليلاً على فراشي ولم يخطر لي أن أبدل ثيابي . كانت هي في ذهني ؛وكنت قد لاحظت في ارتداء البيجامة ابتذالاً لا أستطيع أن أنساه وأنا معها . حملت كيس الكعك وقصدت غرفة عمتي منتظراً أن أسمع مجمل أخبار البيت خلال الصباح . كانت مضطجعة على سريرها ، تضع يدها على جبينها وأمها جالسة على الأرض قربها . اعتدلت وسحبت طرف ثوبها رغم اعتذاري وقولي بأني سأنصرف ؛ ثم ابتسمت في وجهي ابتسامة مضيئة لم تترك لي مجال الاختيار فبقيت واقفاً. هللت عمتي وجدتي للكعك الذي جلبته لهما وتناولتاه بلهفة . كانت أمها ساكنة فارغة

twitter @baghdad_library

العينين بشكل غير اعتيادي . لم تكن معنا ، ولم تكن قادرة على الفرار بعيداً . جلست على طرف سريرها . كانت ثيابها بسيطة غامقة . هكذا حالها منذ قدومهم . سألتني عن صحتي وعما وجدته في الكلية وهل كان الحر مزعجاً ؛ وانتبهت إلى عمتي تتكلم في نفس الوقت وتلح علي في معرفة سبب تأخري بالعودة. القيت عليهن بخبر مقابلتي لحسين علني أستريح ، فلم يحدث ذلك صدى . كانت شاحبة الوجه ، يبدو عليها الضعف . رأيت أمها تمسك بيدها مرتين فتسحبها منها ببعض الحدة . سألت عن أختي مديحة فقيل لي بأنها ذهبت إلى المدرسة في عمل خاص وأخذت معها الصغيرتين . كانت عمتي لا تزال تضج بأسئلتها الموجهة نحوي عن سبب تأخري في الكلية وهل امتحنت أو درست وماذا حصل لي هناك . التزمت الصمت أثناء ذلك كله ، مثل أمها ؛ وشعرت لغير سبب ظاهر أن في كلام عمتي ما يمسهما . كلمتها بلطف سائلاً عن صحتها وكيف قضت نهارها فسمعت أمها تتنهد . أسرعت جدتي ام حسن لاجابتي ، فأخذت تتحدث بحكاية عدنان ومجيئه إلى دارنا صباحاً أثناء غيابي . كانت تتكلم وهي تنظر بحذر إلى عمتي ؛ التي قاطعتها بسرعة وطلبت منها أن تهتم بموعد الغذاء لأنها تحس بالجوع الشديد . أزعجني الموقف ولم أفهم معنى حكاية جدتي ومن هو عدنان هذا . قمت وسألت عن أمي ، فلما قيل لي أنها في المطبخ تعجلت في الخروج تخلصاً من الجو الثقيل. ابتسمت لها ولمحتها تعود إلى ضجعتها وأنا أغادر الغرفة .

كنت أشعر ببعض الاعياء والقلق خلال نزولي السلم متجهاً إلى المطبخ . وجدت والدتي في زاوية مظلمة من المطبخ ، جالسة باستسلام تدخن سيكارتها . لم تهش كثيراً لرؤيتي ؛ وأعادت علي الاسئلة المملة عن الصحة وأسباب التأخر في العودة وماذا حصل لي في الكلية . كانت صفحة وجهها البيضاء متغضنة كلها . لبثت واقفاً دون كلام لحظات ثم سألتها عمن جاء أثناء غيابي . نظرت إليّ نظرة حادة استغربت لها وسحبت نفساً من سيكارتها ثم نفثت الدخان من فمها وأنفها . أجابت بصوت جامد ن مليحة أخت منيرة أرسلت ابنها الكبير عدنان ليسأل عن خالته منيرة ويخبرها بأنهم يطلبونها في المدرسة وبأن عليها العودة إلى بعقوبة .

بقيت أنظر إليها دون أن أفهم بشكل محدد ، المعنى الذي أرادت أن تقوله لي . عدنان ، بعقوبة ، المدرسة ؛ بم يمكن أن تعنيني هذه الأشياء ، أنا المتعب القلب

والنفس ؟ وكنت أنتظر منها إيضاحاً أو كلمة ما . لم تقل والدتي شيئاً آخر ، لا بفمها ولا بعينيها ؛ وأحسست ، منتظراً ذلك المجهول منها ، أني لن أقوى على الوقوف طويلاً . كانت أطرافي ترتجف قليلاً والحر ، في ذلك المكان المخلوق ، يدق رأسي . لن يهمني بعد الآن أي شرح أو توضيح . ان العالم ، بأسبابه الخفية ، يمرضني ؛ وأنا أشعر أن ليس بمقدوري معاركته بهذا الشكل الملتوي . قامت والدتي ، حينما رأتني أعاود مسح جبهتي ، فأمسكت بذراعي وأجلستني على كرسي جلبته من طرف المطبخ . لا أدري ما أصابني آنذاك ، لكن رغبة في التقيؤ كانت تتصارع في أسفل معدتي وتجعل العرق البارد ينبجس من جبيني . دفنت رأسي بين راحتي وأغمضت عيني المضببتين . كنت قصبة فارغة يهزها الغثيان . ألن أترك إذن ، طوال حياتي ، بهدوء ؟

سمعت خطوات والدتي تبتعد بسرعة . هبت عليّ نسمة خفيفة . تنفست بعمق عدة مرات فشعرت ببعض الارتياح وأنزلت يدي . كنت وحيداً ، في احدى زوايا المطبخ الحار. قمت إلى حنفية الماء القريبة فغسلت وجهي ثم نشفته بمنديل وعدت أجلس مرة أخرى . تناهت إليّ نداءات أمي ثم ارتفعت ضجة الباب الداخلية الثقيلة وصوت الصغيرة سناء تهتف باسمي . ناديتها فدخلت المطبخ بتردد . كانت متوردة الوجه منثرة الشعر . أخبرتني أن شخصاً عجوزاً يسأل عني . كان يسأل عن موقع بيتنا في بداية الطريق فصحبنه معهن ، هي ووالدتها وأختها . أقبلت مديحة أثناء ما كانت ابنتها تلثغ بحديثها الغريب . قالت أن شيخاً تعتقد أنه والد فواد قد جاء يريد رؤيتي . بقيت لحظات أتطلع إليها دون أن أجيب . لم يكن الأمر معقداً ، لكن ذهني ونفسي المنهوكة لم تكونا على استعداد لفهمه أو تقبله . كررت مديحة عليّ السؤال ثم أضافت بأن من الممكن أن يخبروه ، إذا أردت ، بأني لست في الدار . سمعت أمي تؤيدها، من بعيد ، وتدعوها أن تقول له ذلك . حينذاك وبشعور مفاجىء بالفزع قفزت من الكرسي وأغذذت الخطى خارجاً من المطبخ ، مخترقاً المجاز الطويل في حالة تشبه الحلم .ألست أنا الذي كان عليه أن يفتش عن مقابلة مثل هذه ؟ ألست أنا ، الذي يُسحب إلى الظلام ويُحرم من الحياة ،

twitter @baghdad_library

من يجب عليه أن يبحث عن كلمة أخرى من فواد ، كلمة أخيرة تنبثق بعد أن أغلق عينيه .. تأتيني كالشمس من وراء القبر ؟

كنت في خضم دوامة من المشاعر الفائرة والافكار ، أحس بنفسي كأنني أغوص إلى أعماق سحيقة ، وأنا أقترب من الباب الخارجية الكبيرة . كان واقفاً على مبعدة ، مستنداً على الحائط بظهره ؛ شيخاً قارب السبعين من عمره ، منحني القامة . فوجئت بهيئته . لم أتذكره يوماً على هذه الصورة . كانت غضون وجهه عميقة متهدلة ، والشعر الأبيض يغطي وجنتيه . مرت علينا هنيهات لم يرني فيها . كنت أمامه ، وكانت عيناه الصغيرتان ضائعتين في أفق بعيد . سلمت عليه ، فعدت به إلى عالمنا . اقترب بخطوات قصيرة ثم مد يده فصافحت العظام والعروق الزرقاء والجلد الناعم . كنت متعلقاً بفمه وبعينيه . انه الرمز الذي يصوغ حياتي مرة أخرى . سألني بصوت مرتجف عما إذا كنت عبد الكريم حقاً ، صديق ابنه فؤاد ؟

هززت رأسي . عصر قلبي ذلك الاسم الذي لفظه بشكل عجيب . خيل إليّ أن هذا الشيخ المتهدم قد أرسل من قبل ابنه ، وأنه ما جاء يحدثني إلا لعلمه بأني لست بعيداً عن تلك الروح الغائبة . لبثت أهز رأسي حتى رأيته يعاود الكلام ثانية . قال أنه لا يتذكر أنه رآني معه ، رغم ان فواد كان ابنه الوحيد . ثم سألني فجأة ألم أكن معه حين وفاته ؟

اتكأت على الحائط خلفي . كنت ساكتاً ، يابس الفم . لم أتوقع سؤاله ، لم أفهمه . شعرت أنه يريد أن يستحضر شيئاً ما ، صورة ما ، أثناء حديثه عن ولده . أعاد عليّ أنه يخشى أن يثقل علي بحضوره وكلامه ، ولكنهم أخبروه في المستشفى عن أشياء غير معقولة ؛ معاناته الطويلة واحتضاره . تلامعت عيناه بغشاوة خفيفة من الدموع وهو يحدق في وجهي منتظراً جواباً ، كلمة مني . كان يتعذب وهو يتكلم ، وكان يحتضر هو الآخر . بقيت صامتاً، ساكتاً ، غير موجود معه . كنت جالساً على الرصيف المغبر واضعاً ذلك الرأس العزيز في حضني . ثم أخذوه من بين ذراعي ، في منتصف الليل تحت النجوم ؛ وهمد كل شيء من حولي ولفتني غيمة سوداء . وعدت ، تلك الليلة ،

إلى الدار ولبثت الحياة تسري فيّ حتى وأنا أصرخ طوال أيام بعد ذلك . كنت أحيا بعد أن عانقت الموت .. موته . لم يحتضر . لم يتعذب . لا يمكن لهذه الأمور أن تلتصق به . لقد مات بين ذراعيّ . انطفأ مثلما ينطفئ النهار .

كانت دموعه تفيض من العينين الحائلتين وهو يتطلع إلى ذراعيّ الممتدتين إلى أمام ؛ ولم أدرك بِمَ كنت أهذي وإلى أي شيء أشير إلا حين أمسك بهما . ارتجفت . لعلي كنت مريضاً ولعلي أحسست بحضور الموت بشكل ما . كانت ثنايا فمه متقلصة ودموعه تسيل بين غضون وجنتيه . لم تخرج الكلمات من بين شفتيه ورأيته يغلق عينيه عدة مرات هازاً راسه الأشيب بما يعني شيئاً ما . كنت متراخي الأطراف ، وقد انزلت ذراعيّ إلى جانبي وبقيت أراقبه بسكون . لا شيء عندي يمكن أن يواسي هذا الشيخ الحزين . أني صامت محترق القلب مثله .

فك راحتيه عني وتراجع خطوة أو خطوتين ثم مكث يتطلع إليّ هنيهة ، استدار بعدها ومضى منصرفاً دون كلام . سار ببطء منحني الظهر قريباً من الجدار . كنت ما أزال أرتجف ، غير قادر على الثبات طويلاً . لم أناده ؛ وخطر لي أنه لا يعلم بأني قد سقطت مريضاً منذ ذلك اليوم . عدت داخلاً الدار ، مخترقاً المجاز الضيق بخطوات غير متوازنة . وعلمت ، بعد ذلك ، بأني قد هويت اثر ارتكائي على الباب الثقيلة في نهاية المجاز المظلم . لم أكن دائخاً ، ولكني أتذكر جيداً بأني لم أكن راغباً في معاودة العيش كما كنت .

twitter @baghdad_library

ــ ٣ ــ

جلست عمة مدحت في فراشها على الأرض ، تراقب باهتمام الصغيرة سناء من خلال الشباك المفتوح وهي تتجه إلى غرفتهم سائرة بحذر ، تحمل صينية الفطور بين يديها . كانت العصافير تزقزق على أغصان التينة العجفاء بعيد شروق الشمس ونداء الحمام يأتي بين حين وآخر ؛ ولم يزل الهواء بارداً . ترى ماذا أرسلت إليها أم مدحت ؟ أن الجوع يخزها منذ ساعة أو أكثر . حبذا لو احتوى الفطور على القيمر ومربى المشمش والخبز الحار . رأت سناء تقف في اطار الباب ناظرة إليها بتساؤل . أشارت لها أن تدخل وهمست :

ــ تعالي يمة سناوي . خشي على كيفج .

هزت الصغيرة رأسها وارتقت عتبة الغرفة العالية . رأتها تنظر إلى القريولة التي تتمدد عليها منيرة . نزلت من السطح فجراً واضطجعت مغطية جسمها بشرشف خفيف. همست عمة مدحت مرة أخرى :

ــ على كيفج سناوي . على كيفج يمة .

كانت سناء تسير ببطء نحوها . اقتربت ووضعت الصينية بحذر أمام الفراش على الأرض . رأت في الصينية استكانين شاي وقرص خبز يغطي صحناً ثم طاسة صغيرة مليئة بالزيتون الأسود . رفعت الخبز بسرعة فتبدت لها تحته شرائح من الجبن الأبيض وبعض المخضرات . سألت عمة مدحت سناء التي رأتها تجلس قرب حافة الفراش :

ــ لويش استكانين ؟

ــ واحد ألج وواحد لبيبيّ ام حسن . اشو بعدها نايمة ؟ أگعدها ؟

ــ لاعيني ، علويش ؟ شكو عدنا باچة ، هريسة ؟ خليني دا آكل براحة شوية ؟

وبدأت بتحريك الملعقة في استكان الشاي الأحمر . لا مناص من أن تأكل ما يُقدم إليك . هنا وبمجهود بسيط يمكن للانسان أن يموت جوعاً . لفت شريحة الجبن وبعض

المخضرات بقطعة من الخبز ثم قضمت منها لقمة قبل أن تكلم الصغيرة بفم ممتلىء :

– أكلتِ أنت ؟

فهزت سناء رأسها بالايجاب . كلمتها مرة أخرى :

– امچ طلعت ؟

– لاع . هسه راح نطلع أنا وياها وسها .

– وين تروحون ، يمة ؟

– للمدرسة .

– شكو عندكم بالمدرسة ؟ أشو منيرة عافت المدرسة وجت لبغداد .

– ماما عندها شغل يمكن .

– شغل شنو ، هسه مو عطلة ؟

– ما أدري .

– شلون حچي هذا سناوي يمة .

ثم بدأت تحضر لقمة أخرى وهي تتطلع إلى حيث ترقد منيرة . كان شعرها مبعثراً على المخدة ومنحنيات جسمها تتبدى تحت الغطاء . أقبلت هي وأمها ، على غير انتظار، منذ عدة أسابيع وسكنتا معهم . لم تبقيا في بعقوبة غير أشهر قليلة .عاشتا هناك مع أختها مليحة أم عدنان . مليحة هي أخت منيرة الكبرى ، تزوجت وهي صغيرة من سركال اغتنى فجأة .

كانت تلوك الخبز في فمها من جهة إلى أخرى . تعينت معلمة في بعقوبة فذهبت مع أمها للسكن فيها . كان المفروض أن تمكثا فترة أطول . لكنهما قطعتا اقامتهما وجاءتا منذ أسابيع إلى بغداد . لا أقارب لهم في بغداد غير خالة منيرة ، أم مدحت ، لأن أخاها مصطفى في الشمال وزوجته وأولاده مع اهلها . سمعت سناء تهمس :

– عمة ، أگعد بيبيتي من النوم ؟ أنتِ راح تخلصين .

أشارت بيدها أن لا ، ورشفت من الشاي الدافىء رشفة طويلة :

– شكو عندچ وياها ؟ دخليها تستراح ، يمة . خاليچ كرومي وينه ؟ سمعت راح يطلع .

twitter @baghdad_library

– أي عمة ، راح يروح للكلية . يمكن ديزين وجه هسة .

هذا خبر حسن . ستوصيه ليشتري لها أوقية كعك من محل السيد . ستعطيه نقوداً ليشتري لها كعكاً طازجاً . عبثت في صرة صغيرة أخرجتها من تحت المخدة ثم أخرجت درهمين وأعادت الصرة إلى مكانها . كلمت سناء :

– هاي مية فلس سناوي . أنطيها لخالج كريم يشتري لي أوگية كعك مال السيد .

ركضي عليه گبل ما يطلع . حبوبة .

تناولت الصغيرة قطعتي النقود وانسابت بخفة إلى الخارج . عادت عمة مدحت إلى اكمال فطورها . لم تبق غير شريحتي جبن هزيلتين وكسرة خبز محروقة . من المستحسن أن تتوقف عند هذا الحد . كانت أم حسن تنفخ الهواء من فمها وهي متكومة على فراشها غارقة في نوم عميق . ستطلب مزيداً من الجبن ؛ هذا شيء أكيد . ولن تبخل عليها به ابنتها ام مدحت . أما هي فان طلباتها لا تلقى أي جواب . شربت بقية الشاي وأعادت الاستكان إلى مكانه ، ثم هتفت وهي تمسح فمها :

– ام حسن . يا أم حسن . أشصار عليج هالنوم ، نوم أهل الكهف .

لمحت سناء ترجع مسرعة . تعثرت عند دخولها فاصطدمت بالباب . رفعت منيرة رأسها فتوقفت الصغيرة في منتصف الطريق محرجة . سألتها منيرة :

– ها ، سناء ؟ شبيج ؟

– العفو ابلة منيرة . عثرت بالباب . صباح الخير .

ابتسمت لها منيرة :

– صباح النور .

وعادت إلى الرقاد . أشارت عمة مدحت إلى سناء بأن تأتي قربها . كلمتها حالما جلست :

– ديري بالج من تمشين سناوي . طلع خالج كرومي لو بعده ؟

– بعد ما طلع . يگول ممنون آني لعمتي .

ربتت على ذراع الصغيرة بارتياح ثم خاطبت منيرة :

– عيني منيرة .

رفعت هذه رأسها وجلست نصف جلسة على الفراش وعلى وجهها بعض التقطيب والتساؤل . استمرت عمة مدحت :

– أمج وين راحت الله يخليج ؟

– نزلت يم خالتي ام مدحت .

كانت عيناها كحيلتين وشعرها جزلاً منتشراً حول كتفيها . التفتت العمة إلى سناء :

– گعديها لام حسن سناوي . الچاى راح يبرد يمة .

فتحركت الصغيرة مقتربة من فراش جدتها . رأت منيرة تجلس ثم تدلي بساقيها إلى الأرض . كان ثوب نومها رقيقاً يكشف عن رقبتها وبعض صدرها وذراعيها . انها جميلة بلا شك . ماذا تريد من مجيئها ؟ هي وأمها جاءتا كاللاجئتين . فمان زائدان يجب أن يطعما . وهذا المسكين ابو مدحت . أخوها . يكد ويكدح طوال النهار ، وسيزداد كده وكدحه . ولكنها جميلة ، هذه الشابة . كل شيء فيها ينادي الرجال . ينادي الأزواج . الزواج ! انه ليس بعيداً عن ذهنها ، شأنها شأن كل الشابات في هذا العمر . كانت منيرة جالسة بسكون تنظر إلى الأرض ويداها متشابكتان في حضنها . هل هنالك شيء آخر غير الزواج؟ ولعلها تفكر بمدحت . من يدري . عمره ووظيفته وأهله ، كل ذلك يجعله زوجاً مناسباً . ولن تجد أحسن منه . ولكنها، بشكل من اشكال ، تبدو فاقدة الاهتمام بأمور كهذه . كأنها تعيش في دنيا أخرى . من يدري ، لعل هذه وسيلة جديدة لاقتناص الرجال . كل شيء مسموح به في هذه الأيام . انتبهت إلى أم حسن تستيقظ وتتحاور مع سناء بصوت خافت . بقيت تراقب منيرة . رأتها تتثاءب وتخفي فمها بكفها، ثم تمصرت فبرز ثدياها قليلاً . كانت نحيلة الجسم تميل بشرتها إلى السمرة، وتضيء في وجهها كالمصابيح عينان طويلتان . لن يصعب الأمر عليها ، أمام ذلك المخلوق المختل الأعصاب . أحست بسناء تمسك ذراعها برفق وسمعت ام حسن تغمغم :

twitter @baghdad_library

– ماكو رحمة ولا اكو شفقة . لو يموت الواحد من الجوع . يركصون بچفيتين . هاي حال ؟

همست سناء :

– بيبي تگول هذا الجبن ما يكفيها للربوك .

لبثت صامتة . لمحت أم حسن تميل بجسمها وتمد يدها تحت الفراش ثم تستخرج كيساً متهرئاً من الورق الأسمر . أمسكته براحتها ، ورأتها تنظر إليها من طرف عينيها . كلمتها :

– انتِ ام حسن ليش ما تعرفين شلون أكل أيد زولنا ؟ وين أكو بسلات وفضالة ، يلموها و گبل ما يذبوها بالزبالة ، أيدزوها ألنا . ليش انتِ غشيمة الله يخليج ؟

سحبت ام حسن استكان الشاي بصمت وهمهمت وهي تحرك الملعقة فيه :

– الله ينتقم من القوم الظالمين .

ثم أخذت تعبث بكيس الورق الأسمر ورأتها ، بعد هنيهة ، تمسك بقطعتين من الكعك بين أصابعها . كان ذلك آخر ما تتوقع . لقد نفد الكعك منذ شهر أو أكثر وبقيتا محرومتين منه بسبب مرض عبد الكريم . والآن ، ها هي ام حسن تحرك يدها فيهبط عليها الكعك من السماء ! سمعتها :

– الله ما يگطع . أيه .

وغمست قطعة الكعك في استكان الشاي وهي لا تزال تنظر إليها من طرف خفي . قامت سناء وخرجت وهي تبتسم . كانت تشعر ببعض الحنق وهي تكلم ام حسن :

– منين لج هذا الكعك ، يمة ؟

لم تجبها . شاهدتها تدخل قطعة الكعك في فمها ثم تبدأ تلوكها بشكل قبيح . ازداد حنقها :

– لويش هالفصل لعد وانت مدسّرة شغلتج ؟

توقفت ام حسن عن المضغ قليلاً ثم بلعت اللقمة الكبيرة وشربت رشفة شاي بعدها

وقالت :

– راح يطلع الربوك عليّ زقنبوط هالمصباح .

وعادت بسكون إلى غمس الكعك في الشاي .

همت بالاجابة ، لكنها لمحت عبد الكريم ، خلال الشباك المفتوح ، وهو يخرج من غرفته ويسير ببطء مخترقاً الطارمة الكبيرة . كان منحني القامة قصير الخطوات . تمنت لو لم تره ام حسن ؛ لو أفلت من رقابتها ، كي يمكنها أخيراً أن تستأثر بالكعك الذي سيشتريه لها . التفتت إلى منيرة . لم تزل جالسة على السرير ، تتطلع هي الأخرى إلى ابن خالتها . أنه أصغر منها سناً ، لم يتخرج بعد ، ولقد أخره المرض عن الامتحان . كلا ؛ أنه لا يصلح لها زوجاً ، وهي لا يمكن أن تخطىء في هذا الشأن . ومهما بدا من توثق العلاقة بينهما فان ذلك أمر طارىء . كانت منيرة تتطلع إليه بنظرات ساهمة ، كأنها لا تزال نائمة ، ويداها مشتبكتان في حضنها . لا يمكن أن تخطىء في مثل هذه الأمور .

سألتها

بج عندها طلعة اليوم عيني منيرة ؟

رأتها تخرج من ذهولها بحركة عنيفة من رأسها ، وخيل إليها أن صفحة وجهها قد ازدادت احمراراً :

– شنو ؟ شنو عمة ؟

بيم كانت تفكر هذه الحمقاء ؟ هل تظنه يصلح زوجاً لها ؟ أعادت سؤالها :

– أمج ما راح تطلع اليوم ؟

– لا . لويش ؟

كانت جامدة الصوت ، في اجابتها جفاء وعدم ارتياح . ردت عليها :

– هيج والله . ردت أشوفها . بلكي تصعد شوية لاخ ؟

قامت منيرة فجأة واتجهت نحو الباب :

twitter @baghdad_library

– آني رح انزل أگول لها .

رأت عظمتي كتفيها بارزتين ، تضفيان على الجسم الفتي ضعفاً نسوياً . كانت تسير بخفة وسرعة . لم تكرهها . أرادت أن تتيقن من صحة أفكارها عنها ، فقررت أن تزيد من مراقبتها لها . التفتت إلى ام حسن ، فوجدتها متكئة على مخدتها وهي تقضم شيئاً في فمها ، رامية بنظرها بعيداً نحو الشباك . كلمتها :

– ما تعب حلگچ من الأكل ! دبس عد .

فأدارت ام حسن عينيها بسكون إليها وتوقفت حركة فكيها :

– صايرة المهداوي على راسي ؟

ثم استدارت ببصرها متظاهرة بعدم الاهتمام وعاد فكاها إلى حركتهما الرتيبة . أجابتها بحنق :

– ويگولون عليها مخرفة . گاعد بالسفينة وكاسر عين القبطان . ها ، يابه ؟

توقف الفكان لحظات ثم عادا إلى الحركة .

كانت الشمس قد أوشكت أن تصل الشبابيك وموعد الغذاء لا زال بعيداً . لا بأس من اغفاءة قصيرة . لا شيء مهماً يمكن أن يحدث في هذه الفترة . تمددت على الفراش مستديرة بوجهها نحو الغرفة واضعة كفها اليسرى تحت صفحة خدها . كانت ترى ام حسن ساكنة ، هامدة قربها . لعلها انهت أكلها أخيراً . أطبقت جفنيها وحاولت ألا تفكر بشيء معين . لكنهم لم يدعوها تغفو كما يجب . كانت تفتح عينيها حين يخيل إليها أن أحداً دخل غرفتهم فيواجهها وهج الشمس الآتي من الشبابيك . رأت منيرة تعود مرتدية فستاناً غامقاً فتقف تمشط وتتزين أمام المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط . حركات آلية تمسد بها الشعر المتلامع الطويل . استعدادات لا متناهية . ثم جاءت أم منيرة بعد ذلك وجلست على الأرض قبالة أمها، ام حسن . بدأتا تدخنان . سمعت ام حسن ، التي كانت تراها بغموض ، تغني بصوت خافت :

من ايديهم من ايديهم رحنا من ايديهم
ما تنفع الحسرات رحنا من ايديهم

تلك المخرفة ! وكانت منيرة وامها تبتسمان ، كأنهن لا يشعرن بها تريد أن تنام !

ثم رأت منيرة تخرج بعد قليل وام حسن تصفق مع لحنها الذي تؤديه بصوتها المتلاشي . كان الضوء أبيض قوياً لا يطاق والسكون مخيماً على البيت . أغمضت عينيها . لم يضايقها غناء ام حسن ولا تصفيق يديها العظميتين وشعرت أن الغفوة لن تفلت منها هذه المرة .

. . . كانتا تتحاوران دون أن تسمع كلماتهما؛ تتقاذفان بالجمل القصيرة والاشارات وبما تخفيه من رعب وذكريات . منيرة مستندة على الحائط قرب السرير ، تمسك بحديده الأسود الصدىء وهي شاحبة الوجه تتسع عيناها بشكل غير اعتيادي وتتلامعان مع حركات شفتيها السريعة ؛ وأمها تقف على مبعدة من الباب .

أزاحت عمة مدحت كفها عن أذنها ورفعت رأسها عن المخدة قليلاً . كانت منيرة تلهث مع الكلمات :

– . . . علويش ؟ ماكو عندي شيء وياه . دتفتهمين ؟ ماكو عندي شي أبدا .

رفعت أمها ذراعاً في الهواء :

– ابن اختج وجاي من بعگوبة . شيگولون الناس آخر ؟

بكلمات بطيئة تكاد تموت على شفتيها . تطاير الشرر من عيني منيرة ومن هيأتها ومن الاصبع الذي رفعته في وجه أمها :

– لا تحچين هالحچي . لا تگولين منو هو ولا تگولين الناس . ما عندي شي وياه ولا وياه الناس . دتفتهمين ؟ گولي ، دتفتهمين لو لاع ؟

ساد السكون لحظات . خيل إلى عمة مدحت أنها تسمع دقات قلبها المختنق . لو استمر الحديث فترة قصيرة أخرى لأمكنها أن تعرف كل شيء . ترامت منيرة على السرير . جلست بهدوء ثم انطوت على نفسها شيئاً فشيئاً ؛ احنت رأسها ووضعت يديها في حجرها ، فتهدل الشعر مع انحناءتها واخفى وجهها . شبكت أمها كفيها وبدا البؤس لأول مرة يطفح على تقاطيعها . كانتا ، الأم وابنتها ، شقيتين بدون شك

twitter @baghdad_library

رن ، من الطابق الأسفل ، صوت ام مدحت تنادي :

– نجية ، يا نجية .

رفعت منيرة رأسها . كانت عيناها يابستين ووجهها شديد الشحوب . كلمت أمها :

– خالتي دتصيح عليج . نزلي ، گولي آني مو هنا .

استدارت ام منيرة وارتفع نداء ام مدحت ثانية :

– عيني منيرة ، يا منيرة .

أجابت أمها وهي تخرج من الغرفة :

– زين . زين . آني جاية ام مدحت .

استمرت ام مدحت تهتف :

– عيني نجية . هذا عدنان ديلج هواية ، ما أدري شكو عنده . نزلي الله يخليج شوفي شبريد . لا ديقبل يحش ولا ...

ثم ضاعت كلماتها مع همهمة أم منيرة وهي تسعى للنزول .

عادت منيرة إلى انكفائها على نفسها ، كأنها مكسورة الظهر . لم يخطر لها أن تكلمها. كان بودها أن تتسمع لهما مدة أطول . هذا الطارق المجهول هو عدنان إذن . عدنان ابن مليحة . مليحة أخت منيرة . مليحة أم عدنان . لعله جلب لهما أخباراً غير سارة . عاشتا هناك فترة طويلة ، وقد يعودان إلى بعقوبة إذا لم تستطع منيرة أن تنتقل إلى بغداد . لا مورد لهما يعيشان منه غير راتبها الضئيل . مدرسة جديدة ، تخرجت منذ ثلاث سنوات فقط . أخوهم الكبير ، مصطفى ، ضابط في الجيش ، ولكنه متزوج ، إضافة إلى أنه الآن في الشمال . عائلة فقيرة لا تاريخ لها يعرفه الناس . ولا تدري عمة مدحت حتى اليوم كيف حصل أن تزوج أخوها واحدة من بنات هذه العوائل . يقولون أنها القسمة والنصيب . ومع ذلك ، فان ام مدحت لم تكن فتاة رديئة الخلق لحسن الحظ . لا يمكنها أن تكون هكذا ، خاصة تجاهها هي . ان للأصل العريق تأثيراً على أمثال هؤلاء

الناس ؛ ويستحسن ألا ينسوا ذلك .

كانت الغرفة مضاءة بانعكاسات أشعة الشمس على الجدار الأبيض العالي . أضجرها هذا التظاهر بالنوم . لم تكن تسمع أو تعلم شيئاً عما يجري في الأسفل ، وكان ذلك أمراً ممضاً غير مقبول . تحركت في فراشها ثم اعتدلت جالسة . انتبهت حالاً إلى مكان ام حسن يخلو منها . فبعث ذلك فيها القلق وأنساها نفسها فهتفت :

– هاي وين راحت ام حسن ؟ ما تگدر تركد بفراشها عيني هالمخرفة .

رفعت منيرة رأسها . بدا عليها الاندهاش وهي تنظر إلى عمة مدحت :

– شنو عمة ؟ شنو ؟

كانت نصف منحنية ، تشتبك يداها في حجرها . تطلعت إليها عمة مدحت :

– وينها بيبيتج ام حسن ؟

– ما أدري عمة . يمكن نزلت . لو راحت للحمام .

– يا حمام عيني منيرة ؟ هسه وكت غسل راس ؟

– لا عمة . العفو . يعني للخلاء .

– أمج وينها ؟ أكو خطار ، لو شنو ؟

بدا بعض الاضطراب على وجه منيرة :

– أمي ويه خالتي ام مدحت. ماكو أحد . ماكو أحد .

كانت عيناها صافيتين رغم انزعاجها ، وشعرها يترامى بخصلات لطيفة على كتفيها . لم تكن هي نفسها تلك الفتاة الشرسة التي زجرت أمها قبل دقائق . سمعت وقع خطوات خفيفة ثم رأت ام حسن تمد رأسها من فتحة الباب :

– منيرة عيني . تعاي الله يخليج صعديني هالدرجة . متت عيني .

أسرعت منيرة فأمسكت بذراعي جدتها ام حسن وجذبتها إليها فارتقت الدرجة العالية ، ثم سارت معها إلى الفراش وهي لا تزال ممسكة بها . كلمتها عمة مدحت :

twitter @baghdad_library

– وين چنتِ ام حسن ؟

كانت تسير ببطء وقامتها منحنية وهي تلهث بشدة :

– يا الله . يا محمد . يا الله . عيني الله ينطيچ مرادچ منيرة . آخ . يا الله .

جلست على الفراش وهي تهز رأسها بين الشهيق والزفير وتنفخ الهواء من فمها . عادت منيرة إلى محلها . سألتها مرة أخرى :

– اگولچ وين چنتِ ام حسن ؟

أجابتها بين الأنفاس المتلاحقة :

– انطيني مفكة . بالكنيف چنت . وين چنت ؟ شكو عندچ ؟

صمتت لحظات وهي تراقب منيرة تقوم وتخرج من الغرفة . ثم كلمت ام حسن :

– انت اشو ما دتتحچين ، شبيچ ما تگوليلي ؟

ثم اردفت :

– آني عبالي نزلتي جوه . هذا عدنان ابن مايحة جاي طارش من بعگوبة . ما ادري شكو عنده ، بس الجماعة انخبصوا هذيچ الخبصة .

رفعت ام حسن عينيها :

– عدنان ؟ يا عدنان ؟ ابن الشيخ ؟

– ابن مليحة . علوچي ابوه مو شيخ . ما ادري شكو عنده ؟

– آني هم ما ادري عيني . خليني بحالي . كرومي ما جا ؟

أثار سؤال ام حسن عن عبد الكريم استغرابها . سألتها :

– لويش ؟ لا . ما جا بعد .

– بلكي الله يهديه ويجيب وياه شوية كعك .

تحفزت عمة مدحت في جلستها وسألت بصوت عال :

– شنو ، شنو ؟ لويش ديجيب لچ كعك ، يمة ؟ عالحاضر .

التفت إليها ام حسن ، غير باد عليها أنهم تفهم :

– دا اگول بلكي الله يصحيه . الله اكبر . ماكو رحمة قابل .

ثم استدارت بنظرها مستاءة وهي تهمهم :

– عيني الدنيا راح تنگلب . دتصيح عليّ عبالچ ما كله مال أبوها . صوچ ، ذنب .

همت أن تشرح لها ما حدث ، إذ لم تشعر برغبة في الدخول بمعركة كلامية قبيل الظهر ، إلا أن قدوم منيرة وأمها أسكتها . كانتا منهوكتي القوى . اضطجعت منيرة على السرير حالاً وجلست أمها أرضاً على حشية صغيرة . وبقيتا هكذا صامتتين . كل شيء يجري بسكون معهما . راقبتهما ملياً . سمعت ام حسن تكلم ابنتها ام منيرة :

– منو اكو جوه ، عيني نجية ؟

– ما كو أحد .

بدا على أم حسن القلق وعاودت الكلام وهي تنظر إلى عمة مدحت :

– شنو ماكو احد ؟ الغدا منو راح يحضره لعد ؟ آني صار لي ساعة افادي سايح .

لبثت ام منيرة تنظر إليها بجمود ، دون أن تجيب . تكلمت عمة مدحت :

– انت ليش تصيرين لجوچة . ما دتشوفين منيرة ما لها خلك ؟

اسرعت ام منيرة تقول :

– منيرة كلشي ما بيها . شوية دايخة .

– لا ، عيني دشوفيها ، ما لها خلك . باوعي وجهها أصفر مثل الكركم . شكو عنده عدنان جاي عليكم ؟ أشو ما افتهمنا هو لويش جا . الله يرضي عليه ، حتى على بيبيته أم حسن ما خش سلم .

اعتدلت منيرة بسرعة ، جالسة في سريرها . كانت صفراء الوجه بشكل ظاهر وتحت عينيها دائرتان داكنتان . هتفت تكلمها بصوت حاد غير مرتفع :

– آني مو مريضة . كلشي ما بيه ، وانت عمة لا تصيرين فضولية هالشكل .

كانت عيناها تشعان غضباً مكبوتاً وبدأ صوتها يرتفع قليلاً :

– ماكو عدنا شي نضمه عليكم . لاكت انتو لا تدخلون انفسكم بكل شي . أنتو

twitter @baghdad_library

ما الكم علاقـة بنا . روحو اسألوا ام البيت ، منو جا وعلويش جا . لا تحچون ويايه ولا تدخلون بشغلي . آني ، خلوني على صفحة . دتفتهمون ؟ آني ما عليكم بيّ . ما عليكم بيّ .

كان صياحها مذهلاً مهيناً ؛ صدم عمة مدحت وأحزنها . لبثت تنظر إليهما ، إليها وإلى ام حسن ، لحظات ؛ فأدارتا عيونهما عنها . كانت تقاطيع وجهها شاحبة متصلبة ، ولم يبد عليها أنها على وشك البكاء . لمحتها تعود إلى اضطجاعها بعد قليل . كانت أمها ساكنة ، تدخن سيكارتها كأنها لم تسمع شيئاً . رأت ام حسن تنظر اليها فقالت لها بصوت خافت مرتجف قليلاً :

— حچينا فد شي غلط ام حسن ، يمة ؟

هزت هذه رأسها عدة مرات وأجابت هامسة :

— آني شعليه عيني . انت ما جعتِ بعد ؟

— خليها صنطة . شلون ما جعت ! نفسي دتلعب من الجوع . صيحي على ام مدحت بلكي المرك لا حك . ناكل شوية خبز حار ومرك . شنسوي عيني ، الله ما يقبل هيچي حكم على عباده .

— وين بيّ حيل أصيح آني . گلبي سايح فد نوب .

ثم اختلست ام حسن نظرة من طرف عينيها إلى منيرة وأمها وعادت تشير بيدها اشارة تدل على اليأس .

كانت الغرفة ساكنة ، وخيط من الدخان الملتوي يرتفع من سيكارة ام منيرة . لم تدر عمة مدحت عما كان يمكنها أن تفعله ، وهل جانبها الصواب حين تركت منيرة تتكلم معها هكذا دون اجابة ؟ لقد انكشفت لها اليوم صفحة مجهولة من حياتهما ! وعقد لسانها احساس غامض بأن شيئاً مكسوراً ، غير معتاد ، في حياة هذه الفتاة هو الذي جعلها ترميهما بكلماتها الحادة .

تنهدت منيرة تنهدة طويلة ثم استنشقت الهواء بقوة ؛ فارتفع صدرها ، عالي النهدين ، وانخفض ببطء . كانت ترى ساقيها ، صقيلتين تميلان إلى البياض ، وطرف ثوبها يجاوز الركبتين .

وجهت السؤال إلى أم حسن :

– ام حسن ، ساعة بيش الله يخليج ؟

– عربي لو على وكت الحكومة ؟

– على وكت الحكومة عيني .

– ما أدري .

– عربي ، لعد .

– هم ما أدري .

لبثت تنظر إليها ، غير متأكدة أكانت تمزح في هذا الوقت العصيب أم أنها تخرف بين الحين والآخر حسب مزاجها . كانت أشعة الشمس قد ابتعدت عنهم ومالت إلى الجهة الأخرى ، وكان الصمت يلف البيت كله . لقد جاوز الوقت منتصف النهار وليس في الأفق ما ينبىء بأن هنالك من يعد الغذاء . أتراهم سيعاودون تجربة ذلك الانتظار المرير ، انتظار عودة مدحت وأبيه من الدائرة ؟

قطعت سلسلة هواجسها خطوات في الحوش تبعها اغلاق الباب ، فانصتت حابسة أنفاسها . أهو عبد الكريم أخيراً ؟ ركزت نظرها على مدخل السلم . ستتبين خلال لحظات ما إذا كان قد جلب لها الكعك أم لا . لم يظهر على الجالسات معها أنهن سمعن شيئاً . كان يسير بخطوات بطيئة مقوس الظهر ، لا يبدو عليه أنه سعيد بحمل كيس الكعك الضخم . اجتاز الطارمة الكبيرة ودخل غرفته . لم ينتبهن إليه . أنسن بلا بصر ! كانت ام حسن تعبث باصابع قدميها وام منيرة تطفىء باصرار سيجارتها . ثم رأته يخرج حاملاً الكيس متجهاً نحو غرفتهم . لم يرق لها أن تخبر ام حسن ، لكنها لم تستطع صبرا :

– أبشرج ام حسن . كرومي جابنا كعك . ترى آني أنطيته فلوس مال اوگية ، الله وكيل . شوفي شغلج انت يمة عد .

كان يقف في فتحة الباب مبتسماً ، يسلم على منيرة وأمها . رفعت منيرة نفسها وانكمشت في زاوية من السرير وهي تجيب سلامه وتعدل من شعرها . هتفت ام حسن :

– هلا بها لمصباح عيوني كرومي . سلاماة ، سلاماة .

كان شاحباً ، يبدو عليه الانهاك بوضوح . تقدم واعطاها كيس الكعك وقطعتي

twitter @baghdad_library

النقود قائلاً :

— عمة ، هذا الكعك والبقصم . هالنوبة على حسابي . هاي فلوسچ ، تره ما بدلتها . بس انطوني خبر من يخلص ، وآني ممنون .

— يا به الله يهنيك بشبابك وينطيك العافية . أشو تأخرت ، عيني ؟

استدار وتردد قليلاً قبل أن يجلس على الناحية الأخرى من السرير . لمحت تبدلاً طفيفاً في ملامح منيرة وهيأتها . تلاينت نظراتها وبدا عليها الارتياح بشكل غامض . لم تسمع حديثهما . ألهاها فتح الكيس الورقي واستخراج الكعك والبقسماط ، واعطاء ام حسن حصتها منه واعادة قطعتي النقود إلى صرتها . ثم طرق سمعها فجأة حديث ام حسن عن زيارة عدنان ، فرفعت رأسها إليهم . كان عبد الكريم يبتسم بغباء وبعدم فهم ، ومنيرة تنظر إلى الأرض . خيل إلى عمة مدحت أن وجهها قد احمر قليلاً . تنهدت ام منيرة عدة مرات . لحظات حرجة لا فائدة فيها لأحد . قطعت الصمت فسألت ام حسن عن موعد الغذاء ، ثم سمعت عبد الكريم يستفسر عن أمه وعن أخته وبنتيها . قيل له أن أمه في الطابق الأسفل فقام متردداً وخرج . ابتسمت له منيرة ثم عادت إلى اضطجاعها وأشعلت امها سيجارة أخرى . كانت ام حسن تدور بنظرها في وجوه الجالسات دون كلام . كن ساكنات ، كل واحدة منهن مشغولة بأفكارها الخاصة ؛ ولم تكن عمة مدحت تميز جيداً الأصوات الخافتة التي كانت تسمعها آتية من الحوش . أن أمامهم ساعة وبعض الساعة من الانتظار قبل مجيء مدحت وأبيه من الدائرة . وهذه هي أكثر الأوقات مشقة ومرارة . لا مجال فيها للأكل أو النوم أو الحديث . انتظار مرير يبقيهن كالسجينات ، لا يعرفن ما يصنعن بأنفسهن .

ارتكت على المخدة بذراعها واضعة خدها في راحة يدها اليسرى . لا تستطيع حتى أن تغفو غفوة قصيرة ! لن يوقظها أحد ؛ وقد يعني ذلك فوات موعد الغذاء وضياع كل شيء .

تعالت من الأسفل ضجة الصغيرتين وهن يدخلن ويصرخن في آن واحد ، فاعتدلت في جلستها منتبهة . ها قد أتت مديحة أخيراً . ستسمع نتفاً من أخبار العالم الخارجي ؛ إلا

أن مديحة لن تصعد قبل أن تساعد أمها في تهيئة الغذاء . هذا حسن . لا يمكنها أن تترك ام مدحت تشتغل بمفردها طوال النهار . ولعلهما قد يستطيعان تدبير طبخ الطعام بوقت أسرع . لا يمكن تحمل مثل هذا الانتظار المؤلم . خاصة لأشخاص في مثل عمرها . اضافة إلى ذلك ، فانهما ، هي وام حسن لا يعلمان بالتأكيد ماذا سيأكلان ! وليس هذا من الأمور الطبيعية في أي مكان . يجب أن يؤخذ رأيهما ، على الأقل ، في الشيء الذي سيبلعانه .

طرق سمعها فجأة اصطفاق الباب الكبير في الطابق الأسفل بعنف غير اعتيادي. اهتز زجاج الشبابيك ، ثم انهد جسم ثقيل تلته صرخة من ام مدحت وأخرى من مديحة . رفعت راسها فرأت منيرة تقوم وكذلك أمها . كان قلبها يخفق بشدة ولكنها لم تنبس بكلمة . همست ام حسن :

– يا ستار يا رب . اللهم ادفع الشرور عنا بالّتي هي أحسن .

ارتفع صوت ام مدحت . مبحوحاً مرتجفاً :

– عيني مديحة ، كرومي . وكَع . كرومي يابه . ركضي ، ماي بارد . ركضي يوم بالعجل . شبيك ابني ؟

كانت منيرة ، ممتقعة الوجه ، في منتصف الطريق إلى باب الغرفة . توقفت ثم أمسكت بصدرها واستندت على الحائط لحظات . صاحت هي بها :

– نزلي يمة منيرة . شوفي شصار بالولد . شلون مصيبة هاي يا ربي .

كانت الأصوات الآتية من أسفل ، نواح ام مدحت وعياط الصغيرتين وبكاؤهما ، تبدو مختلطة مضطربة كأنها أصداء عالم يتمزق . تماسكت منيرة واندفعت تركض خارجة . لمحت ، هنيهة ، قلقاً هائلاً في وجهها وفي التماع عينيها المتسعتين . تبعتها أمها بغير عجلة ظاهرة .

أرادت أم حسن أن تقوم هي الأخرى ، فكلمتها عمة مدحت :

– انتِ وين رايحة ، يمة ؟ گعدي بمكانچ كعدي .

فعادت إلى جلستها بعد أن سوت المخدة وغمغمت :

twitter @baghdad_library

– گلبي يم كرومي . أخاف عليه عيّني .

ثم اردفت وهي تنصت إلى الضجة :

– يا ساتر يا رب . استر علينا وعلى أمة محمد .

ثم أخذت تعبث بأصابع قدميها :

– يا الله ، يا محمد . آني دا أشوف أحنا ما راح نتزقنب هاليوم الا ورا اوذان العصر . اشتگلين انت عمة مدحت ؟

لم تجبها . كانت تنصت ، حزينة النفس، إلى ما يصلها من أصوات . لم تكن صحة عبد الكريم على ما يرام منذ وفاة صديقه قبل أشهر . ولكنه لا يزال شاباً صحيح الجسم، ويجب أن يعلم أهله لماذا يتهاوى هكذا وسط الحوش والنهار في عزه ، ولما تمض دقائق عليه حينما كان يتحدث ويضحك وحينما كان موضع اعجاب من ابنة خالته الجميلة .

كانت عمة مدحت جالسة معهم في الايوان بعد العصر بقليل ؛ منزوية فوق احدى القنفات المريحة ، تراقب ما يحدث وتتساءل عن الأشياء التي لا تحدث . لم تغرب الشمس بعد في هذه الأمسية من أواخر حزيران ، وقد انتهوا ، قبل فترة قصيرة ، من شرب الشاي . لا زال استكانها في محله جنب استكاني أخيها ابي مدحت ومدحت . تغدوا متأخرين اليوم ولذلك لم تأكل كعكاً مع الشاى لئلا يقطع شهيتها للعشاء . جاء الطبيب في وقت غير متوقع وفحص عبد الكريم بسرعة . رأته من بعيد ولم تشعر بأية ثقة فيه . لا تدري لماذا . أعطاه ، كما قيل لها ، مقوياً ومهدئاً يشربهما الواحد بعد الآخر . ثم اخرجوا له سريراً وضعوه في الطارمة لصق الايوان ، تخلصاً من حر الغرفة ؛ وقبعت ام مدحت قربه وهي تنظر باستمرار إلى وجهه الشديد الشحوب البارز الوجنات .

سمعت أبا مدحت يكلمها :

– صفية .

فالتفتت إليه فسألها :

– اگول ، هذوله ولد سيد خليل ، تزوجوا گبل ما يتحولون من باب الشيخ ؟

أجابته :

– هاشم وقاسم ولد سيد خليل بقوا ما متزوجين بصاية أختهم الچبيرة رحمة . رادوا تتزوج گبلهم .

أيدها أخوها ابو مدحت :

– تمام . تمام . رحمة الله ، اختهم الچبيرة .

ارتاحت لتصديق أبي مدحت لها . كان يسبّح بسبحة صفراء . عاد يتكلم :

– جاني سالم ابن عمهم . عنده شغل عندنا بالطابو . يگول قاسم تزوج صار چم سنة وطلع گعد أبيت بوحده واختهم رحمة ماتت ورا زواج أخوهم . هسه هاشم باقي هو ووالدته

سمعت ام مدحت تكلم مدحت :

– عيني مدحت ، ما تكوم تشوف منيرة ومديحة شديسون بالمطبخ . ساعة صار لهم ديحمون الشوربة مال القواطي ؟

قام مدحت من مكانه بسكون وانصرف . سألت ابا مدحت :

– لويش ماتت رحمة ؟ قوية چانت عيني . هي رحمة لو غضب . تشتغل بالبيت من طگة الفجر إلى المغرب وتطلع أتسير بالليل . يومياً على هالحال . ما تخلي قبول يعتب عليها . تگعد بنص النسوان ، شايلة هاشم وحاطة قاسم . تريد تزوجهم وما تريد . تريد وما تريد . شوف ربك شلون موّتها بأجلها .

أجابها ابو مدحت :

– اكو انسان ما يموت بأجله ؟

– يعني . دا أگول .

تردد وقع أقدام في الطارمة وبانت منيرة ووراءها مدحت . كانت تحمل صينية متوسطة الحجم عليها صحن شوربة يرتفع منه البخار . وضعتها برفق على طاولة قريبة من سرير عبد الكريم . هبت ام مدحت تساعدها وعاد مدحت إلى مكانه . كانت منيرة

twitter @baghdad_library

في ثوبها الغامق الذي ارتدته صباحاً وقد لفت شعرها بشريط من الخلف . وكانت صبوحة الوجه خفيفة الحركة . لم تختف الابتسامة من فمها وهي تجلس على كرسي مقابل مدحت وتقول بصوت خافت :

– هاي الشوربة شغل مديحة تره . آني جبتها بس .

اعتدل عبد الكريم في جلسته بمساعدة أمه وسمعته عمة مدحت يتكلم :

– أشكرچ منيرة . ما ادري شوكت راح اخدمكم آني هم . يبين الوكت راح يفوت قبل ما يجي .

كان صوته أجش متكسراً . بدا التأثر على وجه منيرة فاختفت ابتسامتها . قال ابو مدحت :

– شنو هالحچي . كرومي . قابل انت بشر لو حديد . يعني ما يصير الانسان يتمرض ! عجايب .

رأت مدحت ينظر إلى منيرة . قالت ام مدحت :

– كل وكت يحچي هالشكل ويخليني ما أشوف دربي

كان يتفحص ابنة خالته بشكل غير مألوف وفي عينيه المصوبتين نحوها تألق ظاهر . لم تره يكلمها من قبل . إلا أن نظراته تنبيء أنه يود ذلك ويحلم به .

كانت أشعة الشمس على « التيغة » العالية حمراء ذابلة . والهدوء يسود البيت لا تقطعه غير ضجة غسل الصحون في المطبخ . أنها مديحة وبنتاها يغسلن صحون الغذاء . تأخروا اليوم في تناول طعامهم بسبب عبد الكريم . أحزنتهم جميعاً هذه الانتكاسة غير المتوقعة . انهم مدينون له بالكثير من الخدمات وساعات المرح . ولن يسرهم أن يروه هكذا ، ممدداً بين الصحة والمرض .

سمعت مدحت يسأل عبد الكريم :

– وين رحت اليوم ، كريم ؟

توقف عبد الكريم عن شرب الشوربة وصمت لحظات قبل أن يجيب :

– رحت للكلية . ﮔالوا لازم أقدم تقرير طبي مصدق خاطر ادخل امتحان الدور الثاني . تعبت شوية . الدنيا حارة چانت .

– منو جا عليك الظهر ؟

نظر عبد الكريم إلى مدحت نظرات فارغة كأنه لم يفهم كلامه . تدخلت ام مدحت :

– اشرب الشوربة عيني كرومي ، راح تبرد .

ثم التفتت إلى مدحت :

– خليه يرتاح عيني مدحت . ما بيه حيل يحچي هواية .

فأجابها :

– أدري ، يوم . بس حبيت افتهم ، عدنان جا عليه لو غير واحد .

هتف عبد الكريم بصوت متقطع جامد :

– عدنان ! يا عدنان ؟ عدنان ما جا عليّ . ابو فواد چان يريد يشوفني

فسأل مدحت أمه :

– علويش جا هذا عدنان لعد ؟

كانت منيرة تنظر إلى أصابعها المرتمية في حضنها . عاد عبد الكريم يتكلم :

– ابو فواد چان يريد يحچي ويايه . آني .. چنت ويه فواد ... ذبيج الليلة .

قاطعته أمه :

– بس عاد يابه كرومي . لا تتعب روحك .

نظر أليها عبد الكريم طويلاً دون كلام ، ثم رفع صحن الشوربة واعاده اليها . استدار بوجهه عنهم وانكفأ نحو الحائط . لاحظت مدحت يراقبه باهتمام . رفعت ام مدحت الصينية والتفتت إلى زوجها وفي ملامحها شكوى وألم :

– دتشوف عذابي وياهم .

هتف ابو مدحت :

– ليش كرومي ؟ ليش ما تشرب الشوربة ، بابا ؟ هواية زينة ألك . تقوي جسمك ؟

لم يجب عبد الكريم أباه وران عليهم صمت قصير . سارت ام مدحت نازلة إلى الطابق الأسفل . التفت مدحت إلى منيرة فجأة ووجه إليها الكلام :

– العفو منيرة ، عدنان جا يريد يشوفكم ؟

twitter @baghdad_library

كان في صوته رقة غير معتادة . رفعت منيرة عينيها إليه :

ـ نعم ؟

عينان طويلتان فاقعتا الصفرة . لبثت ناظرة إليه دون كلام ، في شيء أشبه بالتحدي .

قال :

ـ عدنان چان عنده شغل وياكم ؟

كانا يتبادلان النظرات ببرود . رأت الاصرار في تقاطيعها المتصلبة :

ـ ليش هو ما يجي عندكم من گبل ؟

قطع حوارهما ابو مدحت على غير توقع :

ـ اگول ، هذا عدنان اتخرج من المدرسة لو بعده يشتغل ويه أبوه بالعلوة ؟

استدار اليه مدحت :

ـ ما ادري والله بابا بالضبط . بس ما اعتقد نجح من الثالث .

ـ عجايب ! ليش شگد صار عمره ، صفية ؟

والتفت إليها . كانت منتبهة بكليتها إليهما فأجابته حالاً :

ـ خلص الشمنطعش . بچر مليحة هو .

ثم وجهت الكلام إلى منيرة بحذر :

ـ مو هيچي عيني منيرة ؟

كان الانزعاج ظاهراً عليها . نظرت إليها ببرود :

ـ نعم

هتف ابو مدحت :

ـ لعد شكو عنده رايح جاي بالسيارة ، خابص الشارع بالهورن ، وهو شهادة مال ثالث ما عنده ؟ شلون عالم هذا !

أجابته :

– الله رازقهم يا أبو مدحت . ليش ما يركب السيارة ويخبص الدنيا . ذاك اليون چان أبوه خلك سر كال مال بيت حجي محمد ، يركض منا ومنا ونعاله مزروف. شعليك. شوفه هسه . علوچي وبطنه هالكبر عبالك شيخ عرب .

ضحك مدحت وابتسمت منيرة . قال لها مدحت :

– علي كيفچ عمة ، على كيفچ . تره بعد ماكو شيوخ . ما سمعتِ الزعيم شيگول ؟

– أوي . كل ما احچي حچاية تشمر عليّ هالمخبل .

– مخبل ما مخبل ، اربع سنين صار له يحكمنا ، ويمكن ما اكو أحسن منه !

قال ابو مدحت :

– اربع سنين شنو أبني ؟ هذا حساب غلط . أنت أحسب چم سنة بعد له ، چم شهر ، يمكن چم يوم . وعلى هالمقياس تگدر تعرف بشلون جهنم عايش .

– لا بابا . على هالحساب كلنا راح نعيش بجهنم .

– بلى . صحيح . إذا حسبت أيامك على نفسك ما راح تنگضي الحياة ؛ ولو الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى .

– لويش دا اگضي حياتي . خل أعيشها على أحسن ما أگدر . يعني ...

التفت إلى منيرة أثناء كلامه :

– ولو الأعمار بيد الله ، لاكت آني حياتي ألي . أيامي بيدي . ماكو أحد عنده حق يسألني شراح اسوي بيها .

كانت تنظر إليه يكلمها ، نظرة استغراب . ثم بدا عليها كأنه تتأمله ، قالت :

– إذا ما تريد أحد يسألك ، أنت هم لازم ما تسأل أحد .

وكانت أكثر جداً منه . هتف ابو مدحت :

– لا خير . ما تنگضي الدنيا على هالترتيب . أهل الكهف ، خو مو أهل الكهف ! لا خير . لازم أكو سؤال وجواب . ارتباط مولانا والأعمار بيد الله .

لم تجب . سألها مدحت :

– يعني .. شنو ؟ تقصدين .. الناس والحرية ؟

– ما أعرف . هاي يمكن فلسفة ما أعرفها زين . لاكت الحچي مالك ، يعني ما يطبق

twitter @baghdad_library

عدنا . ماكو أحد هنا يترككك بلا سؤال وتدخل بحياتك . أتريد أو ما تريد .

— آني أرفض . أگدر ارفض كل تدخل .

لاحظت أنه منفعل وأنها لا تفهم كل ما يقولون . كانت الظلمة قد بدأت تتوغل في الايوان وتحجب وجوه الجالسين . أرادت أن تقص عليهم احدى ذكرياتها . سمعت ابا مدحت :

— شنو ترفض ؟ الانسان قابل يفعل ما يشاء، استغفر الله ؟ آني مثلاً ابوك ، ما أگدر مولانا أسألك شدسوي بنفسك ؟

سمعوا خطوات خفيفة مسرعة وبانت ام مدحت وبصحبتها سناء . هتفت ام مدحت :

— ليش گاعدين بالظلمة ؟ دشعلوا الضوا الله يخليكم . لخاطر كرومي .

ثم مدت يدها وضغطت على زر الكهرباء فاستنار الايوان . كان عبد الكريم مستديراً برأسه نحوهم يبدو عليه الاهتمام وهو يستمع إلى حديثهم . اقتربت امه من السرير وسألته :

— شلونك عيني كرومي ؟ أحمي لك الشوربة ؟

— لا يوم . اشكرچ . شوية لاخ .

تقدمت سناء من منيرة وجلست قربها . سمعتها تسأل الصغيرة :

— وينها أمي ، سناء ؟

— بالمطبخ ويه ماما . ديحضرون العشا .

قامت منيرة تهم بالانصراف فوقفت سناء أيضاً . كلمت عمة مدحت منيرة :

— عيني منيرة ، ما تشوفين بيبيتچ ام حسن أكلت او لاع .

أجابتها ام مدحت :

— لاع . شتاكل ؟ بعد ما حضرنا العشا يا صفية . أنطيني مهلة أنزل ويه مديحة للمطبخ .

ابتعدت منيرة بصحبة سناء . رأت مدحت يراقبها وهي تختفي في ظلمة الطارمة ، ثم يرفع يده ليمسح جبينه عدة مرات . التفت إلى أبيه :

— هذا حسين يريد يشوف البنات . صار چم مرة يجي للدائرة عليّ .

أسرعت ام مدحت تقول :

– ليش هو يعرف عنده بنات ؟

كانت تجلس على حافة السرير قبالة عبد الكريم ، مستديرة بظهرها للجالسين . استمرت :

– الأب اللي يهجر أهله سنتين ، ما له حق يشوفهم .

تكلم ابو مدحت بهدوء :

– ليش ما يجي يشوفهم ؟ يجي خطار مثل كل الخطار . يشوفهم ويطلع .

كان يتحدث مع ابنه مدحت ، كأنه لم يسمع ما قالته زوجته . استمر بعد قليل :

– أحنا ما ننكر حقه . هو ما عرف حق زوجته وبناته عليه ، لاكت أحنا ما نصير مثله . أحنا ما ننكر حق أحد .

ثم التفت إلى عمة مدحت :

– صفية ، تذكرين حچاية أبوية الله يرحمه ويه حجي شاكر ؟ جا عليه يشوره بقضية خالته . مرية چبيرة وحيدة متروكة ، تشتغل على باب الله خدامة وغسالة هدوم . على باب الله . ماكو أحد يصرف عليها ويعيشها . حجي شاكر سمع گاعدة تشتغل ابيت مشبوه ، وچان يريد يقتلها . مرية عمرها فوك الستين سنة . أذكر حچاية ابوية . گال له انتو ما عرفتوا حقوقها عليكم ، ليش هسه گاعدين أدورون حقكم عليها ؟ الحجي ما أخذ حچاية أبوية . أشقياء چان . راح قتلها الملعون الوالدين . مرية چبيرة عمرها ستين سنة .

سأله مدحت باهتمام :

– وشسوله ؟

– كلشي ما سووله . جماعته جمعوا فلوس من الگهاوي ووكلوا محامي عنه . والنتيجة انحكم تلث سنين گضه منها سنتين الا چم شهر وطلع يتخم بالدروب . مرية چبيرة مسكينة ، فوك الستين سنة عمرها .

قالت عمة مدحت :

– حجي هم چان ، الله يجرم ، رايح لبيت الله . لاكت الله ما يقبل هيچي حجة .

twitter @baghdad_library

كررت أم مدحت :

– ما اله حق على بناته . لا ينطي نفقة ولا يعرفهم بقرش بارة صار له سنتين .

سأل عبد الكريم والدته فجأة بصوت خشن :

– لويش يوم ما تخلين حسين يشوف بناته ؟

– آني شعليه يا عيني يا كرومي .

كان صوتها مرتجفاً يتخلله بعض الاضطراب . استدارت إليهم :

– لاكت الله ما يرضى هالشكل يعمل ويه أهله .

– لازم هو مطمئن عليهم . گاعدين ابيت جدهم ووياهم أمهم وما محتاجين .

– شلون ما محتاجين الله يخليك .

نظرت إلى زوجها :

– جوز من هالحچي عيني . أجيب لك الشوربة ، لو يعجبك تاكل ويانا ؟

أيدها مدحت :

– اي كريم . لازم تاكل شوية . ولو چم لگمة على الواهس .

ثم أردف يسأل أمه :

– يوم هذا عدنان شكو عنده جا هنا الصبح ؟ انت شفتيه ؟

– ما عنده شغل يابه . آني چنت بالمطبخ من جا . ما چان أكو أحد . آني فكيت الباب . ما عرفته أول نوبة . وچه احمر وثوبه مدلوع وعيونه مو ابرجها . سألني عن خالته منيرة . لا سلام ولا مرحبا . خالتي منيرة هنا . شلون صايرين ولد هالوكت ؟ لا عيني ، ولدنا غير شكل . ما مربي هذا .

كانت تتكلم بعدم اهتمام . سألها حينما توقفت :

– أي ؟ شيريد ؟ ما عرفت شيريد ؟

– أگول لك ما عنده شغل ويانا . چان ديريد يحچي ويه منيرة وأمها . سمعته يگول لهم ليش ما دتجوون لبعگوبة ، منيرة يريدوها بالمدرسة .

– وهو شعليه ؟ يجي يدك أبواب الناس . هو هذا شغله ؟ ما يروح يدبر أموره . خلي يصير براسه خير .

تأملته يتكلم بحمية غير معتادة ثم سمعت أبا مدحت :

– شكو بيها يابه مدحت . ولد مجهول چاي عباله ديسوي فضل عليهم . أگول ام مدحت ، شوكت راح نتعشى ؟ أشو الدنيا صارت حارة وأريد أصعد للسطح من وكت هاليوم .

قامت ام مدحت :

– هسه انزل . هنا تتعشون ؟

اسرعت عمة مدحت تجيب :

– اى عيني ، وين نروح لعد . هنا أحسن . صيحي عليهم ينگلون الأكل وياچ .

لم تنظر إليها أم مدحت . كأنها لم تسمعها . انصرفت حين لم يتكلم أحد غيرها . كانت صفحة السماء تبدو قاتمة خلال ظلمة الدار ؛ وكانت تسمع ضجة البنات وام حسن تأتي مكتومة من غرفتهم وهن يشاهدن التلفزيون . ينسون كل شيء حين يجلسن أمام تلك الشاشة الصغيرة . أرادت . منذ أول الصيف . أن تصعد لتنام في السطح . لكن درجات السلم الكثيرة أخافتها . ستقضي نحبها في منتصف الطريق . قام مدحت وانصرف بهدوء قاصداً غرفته . كان مربوع القامة نحيلاً . ان اهتماماته هذه الأيام تثير الانتباه . لم يسل يوماً عمن جاء وماذا حدث في البيت أثناء غيابه . التفتت إلى أخيها وسألته بهمس :

– ما عندك نية تزوج مدحت ؟

– لويش هالحچاية ؟ سامعة شي ؟

– يعني لازم أسمع ؟

– لعد ؟

– أگول ...

قطعت كلامها نداءات من الأسفل ، ثم أضيء مصباح في الطارمة الصغيرة ، وبدت منيرة بصحبة الصغيرتين . ركضن ضاحكات أمام الايوان . القت منيرة بنظرة سريعة على عبد الكريم . كانت متوهجة العينين وشعرها يتلاعب منتثراً على كتفيها . تنحنح أبو مدحت عدة مرات وقام من مكانه :

twitter @baghdad_library

– الله يرضى عليج . تحچين حچاية وتگطعيها على النص . آني دا أگوم أغسل أيدي .

سرها قوله هذا . أرادت أن تقوم هي الأخرى لتغسل يديها ، لكنها خشيت أن تفوتها رؤية الطعام حين يحضر . كانت الضجة ترتفع باستمرار من الحوش ، والمصابيح الكهربائية مضاءة في كل مكان . ظهرت ام حسن ، من بعيد ، في بداية الطارمة الضيقة وبدأت سيرها نحو الايوان متمسكة بالمحجر الخشبي . ظلت تراقبها وهي تتمايل في مشيها البطيء وخطر لها أن ظهور ام حسن في الساحة يعني ان العشاء لن يتأخر طويلاً .

* * *

twitter @baghdad_library

- ٤ -

فتح حسين عينيه فضربهما الضوء الساطع المنهمر من النافذة . عاد فأغلقهما بقوة . رفع يده اليسرى وعصر كرتيهما ثم أراح أصابعه عليهما . كان يحس نبضاً تحت أنامله . خشي أن يعاود فتح عينيه مرة أخرى ، واستكان إلى ظلمته الداخلية . كان قلبه يدق بعنف وكذلك معدته وكرتا عينيه وصدغه . لم يشعر هكذا بخفقان جسمه من قبل ؛ لكنه لم يسجل متى بدأ ذلك . لن يفتح عينيه . سيبقى مغلقاً في أعماقه . امس نهض بعد العاشرة ، أما اليوم فلن يغادر السرير . ماذا عملوا في دكان أوانيس المسكين ، ليلة البارحة ؟ آني ، آني . ذلك المجنون عدنان . الأحمق المفتون . ولكنه لم يسجل كل ذلك . مثل دقات جسمه المجهولة . وقف بينهم يتكلم كأنه يرقص . « گخذلته » الخبيثة تعطي شبابه ، رونقاً انثوياً . ولم يكن يقول شيئاً محدداً ، وكان هو منجذباً إليه ومغتاظاً منه . اللعنة ، ان فتح عينيه هذا الصباح . رأسه يدق ويدق . جلس قاعداً على الفراش . لم يأكل أمس شيئاً ولا يتذكر من دفع ثمن المشروبات . لعل الربع دينار لا يزال في جيبه . سيحاول أن يتذكر بعد أن يغتسل . إنزل يده يمسح فمه وانفه ثم فتح عينيه . كان مرتدياً لباسه فقط والفانيلا الخفيفة . شعر فخذيه كثيف أسود مفتول ، واللحم تحته بادي الوساخة . تحسس لحيته النابتة . هل حلق أمس ؟ متى حلق إذن ؟ كان ذهنه كتلة مخلوطة من ذكريات حائلة ؛ ولم يكن يحب هذه الساعة من ساعات حياته . ساعات صحوه وانخذاله وهبوطه حتى القاع . لو أمكنه أن يغتسل اليوم . في حمام شرقي رغم الجو الحار . كان يقضي ، أيام البرد ، ساعة وبعض الساعة

مغموراً بالبخار وقدماه على الأرض الدافئة ورائحة صابون ابو الهيل ... ورائحة الصابون ؛ وهو يغني أغنية أم كلثوم « يا حبيبي ... يا حبيبي » وعيناه تدمعان . أسعد أوقات مراهقته بلا شك . ثم اكتشف العادة السرية فانقلب كل شيء إلى جحيم : جحيم الجنس اللذيذ الخداع . سراب الحياة . لم تعد « يا حبيبي ... يا حبيبي » تفيد ؛ وكان يلم نفسه ، بعد كل مرة ، مثل الجنين . يبقى ساكناً ، مصغياً إلى صمت نفسه الثقيل ، في عالم يرن رنيناً غير مألوف البتة ؛ ويسكب الماء الحار على رجليه وكتفيه فيرتفع البخار الكثيف ويخفيه .

كان يحك باصرار جلد فخذه اليسرى ويتمعن في قطع الأوساخ التي تقتلعها أظافره . مسامات الجسم يجب أن تصان من الانغلاق ؛ وذلك بالاستحمام المنتظم والتدليك وترطيب الجسم بالبخار طبعاً . بالبخار على الأخص . أنزل احدى رجليه ثم قام واتكأ على خلفية السرير . استدارت الحيطان أمام عينيه فأغمضهما . انتظر هنيهات مستسلماً لنوبة الدوار المفاجئة هذه . كلما تأزمت أمور حواسه ، أغلق نوافذه على العالم وتقوقع في ظلمة نفسه الداخلية . هروب موقت ؛ أو قل فترة راحة . باغته وجع شديد في معدته . كانت تتقبض وتتلوى . أمسك بها . كانت تتقبض وتتلوى ، وأحس بازدياد في خفقات قلبه . عصر بطنه وفركها . يخاف أن يتقيأ . اللعنة . بدأت العاصفة في مكان ما من امعائه . أيادٍ رهيبة تعتصر جوفه وتدفع بقاياه إلى الأعلى .. إلى الأعلى . هذه هي النوبة تأتي . لا راد لها . يخاف أن يتقيأ منذ كان صبياً . احتضن أمه بقوة متوسلاً بها ألا تدعه يتقيأ وأطلق محتوياته على ثوبها الأسود وعباءتها الخشنة ، فبكت معه . بدأت ساقاه ، في تخاذل سريع ، تنحنيان . استقر على ركبتيه قرب السرير . كانت الدفقة الأولى من الالتواءات المعوية تتصاعد إلى حلقومه . أخذ يبلع ريقه وينفث أنفاساً ثقيلة . كان العرق البارد يتجمع على جبهته ورأسه وصدره . احتضار حقيقي . يا لرعب الموت ! وأحس بنسمة باردة تمر على وجهه من النافذة . لم تتوقف الذراع المندفعة نحو قلبه ، وكان يمسك بالسرير وهو مكتوم على الأرض ، ستأتي اللحظة الحاسمة بعد ثوان ، بعد سنوات من العذاب ، ثم . . . أطلق صوتاً مخنوقاً ، حشرجة تشنجية ، من فمه وأنفه وعينيه وأذنيه ؛ واندلق سائل حاد المرارة من حلقه إلى الخارج. ابتلع ريقه . كان السائل المرير ينحدر من أطراف فمه المسترخي ومن أنفه ؛ وكان

twitter @baghdad_library

يلهث ، مغمض العينين ، والعرق يتسايل ببطء نازلاً من صدغه . ثم هبطت احشاؤه وبدا كأنها استقرت في موضعها مرة أخرى . عصفت به خلال لحظات تلك القوة المتوحشة وتركته هكذا .. كتلة من اللحم تتفصد عرقاً بارداً . هبت عليه نسمة خفيفة ناعمة ، فتنفس بعمق الهواء النقي . أحس بقطرة ، لعلها دمعة أو ما أشبه ، تنحدر بتردد من عينه اليمنى المغمضة ؛ ثم اخترقت جسده قشعريرة غير متوقعة . كومة من اللحم كان ؛ باردة لكنها لا تتعذب ، لا تمر بأزمة الموت . نظرت في عينيه طويلاً ، تلك الفتاة الجميلة الغريبة الأطوار . فأمسك بأصابعها اللينة . قالوا عنها أنها ، في حقيقتها، بغي . كانت يدها بضة بريئة . لم تقل له شيئاً كثيراً ولا كان لديه الكثير ليقوله لها . وكان البخار كثيفاً حوله في الحمام وهو يغني « يا حبيبي ... يا حبيبي » ويسكب الماء الدافيء على رجليه وكتفيه . ما أحلى الطفولة والجنس ، الطفولة الجنسية . الجنس الطفل . عادت إليه القشعريرة ففتح عينيه . كان الضوء في الغرفة لامعاً ، مريعاً . فرك عينيه وصدغه . ثم تشبث بطرف السرير وقام فقعد على الفراش . مسح وجهه مرة أخرى . كانت نوبة مفاجئة ؛ تلك قوتها ... المفاجأة . ولقد تركته مرتجف الأوصال والقلب . نظر إلى ساعته فرآها تشير إلى العاشرة والنصف . لم يلتفت أحد في الدار إلى تقيوئه ولا يزال بوسعه الحلاقة ثم زيارة مدحت . تطلع من الشباك إلى الحائط المقابل . بدت له أشعة الشمس قوية أكثر من المعتاد — لعل ضعف جسمه هو الذي أزاد من قوة اشعاعها! من يدري .

نزل من سريره وسار خطوات فتملكته نوبة أخرى وزاغت عيناه قليلاً . توقف مستنداً إلى الجدار . ستمضي مع الماء البارد الذي سيغتسل به . ليست هذه هي المرة الأولى ، ولكن يجب أن يعترف أنها احدى المرات السيئة . عاد يكمل سيره . نوبة سيئة حقاً ، وفتح باب الغرفة . لم يسمع شيئاً من الطابق الأسفل . أين ذهب اقرباؤه التعساء .. الحجي وزوجته العجوز ؟ وكانت ضجة الشارع تأتي من بعيد . تجشأ مرتين واتجه سائراً نحو المغسلة .

... أن تستيقظ متقيئاً أو أن تتقيأ يقظتك ؛ ذلك شأنك . المهم أن فمك امتلأ بحمضيات جوفك الصديء ؛ حمضيات لبنان ؛ وان عليك أن تبدأ يومك المشرق هكذا . أرض

الدربونة متعكرة ملتوية ، مثل حياة ساكنيها . وأنت تصعد وتهبط في سيرك يا ملعون الأهل . السلام عليكم حجي وهيب . عليكم السلام ورحمة الله . هل استدين منه ؟ ينظر إليك كأنك الشيطان أو امرأة عارية . تصعد وتهبط وتهبط وتهبط ثم تصعد . يجب أن تعتدل في مشيتك . هكذا . تدفع صدرك إلى أمام . هكذا . وتعود تصعد وتهبط ؛ يا ملعون الأهل ، يا ملعون الأهل . والربع دينار ؟ لا وجود له ، في الجيوب المثقوبة . ثمن المشروبات . بالتأكيد . أن بعض الساعات الأخيرة ستبقى سوداء في الذاكرة . وأنت تسير هكذا . طوب ابو خزامة ، دون فلس واحد في جيبك . ولكن . . . هذا الدرهم اللعين المستوحش . ها . ها . يا ملعون الأهل . ما تراها تناست اسمي لما . وتلتفت إليه الكردية الجميلة مبتسمة العينين قبل أن تغلق الباب . تدخل بخفة وتنزع عنها كل شيء ؛ وتضمها إليك وتشمها وتقبلها . يصعد ينزل يصعد ينزل . وهل يمكنها أن تقول شيئاً ؟ تراها تراك . تباوع . تباوع . تباوع . تباوع . يعني شنو ؟ تباوع . تباوع . افهم ذلك . وضعنا أمامكم أيها السادة هو الدليل القاطع على عهر المزبورة . ثم تقتل وتحيا ثم .. تباوع ، تباوع . ثم تقتل وتقتل . يا مضاريط . يا مضاريط . الشاي مهم لمن لا أهمية له . تجلس على المقعد الخشبي . التخت في الحقيقة . لنطلق عليه اسمه الحقيقي لا المستعار . ثم يأتيك ، يتهادى يتبختر يسير الهيدبى او الخيزلى ، حسب الطلب ، أرزوقي الأعور صانع القهواتي . كله كبرياء فخمة . لا تهم درجة قذارته ورائحته الكريهة . توجهوا إلى الأعماق أيها السادة . هناك ، هناك الجيفة الأصيلة . وشايه مثله ، ومثل هؤلاء المحترمين الجالسين عن الشمال وعن اليمين . يحسبون الحركات عليك مع حبات المسبحة . تك تك تك . يقف تقف . يمر تمر . يلحقها تلحقه . يفعل بها تفعل به . ونحن ؟ ونحن ؟ نحن الاشراف ، أين ندس أنوفنا ؟ أو بالأصح ، ذلك العضو الآخر منا ؟ أين ندسه ؟ قولوا لنا ، قولوا للاشراف المتفين بعباءاتهم ، ينزون عرقاً كريهاً ؟ تك تاك تاك . أليس عجيباً أن يستطيع ارزوقي الأعور احتقارك ؟ الازدراء بك ؟ ويرمي فنجان الشاي الأسود على المائدة بحيث يقلب محتوياته في الماعون ؟ وهو يجد ذلك طبيعياً ، منسجماً مع مركزه وشخصه ، ومن الواجب ألا ينساه . وأنت لو سألته عن السبب لراوغ وبكى بعينه العمياء واتهم شخصاً ما يعرفه أو لا يعرفه ؛ بأمور

twitter @baghdad_library

يعرفها أولاً يعرفها . ليش يابه ما تخلي استكان الچاي زين ؟ ما عاجبك ؟ لويش ما يعچبني ؟ وكان يقول : لويش يعچبني . عيناه مليئتان بالقذى وصدره ذو الشعر الأسود المقرف ، معروض أمامك بافتخار . هاكه .. انسان المستقبل . وبنطلونه حائل مبتل . هاك الارستقراطية العريقة . ارستقراطية الفكر والذوق . وكان شايه مثله . وأنت يا غراب البين ، مالك ومال صناع المقاهي الارستقراطيين ؟ لنكتفي بالانحناء أمام الأعور المبتل . ثم انك لن تقضي الوقت هكذا ؛ وأمامك مسيرة طويلة . لا فائدة من اختراق الجامع إلى الباب الآخر . انتهت المدارس ولا يمكن رؤية البنات . سها وسناء . سناء وسها . السخف العائلي . كل شيء في الوجود ، لو تدبرنا الأمر . يا أولاد الحرام . أولادكم ، فلذات أكبادكم . أكبادكم التي بدأت تتشمع . ليضعوهم في متحف الشمع ان كانوا صنعوا من الأكباد المتشمعة! لا تجادلوا . المسألة مسألة منطق لا غير . منطق واسع . وأمام المنطق تنحني القامات . كذلك أمام أرزوقي الأعور . إذن ، دون تعقيدات ، المنطق هو أرزوقي الأعور . خلص . روح حرّك . معظم . معظم . سيقول له بلا مقدمة أنه يجب أن يرى ابنتيه . أليس للأب مثل هذا الحق ؟ أي أب على سطح الأرض ، حتى في العراق ! وكل قوانين الدنيا تؤيد حقه في رؤية ابنتيه . حق الأب في أن يرى ابناءه . والمشكلة .. أتوجد مشكلة ؟ روح شوفهم شوكت ما تريد . أيطبك مرض . منود يركض وراك ؟ فلس بارة . لا أخي . لنبحث الموضوع على مستوى آخر .مستوى انساني يمكن أن تضيع فيه كل القيم . كل الواجبات والالتزامات والحقوق ... الخ . هذا هو المستوى المعقول الملائم لمن كان في مثل هذه السن والثقافة والمركز . دعنا نتجنب الملتويات المادية والشمس الحارة . لنعبر إلى الجهة الموضوعية حيث الفيء . ولنضع أمامنا ، على المائدة أو المشرحة حالتنا الآنية . لنضعها بكل جوانبها ثم لنمزقها بحثاً . حقوق الأب اولاً أيها السادة . حقوقه الأكيدة المضمونة. لقد ركب كل شيء كي ينجب أبناءه . لا أدب جنسياً من فضلك . وثم ومن بعد أن تثبت هذه الحقوق يمكننا أن نتحاور ونتجادل في وجود واجباته من عدم وجودها . قل لي حقوقك أقل لك من أنت . حيوان . انسان . ديناصور . حشرة . حصان فص كلاص . تبرت . ميدن . المهم أن تؤكد حقوقك . أن تستولي عليها . أما الواجبات ،

فمن يسأل عنها هنا ؟ ليكن من بعدي الواجب . صباح الخير سيد حسين . صباح النور أخي . خير ان شاء الله . أين كان يختبيء هذا الوجه المنسي ؟ شلون الصحة ؟ الله يسلمك بخير ، أنت شلونك . يرتدي السترة والرباط الأحمر في هذا الضوء المتوهج . ماكو هالايام سيد حسين؟ أن تُسأل مثل هذا السؤال يعني أنك محاط بعناية خاصة . وعيونه ترمش ؛ كأنه يستحي . بخ ، بخ. ولكن ، من هو ؟ والله أخي بالكويت . نشتغل . وسترته مكوية بعناية . زوجة راضية جنسياً . أنت وين أخي هسه ؟ مدير شركة . اللعنة . أليس مجنوناً هذا المدير كي يحشر أنفه بما لا أهمية له ! تسمح لي ، فيما لله . ثم فر هارباً . فر بكل ما يحمل هذا الفعل من معنى واقعي ومجازي . وبقي مجهول الهوية . اللئيم . دون دعوة ، يأتيك . ثم يخونك كأنه يهوذا الأسخريوطي حالما يشعر أنك تفكر بالاستدانة منه . هل تطل المقاصد والمعاني هكذا من العيون ؟ الحل إذن أيها الاخوان . نظارة سوداء . حينئذ لا يمكنهم أن يعرفوا السر قبل انكشافه . الكارثة قبل وقوعها . وهكذا تفاجئهم بنظاراتك السوداء وبطلبات الاقتراض القوية كطلقات المدفع . استدانات مضمونة وسريعة . ربع دينار ، نص دينار . ربع . دينار . نص . نص . نص . وتتجمع الأموال ، وتتجمع . نظرية جديدة في الاقتصاد . الاقتراض اللامتناهي . قرض يسدد بقرض يسدد بقرض يسدد بقرض .. وهكذا دواليك. لِمَ غابت هوية هذا المدير عن الذهن ؟ ألم يكن رئيس شعبة في المصرف سنة١٩٥٩ ؟ شيوعي متلاعب. نعمان سلوم . حتى أنك لا تستطيع أن تعلم عن يقين إن كان مسيحياً أم مسلماً ! اختفاء ظاهري ؛ أو ظهور اختفائي . أشخاص الكواليس ؛ ولكنهم يمدون أرجلهم أو أيديهم نحو الأضواء بين الحين والحين . فإذا تدفئوا قليلاً سحبوها بهدوء كيلا تلفت الأنظار . مدير شركة ! نعم . رئيس شعبة ، كان . خرنگعي ، إذا أردت وصفاً دقيقاً له . خرنگعي غير قابل للايذاء ، غير قابل للكسر . شخص بمأمن من عوائد الزمان . جرده ، مثلاً ، من ألبسته ؛ ألبسته الظاهرة ، المادية ، وتلك الخفية التي لا تُرى . انزع عنه أولاً سترته وأسمه ، ثم بنطلونه ووظيفته . وباشر بعد ذلك بتمزيق ثوبه الأنيق وسيارته . وعندئذ لنقف قليلاً نتضاحك معاً على النتائج المحزنة التي سنحصل عليها . ولكنهم ، ايعملون أشياء من هذا النوع ؟ هذه هي الأعمال الأصيلة . ماذا يعني أنك

twitter @baghdad_library

تشرب يومياً وأنك مفلس لا مورد لك البتة ؟ أنها القشور الأولى ؛ السترة والبنطلون والثوب الأنيق . أما اللباس والحذاء فتلك شؤون أخرى . نعمان سلوم مثلاً ، ماذا يفعل لو كان مدمناً مطروداً من وظيفته وأهله ؟ ولكن هل تظنه يستطيع الوصول إلى هذه الأعماق؟ خرنگعي أصلي . إنما هذه الشمس لا تحتمل؛ وأنت تغذ الخطى كأنك ذاهب للقاء حبيبة . يا ملعون الأهل ؛ وأنت ونعمان سلوم على طرفي نقيض . لكنكما في الطريق سواء. تخافان ، تخافان . أنها مرعبة ، هذه الحياة . جلست في فراشك ذات فجر ، منذ آماد ، ترتجف رعباً . لم يكن هناك موجب للاستيقاظ في ذلك الوقت العسير. لم تنم إلا حوالي الثانية صباحاً بعد عراك رخيص وملاسنة وتدافع واهانات من مديحة. وكنت تعباً مخذولاً ؛ تلك كانت المرة الثالثة التي تصرف فيها الراتب خلال الأيام الأولى دون إعطائها فلساً واحداً. سكر مستمر لا ينطفىء أجيجه و قمار وجنس قذر . واستيقظتَ قبيل انفجر ولما تزل متعباً مدحوراً . لم تصل أنوار النهار الأولى إلى الغرفة الضيقة ، وجلستَ في فراشك المفرد . وكنت مستوحشاً متوحداً لغير سبب ، خافق القلب منكمش الجسم . كانت الغرفة خالية شبه جرداء ؛ كانت قد طردتك من غرفتها، وكنت متوحداً مثل راهب خائن حينما فاجأك ذلك الخوف . اكتسحك رعب الموت ؛ الرعب من أنك قد انتهيت ، وان لا فائدة من أي شيء بعد الآن . عبثاً كل ما تعمل، عبثاً كل ما يعملون . لن يفسروا مصيرك المدمر . وارتجفتَ وسال عرقك البارد وأنت في السرير متوحداً خائناً نفسك وعالمك.وفي تلك الغرفة الجرداء أحاطك الهلاك الذي كان ينبع من كل زاوية فيها ، وبدأتَ تعيش انهيارك البطيء .

دخل غرفة مدحت في الوزارة بعد أن أخبره الفراش أنه خرج وسيعود بعد قليل . جلس في كرسيه المعتاد قرب الشباك المطل على النهر ، متجنباً النظر إلى الخارج . لم تهدأ عيناه بعد من ضربات النور الساطع في الشارع ، فأغمضهما مستكيناً إلى الضوء الخافت الذي يملأ الغرفة . أنهكته هذه المسيرة اللعينة من باب الشيخ حتى السراي تحت هذه الشمس المتوهجة . إلا أن جسمه أكثر تعباً مما ألف . وهذه الطرَقات الداخلية لا تزال تعمل عملها ، وخفقان قلبه والتواءات معدته لم تفارقه تماماً . رن جرس التلفون مرتين أو ثلاثاً قبل أن يدخل الفراش فيرفع السماعة . لمح على المكتب علبة سجائر وشخاطة .

انتظر خروج الفراش فقام بتثاقل وأشعل واحدة سحب منها نفساً عميقاً . دغدغ الدخان رئتيه وأراحه قليلاً . شعر أنه يستطيع أن يعد نفسه فارغاً من كل شيء ؛ بلا هموم ولا مستقبل ذا قيود . زورق يطفو بين القاع والسماء . يتمرجح . لا يمس السماء ولا ينحدر إلى القاع . توازن من نوع خاص . التوازن الأفضل . لذة البقاء ، دون عملْ ، في منطقة تعادل القوى . وليعملوا ما يعملون . هل من فائدة ترجى ، أن تبدأ من جديد ، أن تبدأ على الاطلاق ؟ امتص سيكارته بشغف فضاق صدره وقح عدة مرات .

فتح الباب بسرعة ودخل مدحت مبتسماً مشرق الوجه ، يحمل بيده رزمة كتب . تصافحا . لم يفاجأ بروئيته وخيل أنه سُر بها . سأله بعد أن جلس وضغط على الجرس :

– صار لك هواية هنا ؟

أجابه بالنفي . دخل الفراش :

– نعم عمي .

– تشرب شي ابو سها ؟

ثم أردف مكلماً الفراش :

– شوف قادر . شفت هسه ابو الكبة گاعد براس السوك . هاك جيب لعمك ابو سها كباية حارة وصمونة .

واعطى الفراش نقوداً :

– وچيب وياك چايين من ترجع .

هتف هو :

– كبة ألمن ، مدحت ؟

– ألك طبعاً .

– آني شسوي بالكبة !

لم يوجه مدحت إليه الكلام :

– يا الله قادر . كباية حارة وصمونة . بالعجل .

twitter @baghdad_library

فخرج الفراش مسرعاً . التفت إليه :

— لو تشوف وجهك بالمراية ، تعرف أنت ما مرّيگك . جيت مشي ؟

هز حسين رأسه وسحب نفساً أخيراً من السيجارة . كان مدحت يقلب الأوراق على المكتب ويفرزها إلى قسمين ثم يكتب ملاحظات على بعضها . بدا له أنيقاً في بدلته الرمادية الفاتحة وربطة العنق الخضراء ؛ أنيساً متفتحاً أكثر من المعتاد ونظيفاً . لعله يتوهم كل هذه النظافة والأنس والتفتح في الناس . من يدري ؛ ولعل سبب ذلك أنه يفتقد كل هذه الأوصاف . سأله وهو يطفىء سيجارته :

— شكو عندك بالسوك ، مدحت ؟

رفع نظره . كانت عيناه ضيقتين سوداوين بعمق :

— اشتريت .. هيچي .. شوية قصص خفيفة لمنيرة . يعجبها تقرا مرات .

— شلونهم ؟ مرتاحين عدكم ؟

— زينين ، أعتقد . منيرة لازم تنقل لبغداد، وضعهم ابعگوبة ما چان مريح . بلكي يدبر نقلها قبل نهاية الصيف .

شعر أنه يجب أن يسأله عن شيء مهم نسيه . لفتت انتباهه طريقته في الكلام عن منيرة ونطقه باسمها . سأله :

— هي معلمة ؟

— منو ؟ منيرة ؟ لاع . مدرسة بالمتوسطة . دير بالك سيد .

— أي نعم . لازم أدير بالي .

دخل الفراش بصورة باغتته . حاملاً صمونة محشوة بالكبة ومن خلفه الچايچي . لم يرد أن يأكل ؛ وبقي ممسكاً بالصمونة المنتفخة ، يتأمل الشاي الأحمر الذي وضع أمامه بعناية . خرج الفراش وعاد مدحت إلى أوراقه . كانت الرائحة فاغمة ، تخرق الأنف . تكاثر اللعاب في فمه وهو يستنشقها متردداً . تطلع إلى مدحت فرآه منشغلاً بعمله وهو يدير الملعقة في قدح الشاي . قضم قطعة من الصمونة الحارة والكبة ؛ فشعر بالدهن واللحم والبرغل والبهارات تختلط في فمه المملوء . لن يحتاج إلى أكلة

أخرى حتى المساء . لا بأس بهذا الحل الغذائي . المهم أن يتذكره في الوقت المناسب .

سمع مدحت يكلمه :

— كبة برغل ممتازة ، مو ؟

كان يشرب الشاي بهدوء مستديراً نحوه . اللعنة . ابتلع اللقمة الكبيرة بصعوبة ثم شرب جرعة من الشاي هو الآخر . أجاب :

— لا باس . لا باس . هواية ممتازة فكرتك هاي عن الأكل .

تناول مدحت علبة السجائر وأشعل واحدة . جرع جرعة أخرى من شايه . قال مدحت :

— على قضية البنات ؟

أنصت باهتمام . هذا هو الأمر اللعين الذي كان يفلت من ذاكرته . استمر مدحت :

— الجماعة ما عندهم فكرة معينة . مديحة طبعاً ضدك وضد كل شي يتعلق بيك .

ثم أشار بيده اشارة دائرية :

— شمسويلها ، ما أدري . شي يخصكم ، وما أعتقد انتو ابرياء اثنيناتكم . المهم ...

قاطع مدحت بسرعة :

— شنو ضدي ، يعني ؟

يا لسخف الانسان ولهفاته وآماله ! أجابه مدحت :

— شوف حسين . انت تعرف مشاعري تجاهك . لا تخليني أدخل طرف بقضية أحس بيها خاسرة . خلينا نحصل أول نوبة على...على ...

وأشار بيده مرة أخرى تلك الاشارة الدائرية :

— على أشياء تعتبرها أنت أساسية وضرورية لراحتك .

ساد بينهما الصمت . لن يقاطعه هذه المرة بأسئلة لا جدوى منها . توقف عن تحريك فكيه وأخذ ينظر بانتباه إلى مدحت . كانت عيناه السوداوان صافيتين ، يكسوهما معنى من معاني الترفع لا يمكن تفسيره بسهولة . سمعه :

— أبويه أيدك بشكل عام . هذا فد شي مهم . يگدر يأثر على مديحة بالتالي .

twitter @baghdad_library

ثم أشرق وجهه بغتة ، يالله ، كم أشرق وجهه الأسمر :

– منيرة والله دافعت عنك هواية .

– صدك ؟ عجيب !

شعر بما يشبه الفرحة تساوره وهو يلوك اللقمة الأخيرة من الصمونة متطلعاً إلى ملامح مدحت يعلن له أن هنالك من يدافع عن قضيته مجاناً . عاد مدحت يسأله :

– انت بعدك ابيت عمنك ، مو ؟

هز رأسه بالايجاب . كان يشرب بلذة بقايا شايه على معدة ممتلئة :

– وين صاير ؟ بحي الاكراد ؟

– اي . بذيج باب الشيخ ، ورا گهوة ياس ، لويش ؟

– فكرت أجي آني والبنات عندك فد عصرية . شد گول ؟

أقلقه هذا الاقتراح :

– لا . لا . علويش خاشين بذيج الدرابين . نطلع لباب الشرجي ، لو نروح فد حديقة قريبة عليكم . آني اكتفي .. يعني إذا أشوفهم چم دقيقة كافي . من چانـوا يروحون للمدرسة چنت أو گف على صفحة . حچيت مرة ويه سناء . يعني قصدي بلا حرج . تعرف أنت أحسن مني مدحت .

رآه يهز رأسه ويطفيء سيجارته ، ثم يلبث صامتاً بعض الوقت :

– زين . زين .

هتف هو :

– تعرف مدحت ، ما أحب البنات يشوفون ذيج المحلات والمكان الداعيش بيه . ولو موقتا . ويعني .. يمكن الطلعة بالحديقة تفيد صحتهم .

– زين . زين .

لم ترحه هذه الكلمات المختصرة المقطوعة ؛ لكنه خشي أن يستمر في حديثه المتعثر فيسيء إلى نفسه أكثر مما فعل . لم يدع يوماً أنه كان والداً مثالياً ، وهم يعرفون ذلك . إلا أن أمراً ما انفضح أثناء حديثه. شيء غامض عن جبنه وتفاهته وعدم اهتمامه الجدي

بنتيه؛شيء يحط من منزلته كانسان . ولكم أراد أن ينكره وينفيه ! وها هو ذا يتنامى مع الدقائق والكلمات ويتصاعد ، جداراً من حديد ، بينه وبين مدحت ، انتبه على مدحت يتكلم في التلفون مع شخص لم يعرفه .شعر بنفسه ثقيلاً في الغرفة ، فآلمـه ذلك لم يكن بينه وبين مدحت غير الود والصفاء . كانا صديقين قبل أن يتزوج أخته ؛ وبقيا على شيء من التفاهم طوال أزمة الزواج والافتراق والسفر. ولم يكن يخفي الكثير عنه ؛ فاذا أخفى بعض الأمور فبسبب خجله منه . أحس دائماً أنه يجب أن يظهر أمامه بأحسن ما فيه ، فكرياً وانسانياً .

سمعه :

– وين أتروح هالأيام ؟

اراحه ، بشكل ما ، هذا السؤال .

– والله مدحت ، واحد ما يدري وين وشلون يگضي وكته . ماكو شي يسوه . حيرة . لا گهوة مال اوادم ، لا سينما . والقراية ، چم دوب ؟

كان ينظر إليه ، وفي ملامحه خليط من السخرية والفضول وعدم التصديق . ما جدوى كل هذه المناورات ! استمر :

– اكو فد بار رخيص . بالحقيقة هو محل يبيع مشروبات وعنده فد ساحة صغيرة ليورا ينگعد بيها . محل اوانيس . لا بأس بيه . اروح هناك مرات. رخيص شوية . تعال فد يوم إذا تريد . صدك والله مدحت . خوش جماعات يجون مرات . البارحة جا هذا عدنان .

– يا عدنان ؟

– هذا عدنان ابن مليحة بنت خالتك . نسيت اسم ابوه الملعون الوالدين . گرايب أمي فد الدرد .

– عرفته . عرفته . هو هذا جماعتك الزينة ؟ ومنين جا كرايب أمك ؟

– مو أمي أصلها من الهويدر ، عيني مدحت . هذا ابوه أصله مناك هم . سركال حافي،حافي حقيقي أگولك ؛وأمي لا يعرف يقرا ولا يكتب . ولعلمك،لا يزال . شلون صار زنگين وبراسه خير . ما أدري . عفية على خالتك ام مصطفى ، شلون لگته .

twitter @baghdad_library

— ام مصطفى ؟! ها ، تقصد ام منيرة . خليها صنطة ؛ تاريخ قديم هذا .

ثم بدا عليه الاهتمام :

— گل لي حسين ، هذا عدنان ، شنو من شي ؟

— مراهق ، مستهتر ، فاير دمه . لا شغل لا عمل . سيارة جواه ، ورايح لبغداد وراجع لبگعوبة وهلمجرا . شكو عنده؟ آني هم ما أدري . لاكت المسألة ما تتعدى التعرضة .

— جا قبل چم يوم لبيتنا ؛ البارحة يمكن . ما عرفت شيريد من منيرة وأمها .

— لا تخلوا يخش للبيت . سرسري ، مدلل ، مستهتر .

تطلع إليه مدحت :

— أشو متحامل عليه هوايه .

لم يجبه حالاً . هذا الصنف من البشر ، الحمقى المحظوظون ، لا يميل إليهم . تراهم يتصفون بكل غباء الحيوانات وخشونتها ، ولكنهم يعيشون كأفضل الناس ؛ دون أزمات ، دون مشاكل جدية . قال :

— متحامل عليه ؟ لويش ؟ ما أدري ، يمكن والله ، ما يعجبني .

لم يدفع الحساب عنه ورفض أن ينقله بسيارته . جعله يمر بتجربة ذل جديدة ؛ أن تشعر بالحاجة لمثل هذا الشخص . اللعنة . سمع مدحت :

— أريد والله حسين ، أجي يمكم فد يوم .

— وين ؟

— لهذا المحل ، محل أوانيس . گل لي وين صاير ؟

أسعده هذا الكلام :

— أباب الشرجي . يم سينما دار السلام . المنطقة شوية كسيفة ، لاكت احنا شعلينا . هذا الملعون الوالدين ابو كمال يبيع المشروبات شوية رخيص . ماكو غيره بذيج المنطقة . تعال بالله مدحت ، تعال اليوم . شكو عندك ؟

— أحاول . ساعة بيش انت تروح ؟

— بيش ما تريد . سبعة ونص ، ثمانية . كيفك أنت .

– أي ثمانية ، ثمانية ونص خوش وكت .

– صار .

قام وتناول عابة السجائر من المكتب وأشعل واحدة ثم عاد إلى مكانه . قال :

– شفت اليوم واحد چان يشتغل ويايه بالبنك ؛ نعمان ساوم اسمه . ما عرفته والله . يگون صاير مدير شركة . عرض عليّ أشتغل وياه . گلت له دا أنتظر فلوس توصل من الكويت خاطر أشوف دربي أول نوبة .

– مدير يا شركة ؟

– نسيت والله . گال لي اسمها لاكت نسيته . هواية صاير دا أنسى . ما أدري لويش. گلت له لازم يدزون الفلوس ؛ قابل ياكلوها عليّ ؟

صمت لحظات . بقي سؤاله دون جواب . عاد مدحت إلى عماه دون أن يبدو عليه أنه مهتم بما يقوله له . صارت هذه المواضيع مشكوكاً بها . ولن تفيده بعد الآن . شيء مؤسف . كان طعم السيجارة مقبولاً بعد الكبة والشاي . لن يكرر المحاولة مرة أخرى . لا زالت في جيبه بقايا الخمسين فلساً وسيستعملها للعودة بالباص . ثم سيأخذ غفوة طويلة حتى العصر وما بعد العصر . لن يهمه أن يفشل في الاستدانة ، لن يهمه كل هذا . كان الضوء في الغرفة لطيفاً خافتاً وكذلك الحرارة . لم يشعر برغبة في مغادرة المكان . كل شيء يريحه هنا ؛ وكان ينفث دخان السيجارة ببطء . دخل الفراش حاملاً بعض الأوراق . وضعها بهدوء على المكتب ثم خرج . سمع الساعة من بعيد تدق عدة مرات . لعلها جاوزت الثانية عشرة ظهراً . منتصف النهار الحار . سيقوم بعد قليل لينغمر في محيط النور والحرارة والعرق والأجساد النتنة . لا مجال لتلافي ذلك أو محاربته. نحن أورثناه لكم . لنعشه إذن . لتعشه خالي الفكر والجيب .

أطفأ سيجارته بعد أن شعر بدخانها يلذع لسانه ؛ ثم قام :

– زين يابه مدحت . لعد نشوفك اليوم انشاالله ؟

كانت لهجته حزينة مؤسية . رفع مدحت نظره إليه مندهشاً :

– وين رايح ؟

– أرجع للبيت .

twitter @baghdad_library

– شكو عندك بالبيت ؟

فوجىء قليلاً :

– ما عندي شي . استراح . أقرأ شوية .

– داگعد هسه . حارة الدنيا . خل ديخلص الدوام ونرجع سوا .

لم يجلس . أزاد ذلك الحديث من حزنه ، فصمم أن يعود لينام :

– لا ، عيني مدحت . أحسن لي أرجع هسه خاطر أنام شوية .. ورا الغدا .

– كيفك . احنا على موعدنا ، على كل حال .

سلم بيده وخرج مغلقاً الباب بهدوء خلفه .

كان لا يزال حزيناً حين واجهته أشعة الشمس الملتهبة والساحة الفارغة ثم الشارع المليء بحركة الناس والسيارات . تحسس جيبه فمرّ على بعض القطع من النقود المعدنية .. أربعين فلساً . يمكنه إذن أن يعود مستقلاً الباص ، وسيفعل . لم يكن جائعاً ولا متعباً ، ولكنه أحس بجسمه لا يستجيب لحركات سيره . خطر له أن هذا قد يكون تعباً روحياً ؛ وكان عليه أن يفسر ذلك لنفسه فيما بعد .

... رأى أبا شاكر ينزل كأس العرق ويضعها بحذر على الأرض قربه ، ثم يمسح فمه وينظر إليه . كان قابعاً في الدكنة قرب المدخل . نظارتاه السوداوان وسدارته المرتفعة تسبغ عليه مسحة المآتم . سمعه :

– أخ حسين ..

يمط كلماته ويرخيها « خشاف الليل . لعنة والديك » .

– ... آني دا أشوف ..

« كلش مضيع بابوج حلگه »

– ... يعني اذا تسمح لي ..

لحيته تغطي وجهه النحيل وملابسه غامقة كلها . « لازم أخذه العرك من وكت . ابن اليمني »

— ... آني دا أشوفك اخ حسين ..

« لا والله . لا دتشوفني ولا بطيخ » .

— ... متأخر هواية بالشرب . يعني اذا تسمح ...

— تفضل ابو شاكر . ليش ما أسمح ؟ شكو بيها ؟

« لك بقت على هاي »

— لا يعني .. مو تمام ؟

ثم تحرك عدة حركات سريعة ومضطربة ونظر إلى ساعته :

— ... تره ساعة ثمانية وربع !

« عبالك اكتشف النفط بالعبخانة » . لمعت نظارتاه وخيل إليه تحت الضوء الشاحب أنه يرى فمه يعوج قليلاً . « هواية العرك ما آخذه » . أجابه :

— بسيطة ابو شاكر . دا انتظر جماعة .

بدت الدهشة على ابي شاكر :

— يعني هذا مو أول بطل بيرة ؟

« بالاسلام ؟ »

— ميخالف ابو شاكر . علينا بالتالي .

« منو راح يدفع ؟ ابن الثولة » ضحك طويلاً وتراجع منكمشاً كالخنفساء في مقعده الخشبي :

— خوش حچاية هاي أخ حسين . وچ الصبح تسمع حس العياط .

« شنو هلا مربوطيات ؟ » انزاحت الستارة التي تفصل الدكان عنهم وبدا أبو ناظم :

— السلام عليكم . والله من باب المعظم جيت مشي إلى هنا .

صرخ أبو شاكر :

— الله واكبر .

twitter @baghdad_library

« لعنة والديك . خرعني والله » :

– عليكم السلام . لويش ابو ناظم ؟ ماكو باصات ؟

جلس على المقعد الخشبي جوار ابي شاكر وأخرج كفية قذرة أخذ يمسح بها وجهه:

– شارع الرشيد مليان سيارات ، واگفة كلها . الباصات تمشي خطوة خطوة والناس ديختنگون أبطنها . هاي حال يا جماعة ؟

كان ينز عرقاً ، أحول ، كث الشعر مليء الجثة . هتف أبو شاكر :

– لويش يابه ؟ شكو ؟ ما تگول لي شكو .. أشصار ؟

– كلشي ما كو ابو شاكر . گلت آني أحسن ما ادفع فلوس واختنك ، خلي أتمشى وأحط فلوسي بجيبي . تمام ؟

صرخ أبو شاكر مرة أخرى :

– أحسنت . أحسنت أبو ناظم .

« هاي شلون الليلة ويا هالمطي؟ » نادى أبو ناظم :

– أبو كمال . يا أبو كمال .

أطل أوانيس برأسه :

– نعم .

– ربع عرك الله يخليك ويخلي والديك ابو كمال .

– صار .

هل سيأتي مدحت أخيراً ؟ لا يمكن أن يخطىء في إيجاد المحل . سمع ابا ناظم يكلمه :

– شلون الصحة ابو سها ؟

– الحمد لله . الحمد لله ابو ناظم . انت شلونك ؟

– عال . ممتاز .

همس ابو شاكر شيئاً في أذن ابي ناظم فمال هذا إليه . كانا مثل غرابين ، في زاوية الغرفة المظلمة ؛ وكان الحر مزعجاً . دخل أوانيس بخفة فوضع قنينة العرق والكأس قرب

ابي ناظم ثم خرج بعد أن نظر إلى كأسه هو . ألن يأتي مدحت ؟ رفع الكاس وشرب ما تبقى في قعرها من بيرة حارة . كانت يده ترتجف قليلاً وفي جسمه تسري حمى خفيفة أو ما يشبهها . لم يأكل شيئاً منذ الصباح ؛ بعد تلك الكبة الخالدة ! ولقد أفاده أن ينام ساعات بعد الظهر دون ازعاج . نوم الأموات ؛ دون أحلام أو احساس بالحر . لكن اليقظة أتت بعد ذلك . عاد صاحياً قلقاً مرتجف اليدين . وهو يعلم جيداً أنه لا يستطيع طويلاً احتمال حالته هذه . سيبدأ بشرب العرق بعد قليل . لن تعوزه الحيلة لتدبير ثمن ربع العرق ؛ حتى ولو اضطر للاستدانة من ابي ناظم . كانا لا يزالان على تهامسهما المريب . قال لهما :

— يابه ، اذا تردون آني أگوم اطلع . انتو اخذوا حريتكم يا جماعة .

صرخ أبو شاكر :

— الله واكبر أخ حسين . شنو هالحچي ؟

وهتف ابو ناظم :

— مولانا شكو عدنا . انت ما تعرف ابو شاكر . ألف حچاية وقبض ماكو . خلي دنشرب يابه .

ثم انحنى يدير لنفسه عرقاً في الكأس المليئة بقطع الثلج . « ما ديشوف المطي ، آني ما عندي مشروب؟ هاي شلون راح اندبرها ويه هذوله الخرنگعية ؟ » وأضاف ماء فتحلب السائل في الكأس . وضعه على الأرض ثم أخرج من جيبه كيساً ورقياً صغيراً فتحه وقدمه إليه :

— تفضل ابو سها . فستق عبيد . بعده حار .

« واصل »

— أشكرك ابو ناظم .

سمع شخصاً يكلم أوانيس في مقدمة الدكان ، عرفه من صوته فقفز من مكانه .

كان مسروراً وهو يعود بمدحت ويعرفه بالجماعة ثم يجلسه على مقعده ، ويسحب برميلاً فارغاً فينزوي جواره . شعر كم كان متوحداً مستوحشاً ، من دون شراب ولا

twitter @baghdad_library

نقود . لم يألف آن تستجيب نفسه للشاربين معه وهو لا يزال صاحياً . طلب ربع عرق وقنينة بيرة مثلجة . كانا ، ابو شاكر وأبو ناظم ، في حديث مبهم آخر ؛ غرابين لا أهمية لهما الآن . بد اله مدحت أنيقاً شاباً تنبعث منه رائحة طيبة . قال له ذلك بعد جرعتين قويتين من السائل السحري . ابتسم مدحت ولم يجب . كانت الساعة تقارب التاسعة . سأله :

— الجماعة ، رضوا على الكتب ؟

نظر مدحت نظرة سريعة إلى رفيقيهما ثم همس :

— منيرة ؟

فهز له رأسه . « شلون حلو اسمها » . سمعه :

— اي . عجبتها الكتب .

ورآه يجرع جرعة كبيرة من البيرة فرفع كأسه هو الآخر وشرب . كان محتاجاً أن ينتقل من عالمه ذاك ، ولم يهمه ألا يجد مزة مع العرق . قال لمدحت :

— شفت كرومي گبل چم يوم . هواية ضعيف وأصفر شفته . شلونه هسه ؟

— الحمد لله . زين ومو زين . تعرف چان مريض ، حچيت لك . بقي مريض مدة طويلة . فد مرض غريب . ما تعر ق أشبيه . كأنه ما يريد يعيش ، ما يريد هالحياة .

— لو يش ؟ خير انشاالله ؟

— ما أدري والله بالضبط . فد قضية معقدة . عنده چان صديق يحبه هوايه . انسحاك گدامه بالسيارة ؛ وأثر هالحادث كلش عليه . هو من صغره ما يحچي ولا يختلط بأهل البيت . گبل چم يوم وگع بالحوش ؛ خرب . خبصهم غير خبصة . ما أدري شنو قصته هالولد .

كان يتكلم ببطء وبلهجة حزينة . لم يكمل وعاد يشرب جرعة كبيرة أخرى من البيرة . رفع كأسه بسكون هو أيضاً . « يبين ناويها اليوم » . أشعل مدحت سيجارة وقدم له واحدة فأخذها . كان ابو شاكر وصاحبه يتحاوران بحماس عن شيء غير مفهوم ؛ وكان يخشى أن يقطعا عليهما الحديث ، فلم يلتفت إليهما وتظاهر بأنه غير مهتم بما يبحثان .

– شلون وضعكم بالبيت ، مدحت ؟
– أي وضع ؟
– وضعك أنت ، والجماعة وشلون .. مرتاح انت ؟

هز رأسه وأشار بيده اشارة لا معنى لها :

– يعني .

ثم سأله فجأة :

– انت شلونك ؟ أقصد شلون حقيقتك ؟ وين راح توصل حسين ؟

حك رأسه . « مو خوش بداية على بختك » ونفث دخاناً من أنفه :

– ما أظن راح أوصل . لويش دا أوصل ؟

ثم ضحك . رأى الكآبة ترين على وجه مدحت . « مو خوش بداية يا فحل » استمر :

– شوف مدحت ، آني أعرف أنت تحبني مثل ما أحبك وأنت دتسألني مو بصفتك خال بناتي ، لا كت ..

ثم شعر بنفسه يبتسم :

– تره فات الوكت
– شنو هالحچي ؟ يا وكت وعلويش فات ؟
– لا تنخدع . ماكو شي يفوت وما تحس بيه ، مثل حياتك . لا تگول لي الشباب يبدي بالاربعين لو بالستين . شوفني آني هسه .. آني بهالوضع ، واحسب شگد ما تريد . شنو النتيجة ؟ ارجع للوظيفة ؟ وبالتالي ارجع ويه مديحة والبنات ؟ انت تعرف كلش زين ما تصير اي وحدة من الاثنين . ماكو وظيفة إليّ ما دام ...

ورفع كأسه عالياً بعض الشيء :

– چريو .

ثم جرع جرعة كبيرة . « خوش تمثيلية » . كان متأثراً بشكل ما ، من كلامه . لم يحدث نفسه بمثل هذه الصراحة من قبل ولا كان بوده أن يحدث مدحت هكذا . سمع

twitter @baghdad_library

مدحت :

— شوف حسين . خلي المسائل العائلية والاجتماعية من فضلك على صفحة .

— اشبقى لعد عني مدحت ؟

— بقى شي لاخ . هو هذا اللي اريد اسألك عليه . انت . نفسك . حقيقتك .

« راح تشتغل الفلسفة . الله يسترنا » . أجابه :

— آني شنو ؟ هذا آني . ماكو شي مخفي . أكو ؟ بقايا ورواسب المجتمع والعائلة . تف .

— گلنا هالشكل . كل البشر . مو هذا قصدي . شوف ، المهم ...

قاطعه بحماس :

— ماكو شي مهم عيني مدحت . كل شي يساوي كل شي . فرويد الله يرحمه مثل اي زبال عراقي بالهويدر الله يرحمه . وكتاب أصل الانواع يساوي ...

رفع مدحت يده فأشار إليه :

— دقيقة . آني مو عدمي بالطبع ولا ملحد . آني ، بس ، مفلس . مفلس من الحياة . لا ، مو يائس . أبداً .

كانت في راسه دوامة من الأفكار لم تتضح تماماً في أقواله ولم يستطع أن يعبر عنها :

— ... منيش أيأس ؟ آني بالأصل ما رايد شي من الدنيا . علويش أيأس ؟ وهاي الدنيا ، أخذها مني ، راح تمشي على هالحال بعد ميت سنة .. ميتين .. ألف ، شنو يعني ، اكو معنى بهالشي ؟ اذا ماكو معنى .. إذن خلص . واذا اكو ، گولي عليه بلا زحمة .

ثم تناول كأسه وكان حزيناً . لقد بدأت ليلته قبل قليل ، زمنه الحقيقي . رأى مدحت يدخن سيجارته بجمود ، دون أن ينظر إليه . يمكنه الآن أن يواجه اي شي رهيب ، أية مؤامرة . لن يستطيع أحد خداعه أو التغلب عليه . أنه خلال زمنه الحقيقي هذا ، شخص ممتاز في قدراته الذهنية والجسدية والعاطفية . كان الحرّ مزعجاً ولغط رفيقيهما يعكر عليهما الحديث . التفت إليه مدحت . بدا له متضايقاً :

— شوف حسين ، هاي حالتك وأفكارك ما اگدر أبحثها وياك هسة . آني دا أفكر

بمستقبل معين وانت دتسد كل الابواب .

– يا مستقبل ؟

ثم أردف دون أن يعرف لماذا :

– انت تريد تزوج . مو بالله مدحت ؟

أطفأ مدحت سيجارته وكرع بقايا كأسه . لبث فترة صامتاً ينظر أمامه كأنه غير موجود قربه .

ثم سمعه يتكلم بصوت أجش :

– المسئلة أنت ما تريد تخلي گدامك مستقبل ؛ ما تريد تحسب له حساب . وهذا شي سهل ومريح . خاصة اذا گدرت عليه ، إذا چنت منسجم ويه نفسك .

توقف . رأى في وجهه ، خلال دخان السجاير المتكاثف والظلام الخفيف قلقاً أو ما يشبهه . استدار إليه نصف استدارة ونظر في عينيه مباشرة . نظرة حادة ، شرسة :

– هذا الحچي مالك ما يخدعي حسين . انت علاقتك ويه نفسك شلونها ؟

مرتين سألتك هذا السؤال .

ثم أخذ يتكلم بهمس فجأة :

– شلونك ويه صوتك الداخلي حسين ؟ گل لي ، ما عندك صوت يركض وراك وين ما تروح ، يسألك عن كل شي ويعلق على كل شي ؟ هذا شنو ، هذا ليش سويته ، هذا صح . هذا غلط . هذا نفاق . هذا تعدي . هذي خربطة . هذي هزيمة ؟ صوت لا ينام ولا يتعب . يحچي وياك أثناء ما تحچي واثناء ما تسكت . من انت بوحدك وأنت ويه الناس . عندك هيچي شي حسين ؟ عندك ؟

كان خافق القلب لغير سبب وهو يحاول أن يبعد بصره عن وجه مدحت المعذب . بم يمكن أن يجيبه ؟ بالخيبات والانتكاسات ولحظات الخجل والعار ؟ أبمقدوره أن يعلن له أن الآخر عنده هو الذي صنعه ؟ قال بتردد :

– شنو .. يعني هالصوت ، عيوني مدحت ؟

– ما عندي شي أضيفه . انت لو تفتهم من أول كلمة لوما تفتهم . ماكو وسط .

twitter @baghdad_library

هل اختار حياته هذه ؟ هل صمم عليها ؟ أنها تلك الدقائق الحاسمة من الزمن الطويل هي التي صنعت حياته . كلمة زائدة حيناً وأخرى ناقصة في حين آخر . لحظة ملل لا يمكن التغلب عليها . اغراء كأس . استدارة ردف . فشل جنسي . سأله :

— إذا تقصد .. ما أدري والله ..

توقف . سأل مرة أخرى :

— لويش دا أحچي ويه نفسي ؟ مخبل آني قابل ، الله يخليك مدحت ؟

غامت عينا مدحت وانكفأ عنه يولع سيجارة . ثم سمعه يتكلم بصوت خافت :

— كيفك حسين . إذا ما تريد تحچي .. كيفك . بس انت دتفتهم .. ليش هالگد .. يائس ؟

أحزنته لهجة مدحت الكئيبة المنخذلة :

— گلت لك مدحت آني مو يائس ؛ آني مفلس من الحياة .. انت عبالك چنت دا اسخر .. لو دا أبالغ . لاگت هذا هو الواقع .. واقعي . شسوي ؟

رفع كأسه « لعنت والديّ إذا ما أفرغه كله هالنوبة » .

— جربت مرة أخلي نفسي على المشرحة . اگشرها . اشوف شنو آني ؟

زادت من حماسه ، تلك الحرارة الأليفة التي اشتعلت في جوفه :

— شنو آني .. منيش أتكون ؟ شنوها لجوهر القذر مالي ؟ منيش متركب ؟ شلون آني صاير هالشكل ؟

شعر بالكلمات تتثاقل وهي تخرج من فمه المرتخي الشفتين . دار رأسه قليلاً ثم استكان . كانت الكأس فارغة أمامه ، فتناول قنينة العرق وصب منها في الكأس ثم وضع قطعة ثلج وبعض الماء . كان بوده أن يقول شيئاً فذاً يذهل مدحت ويثير اعجابه . لكن الكلمات اللعينة لا تواتيه ، وذاكرته تظلم بين فترة وأخرى وتتركه وسط ركام ألفاظه المبعثرة ضائعاً مهاناً . وهو لا يحب أن يعيد تجارب من هذا النوع . إلا أن مدحت معه الآن ؛ وهو يتمنى ذلك منذ سنوات . هتف :

— تدري .. مدحت .. يعني شگد .. والله بالكويت .. شگد چنت أتذكرك ؟

صرخ ابو شاكر :

– رايح للكويت أخ حسين ؟ جگاير أخي ، جگاير روثنام الله يخ

– ماكو كويت ولا بطيخ ، ابو شاكر . منو يگدر يروح هالأيام ؟ الدنيا مگلوبة هناك .

كان مدحت ملتفتاً إليه ، ينتظر . لم يكن يصغي إلى ما يقوله ابو شاكر . « هواية د ياخذ القضية جدية » . استمر :

– حياتي بالكويت چانت كسيفة . ما چنت مستقر ولا مرتاح . اكو مشروب طبعاً ، لاگت ما تگدر ترتاح بالأوتيل . المهم ..

سأله مدحت بصوت ثابت :

– صدك جربت تلگي نفسك ، مثل ما گلت؟

آخذ يفتش في جيوبه عن علبة سجائر لم يجدها . « خوش ورطة اليوم ، سيد قندرة ». قدم له مدحت سيجارة فتناولها وأشعلها ثم امتص منها نفساً طويلاً . كان يشعر أنه على وشك أن يصل قمته المعهودة . قمة زمنه الحقيقي ، حين يختلط الفرح بالعالم والانذهال بالحياة ، فيصير الصدق خيالاً وتتلاشى الجدران . لم يرد أن يكذب على مدحت :

– ما ادري . يمكن . فد مرة طلعت من البيت وما رجعت . چنت اشتغل ذاك اليوم بمصرف الرافدين وچنت تزوج صار لي تاث سنين أو أربعة . ما اتذكر زين . حالتنا المالية لا بأس بيها ، وچنت متصل أبعض الجماعات السياسية التقدمية والأدبية .أي طلعت . بس وين راح اروح ، ما ادري . شراح اسوي ، ما ادري . شي واحد چان بذهني .. ما اريد أعيش نفس حياتي .

... أغراه صديقه فاروق بلعبة بوكر عالمية في احدى الدور المشبوهة . شراب وقمار ومن المحتمل .. نساء أيضاً . خرجا بعد الدوام يحملان راتبهما ووصلا الدار في منطقة من مناطق الكرادة بعد الظهر ولم يتصل حتى تلفونياً بمديحة ليخبرها أنه لن يعود للبيت . وجدا ترحيباً حاراً ولم يمض وقت طويل حتى باشرا باللعب مع الحاضرين ومع من أتى بعدهم ...

twitter @baghdad_library

– ما چان عندي قصد معين من رحت للاوتيل وأخذت غرفة . چنت أريد اختلي بنفسي بس ؛ أريد أشعر ماكو عندي أي روابط ولا مسؤولية گدام أي شخص . چنت مثل فد واحد متلبسة فكرة . شنو آني بلا وظيفتي ولا عائلتي ولا أطفالي وبلا بيت ولا أصدقاء ؟

... تلك كانت ليلة رائعة . قمار وورق مدهش ونقود تتكوم أمامه وويسكي يفيض من الكؤوس وماري . كانت مندسة قربه ، تسحق نهدها البارز على كتفه مرة وتتكىء بردفها على كرسيه مرة أخرى، وتتهامس معه وتتعابث وتتغامز. والساعات تمضي أقصر من الدقائق ...

– شنو آني ، چنت أسئل نفسي ، إذا ذبيتني ربي كما خلقتني على فد جزيرة لو بفد زيزة ؟ شنو آني بلا ماضيّ ولغتي ؟ بقيت گاعد أفكر . وبالحقيقة .. يعني چنت مثل المسجون بها لأفكار طول الوكت ، مثل مريض بالتفكير . بلا أكل ولا شرب طول الليل .

... كان الورق فذاً طوال تلك الليلة وما دامت ماري اللذيذة بجانبه تسقيه وتداعبه. ومضت الساعات وانبلج الفجر ولم يستريحوا غير فترة قصيرة تناولوا فيها طعاماً خفيفاً وتلمس طويلاً نهدي ماري وقبلها في زاوية من الدار . وعادوا إلى المائدة وكان رأسه فارغاً ، يرن كالطبل ...

– ونمت وگعدت وراء الظهر. بقيت بفراشي بلا أكل ولاحلاقة . ما شفت أحد ذاك اليوم وچنت أريد أبقى على هالعزلة .

... جاوزت الساعة الواحدة ظهراً ، فلم يعد يستطيع رؤية الورق جيداً وطلب أن يستريح قليلاً . أراد أن ينام فقط ولم يخطر له قط أن يعود إلى داره وأطفاله أو أن يتصل بهم بأي شكل كان . كان رابحاً مبلغاً لا يتذكره من المال وكان يريد أن يجامع ماري . طلبت رقماً من الدنانير فأعطاها اياه دون تردد ورافقها إلى غرفة في جهة من البيت ...

– گمت أتمشى بالگبة . زين أتذكر هذيج الساعات.عبالك‌ابدا أركض ورا فد خيال ..

فد شي ما ينكمش ولا ينشاف . وانتهيت بالتالي لنتيجة واحدة .. ما أگدر ، آني ها لانسان ، بهالوضع ، بهالحالة العقلية .. ما اگدر اوصل إلى نتيجة ، لأن ما دا أگدر أثبت شي ولادا اعرف منين أبدي .

... يا للخيبة ! خيبته وخيبة ماري اللعوب . كان رقوده على الفراش اللين يعني تخديراً له . لم تعد في جسمه أية طاقة لمقاومة التعب والارهاق . وهكذا ، ما أن وضع رأسه على المخدة ، يريد أن يستريح لحظة ، حتى تهاوى في نوم عميق أبعده عن ماري وعن جسمها الحار ...

– بس ساعات التفكير هذي خلتني أحس فد صفاء بنفسي ما مجربه من گبل . طلعت من الاوتيل وچان الوكت دنيا ليل ورحت إلى أقرب بار . شربت وشربت عبالك دا أشرب روح الحياة . شعرت بنشوة هائلة وبقيت أشرب إلى نص الليل . ما اكتفيت ، اشتريت بطل ويسكي وأخذته ويايه للغرفة وبقيت أشرب إلى أن طر الفجر .

...أيقظوه بعيد العصر ، ولم تكن ماري معه . ذهبت دون أن تترك له شيئاً حتى ولا رائحتها . جلس إلى المائدة وهو يحس ، لغير سبب، أنه فقد جزءاً من نفسه . لا يزال يذكر لحظات جلوسه تلك قبل أن يأتي بقية اللاعبين . كانت السماء تبين له من خلال شباك ، زرقاء صافية مليئة بالفرح والنور . كانت عالماً نقياً بعيداً أرعبه فجأة . وعاد إلى اللعب وفارقه كل حظه . قاوم بعنف وتشبث بآخر ورقة نقدية لديه . ولم ينفعه ذلك . شعر أن حكماً قاسياً صدر عليه حين كان ينظر نظرته تلك إلى السماء . وانتهى كل شيء عند الفجر وخرج من الدار فارغاً مستنزفاً ...

– وطلعت من گبتي ويه طلعة الفجر . نفسي حسيت بيها فارغة . بقيت أمشي بوحدي بالشوارع الخالية . چنت مفلس ومهزوم . مهزوم مرتين ومكسور . عرفت ذاك الوكت شنو آني .

لا زال مدحت يصغي إليه والدخان في الغرفة كثيفاً والحرارة لا تطاق . رفع كأسه وشرب جرعة كبيرة من السائل اللاذع البارد . كان مرتخي الجسد ، يدغدغه شيء ما

twitter @baghdad_library

غامض في عقله وأعصابه . أراد أن يكلم رفيقيه البعيدين وأن يسمع منهما شيئاً مضحكاً أو بذيئاً . همس مدحت :

– هاي شنو هالغفوة هاي .

تماسك منصتاً ليس مستبعداً أن تخدعه أذنـاه . أخذ نظره نحو وجه مدحت . لم يكن مخطئاً في فهم كلماته . بدا له في انطباقة فمه وفي عينيه الضيقتين أنه لن يسكت عن قريب . عاد يتكلم بصوت خافت حاد :

– عبالي مخلص ويه نفسك . عبالي عندك حچايات بيها معنى .

ثم رآه يتناول الكأس بسرعة ويفرغها في جوفه . شعر بقشعريرة تمر من عنقه إلى صدره وظهره . بقي ساكتاً متوجساً . لا مجال أمامه لكي ينفي أي شيء قاله . لا شيء على الاطلاق . لم يكن مستعداً لمعركة مع مدحت عن الحقيقة والحياة . قال :

– شبيك عيوني مدحت ؟ حچيت غلط ؟ غثيتك ؟

وكان صوته يابساً مرتجفاً . لم يجبه مدحت . طلب قنينة بيرة أخرى ، فصاح منادياً اوانيس فاسرع هذا إليهما . وجد متنفساً لاعصابه وهو يسمع نفسه يطلق النداءات ! كان ذلك عملاً طيباً . ثم عاود مدحت الكلام :

– آني احترم وضعك حسين . ما أگدر أگول لك وين الخطأ بأعمالك . هذا مو شغلي. يمكن آني افتهم ضعفك وبعض تصرفاتك ؛ لاكت خداعك إليّ تره ما أگدر أطيقه. انت لويش تتظاهر عندك مغامرات فكرية الله يجرم وانت تعرف كلش زين شگد دتزيف الأمور ودتغش ؟ آني أريد أعرف أشد تعاني من هالحياة الوسخة . شلون يعاملوك الناس . مذلتك . أهانات الدنيا . ظلم العالم . أريد أعرف أنت دتفتهم .. دتراقب .. دتعرف وين واصل ؟

كان فمه جافاً وفي فكيه أحس ارتخاءً غامضاً . قطع ابو شاكر وابو ناظم حديثهما وتوجها بالنظر نحوهما . بِمَ يمكن أن يجيب وكيف يتصرف ؟

كان يدخن سيجارته بعدم اهتمام وكأنه بمفرده . سأله بصوت منخفض خامد :

– لويش دتهيني عيوني مدحت ؟ آني أحبك مثل أخويه .

رآه يتنفس طويلاً وبعمق ثم التفت إليه :

– آني ما أگدر أهينك حسين . انت زين تعرف هذا . آني بالعكس أريد احترمك ، أريد أشعر بعد بيك أمل . بس ، مثل ما گلت لك ، لا تقشمر نفسك وتقشمرني . ما عندي وكت حسين لهيچي شي ، لأن آني هم عندي مشاكل أتمنى لو أگدر احچي لك عليها .

سرته هذه الكلمات . شعر أنها تعبر عن حقيقته بشكل ما . قام فقبل مدحت في رأسه :

– أنت أخويه مدحت ، وأنت تعرف أحسن مني شنو آني .

هتف ابو شاكر :

– بيها الخير يا جماعة . لاع . انشالله ماكو شي .

أيده ابو ناظم :

– نعم . نعم

– مولانا أحنا گرايب . أخوة وگرايب . انتو شد تحچون ؟ چريو يا اخوان .

لم يكن خجلاً ؛ لكنه تمنى أن يكون في فراشه ، في غرفته تلك المنعزلة ؛ أو في حمام شرقي مليء بالبخار ، مقرفصاً يسكب الماء الحار على كتفيه . لعله ينسى ما يُقال له ، لعله ينسى تاريخه وما يجب أن يُعمل . لقد أراد مدحت باخلاص أن يشاركه شقاءه ؛ ولكن ، هل بمقدوره أن يخبره الا فائدة ترجى من ذلك ؟

كانا يشربان بهدوء وببطء دون أن يتبادلا الكلام . بدا له أن وقته مع مدحت سيكون قصيراً ، فآثر أن يلزم الصمت لئلا يثير غيظه مرة أخرى . قال ابو شاكر يكلمه :

– اخ حسين . حچاية الأخ .. الأخ الحلو ..

غص ابو ناظم بضحكة مكتومة شاركه فيها ابو شاكر . ابتسم هو ونظر بحذر إلى مدحت . رآه مشغولاً بأفكاره وعلى وجهه مسحة من الغياب عن عالمهم . أراد أن يخفف عن أعصابه قليلاً بمداعبة رفيقيه ، الا أن القادم الجديد قطع عليه مشروعه . كان طويلاً بغير رباط وشعره الأسود اللامع يتناثر على جبهته :

twitter @baghdad_library

– مساء الخير .

ووقف وسط الغرفة حين لم يجد له مكاناً . هتف :

– مساء النور . اهلا . اهلا عدنان .

– مرحباً أخي . هسه چنا دنسأل عليك .

تراجع عدنان إلى الوراء ونادى بصوت عال :

– ابو كمال . سكملي بالله سكملي .

قال له :

– تعال هنا اگعد إذا تريد .

وسحب برميل عنبة فارغاً من وراء كرسيه . أشار له عدنان برأسه أن لا ، ثم رآه يرى مدحت ويتراجع ثانية :

– شلون الصحة استاذ مدحت ؟

خيل إليه أن صوته انكسر مرة أو مرتين . أجابه مدحت :

– كلش زين . أشكرك عدنان . أنت شلونك ؟

– الحمد لله .

دخل أوانيس حاملاً كرسياً من القصب فتناوله منه عدنان ووضعه في المدخل وقال وهو يجلس :

– بيرة ديانا باردة بالعجل ابو كمال .

– صار .

– الله بالخير . الله بالخير .

– مساكم الله بالخير..

ثم أخرج علبة سكاير قدم منها للحاضرين . لم يأخذ مدحت وبقي يراقب عدنان بفضول ، سأله هو :

– شدعوة يابه مستعجل البارحة عدنان ؟ على الأقل وصلنا .

وضع عدنان ساقاً على ساق .

– چان عندي شغل ابو سها .

شعر بالغيظ يتملكه . هذا الأخرق ! يعتقد أن بضعة دنانير في جيبه تعطيه الحق في احتقار من يشاء من الناس . سمع مدحت يسأله فجأة :

– انت جيت البارحة لبيتنا شريد عدنان ؟

فانهار بناؤه . سحب السيجارة من فمه وعدّل من وضع رجليه ؛ صفهما أمامه متلاصقتين ، وأسرع يجيب :

– نعم . نعم . جيت أسأل على مذ ... على خالتي . خالتي يردوها بالمدرسة عدنا ابعگوبة .

– شيردون منها ؟ وانت شوداك للمدرسة ؟

بلع ريقه . رآه يبلع ريقه . لم يسبق له أن شاهده هكذا . الملعون الأهل . كان مضطرباً كالنعجة . تكلم متلجلجاً :

– امي .. هه .. أمي هي راحت . آني شعليه .

دخل اوانيس يحمل قنينة البيرة المضببة فخطفها منه عدنان وأسرع يسكب محتوياتها الفوارة في الكأس . طفحت الرغوة البيضاء وسالت على الجوانب . تعالت هتافات الحاضرين :

– لا . لاع . على بختك . يا معود . حرماة هالبيرة الحلوة .

غمس عدنان فمه في الكأس المليئة وجرع جرعة كبيرة فتبللت جوانبه وشعيرات شاربه . ثم رفع يده بالكأس هاتفاً :

– صحتكم يا جماعة . العفو . صحتكم .

– صحتك . صحتكم . جريو .

وشربوا . كان مدحت يتأمل عدنان ساكتاً غير مهتم بما يجري حوله . لم تشغله ضوضاؤهم عن تفحصه . تمنى هو ألا يعاود مدحت أسئلته تلك ؛ أنها تخلق جواً لا يرتاح له قلبه . وهو لم يفهمها بالضبط ولم يدرك ما تعني على مستواه الشخصي . سأل مدحت محاولاً أن يجذب انتباهه :

– شگاعد تقرا هالأيام مدحت ؟

twitter @baghdad_library

التفت إليه ومط شفتيه دون جواب . سأله مرة أخرى :

– والبنات ، شلونهم بالمدرسة ؟ سها وسناء ؟

– ناجحات . نجحوا ثنيناتهم . سناء درجاتها أحسن من سها . تبين أذكى .

– ها ! هواية چانت ذكية سها هم .

سمع ابا شاكر يهتف :

– أخ حسين . شنو قضيتك ؟ أشو دتسأل على بناتك ؟ ما تعرفهم زين ؟

خير انشالله .

لم تكن نظارتاه السوداوان تخفيان عينيه بقدر اخفائهما لمشاعره ونواياه . داهمته فكرة مجنونة وهو يمسك بكأسه ويرفعها إلى فمه ... أن يرميها بكل ما تحتوي على هذا الوجه الأسمر المحروق المتغضن . وجه القرد . صب العرق البارد في جوفه فأحس بالحرارة تنبثق في وسطه وتتصاعد إلى أعلى جسمه . لن يجيبه . أدار نظره إلى الحائط عن يمينه ، ثم مسح أنفه وجبهته . لن يجيب . يتظاهر بأن الوخزات لا تؤذيه .

سمع مدحت يهمس :

– لا تلوم شخص ما يعرفك ، ولا يعرف حياتك . لا تلومه .

التفت إليه . كان رأسه في دوامة يشتد دورانها كل لحظة . خشي أن يفوته الوقت الذي يستطيع فيه أن يضبط نفسه . رن صوته في أذنيه وهو يتكلم بلثغة خفيفة :

– ابو شاكغ . أحنا ولد الگريّة .. كل واحد من عدنا ..

قح بعنف ثم أشار بذراعه إشارة عريضة أرادها أن تكون بذيئة :

– يعغف .. يعرف أخيه .

وكان يقوم لسانه ببعض الجهد كي يكون مفهوماً :

– هذاك الولد بالكويت اللي گطعت عليه مهر ..

عاط :

– وين صاغ ؟ وين صار يابه ؟

ضج عدنان بضحكة رنانة وهتف . محمر الوجه تغطي جبهته خصلة شعر ، وكأسه

في يده :

– اويلاخ ! صحتكم يا جماعة

أجاب ابو شاكر صارخاً هو الآخر :

– أخ حسين ، انت لويش دتسأل عبالك ما تدري ؟ كل واحد على راحته . انت أخذ راحتك وآني آخذ راحتي هماتين .

بدا كل شيء منطفئاً في وجهه ذي الثنايا الملتوية . استمر :

– آني ، عذروني يا اخوان ، شخص .. آدمي ما عندي منا .. منا . يا هو مالتي . كل واحد يدوّر على راحته . آني يا هو مالتي ؟ صح لو غلط يا اخوان ؟ آني يا هو مالتي إذا الأخ حسين يشرب ليل نهار مستمراً وما يندل دربه ؟ لو إذا الأخ حسين يركض ورا .. تكرمون .. ورا النسوان من تكان إلى تكان وهو كل شبر يتكربس ؟ آني يا هو مالتي . اخ حسين دياخذ راحته . أخ عزيز ، هو يشوف شغله . هو يا هو مالته يا اخوان ، إذا آني گطعت مهر على بنية تكرمون .. لو على ولد ؟ آني أعرف شغلي . آني أشوف اللي يصرف لي . آني أريد آخذ راحتي . صح لو غلط ، يا اخوان ؟

عادت ضحكات عدنان تجلجل . رأى مدحت ينصت باهتمام إلى ذلك الهذر المستطيل . شعر بسخف الموقف أكثر من شعوره بالحنق . هكذا ابو شاكر كلما أخذه العرق . لا يمكن أن يجيبه بشكل جدي . تكلم مدحت :

– شنو يعني تاخذ راحتك أبو شاكر ؟

رفع ابو شاكر كأسه ببطء وشرب منها متمهلاً :

– والله يا أخي ، مثل ما گلت هسه كبل شوية . آني آخذ راحتي . شنو احتاج ؟ شتّريد نفسي ؟ ها .. يابه ؟ شنو يدور بدماغي ؟

صرخ هو :

– ولد حلو طبعاً . بجغ حقيقي .

رنت ضحكات الحاضرين ، أكمل :

twitter @baghdad_library

– لاكت ابو شاكغ . تره لعلمك آني ما واگع فد يوم بالشارع ولا متكربس . انت لويش دتحترق .. دتختلق عليّ حچايات من عندك بالماكو ؟

– اخ حسين ، آني شفتك بعيوني هاي .

وأشار إلى نظارتيه السوداوين ، فصرخ :

– ها ! بعيونك هاي .. عيون الصگر ؟ هيچ لعد . انتهى الموضوع يا چماعة .

داهمته ، خلال لحظات السكون ، صورة تلك الفتاة العجيبة . برزت في الشارع امامه من لا مكان ، سمراء سوداء الشعر ، سوداء العينين ، لا يجاوز عمرها العشرين ربيعاً . ودخلت مخزناً من المخازن . كانت ترتدي ثياباً بيضاء مزركشة ومعها امرأة أو اثنتان . وكان متعباً من سهرة مزعجة ومن العمل طول النهار في الشركة ، جائعاً ضائعاً . وجد في وجهها الفتي ذي الفتنة الغريبة راحة لا تفسير لها . كان بوده أن يتأملها إلى الأبد ، أن يغرق في بحر تلك العينين المسحورتين . اقترب منها عدة مرات فابتعدت عنه . لم تكن كويتية كما تبين من لهجتها ؛ وكانت شفتاها عريضتين بحمرة قانية وشعرها العميق السواد مرتمياً بكثافة على كتفيها وظهرها . ود أن يلمسها . تلك الأصابع السمراء الرقيقة جداً والعينان الكحليتان والالتفاتات . ولم يجد ذلك أمراً طبيعياً رغم الجوع الجنسي الذي كان يفترسه . كان انجذابه لها أوسع وأعمق من قضايا الجنس والمتعة العابرة . بدت له تحقيقاً لأرق عواطفه نحو المرأة وتلاقياً مع أحلى أحلامه عن الحب . ثم رأى صورته في مرآة كبيرة وهو يكاد يلتصق بها ، ورأى بوضوح وجهه الأصفر الملتحي ذا النظرات الضائعة ، فذهل أمام ذلك الشبح الذي واجهه على غير انتظار . كان ابو ناظم يكمل حديثاً سابقاً :

– ... گلت لهم آني منين أجيب لكم أكل ملاعين الوالدين ؟ گالوا لي سيدي أحنا بدخلك ، تريدنا نموت من الجوع ، نموت . تريد أنعيش دبر لنا أكل والله يجزيك خيراً على خير . هاي شلون طرگاعة . چانوا خمس أفراد شرطة ويايه وآني چنت مفوض تحته . هاي حچاية عتيگة . گبل عشرين سنة يمكن . لا والله خمسطعش سطعش سنة . گلت لهم لكم تعالوا ويايه . چنا بالبادية والاكل صار اسبوع ما

وصلنا من سامرا . طلعنا للصحراء واحنا مسلحين. صفنت صفنة طويلة . شلون أدبر لهم أكل ؟ هذوله كل شي يسوون إذا أخذهم الجوع . من بعيد شفت فد غبرة . تربة چبيرة تتقدم علينا . أمرتهم يأخذون موقع وگلت لهم انتو ما عليكم . آني أتصرف. عرفت هاي الغبرة شنو . وبالفعل چانت قطيع غنم . لما صاروا على مرمى البندقية صوبت بندقيتي ورميت على خروف . وگع حالاً . گام الراعي .. فد عربي .. يصيح ويأشر بعباته .. صديچ .. صديچ .. مال الجلب . گلت لهم .. للث فد چم طلقة بالهوا .. وفعلاً ، چم طلقة خلته يلف عباته وينهزم . شنسوي أخي . أخذنا خروف خروفين وتركنا الباقي . يعني مقصودي يا چماعة ..

... ولم يجدها حين أفاق من ذهوله أمام صورته في المرآة . ركض خلفها مضطرباً ، فتعثر بباب المخزن الضيق وانهار على الأرض . ولم يرها مرة أخرى .

كلمه مدحت :

– ساكت أشو حسين ؟

انتبه إليه . كانوا واجمين في الغرفة الضيقة المليئة بالدخان . سأله مدحت :

– ما تشرب فد ربع لاخ ؟

– لا عيني مدحت . أخذت حقي اليوم . اشرب أنت . بيرة تريد ؟

ثم نادى على اوانيس قبل أن يسمع جوابه . كان عدنان يشرب من كأسه بهدوء وأمامه قنينتا بيرة فارغتان . رأى ابا شاكر يراقبه.لم يهتم به . كان يعرف أن ليس باستطاعة ابي شاكر أن يؤذي أحداً ، إلا أنه لم يستسغ اشارته إلى بنتيه .

هتف ابو شاكر قاطعاً الصمت :

– لگيت الدب ، يكسر لب . كُتلت الدب وأكلت اللب .

التفت إليه ابو ناظم :

– هاي شنو ابو شاكر ؟

– حزورة ابو ناظم . تگدر تگول بالعجل ..

كانت كلماته تتمطى قبل خروجها من فمه :

twitter @baghdad_library

– لگيت .. الدب .. يكسر لب ..ها يابه .. كتلت الدب .. وأكلت اللب . شفتو شلون يا اخوان ؟

كركر عدنان بضحكة عالية :

– هذا شلون دب اللي انت تكتله !

– حزورة أخوية هاي . موگلنا حزورة . آني لا كاتل دب ولا شايف دبا . المقصود .. تگدر تقراها بالعجل . لگيت الدب ..

قاطعه عدنان وهو يقف أمامه ، طويلاً مكشوف الصدر :

– آني ...

توقف لحظة . كان يبدو عليه أنه يتمتع بلفظ هذه الكلمة . رفع شعره عن عينيه :

– آني سيد أگدر أدليك على مكان الدب . تريد تعرف وين هو ؟

كان ابو شاكر وابو ناظم يتطلعان إليه ببعض الحيرة والفضول ومدحت يحزره .

هتف عدنان :

– تدري وين الدب سيد ..

وأشار بذراعه اشارة عريضة نحو جهة من الجهات :

– هناك .. أباب المعظم .

قال ابو ناظم :

– خلينا من السياسة سيد . ما عدنا شغل أحنا بهذا الدب .

سأل أبو شاكر بقلق :

– ديحچي على الزعيم ؟

أجابه ابو ناظم :

– ما أدري . ليش ما داتفتهم ؟ عقلك صاير بيه بك فاير ؟

استمر عدنان ، واقفاً بجمود ، مشيراً بذراعه ووجه مغطى بالعرق وعلى فمه ابتسامة غريبة :

– هذا الدب .. سيد .. هو اللي لازم .. نكتله .

همس ابو شاكر :

– من يكبر السبع تضحك عليه الواوية .

فصرخ عدنان :

– شنو ؟ أحنا مو واوية سيد . اعرف اوادمك زين .

– العفو أخي . العفو . آني دا أحچي على نفسي . انت شعليك ؟

– شبيك انت ؟ مواطن شريف ندافع عنك احنا . وانت هم لازم تدافع عن حقوقك . حقك وحقي . شبيك أنت ؟

– ما بيّ شي أخي . بس .. زمال الطمة كل ما يجي يريد منه حيل جديد . هاي هيه .

– لا تحچي هالشكل سيد . أنت ما تمثل الشعب . أحنا ..

قاطعه ابو ناظم على حين غرة :

– انتو منو ؟ انتو منو أخونا ؟

انزل عدنان ذراعه إلى جانبه ببطء :

– أحنا ؟! تسألني منو ... أحنا ؟

ضاقت عيناه ، وبدا عليه كأنه يهم بالكلام . ثم مط شفتيه واستدار :

– تسمعون من عدنا عن قريب .

نظر نظرة جانبية حادة إلى مدحت ثم توارى خلف الباب .

لبثوا ساكتين بعد ذهابه . سمعه يسدد حسابه إلى اوانيس ويخرج . لم يسبق له أن تكلم بمثل هذه اللهجة من قبل . كان يسخر ، ببعض الغباء ، ويبدو عليه كأنه يعرف سراً دون بقية الناس . أشعل مدحت سيكارة ثم جرع من كأسه جرعة كبيرة .

سمع أبا ناظم يكلمه :

– سيد حسين ، تعرف هذا الولد ؟

فهز رأسه بالايجاب . كان الحر يضغط على أعصابه ويثيره أكثر مما فعل عدنان .

twitter @baghdad_library

التفت ابو ناظم إلى ابي شاكر :

— شفت يابه ابو شاكر ، هم الجماعة يعرفوه ، أحنا شعلينا ؟

— نعم . نعم . ما أدري ساعة بيش هسه ، ابو ناظم ؟

— بالعشرة ونص وخمسة . هم يالله .

— نعم . نعم .

ثم رفعا بحركة واحدة كأسيهما وأفرغاها وقاما فسلما ثم انصرفا . تم كل ذلك بهدوء وبسرعة .

مسح العرق عن وجهه ورقبته . كان مدحت يدخن بسكون ، لا يظهر عليه أنه تأثر بما شرب . لم يرتح هو كثيراً لكل ما قيل وما جرى . جذبت حواسه هذه الأمور والحكايات التي حدثت فلم ينتشِ مثل كل ليلة . شرب قسطه المعتاد ، لكن رأسه لم يدر أو يخف وزن نفسه كالمعتاد . سوء حظ ملعون . تناول كأسه فوجدها فارغة . فأعادها إلى مكانها بخفة . ود أن يقول لمدحت شيئاً مخلصاً يحس به على الدوام، شيئاً يتعلق بجوهر حياته وماضيه . كان الصمت ثقيلاً بينهما . قال بصوت أجش :

— آني متأسف مدحت . عبالي نگدر نگعد شوية بهدوء ونحچي .

— ما صار شي . گعدة لخ ، غير وكت .

— انشالله .

— هذا عدنان ...

ونفث الدخان من أنفه وفمه :

— شنو منشي ؟ عنده اتصالات .. يعني .. او عنده أشياء آخرى ؟

— لاع . ما أتصور . لويش ؟

— أگول . حچاياته مو اعتيادية .

— لغوة كلها . حچي أطفال . اشاعات .

— اشاعات ؟ يمكن . بس لازم أگو ألها أساس هالنوبة .

— شنو يعني ؟

أطفأ مدحت سيجارته .

– ما أدري شنو بالضبط . بس اكو فد شي بالجو ، ويبين صاحبنا كريم قاسم ما راح يبقى للصيف الجاي .

– تريد تفهمني .. يعني أكو علاقة بين حچايات عدنان هذا ومستقبل الزعيم ؟ لا ، هاي تخينة .

أشار مدحت بيده اشارة مبهمة ، ولم يجب ، ثم شرب من كأسه . خطر له أن يطلب بيك عرق ، لعله ... كان الصمت بينهما مرة أخرى ثقيلاً . قال :

– شوف مدحت ، أريد أگول لك فد شي . تره آني ما أدري شلون وصلت إلى هالوضع.لا تگول سكران . ابداً . بس ماكو شي واضح بذهني . مثل حجارة مذبوبة من الجبل . يمكن بعدني . شلون هاي ؟ يعني .. أكو فد شي ، اكو فد ستروا كل هالأشياء ؟

كان ينظر إليه باهتمام :

– مرتاح أنت . حسين ؟

– شنو مرتاح ؟ ماكو مشاريع ، ماكو باچر . يمكن لأن ما أريد أصنع شي من حياتي مالي خلك عيوني مدحت . هذوله اللي دخلوا حياتي أو .. أقصد .. النحو منها .. لازم يحمدون ربهم . شنو الانسان بهالدنيا اذا .. اذا .. ماله خلك ؟

رأى مدحت يبتسم . استمر :

– آني جربت . تمام . عشت تجارب مثل ما تگول . خربطت وجعت وتشردت وأهانوني هواية ناس وشفت ذل .. و .. وهواية أشياء .. بس ، عيوني مدحت ، تره كلشي ما أتذكر من اگعد من الصبح . هاي شنو يعني ؟

– شلك بها لحچي حسين ؟

كان يسخر . أيده :

– صدك والله . هسه وكت هالحچي ؟ سولف انت ، سولف لي على وضعك ويه الجماعة .

twitter @baghdad_library

– يا جماعة ؟

– شلونك ويه منيرة ؟ خوش بنية تره ممتازة .

– قصدك ؟

– اي بالله ، حلوة وعاقلة . ممتازة .

– جوز حسين الله يخليك . ما أريد ادخل راسي بهالشغلة .

– ليش هي قضية أريد وما أريد ؟ لو كل وكت الوضع هالشكل ، چان كلنا عايشين بالجنة .

– على كل حال .

ثم نظرَ إلى ساعته :

– لازم ارجع . فات الوكت وباچر دوام .

هز رأسه هو موافقاً ونادى على اوانيس فجاء إليهما . دفع مدحت حسابهما ثم قاما وخرجا . كان الشارع خالياً والهواء يميل إلى البرودة . سارا خطوات قليلة باتجاه الباب الشرقي . أحس فجأة ببعض الدوار والاضطراب في رأسه وامعائه . توقف واستند على حائط قريب .

سأله مدحت بقلق :

– شبيك حسين ؟ دخت ؟ نفسك دتلعب ؟

ثم امسك بكتفه . أجابه بسرعة :

– لا لا . عيني مدحت . ماكو شي . الهوا شوية أثر عليّ .

ضغط بيده على بطنه ثم رفعها إلى وجهه فمسح العرق البارد عن جبينه وخديه . كان يحس بارتجاف بسيط في جسمه . أنها علامات الانهيار . مثل التراب الناعم ، يتساقط قبيل انهدام السقف . عاود السير ببطء . كان مدحت قريباً منه . كلمه :

– تدري مدحت ، يمكن فد ليلة مثل هاليلة ، اوگع على الرصيف آخر وگعة . شوكت ، ما ادري . باچر لو بعد سنين . لاكت ما اعتقد راح أموت غير هالشكل.

شعر به يمسك ذراعه ويضغط عليها بقوة . لم يستدر . سمعه يتكلم بصوت خشن جاف :

– هاي الموت اللي عبالك بطولية ، تره هي موتة الچلاب ، الچلاب الجربة

شابت صوته قسوة مفاجئة :

– لويش دتريد تعيش عيشة غير طبيعية ، حسين ؟ ليس دتفكر بالموت بدل ما تفكر بالحياة ، بدل ما تفكر تدخل مصح وتداوى ؟ ليش لازم تموت على الرصيف وانت سكران ؟

ترك ذراعه ، دفعها ببعض العنف :

– بس أريد افتهم هالشي من عندك . آني ما مهتم بيك لأن أنت زوج أختي . لاع يمكن چيف صديقي . يمكن . أريد أعرف لويش هالتخاذل ، هالخضوع . هالمذلة گدام الحياة. ما دا أحچي على قوة الارادة أو على حب الحياة . مالي شغل بهالغوات . لاكت .. الاصرار ، الاصرار حسين على حياتك . ماكو حاجة تنطيها معنى ، لان ما بقى عدنا معنى للحياة هالأيام ؟ لاكت .. لاكت شنو هالانحناء المهين لويش ؟ لويش ، حسين ؟

لم يجبه . لم يلتفت إليه . بقي يمشي بتثاقل جواره . فهم كلامه جيداً ، فهمه دائماً . كان جائعاً دائخاً مهزوز القوى . رأى مدحت من طرف عينه يشعل سيجارة وينفخ دخانها في الهواء . ثم سمعه :

– فيما الله .

وطرق أذنيه وقع أقدامه وهو يرجع سالكاً طريقاً آخر إلى دارهم . استدار اليه فميز شبحه وجمرة السيجارة . كان يسير مسرعاً ، يحرك ذراعيه حركات قصيرة . لم يحقد عليه ، إلا أنه لم يعرف كيف يجيبه . هذا هو كل شيء . كانت سهرة فاشلة على كل حال . ومن أجل ألا يعتبره مدحت حقوداً أو ذا نية سيئة قرر أن يزوره غداً أو بعد غد .

twitter @baghdad_library

- ٥ -

رأى مدحت الفراش يطفيء المصابيح الكهربائية في غرفته قبل أن يغادرها بقليل . ثم سمعه يصفق الباب بشدة خلفه ويغلقها . سار خلال الممر المظلم الخالي . لا أحد . خرج إلى الساحة الواسعة المضيئة . الشمس خفيفة والجو دافيء . لم ير اباه . عاد قبله إلى البيت . بالتأكيد . هل خابره ؟ لم يخابره . أم تراه خابر ولم يجده ؟ لن يشتري اليوم جرائد . ولا كتباً . شارع المتنبي ، طويل على الجائعين . الأسبوع كله ، لن يشتري جرائد ولا كتباً . تقشف طارىء . باص الامانة . منتظرون دون وجوه . لن يصل اليوم قبل الرابعة . سار مرة أخرى واستدار نحو شارع الأمين . الشمس لطيفة الحرارة على ظهره ورقبته . اجتاز ساحة التقاء شارع الجمهورية بشارع الأمين . استمر في سيره . شارع غازي . شارع الكفاح . ازدحام في كل مكان . وجوه بلا ملامح . يتراكضون ويتدافعون بالاكتاف والأيدي . كالصبية . انحشر في المقعد الأمامي لتاكسي قديم . حرارة الماكنة ورائحة قدم السائق النتنة . اللعنة ، أية نتانة هذه ! سد أنفه بأنملة اصبعه الكبير . لما تزل ، لا تطاق تلك الرائحة . قطع أنفاسه ، عدة مرات . دقائق معدودة ويصل . لن ينتهي أي أمر لو ركزنا الفكر عليه . يا للرائحة المريعة ! ثم رآه فجأة . بدت له العينان الساطعتان أولاً . كان ممدداً وسط الشارع المشمس ، على القير الأسود الحائل ، كلباً هرماً لا لون له ، مطروحاً على الأرض ورأسه ملتو نحو السيارات المتجهة إليه . كانت عيناه السوداوان تنبضان باشعاع غريب لا مثيل له . كتلتا سواد منقعتان ؛ تصرخان ، تستغيثان ، تتوسلان ، تتألمان . وكان الجسم مهشماً من الوسط

ودماؤه لم تجف ، وليس عليه أية مسحة من الحياة . إلا أن العينين بقيتا تومضان وتدافعان عن أنفاسه الأخيرة ، تشفقان عليه من الألم . لاحظه السائق في نفس الوقت فانحرف بالسيارة نحو الرصيف متجنباً دعسه ثم استدار بعنف شاتماً لاعناً وعاود سيره الأول . وصلوا تقاطع شارع الكيلاني بشارع الكفاح فنزل قرب المقهى . لفه الهواء النقي . سار ببطء . تراءت له عينا الكلب مرة أو مرتين . كانتا الذبالة الأخيرة . وجد باب الدار مواربأ . دخل واخترق المجاز الطويل . شارفت الساعة على الرابعة . كلمته أمه من المطبخ حالما طرقت أقدامه أرض الحوش . صعد إلى غرفته وتمدد على الفراش . كلب عجوز يعبر الشارع فتدهسه سيارة وتلقيه أرضاً . كلب يسير ببطء فتضربه سيارة مسرعة . ظل الكلب يجتاز الشارع ثم يقصم ظهره فجأة ، ويترك ليعيش ألمه ؛ ليرى نفسه يموت بلا كلام ، بلا صراخ ، بلا استنجاد . سوى العينين المخضلتين وسط الطريق أمام كل الناس . سمع أمه تناديه . غروب الحياة ، لا يمر دون أسى . يعبر كلب فيسحق وتتناثر أشلاؤه ثم تأتي عربة الزبالة لترفع بقاياه مع ما ترفع من القاذورات . وكلب آخر ، يمر ويدخل المجزرة ؛ وآخر وآخر . ينطرحون جميعاً على الأرصفة والشوارع . جوقة من العيون السوداء المتغنية بالألم ووداع الحياة . كانت أمه تناديه بالحاح . قام . سألته عن أبيه وهي رافعة وجهها الأبيض إليه . أشار لها . لا يعلم عنه شيئاً . خابره ؟ لم يخابر . تأكل بمفردك ؟ ولم لا ؟ غسل اليدين والوجه يزيل الأوساخ والتراب . وتراب الصور والذكريات المنغمسة في القلب ؟! الآلام في الشوارع العامة . آلام الكلاب . إلا أنه لا يجب أن يخلط المواضيع . هنالك أسس لحياته الشخصية لا مجال للحياد عنها . الاستقامة في محبة النفس . الأنانية المنظمة . ومنها ، لا آلام قبل الأكل ، وبالأحرى أثناءه ويستحسن من بعده . أسقوني نقيع الزبيب لأن الحب انهك فؤادي . الأخ المغرم لا ينسى أن يقوي قلبه . كيف بنا ، نحن الذين نريد أن نعيش حياة واسعة ، واسعة ! ننهب بحرص ونأكل كل شيء ليس لنا . ما الداعي لهذه الضجة عن الملكية الخاصة ؟ من التراب وإلى التراب نعود . كل شيء لنا إذن . نحن منه وهو منا ؛ وكل من يضع العراقيل دون ذلك يخطىء في التقدير والفهم . ويجب أن يقال له هذا . لكن ، ما أهمية الأقوال ؟ العمل . العمل . العمل . ننهب ونسرق عن اعتقاد . هذا

twitter @baghdad_library

زمن اللصوص الشرفاء ... نحن نمثلهم لأننا استوعبنا فكرهم واكتشفناه . نحن بالضرورة خلفاؤهم . دعونا إذن نغش بعضنا بأمانة . اتركوا الفوضى وركزوا اهتمامكم في الأنانية المنظمة . لتكن المنطلق والأساس . سيروا في كل المنحنيات باستقامة . اكفروا بكل شيء ولكن بتقوى وورع . ما فائدة الغش والخداع والتلاعب ، غير أن تحفظ القوانين ؟ كانت أمه تجلس على جانبه إلى الخلف . أمامه الأسبانغ والبيض المقلي والتمن والزلاطة والصمون . وهي على جانبه الأيسر إلى الخلف قليلاً . يمكنه أن يرى كتلتها الغامقة لو عوج فمه وهو يمضغ الطعام . أو تراجع بعض الشيء في جلسته . « منو جا يمك ؟ شكو ماكو ؟ لويش ما خابرك أبوك ؟ » هكذا القوانين والسلطات . لا تجلس وراءك تماماً ، بل إلى جانب . خلفك ولكن إلى جانب . التفت إليها . كانت دورة وجهها الأبيض متكاملة ، والغضون تتكاثر تحت العينين وعلى الخدين وحوالي الفم . تلف الفوطة السوداء حول وجهها وتتكلم بهمس وقلق متسائلة عن كل شيء . الأسبانغ والتمن والبيض المقلي والزلاطة . الزلاطة ثم التمن والأسبانغ وقطعة الصمون . وعيون الأحبة والكلاب ؟ إلى الجحيم بها . نحن نأكل ، إذن نحن موجودون . الطعام . الطعام للجميع . دعونا نتخم . دعونا نمت تخمة أيها الأخوان . اتركوا كل شيء آخر . الطعام للجميع . حذار من الأشياء الأخرى . الكتب وما شاكلها . اغلقوا المكتبات أيها السادة ، ولنفتح المطاعم . مطاعم الكباب على الأخص إذا أردتم الصراحة. خطوات والده . ثم دخل مبتسماً رغم الجوع والارهاق . أية بطولة ! يقوم ويقعد ويذهب ويجيء . تفسيرات وإيضاحات ، وتفسير الايضاحات وتوضيح التفسيرات . مخابرات لم تحصل وأخرى حصلت في الخيال . ثم يهمس له وهو يلتفت ناحية المطبخ :

– بالگهوة چنت ويه حجي محمد . نتشت خوش سبحة منه . لا تگولها لامك .

تقبل امه بالطعام . مجموعة من التفسيرات الأخرى عن أسباب التأخر في العودة ، يرافقها تراجع منتظم مع تفسيرات متعمقة تسندها آيات وأحاديث . حال الانسان الصحيحة ، ترك والديه وسار مخترقاً باحة الحوش ، هي أنه في موقف أمام العالم ... عالمه . يناور ويتراجع ويحاور ويتراجع ثم يتقدم قليلاً . نحو هدف بالطبع . صعد درجات السلم ببطء .موقف أمام عالمه .. الآن .. الآن . ليفسر هذا بما يمكن أن يفسر ؛

لكنه ، باخلاص ، يعني الزمن الحاضر . هذا هو كل مافي اليد ، ما يمكن أن يتصرف به . أن يُصنع .كان يجتاز الطارمة الكبيرة . الزمن الماضي انتهى . ليُفهم ذلك جيداً .. انتهى . أما ما يسمى بالمستقبل فما هو إلا الحاضر المصنوع الآن . وحالما يُدرك ذلك ، تبدأ الحياة المصنوعة .. يبدأ التغيير المستطاع . تلك هي الحدود ؛ وكل علم وفلسفة تساعد على معرفة هذه الحدود وعلى اجتيازها ان أمكن ، كانت شيئاً جديراً بالاهتمام . دخل غرفته وبدأ ينزع ثيابه . ثم وقف ، في الفانيلة واللباس ، أمام المرآة . شعر كثيف وصدر ضيق وعينان تلمعان . هذا هو العالم . بدءاً وانتهاء . فليساعده البشر ، منذ وجدوا وفكروا ، على أن يحيا أجمل حياة . هو ، مركز الدنيا ، لا يُطالب منه شيء . لا تخرج منه أية هبة . لا أحد يقترب من القلعة المحصنة . ليُترك لاهياً . غير مخلص لأحد ولا حامل أي هم . خالي الذهن ، خالي الروح ، قافزاً بأشد المرح على الصخور في الجزيرة الجرداء . لبس بيجامته واضطجع على الفراش . الكلب المحتضر ، ما يزال على أرضية الشارع السوداء . يرتمي على التراب قربه ، ويتطلع معه إلى السيارات المندفعة لتهشيم بقايا الجسد المدمى . الشعور بأنك تموت . انت . انت تموت . ثم يقال لك : دع المزاح ولنبدأ من جديد ، ما دام الموت حلماً . هذا هو كل شيء . ونبدأ من جديد . الانسان في موقف . الآن . أعلم هذا . أنا في موقف إذن الآن . اربعمائة دينار في البنك ودفتر شيكات ووظيفة في الدولة وسبعة وعشرون سنة وشحنة جنسية لا يبدو أنها ستنضب . لا أسئلة كثيرة ولا تردد أو اهتمام بما يجب أو لا يجب . الأسرة ؟ انها مرتكنة على أسس واهية ، لكنها لحسن الحظ متماسكة ، وهي متشبثة ببقائها هكذا . لا أحسن من هذا الظرف للانفلات من عبثها . دون ضجة ، دون مواجهات عاطفية . تحرر على شكل اختفاء من عالمهم . ينسل كالشعرة من العجين . اجازة دراسية ؟ دراسة في اجازة ؟ هذا لا يهم . المهم أن تضعهم هم في الموقف الذي تريده . يساعدونك على البقاء هناك . نظر إلى مكتبته الصغيرة والكتب المصفوفة باهمال والأثاث القليل والسجادة على أرض الغرفة والجدران البيضاء غير المصبوغة وستائر الشباك الحائلة غير المكواة . شعر بوخزة خفية في قلبه . استغرب لذلك . لم يسمع شيئاً خلال اللحظات التي سبقت استغراقه في النوم ، وكان حزيناً . وأمام الطريق الطويل الذي بدا مألوفاً لديه ،

twitter @baghdad_library

لاقى أحد الأشخاص . كانا متفقين على أنه طريق اوربي خارج المدينة ؛ ولقد ود أن يظهر له أن باستطاعته أن يسميه اوتوروت أو اتوستراد أو هاي وي . لكن الرفيق الرث الملابس بقي يردد على مسمعه بأن الكلاب كثيرة في هذه النواحي ؛ وكان ينتظر منه أن ينتهي من كلامه كي يسأله بالانكليزية : لِمَ نأتي هنا إذا كانت الكلاب تموت على قارعة الطريق أيضاً ؟ ثم رآه يفهم ما كان يريد أن يقوله ويشير بيده اشارة حيرة ويجلس على دكة منخفضة فيجلس قربه . كان ضيق الصدر تتماوج في نفسه رغبة عارمة في البكاء . التفت إلى صاحبه فوجده ينظر إليه . عينا الكاب المحتضر تنفثان دموعاً تجري بسكون . الغرفة مظلمة ، عدا الشباك الخافت النور . بقايا بكاء في قلبه وماء يترجرج في احدى عينيه . أنفاسه سريعة . يا للانسان من هزأة ! وضجة القوم في الأسفل . كأنها تقبل من عالم آخر . قعد في فراشه ومسح عينيه وأنفه . البكاء أثناء النوم على أمور نجهلها ، على رموز مبهمة . والبعض لا يذرف دمعة على أبويه !

قام واشعل الضوء الكهربائي الساطع . شكله في المرآة . البيجامة مفتوحة الأزرار تكشف عن ثيابه الداخلية البيضاء . تكوين بشري مشوه في مرآة . عنوان صورة . خرج من الغرفة فلامس وجهه الهواء البارد بلطف . قصد المغسلة القريبة فغسل وجهه ونشفه ثم أخذ بعض الانفاس العميقة . كانت غرفة عبد الكريم فارغة . غياب مستمر . من أجل الحياة الواسعة ، كما يقولون . شراب وثرثرة سياسية وقحاب . كانوا مشغولين بتهيئة العشاء ، وعلى صفحة السماء لا تزال آثار نور . ضجيج في المطبخ ونداءات من أعلى إلى أسفل وبالعكس . أعياد الطعام . سمع خطوات خفيفة . سناء تقترب منه وتندس جواره . «خالو ، شفنا بابا هسه . چان ديمشي ويشرب چگارة ويگح . آني وبيبيتي . هو ما شافنا» . حسين ، ذلك الأحمق المغامر أي سبب جنوني أرجعه إلى العراق ؟

تركته سناء وركضت مسرعة . خرج والده واتجه نازلاً نحو السلم . كانت النداءات تزداد ارتفاعاً والحاحاً ، تستعجل ارسال الطعام . ضجيج مفتعل وعيد مزيف وزواج فاشل وأولاد وسكر وضياع ولا مستقبل . اللامستقبل . اللازمن . أولئك الشجعان

المهملون ، السكارى والشحاذون ، الذين اختاروا هذه الأهداف ! ايمكن أن يتم ذلك دون جهد ، دون ارهاق ؟ حسين ، سيزوره بالتأكيد ...

كان يتمشى في الطارمة الضيقة الطويلة ، بعيداً عن غرفهم . في الظلام ، تحت السماء السوداء . اعتاد بعد العشاء أن يأتي إلى هذه الجهة من البيت لينعزل بعض الوقت. اسرعوا إلى غرفة التلفزيون،مديحه وبنتاها وعمته وجدته،بعد ان انتهوا من الصحون وأغلقوا الباب عليهم . ثم رأى أمه تخرج من المطبخ وتصعد آخر الصاعدين . كانت منحنية قليلاً بطيئة الخطوات . جاوزت غرفة أبيه ومدت رأسها في غرفته المشعلة الضوء . هتف يناديها من مكانه البعيد فاستدارت ناحيته . سألته بقلق : أهو هناك ؟ ثم استمرت في سيرها . أين ستنتهي عذاباك أيتها المرأة ؟ فتحت باب غرفة مديحة فتعالت ضجتهم مختلطة بأصوات التلفزيون . لم يكن البرد قاسياً أو غير محتمل ؛ وكانت أرض الطارمة معكرة والسماء والجدران حوله ساكنة سوداء . ضوء غرفته يندفع من الباب الموارب فيشق الظلام ويندفن في أوراق شجرة الزيتون . لمح ، من وراء زجاج النافذة الغامق ، اباه جالساً في فراشه يقرأ ويسبح . السجن الهادىء المستديم . انه ، ومن قبله أمه ، من يجب أن يقطع كل وشيجة عاطفية معهم . إذ أن الانشغال بغيرك وعالمه وبالله والمصير يساوي ألا تكون كذلك . انها مسائل مجانية في كل ما يحيطها . ويدخل ضمنها أن تتساءل كثيراً عن منشأ الكون وماضي الانسان ومستقبله . إلا إذا جلبت لك هذه الثرثرة بعض الشهرة والمال . عندئذ لن تكون مضيعة للوقت . سيكون بامكانك أن تخدع من تشاء . ما دمت تملك حقاً في هذا الخداع .

لسعه البرد خلف رقبته . فرك الموضع عدة مرات . اذا بقيت تتطلع إلى السماء البعيده . تلامعت بعض النجوم الصغيرة فيها . قصية متفردة . لا توجد ، إذا لم ترها . وهذه الصلة بينهما . هو في بطن الظلام على جانب الحوش الغربي من بيتهم في محلة باب الشيخ ، وتلك النجيمة الخافقة على حافة الكون .. على حافة الهوة السوداء ؛ هي صلة التفرد . الانفراد . التوحد . ذلك هو أغلب الحقيقة . أنه ليس الغربة ولا الانفصام . انه أن تكون مركز الدنيا . قبل الجميع وبعدهم . لا شيء قبلك ولا شيء بعدك . أن

twitter @baghdad_library

تملك قوانينك التي لا تفترض أن أحداً سيطبقها مثلك . هم ، شحاذ العالم المتبطلون ، المفتشون عن لقمة الخبز في بيع المباديء وشرائها أحياناً . مالي وماهم . أن نهاية العالم وبدايته عندي ؛ ومن انفرادي وحدودي الزمنية والمكانية ، يجب أن أبدأ . انه ليس مرضاً ، أنها الأنانية الصحية . العقلية . المنظمة . العالم لي بكل ثمن ،والانفراد يعني دخوله بحذر وامتصاصه . استهلاكه دون توقف . شرط ألا تكون منه ، لئلا يصير هذا الأمر سبباً في منعك عن تنفيذ مأربك . هكذا هم الناس الأقوياء . الأقوياء بالمعنى الجديد . انهم ليسوا حمقى ولا خبثاء ؛ ولا يتملكهم الفضول الزائد أو يخجلون . وهم يكذبون بصراحة ولا تقيدهم الاخلاق أو يرتبطون بأواصر عائلية أو عاطفية عميقة . لا عواتق في سبيل الاستفادة من رفاهية هذا العالم الذي خلقه الغير بعرق جبينه وكدحه . كل شيء لي ... بغير حياء .

رأى عمته وجدته تخرجان من غرفة التلفزيون . لقد مرتا بالحياة . مرتا . لن تقولا أنهما عرفتاها . عاد يتمشى . من الواضح ، أنه لن ينتهي مثلهما . سيبدأ حينما يصل إلى نتيجة مؤكدة في تفكيره . ولهذا ستكون رحلته في الصيف مقتصرة على تحصيل المعلومات التي يحتاجها لاكمال مشروعه . مشروع حياته الأول . الانفراد في العالم الأكثر تقدماً لمعطيات الحياة المليئة . وهو يعني أن يترك وراءه هذه المجالي الفقيرة بكل شيء . تطلع إلى جدارهم العالي . كان مبنياً من الحجارة الصغيرة والطين ، لا يكاد يتماز عن الظلام رغم ضوء السماء . عالمه البالي ، المضطرب ، الرخيص ، ذو التقاليد المتزمتة واخلاق الغباوة . عالم اللذة السرية والجريمة المقبولة . عالم كل شيء مباح تحت الستار . عالم الجبناء . خرجت أمه . رآها تتطلع نحو غرفته ثم تستدير بنظرها إلى مكان وقوفه . عالم العواطف الثرة العمياء . دخلت غرفة عمته . إلا أن الانفراد يجانب الغيظ والانزعاج، ليس من الأنانية الصحية أن تمرض نفسياً . أن من الممكن أن تصدر أحكاماً بأعصاب هادئة ونفس رائقة . دون حقد أو ضغينة ، تدينهم حتى الموت وتدمر عالمهم . وقف قرب المحجر . شعر أنه قد وجد شيئاً يمكن أن يفيده . كان الحوش مظلماً والسماء فوقه شديدة السواد ،تنبجس منها أضواء النجوم . بدت الأعمدة الخشبية التي تسند السطح في الطارمة الكبيرة ، هزيلة متهاوية . هل سيكون بمقدوره يوماً مفارقة هذه الخرائب؟ انها معجونة بدمه . خرائب الحجارة والبشر . ترددت طرقات غامضة على الباب الخارجي. ولكنها ستنقلب إلى سجن قاتل لو أراد الاقامة فيها مدى الحياة . إضافة إلى ان هذا التعلق بالأماكن وغيرها ، عدا أنه لا يجد سنداً عقلياً مقبولاً ،فانه يشكل

عائقاً مخجلاً في طريق الانفراد بالعالم الواسع الغني . هنالك المرآة أيضاً ، تلك اللعبة الفتاكة . أنها .. طرقات ماحة . من يمكن أن يفكر بزيارتهم في هذا الوقت ؟ نظر إلى ساعته . جاوزت الحادية عشرة والنصف . سار إلى غرفة عمته . كانت أصوات نقاشهن متداخلة غير مفهومة . نظرن إليه بدهشة وخوف حين فتح الباب . قامت أمه بسكون ونزلت معه . داخله القلق وهو يستمع إلى الطرقات تزداد اصراراً وسرعة قبيل وصولهما نهاية المجاز .

اندفع أخوه عبد الكريم داخلاً كمن ألقي من الخارج . لم يكلمهما ومضى يبتعد متعجلاً . تبعته أمه . أغلق الباب الكبير ومشى وراءهما . لم يبد أخوه بحالة طبيعية ، لكن ذلك لم يبعد عنه الانزعاج الذي كان يحسه . أطفال الليل التائهون . الحمقى بالطبع . كانا ، هو وأمه ، يتبعان طفلهما الليلي المدلل هذا دون أن يعترضا على استخفافه بهما وعدم اهتمامه . سمع أمه تكلمه كلاماً لم يميزه جيداً ، فلم يجبها . لم يبارحه غيظه من عبد الكريم ففضل رغم قلقه عليه أن يتركه وشأنه . دخل غرفته واستلقى على الفراش . سمع والدته تصرخ فجأة منادية عليه . بقي جامداً لحظات وقد غاض قلبه . ثم قفز راكضاً إلى الغرفة المجاورة . هنالك رآهما ، أمه واخاه ، متماسكين تحت الضوء الساطع يتبادلان الصراخ وفي عينيّ عبد الكريم نظرات جنون . هتف يسألهما عما جرى لهما ؛ ولمح عند ذاك سروال أخيه الملطخ بالدم . أفزعه ذلك هنيهة . خشي أن يكون مصاباً إصابة خطرة . أسرع يسحب أمه إلى جانب ويركع قرب أخيه يتفحص جسمه . كانت أمه تنفث كلمات متقطعة بين صرخاتها . « ما بيه شي . مو هوه . مو هوه . فواد. صديقه فواد . مو هوه » . وكان عبد الكريم يحرك ذراعيه بشكل عشوائي لا غاية منه وفي نظراته تساؤل وضياع . آلمه ذلك فجأة ، أمسك بذراعيه يهدئه ويحاول أن يعيد إليه تماسكه . كان يتحدث معه بكلمات لطيفة ، حينما اقتحم عليهم والده الغرفة كالعاصفة الهوجاء هاتفاً : « شبيه ابني كريم ؟ ابني كريم شبيه ؟ » ثم ارتمى عليهم . أوشك أن يسقط عليه لولا أنه تفاداه ونهض بسرعة . احتضن أبوه عبد الكريم وأخذ يهزه ويقبله . دخلت مديحة الغرفة آنذاك مولولة وفي عينيها آثار النوم . ابتعد قليلاً عن الجمع الضاج . طمأنه أن اخاه لم يكن جريحاً ، وبقي يراقبهم بسكون . العائلة اللامقدسة تعيش هلوسة المشاركة الوجدانية الحزينة . لقد توارثت أعياد النواح . تلك هي سمة

twitter @baghdad_library

ديمومتها منذ الماضي السحيق في التفاهة والعقم . ومع أولادهم ، أكبادهم تمشي على الأرض ، ستبقى عناصر البلاهة والحمق إلى الأبد . كان مضطجعاً على فراشه ، هادئاً . نام الجميع قبل وقت قصير وبدا كأن كل شيء قد انتهى . إلا أنه لا يزال يسمع أنين أخيه الخافت بين آونة وأخرى . أخبرهم أن صديقه فواد قد مات بعد أن ضربته سيارة مسرعة . كان متقطع النبرات ، شاحباً . خيل إلى مدحت أن ما جرى لم يكن حادثاً عارضاً ، وأن علاقة أخيه بالعالم قد ارتطمت بصخرة صلدة .

الخير . السلام . العدالة . الأفكار الألهية ... أشياء لا توجد . كلها . ومن العبث قضاء الوقت في تعريفها وتحديد معناها ، ما دامت — ابتداء من الحياة المعاشة وانتهاء بها — لا تعني أمراً جدياً . من أنا .. أو بالأصح .. ما أنا ؟ ما العالم الواقعي وما الروح ؟ ما المعرفة ؟ ما الفكر ؟ مشاكل وأسئلة يستعصي الجواب عليها أو حلها ، لأنها بتركيبها وبمحاولة وضعها في أجواء حياتية معاشة ، أمور من قبيل اللغو . من الذي يثير كل هذه المشاكل إذن ؟ لأنها لا تنشأ من تلقاء نفسها . انهم المفكرون ، أو من يسمون أنفسهم هكذا . وهم أولئك البشر الذين يستخدمون عقولهم من أجل غيرهم وبدلاً عنهم ، وفي أغلب الأحيان دون دعوة مباشرة . انهم فضوليون بشكل من الأشكال وهم على الأكثر أناس لا عمل لديهم يلهيهم عن التفكير .

في مكتبه ، ذات ضحى ، وقطرات المطر تطرق بتردد زجاج النافذة ، جلس حسين ينصت إليه . وجه كالح ، نحاسي السمرة . فارغ ، فارغ ؛ وسيجارته تموت بين أصابعه ونظراته تحمل إليه الدهشة وبعض الاعجاب . وهو ، هو لا يدري لِمَ يتكلم هكذا ولمن .

للانسان بداية ؛ بدايته الوعي . وهو يفعل ذلك بمفرده . ثم ينتهي بميتة شخصية إلى أبعد الحدود . وبين هذه البداية غير المؤكدة وهذا الانتهاء المفاجيء ، خلال فترة زمنية معينة جداً ، يبدأ أمر ما ، شيء مركب غامض ، لا يهم ما نسميه ولكنه يبدأ . أنه يبدأ وينتهي بالتأكيد . هناك حدود إذن ، وكل ما يوضع داخل هذه الحدود يجب — منطقياً — أن يكون محدوداً بها . يبدأ بعدها وينتهي قبلها . وهذا هو ما يسمى أيضاً ، الحياة الشخصية . الشخصية . لم يجبه حسين وهو يكرر عليه هذه الكلمة عدة مرات . رآه يطفيء سيجارته ثم يشعل أخرى ويبين عليه أنه غير مرتاح ، لا يستطيع الاستقرار

في مكانه . لم يدخل عليهما أحد . ولم يدر ما سبب الضيق الذي ينتابه هو أثناء ما كان يتكلم . جاءه حسين منذ حوالي الساعة ، كعادته خلال الأسابيع الأخيرة . وجلس في ركنه بهدوء بعد أن سأل عن عبد الكريم ومرضه . أخبره أن المطر يتساقط بين فترة وأخرى وان الجو مبهج في الخارج . ثم أخذ يشرب الشاي بلذة وبحركات مطمئنة . ألهته بعض الأوراق زمناً قصيراً . كان يريد أن يسأل حسين عن هذا الاطمئنان ، عن هذا الإستقرار الروحي ، الذي يبدو أنه يغمره ؛ من أين يستمد ينبوعه ؟ لكنه نسي ذلك وبدأ كلامه عن أفكار كان يعدها من اسراره الشخصية . أراد أولاً أن يحدثه بايجاز عن مشاريعه ، مشاريع أي كان من الناس وصفاتها ؛ غير أن القلق الذي ظهر على وجه حسين والاهتمام المبالغ فيه ، أثار حماسه وأزعجه في نفس الوقت . انه اهتمام مفتعل ، ما دام لن يغير منه شيئاً . لكن هذه الفكرة زادت من رغبته في الافاضة بالحديث . ومر الوقت مع السجائر المتعاقبة التي صارت رؤوسها تتوهج بشدة ومع زخات المطر المتقطعة . تحرك حسين في الكرسي كأنه يجلس على مسامير :

– عاين مدحت ، تره هاي بداية خطرة . وين راح توصلنا ، عيني ؟ هاي غير أنانية . يعني قصدي ، اذا الناس كلهم يفكرون على هالشكل ؛ تره هاي غير مشكلة . تمام لو لاع ؟

بقيت ذراعه جامدة في منتصف الطريق إلى فمه ، لا توصل إليه السيجارة المشتعلة. جابه بالنفي؛ فتحركت الذراع وامتصت الشفاه العقب ثم اندفع الدخان كالحسرة من مه . هذه الأفكار ليست لكل البشر ؛ ما سبب أن نفكر من أجل الآخرين ؟ انها خلوق معين ، محدد الظروف والصفات والقابليات ، ذى مزاج وعواطف وميول ماصة . وهي منفصلة عن العالم والتاريخ والتطور ؛ لأن هذه كلها ظروف وديكورات ن أجل اكتمال الصورة . تبلدت نظرات حسين واحمرت عيناه وهو يقح ويطفيء يجارته :

شلون يصير ؟ شلون يصير ؟ أحنا دنعيش بها لمجتمع. هذا المجتمع ديقدم لنا خدمات ضرورية وديشبع حاجاتنا.فأحنا هم لازم نعمل من أجل صيانته . يعني بس نفكر بنفسنا ؟ هاي خدعة .

twitter @baghdad_library

قبل الدخول في موضوع الخداع ، يجب أن نحدد المجتمع الذي ننتمي إليه . لا فائدة من التعميم . أنه المجتمع العراقي في سنة ١٩٦٢ . ولأنه مجتمع اللااستقرار ، اللامستقبل ؛ مجتمع الهاوية والتخمة والبلادة والارتعاد والحقد والنفاق ، مجتمع أن تأكل بعد وجبة طعام دسمة والا تعلم ما يجري في العالم وأن تتعقد جنسياً بالضرورة وأن تحذر الفقر ، فانه مجتمع لا علاقة له بأفراده الحقيقيين . انه المجتمع الذي لا يقدم لك شيئاً مقابل شروطه الغبية ؛ لأنه ليس مجتمعاً ، بل فترة زمنية . ولذلك فان ذكر الخداع في تعاملك معه، يعني الكلام بلغة غير مفهومة. انك ليس في موضع الخديعة حين تريد أن تنقذ نفسك .

ثم وجد نفسه يهتف بغضب :

— شوف حسين ، آني ما أريد هالمجتمع الوسخ . ما أريد انتمي له . آني ملتصق بيه بالصدفة ؛ وآني مو أول واحد ولا آخر واحد .

كان ينظر إليه ببعض الخوف والقلق . خطر له أن حسين قد يكون انتهى الى نفس نتائجه هذه حين ترك البيت والوظيفة ، بشكل ما ، واتجه نحو هاويته . لعل في أعماق ذهنه ، فكرة غائمة مثل هذه تدفعه نحو ما يشبه الانتحار .

رآه يمسك سيجارته بأصابع قذرة مرتجفة ثم يشعلها . لعله حكم على العالم قبله وأدانه ؛ وهو يسعى من أجل أن يجعل من حياته نغمة مؤسية تنعي الانسان . أليس هو إذن ، بعد كل حساب ، توأمه المجنون ؟ التوأم الذي انحدر من هذه الأفكار ذاتها ، ثم أعوزته الارادة والتصميم والنظر الثاقب فتخلى عن كل شيء وترك نفسه تحمل مع التيار ، جثة منتفخة طافية على سطح الماء ؟

كانت على وجهه سمة من الارهاق ومن الحياة المستنزفة . وجنتاه العظيمتان وسحنته النحاسية المحترقة والدوائر السوداء تحت عينيه ؛ وهذه النظرات التي تفرغ ، بين وقت وآخر ، من أي معنى ، من أي صدى للعالم .

سمعه يطلب شاياً من الفراش الذي دخل عليهما حاملاً رزمة من الأضابير والأوراق . كلمه بعد أن انفردا :

- هاي أفكارك مدحت .. هواية فردية . يعني هي بيها تمرد وثورة . لاكت تره كلش فردية وما ألها مكان بالمستقبل . ما ألها مستقبل . يعني بمجتمعات المستقبل . تعرف .. الاشتراكية وهالأشياء . شتريد أنت عيني مدحت ؟ شنو هالتخطيط.؟ ماكو بيه تنيير للأحسن . تمام ؟ تمام ؟

لبث ينظر إليه صامتاً . لم يجبه لأنه كان يشك في أن سؤاله يحتاج إلى جواب . ثم قال انه لا يريد أن يُعتبر متمرداً . ما جدوى ذلك ؟ اضافة إلى أنه يعطل مشاريعه . التمرد يتضمن المواجهة والدخول في المعامع ؛ وهو يستنكر كل هذا . أنه يود أن يصل هدفه كالأفعى الزاحفة . بالتواء وسكون وبأكبر قدر ممكن من السلامة والتأكد . كلا . ليس لديه أوهام عن التمرد . هذه الكلمة زائفة لا تحمل الخير لأحد وهو لا يطيقها منذ البداية . ان كل أخلاقيات العصر لا تعارض صراحة الأنانية والاستغلال والتمتع على حساب الغير والاغتناء بكل الوسائل.وهو في الحقيقة لا يريد كل هـذا . ليس في نزاجه ما يحبب له ارتكاب الجرائم من أجل تملك كل شيء . غير أن حياتنا هذه هي لشيء الوحيد الذي لا يجب أن يذهب سدى . ولهذا وجب أن نصنع منها شيئاً منظماً ، ن نجعلها جهد المستطاع أمراً هيناً ممتعاً مليئاً واسعاً .

كان حسين يمتص الشاي ويدخن بشراهة ، وعلى وجهه تسقط حزمة من ضوء شمس الأبيض . لم يبد منصتاً إليه ؛ ورأى فرحة غامضة تغمر ملامحه وهو يتطلع خلسة ن النافذة ويتملى من الجو المشرق في الخارج . ثم وضع القدح بحذر أمامه وأطفأ يجارته . هكذا يتهيأ للذهاب :

- آني هم عندي حچي ويَاك شوية مدحت . بلكي فد يوم تجي نشرب .. نسهر سوا . أريد أسمع منك بعد . شد گول ؟

قح فجأة عدة مرات فاحمر وجهه واحتقن . أخرج كفية وأخذ يمسح عينيه وأنفه فمه بها :

- أحياناً الحچي ما أدري لويش يفيد ، مثل البلسم .

ابتسم له . عاد يتكلم :

twitter @baghdad_library

— ... وطبعاً ، أكثر الأحيان ... ثرثرة للصبح . مع ذلك ، حاول فد مرة تجي بالله مدحت . شد گول ؟

— صدك يفيدك الحچي ، حسين ؟

رآه يهم بالقيام فيحجم . أخذ ينظر إلى قدميه ، إلى الأرض ، نظرة غريبة . لحظات ، ثم قام بخفة ووقف أمام كرسيه . قال وهو يزرر سترته :

— بلي . ليش لا ؟ آني واحد من الناس اللي يفيدهم الحچي الصدك .

— شلون ابو سها ؟

كان يمشي خارجاً بتمهل ، فاستدار إليه . ظهرت الحيرة على وجهه ، ورأى ، خلال هنيهة ، ضوء عينيه يتغير وتتقوس شفتاه :

— يعني .. بدل ما أموت على الرصيف وأزعج الناس ، أروح أموت على فراشي .

ثم انفرج فمه المعوج عن ابتسامة يختلط فيها الاعتزاز بالخجل ؛ ورفع يده محيياً ثم فتح الباب واختفى وراءه .

كان مدحت جالساً مع أبيه على التخت الخشبي في ركن من الحوش ، يستمع إليه . ناما قليلاً بعد الظهر في السرداب الصغير ، ثم استيقظا عصراً وجلسا ينتظران أن يُجلب لهما الشاي . كانت السماء باهتة الزرقة لا تزال مليئة بفيض من أشعة الشمس ؛ وكان أبوه يتحدث عن حياته . بدأ بطفولته ولم ينته بعد من ذكرياتها :

— ابويه ، الله يرحمه ، چان يحب ونسه . سهراته ما تخلص . أصدقاء وشرب ونسوان ولعب ورق . ما چانت آخرته تهمه . ايه ، الله يرحمه . هوايه حلو چان ، طويل ، هيبة ، عيونه كبار وشواربه رفيعة .

توقف وأخذ يسبّح بسرعة :

— أتذكر نوبه ...

توقف ثانية متأملاً في الفراغ :

— چان عمري يمكن طنعش لو اربطاعش سنة . مو أكثر . ابويه چان صاير له ليلتين ما رجع للبيت ، وأحنا ما عندنا أحد بالبيت . آني وأمي الله يرحمها وعمتك

وجديتي . أمي المسكينة مثل المخبلة صارت ، لاكَت چانت صابرة ومتحملة . چديتي كمشتني ثالث يوم وگالت لي لازم تروح تشوف أشصار بأبوك . هو أبستان النقيب . ذك الوكت بستان النقيب منو يوصلها وآني جاهل ما أعرف الطلعة ورا المغرب . چديتي ركبتني بعربانة چانت تعرف صاحبها ووصته بيّ ، يوصلني ويرجعني .

نادت أم مدحت من الطابق لأول :

— أبو مدحت .

رفع رأسه إليها :

— ها ؟

— الچاي خدر . صعدوا للايوان شربوه . ماكو آحد ينزله . آني هم أخاف كرومي يريد شي

هز رأسه ولم يجبها :

— وين وصلنا ؟ أي . العربنچي طلع ابن حلال وصاي وبقى ينتظرني . هواية خايف چنت من نزلت . چان الوكت عصر والشمس حمرة والدنيا ربيع والأصال بالبستان ما تخلي الواحد يشوف دربه . بقيت أمشي قريب ربع ساعة . أهبّد مثل النعچة الثولة . تالي ما حسيت إلا فد عبد أسود يطلع لي من ورا الأشجار ويصيح بي ولك شكو عندك بها لديرة ؟ لعنة الله عليه . ما خفت بعمري مثل خوفتي من شفت ذاك العبد ا بو براطم . بلعت ريگي وگلت له عمي آني ابن سيد اسماعيل ، أهلي دزوني عليه . ظل واگف فوك راسي وعيونه تلمع مثل الجمر . گال لي اوگف بمچانك لا تتحرك ، وراح . بقيت واگف أرجف مثل العصفور المبلل . أخاف حتى أحرك أصابعي . والله ما بطوا عليّ . سمعت فد آدمي يمشي ولمحت صاية ابويه بين الأصال . طلع لي ووگف من شافني . بهتت آني . طويل چان الله يرحمه وصايته مفكوكة وگذلته نازلة على كصته وعيونه حمرة لاكت عبالك مكحلة . صاح بي ولك أشچابك رزاق ؟ وانتچه على التوثة . بهرني شكله . گلت له يابه بيبيتي ظل بالها يمك وتگول شلونك . گام يضحك من حچايتي . چانت الشمس

twitter @baghdad_library

تضرب على شجرة برتقال فوك راسه وتخلي وجه كأنه نوراني . مد أيده لجيبه . وگبل ما يخجي تراوا لي بين الآصال فد تفنوف أحمر يهفهف وطلعت من ورا چتف ابويه فد مرية .

سمعا أم مدحت تنادي مرة أخرى . رفع هو رأسه فرأى وجهها وهي تطل عليهما من وراء المحجر الخشبي. أشارت إليه بيدها أن تعالا اصعدا دون أن تتكلم . أجابها ابو مدحت وهو يسبّح :

– زين . زين . راح نصعد . دصبي الچاي انتِ وأحنا هسه جايين .

ثم أخفض صوته :

– بيضة چانت بياض قاطع ومليانه وشعرها أسود طويل يلتف ويوصل لخصرها . تگول غانية من غواني هارون الرشيد . جمال مفرط . سبحان الخلاق العظيم . انتچت على چتفه وگالت له : أريد أشوف ابنك سيد . هو حلو مثلك ؟ أريد أشوفه. صوتها چان . اتذكره زين . بيه فد غنة . فد حلاوة . حضنها ابويه الله يرحمه ومد ايده بالساعة مالته وگال لي : روح عد لك رزاق، أخذ هاي الساعة نيشان لأمك . كل لها آني زين . كلش زين .

صمت لحظات . كانت أصابعه تعبث بحبات السبحة الطويلة وعلى وجهه المجعد عادت تنطبع مسحة من الذهول . همس :

– الدنيا ربيع چانت . هاي المرية چان اسمها ريحانة . تغني چانت ويگلون حبّت ابويه وغنت چم غنوة عليه . چانت بالصيت ذاك الوكت . سبحان الخلاق العظيم . گوم يابه دنشرب چاي . أخاف يبرد .

آنسته هذه الحادثة والطريقة التي رواها بها أبوه . همّ أن يسأله عن شعوره تجاه تلك المرأة وماذا جرى لها مع جده بعد ذلك حينما صرّت الباب الكبيرة المواجهة لهما وتحركت منفتحة ببطء . تبدى له وجه منيرة . يحيطه قماش عباءتها الأسود وهي تطل برأسها من وراء خشب الباب . كان ملوناً مشرقاً رغم علائم التعب . ابتسمت تحييهما وانتبه إلى أمها تدخل بعدها . توقف والده والتفت نحوهما ثم هلل مرحباً بهما . نادت أم مدحت وهي تقف بحذاء المحجر تدعوهم جميعاً للصعود إلى الطابق الأعلى . مبدية

أشواقها لأختها ولمنيرة . كانتا تقفان وسط الحوش تكلمان والدته بحماس . رآها تنظر إليه مرة أو مرتين . شعر ببعض الحرج وهو في بيجامته ، ينتظر أن يسبقوه في السير نحو السلم . لم تكن متزينة ، ولمح على عباءتها وعباءة خالته بعض الأتربة . ثم اتجهتا أخيراً إلى مدخل السلم فتبعهما . لا بد أن تكون منيرة قد عملت الكثير كي تنهي أشغالها المدرسية بسرعة . كان يسير وراءهم متباطئاً ، وتركهم يتهيأون للجلوس في الايوان فقصد غرفته حيث أبدل ملابسه وخرج . واجهته أخته مديحة تمر مبتسمة فسار خلفها . كانوا يشربون الشاي وأمه تحكي لهم عن مرض أخيه عبد الكريم . جلس قرب أبيه، أمامهما ، وتناول قدح الشاي . سمع أباه يكلمها :

– شلونها أختج مليحة ؟

– زينة ، عمو .

ناعماً كان صوتها . رفع نظره إليها . لم تزح العباءة عن كتفيها ولم ير في وجهها أثراً للزينة غير ذلك الخط الرفيع الأسود من الكحل حول عينيها . سألها أبوه مرة أخرى :

– ما أدري چم ولد صار عندها هسه ؟ ستة لوسبعة ؟

انفرج فمها عن ابتسامة خفيفة :

– تلث ولد وتلث بنات ، عمو .

– ما شا الله . ما شا الله . أي ، نعم . صغيرة چانت من اتزوجت .

ثم التفت إلى أم مدحت :

– نورية ، گولي لي شگد چان عمرها مليحة من اتزوجت ؟

– مليحة ؟ صغيرة كاش چانت . خمسطعش سنة يمكن . لاگت هي الله يسلمها خشنة چانت .

هزت أم منيرة رأسها مؤيدة :

– يعني دوب مخلصة الأربعش وخاشة بالخمسطعش .

سمع منيرة تستفسر من مديحة عن بنتيها وعن حسين بصوت خافت . كانت أمه تصب الشاي في الأقداح أمامها وهي تتهامس مع أم منيرة ؛ وكانت زرقة السماء المتلألئة

twitter @baghdad_library

قد خفتت ولم تتبق على التيغة العالية غير انعكاسات بنفسجية من أضواء الشمس الغاربة . رأى منيرة تتناول قدح الشاي من والدته وتشكرها . انحدرت العباءة عن كتفيها بليونة فبدا ثوبها الأزرق وصفحة رقبتها وارتفاع صدرها . نظرت إليه . كان النور يرتمي على وجهها من اليمين وينصب في عينيها ثم ينعكس منهما أصفر عسلياً ؛ وكانت خطوط أنفها وخديها وحنكها وشفتيها ، دقيقة في انحناءاتها لا انكسار فيها . لم يتبادلا الحديث، وصارت الأصوات حوله وشوشات غير واضحة . ثم ران عليهم السكون لحظات قطعته أمه بحديث جديد عن عبد الكريم ومرضه . رآها تصغي باهتمام إلى ذلك الحديث وقد اكتسى وجهها بالقلق . سألت عدة أسئلة عن طبيعة مرض عبد الكريم وأسبابه وما قاله عنه الطبيب ، ثم أرادت أن تراه . قامت أمه بعجلة وجرتهم خلفها . كانت حنوناً مع عبد الكريم ، لطيفة رقيقة الصوت . بدا على أخيه انتعاش مؤقت ثم رآه يمسك بجبهته عدة مرات ويمسح العرق عنها . سادهم شعور بأنهم يثقلون عليه فقاموا وخرجوا . ارادوا الذهاب إلى غرفة العمة حينما تذكرت أمها حقيبتهم التي نسوها في مكان ما . ظهر بعض الذهول عليها ثم انفرجت ملامح وجهها وأسرعت تتجه نحو السلم . خاطبها :

— وين رايحة ، منيرة ؟

أجابته دون أن تتوقف :

— دقيقة واحدة . نسينا الجنطة بالمجاز .

تبعها . كانت على بعد مترين أو ثلاثة منه . نحيلة ، طويلة في حذائها العالي . التفتت إليه :

— ماكو حاجة تجي .. مدحت . الجنطة خفيفة .

— ميخالف . أريد أتنشط شوية .

نزلا الدرجات بحذر ثم واجها الحوش ، رأى ، على الضوء الشاحب ، قسماً من خدها الأيسر وحاجبها وعينها وأنفها الدقيق . كانت تشد العباءة إلى جسمها فيبرز أعلى ظهرها وكتفاها . سبقها بخطوات سريعة فضغط على زر المصباح الكهربائي وفتح باب المجاز الخشبي . كانت الحقيبة مرتكزة في زاوية مظلمة . ضحك حين حملها وشعر

بثقلها :

– ياالله . هي هاي الجنطة الخفيفة اللي تريدين تشيليها بوحدج ؟

كانت واقفة تمسك بطرف الباب . ضحكت ضحكة قصيرة ولم تجبه . رآها تطفيء الضوء . أسعده صمتها وسار بخطوات ثقيلة شاعراً بها تمشي جنبه إلى الخلف قليلاً . كان حذاؤها يطرق حجارة الحوش برقة . استدار إليها حين وصل مدخل السلم المظلم فوجدها قد نزعت عنها عباءتها وأمسكتها بيدها . كانت خصلات شعرها الكث مرتمية على الكتفين النحيلين . توقفت قربه . لم يميز قسمات وجهها جيداً . سألته :

– تعبت ؟

أجابها :

– لاع ، بس صعدي گدامي أحسن .

– ماكو ضوا بالدرج يمكن ؟

– لا .

ثم مرت قربه ، ترتقي الدرجات بخفة . تبعها متثاقلاً ، يحاول أن يتغلب على الارهاق الذي بدأ ينتابه . كانت تنتظر في نهاية السلم ، وعلى وجهها بعض القلق :

– خليها هنا مدحت . أرجوك . خليها هنا !

وضع الحقيبة قرب الحائط ثم سارا معاً . سألها :

– هاي هي كل غراضكم ؟

– لا ، أكو بعد . بس گلنا خلي نستقر أول نوبة .

– يعني راح تنقّلين لبغداد ، مو ؟

كانت تسير ناظرة إلى الأرض :

– انشالله . كتبت لأخويه مصطفى . بلكي يسوي فد ترتيب ويه المعارف . عنده جماعة هناك .

وصلا غرفته فتوقف . استمرت تسير :

– تسمح لي .

twitter @baghdad_library

وتركته منصرفة إلى غرفة عمته حيث الضجة . كانت السماء ، من وراء الحيطان الخربة السوداء ، تبدو ملساء صافية . تطلع إليها تسير . كانت خصلات شعرها الغامقة تنتثر باضطراب على كتفيها وظهرها ، وخصرها الناحل يميل مع خطواتها . لم تكن ساقاها مستقيمتين تماماً ؛ وخيل إليه أن تعباً خفياً ، تعباً روحياً غير منظور يعتور مشيتها .

دخل غرفته وجلس على حافة السرير . لم يرها منذ شهور ، قبيل سفرهما إلى بعقوبة . كانت أكثر مرحاً آنذاك ، أكثر انفتاحاً للحياة . لعل تلك المدينة الخاملة أثرت على معنوياتها العالية ! أحس ارتخاء في ذراعه اليمنى فأخذ يفرك عضلاتها . كانت الغرفة حارة بعض الشيء ، مظلمة لولا الضوء المنسكب من السماء . سمع وقع خطوات سريعة ثم رأى وجه أمه تمر أمام الباب نحو الجهة الشرقية حيث غرفة عمته وأخته . عاد يفرك زنده المتشنج . كان يحس سكوناً في نفسه مشوباً بالرضى . خطر له أن بقاء منيرة معهم يعني أن عليه أن يتخذ منها موقفاً . وقبل ذلك ، يجب أن يعرف مداه منها وما هي منه . وقياساً على علاقته السابقة معها فلا شيء في الأفق . وذكرياته لا تعينه على تقديم أية صورة عنها يمكن أن يتخذها أساساً لتصرف ما في المستقبل . كأنها خُلقت قبيل مغيب هذا النهار !

لمح شبحاً يقف بسكون في الطارمة أمام غرفته إلى اليسار ، تعرف فيه على أخيه عبد الكريم . كان يتطلع نحو الجهة التي تنبعث منها ضوضاؤهم ؛ منحني الظهر ، يستند على المحجر . فاض قلبه بالشفقة عليه . كم يبدو مرهقاً مستنزف القوى ؟ أين ستنتهي به طريق الحياة الموحشة هذه !

سمع احدى الصغيرتين تكلم اخاه من بعيد :

– خالو . خالو . راح نصعد للسطح . بيبي ݣالت راح نصعد للسطح اليوم .

ثم رأى ابنة أخته سها تقترب من خالها :

– خالو . راح ننام بالسطح اليوم . كايتنا . أنت هم خالو ، مو ؟

مد عبد الكريم يده وأخذ يعبث بشعرها :

– زين خالو . وانت وين راح تنامين ؟

رفعت وجهها إليه :

- يم ماما وسناء ، جوّه الكله . شكَد حلو عيني خالو .

بقي يعبث بشعرها لحظات دون كلام . استدارت وعادت تركض إلى الجهة الأخرى سار عبد الكريم ببطء إلى غرفته .

ساد البيت هدوء لا تقطعه غير زقزقة العصافير المنبعثة من أشجار الحديقة الصغيرة . كانت الشمس قد سحبت آخر أنوارها ، ولم تتبق في الغرفة حوله غير الظلمات الشاحبة . لن يطول صمتهم ، وسترتفع ضجة العشاء بعد قليل . لم يرد أن يقوم من مكانه ؛ وكان يحس ، وراء أفق نفسه ، وجوداً سحرياً غامضاً لهذه القادمة الجديدة .

كانا ، هو وابوه ، يتناولان طعام الغداء بصمت ، وأمه تجلس قربهما في السرداب الصغير الرطب . أراد أن يقول لها أنه شبّه احدى الفتيات بمنيرة حين عودته ظهراً من الدائرة. كانت تعبر الشارع فخيل إليه للوهلة الأولى أنها منيرة بخطوها الخفيف وقامتها اللدنة . وبعدما انتهيا من أكلهما وقاما يأخذان غفوة الظهيرة خطر له أنه ، قبل أيام ، ظن أن منيرة تكلمه في التلفون حينما أخطأ عامل البدالة برقمه .

بقي يتقلب فترة على الفراش تحت المروحة السقفية ، ولم ينم إلا بعد أن بدأت الحركة في السرداب الكبير المجاور وشارفت الساعة على الرابعة والنصف . استيقظ ثقيل الرأس وجلس في الفراش . كان بمفرده والظلام يكاد يخيم حوله . فرك عينيه منزعجاً . كانوا جميعاً في الطابق الأعلى . سمع أمه تنادي وأخته تجيبها ثم تراكضت الصغيرتان إلى جهة ما . قام ببطء وذهب إلى المغسلة . أنعشه الماء البارد قليلاً فعاود غسل وجهه وتدليكه . لم تكن الحرارة شديدة رغم انقضاء شهر تموز ولعل الصيف ينقضي بأقل ما يمكن من الأيام الحارة .

توجه نحو السلم وارتقى الدرجات بسرعة . لمحها تدخل غرفة عبد الكريم حالما صار في الطارمة العريضة . كانت تحمل قدحي شاي بيديها . هدأت خطواته . لم تزل الشمس تصبغ الحيطان الشمالية بحمرة أشعتها ؛ ووالده متربعاً بمفرده على قنفة في الايوان يشرب الشاي بسكون . دخل غرفته وأغلق الباب خلفه . خلع بيجامته وارتدى

twitter @baghdad_library

ثوباً وبنطلوناً . سمعها تكلم اخاه في الغرفة المجاورة :

– ... ما أدري لويش . لاكت . تره أكيد . الچاي يساعد على تحمل الحر

أجابها فضحكت . خيل إليه أن ضحكتها ذات طابع خاص وأن فيها مرحاً منخفياً. سمعه يعاود الكلام ثم ساد بينهما صمت قطعته هي بكلمة واحدة :

– يعني ؟

خرج من غرفته وأطل عليهما :

– مساء الخير .

كانت مشرقة الابتسامة . لامعة العينين . تجلس على كرسي منخفض قرب سرير عبد الكريم وتحمل قدح الشاي بين يديها وقد انحنت قليلاً إلى الأمام . التفتت إليه . بهرته صورتها في لحظة التطلع هذه وقبل أن تتفوه بكلمة . العينان الصفراوان الواسعتان وخصلة الشعر الأشقر الداكن والفم الضاحك :

– مساء النور .

وكانت فتحة الثوب الأرجواني ضيقة يحيطها ارتفاعا النهدين المتقاربين . سأل اخاه عن صحته . بدا له متفتح الأسارير هو الآخر . أراد أن ينصرف لولا شعوره بأن ذلك قد يعني اعترافاً بأنهما يملكان الحق بالانفراد . جلس على حافة السرير قبالتها . كانت ركبتاها ملتصقتين ورآها تعتدل في جلستها وتتراجع إلى الوراء . قالت له :

– أشكرك هواية على الكتب الدجيبها . ما أدري شلون ...

والتفتت إلى عبد الكريم :

– بس تره آني دا آخذ منها بلا ما اگول لك . يعني ... تسمح لي .

كانت تتكلم بهدوء . دون إشارات . وعيناها متوجهتان نحوه . قال :

– آني دا أشتريها وأنت أبالي .

أسرعت تقول :

– شكرا . شكرا .

– يعني دتفيدچ بقتل الوقت ؟

– كاش .

ثم نظرت إلى أخيه :

– بس تره كريم هم ديقرا قسم منها . مو آني بوحدي .

وابتسمت ابتسامتها العريضة :

– آني الرگت عندي هواية . لاكت انت كريم وكتك مو هلگد كافي للدراسة . ما بقه شي للامتحان .

أجاب عبد الكريم :

– لا . ما ألچ حق منيرة . آني أقرا هالقصص بوكت الراحة بس . شعليكم مني . هاي هي راحتي .

قال له :

– لا . شوف كريم . القراية المستمرة بيها ارهاق وانت صحتك ما تتحمل .

– ولا اكو ارهاق . قصص خفيفة مسلية . بالعكس .

ثم وجه كلامه إليها :

– لاكت هي منيرة تريد الكتب كلها يمها . ما تريد منافسة من أحد .

ضحكوا . سأل اخاه :

– گول لي كريم . رحت للكلية ؟

– اي . البارحة .

– أخذت جدول الدروس ؟

– لاع . گالوا اسبوع الجاي يطلع .

ثم وضع قدح الشاي قربه :

– شفت وضع الكلية مخربط هالأيام . ما أدري شبيهم . أنواع الاشاعات .

– اشاعات أيش ؟

– والله ما ادري . مرة يگلون ماكو امتحانات هالسنة دور الثاني . مرة يگلون اكو اضرابات طلابية راح تبدي لو أيام الامتحان لو أول السنة . ما أدري شنو القضية ؟

twitter @baghdad_library

– شنو اضرابات ؟ والنتيجة ؟
– ما أدري . يگلون الاضرابات هالنوبة غير شكل .
– منو ديحچي هالحچي ؟
– هواية جماعات . عدا ربع الزعيم طبعاً .
– شوف دا أگلك ، بوضعنا هسه ماكو شي يزيح عبد الكريم قاسم غير القوة . هذا الرجال مدمي ، ما يفهم غير القوة . تمام الوضع فالت من أيديه ، لاكت ماكو شي يصير إذا ماكو قوة . شنو اضرابات ، شنو بطيخ .

تكلمت منيرة :

– بس شوف مدحت ، إذا هاي الاضرابات توسعت وصار اتفاق .. يعني چبهة صارت ضدعبد الكريم قاسم ، كل شي ممكن يصير . تدري سلطة الحكومة خارج بغداد ضعيفة هواية ؟ يعني ، أبعگوبة ، يشتمون عبد الكريم قاسم علناً .

سألها :

– صدك منيرة . ما صار شي من نقلچ لبغداد ؟

كانت الظلال قد تكاثرت في الغرفة الضيقة الحارة ، لكن وجهها بقي مضيئاً بشكل ما . أجابت ببعض الكآبة :

– لا والله . ما ديگدر أخويه مصطفى ينزل بغداد . بس ديتأمل ياخذ اجازة نهاية هالشهر . بعد اسبوعين ، عشرة تيام
– يعني شنو ، إذا ما صارت قضية نقلچ ؟

ازداد وجهها قتامة وصمتت لحظات ثم قامت ترفع أقداح الشاي :

– ما أدري والله . الله كريم

كانت تنورتها البيضاء ضيقة تلف جسداً مليئاً . تابعها برهة وهي تخرج حاملة الصينية وأقداح الشاي . أحس كأن الغرفة تخلو من الضوء بعدها . قام فأشعل المصباح الكهربائي . لاحظ المروحة السقفية تدور . سأل اخاه :
– شلونك كريم بالقراية ؟ بعدك تدوخ من تقرا هواية ؟
– اي . مرات .

— ضعف عام هذا . أنت أكلك شوية مخربط . تمن ومرك يومية . ما يكفي هذا بالنسبة لشخص مريض . لازم أحچي ويه أمي بلكي تبدل من نوعية الأكل شوية .

— شتبدل منه ؟ هذا هو كل ما تعرف . لا ، بس يمكن لازم آخذ بعض المقويات ولو خلال فترة الامتحان على الأقل .

— أي . انت جسمك صحيح ونشاطك لا بأس بيه . لاكت أكو حوادث دتأثر عليك نفسياً . انت لازم تلاحظ هالشي وما تخلي يصير .

— أي حوادث ؟ وين أكو حوادث بحياتنا ؟

— تقصد ماكو حوادث ضخمة . لا تستعجل ، لا تستعجل . بس مو هذا قصدي . اكو حوادث تافهة أحياناً ، لاكت تخلف أثر عنيف بالنفس ، يعني تهز الانسان .

بدا له وجه عبد الكريم يزداد اصفراراً ، يزداد فراغاً ؛ وكان يمسح العرق عن جبهته ورقبته المفتوحة . سمعه يردد :

— ماكو بحياتنا حوادث تهز النفس . ماكو هيچي حوادث . حياتنا مثل التراب ، بلا طعم ، بلا لون .

أزعجه قول أخيه :

— شوف عبد الكريم ...

وجد نفسه مندفعاً في الحديث :

— انت صحتك انهارت ورا موت فؤاد . لازم تعرف هالشي ، لازم تفهمه ، تفهم السبب .

لم يظهر على عبد الكريم أنه سمعه . بقي لحظات يمسح العرق بحركات بطيئة :

— اكو شيء ينفهم ، خاطر أفهمه ؟ اكو منطق بهيچي أمور ؟ ثم ...

تمهل قليلاً :

— ... شنو الفائدة أن تعرف أن موت أعز الناس ألك ، ما له علاقة بحياتك ؟ شنو الفائدة ؟ بس خاطر نقتنع بأن الحياة سلسلة حركات آلية ؟ ماكو فرق بين موت البشر وموت الحيوانات ؟

كانت الكلمات تخرج لينة ، مستسلمة من فمه المتقلص الشفتين . لم يخطر له أن من

twitter @baghdad_library

الممكن أن يسمع عبد الكريم يفصح عن ذاته هكذا . وخلال هنيهة ، وهو ينظر إليه ، أحس بنفسه مصدوماً بكل شيء في أخيه .. مرضه ويأسه ومرارة أقواله . كان يتطلع إلى الخارج مراقباً شيئاً مجهولاً من بعيد . سأله بقلق :

– شنو يعني ؟ تتصور يعني العالم لازم يتوقف لأن أحد الأشخاص .. مات ؟

رآه يلتفت بهدوء . كانت في عينيه نظرة بريئة :

– ليش لا ؟

– لا تتداهر ويايه كريم . ماكو واحد ينكر شگد مرة هالأشياء . بس ... هاي هي الحياة . منو گال لك لازم الحياة تكون مريحة وسعيدة ؟ ماكو أحد ، وماكو شي يخلينا نعتقد هالاعتقاد . بس لازم تفتهم بالوقت المناسب وتنقذ نفسك . هاي هي . لازم تنقذ نفسك .

– حيوانات . يعني ؟

– شنو ؟ شنو ؟ وانت لويش دتحتقر الحيوانات ؟ تعال نتحاسب ونشوف شنو الفائدة من تفوقنا عليها ؟

عاد يجيبه بلهجته المستكينة :

– ما أگدر أتحاسب . ما أريد أدافع عن الانسان آني . ما عندي شي أگدر أدافع بيه . بس ...

تداخلت في ملامحه أمارات ألم :

– ... آني دا أحس بعدم قابليتي على الحياة . يمكن دا أبالغ شوية . لاكت ما أعتقد أگدر أتحمل موت شخص مثل فؤاد مرة لاخ . لا . لا . ما أگدر أتحمل .

لم تصاحب كلماته أية حركة من يديه ؛ وكانت عيناه قلقتين ، تلتمعان لحظة ثم تنطفئان . قال له :

– اكو فائدة من هالسوداوية ؟ أنت دتصر على المعيشة بالماضي ، لويش ؟

سحب نفساً عميقاً ثم زفر :

– آني ما أريد أعيش بالماضي . آني ما أريد اتذكر الماضي ولا أريد أفسره . ما أريد أفتهم شي ما ينفهم . أعرف كل هالشي . كل شي أعرف .

التفت إليه بغتة :

– لاكت .. شوف مدحت .. أحس كل وكت فد شي بيّه يسحبني .. يجرني .. خاطر أرجع .. أرجع ويه فواد ؛ ولو خمس دقايق ، ولو احچي وياه كلمة وحدة .. كلمة وحدة بس . تمام ، ماكو شي معقول بالقضية . أدري ، بس مد أگدر أتغلب على هالشي بنفسي . لازم سويت فد شي مو زين ، فد جريمة بحقه لازم . لاكت شنو ؟ شنو ؟

لم يكن يتساءل . بدا لمدحت أن أخاه على العكس ينطوي في أعماقه على سر ما يريد أن يستره عن نفسه . رآه يخفي عينيه براحة يده اليسرى ويضغط على عظام خديه . كان شعره الأسود ممشطاً بعناية ، يلمع تحت ضوء الغرفة . لم يجد ما يقوله ؛ وأزعجه احساس مبهم بأن هنالك تزييفاً في ناحية مهمة من الموضوع كله . ثم أراد أن يبدي له عطفه ، أن يخبره أن كل ذلك سحابة صيف زائلة ، وأن شبابه وحيويته كفيلان مع الوقت بتسوية كل شيء . قام إليه فوضع يده على كتفه :

- ليش دتعذب نفسك هيچي ، كريم ؟

لبث منحني الرأس ، ساكناً . ضغط على عظام كتفه . رآه ينزل يده عن وجهه ويرفعه متطلعاً أمامه ثم رأى عينيه تضيئان . كانت منيرة متكئة على الحافة الخشبية للباب ، تتأملهما . أدهشته عودتها ووقفتها هكذا . كانت عيناها محاطتين بكحل اسود خفيف وشعرها مرفوعاً إلى أعلى وهي لا تزال في بلوزها الأرجواني . قالت :

– العفو . أگول .. تره خالتي طلعت گبل ساعة تتسوك وما رجعت إلى هسه . ما أدري .. ظل بالنا يمها .

سألها :

– وين راحت ؟

ثم ترك كتف أخيه . أجابته :

– ما أدري . يمكن .. تشتري خبز وخضر .

وكانت تنظر إلى كريم باهتمام . همهم حانقاً :

– چم مرة أگول الها لا تطلعين هيچ طلعات سخيفة .

twitter @baghdad_library

وسار قاصداً الخروج . عبقت منها رائحة لطيفة حين مرّ قربها مسرعاً ؛ ورآها ، وهو يخترق الطارمة العريضة الكابية الضوء ، تدخل غرفة أخيه مرة أخرى . تعثر خلال نزوله درجات السلم . كان الحوش خفيف الظلمة ووشوشة العصافير على أغصان الزيتونة تملؤه بالأشباح . سمع أصواتهما ، أمه وسناء ، حين صار في نهاية المجاز الطويل . كان يراهما بصعوبة وهما تغلقان الباب الخارجية . نادى عليهما فأجابته أمه وحيته الصغيرة . أضاء المصباح الكهربائي القريب ثم هتف بهما مستنكراً خروجهما هكذا وتأخرهما في العودة . لم تجيباه ، واستمرتا على السير بهدوء حاملتين أشياءهما الملفوفة . رجع قبلهما شاعراً بصدره يزداد انقباضاً . كانت لا تزال هناك . دخل غرفته دون ضجة وجلس على السرير . استراحت نفسه إلى الظلمة المحيطة به . بدأت النداءات تنبعث من عدة أماكن في البيت وبعض الأنوار تشعل . أنه عيد العشاء مرة أخرى . كانا يتحدثان ، ولم يكن بمقدوره تمييز كلامهما . شعر بنفسه متعباً على حين غرة . لم يرد ان ينصت لهما . بدا له ذلك أمراً يمس شخصه . وضع رأسه بين يديه . كان قلقاً ، يحس بغموض أنه في وضع غير مريح . كأنه أحيط ، على غفلة منه ، بشباك غير مرئية لمشكلة ما . قام يتمشى في الظلام . كانا يتحدثان . انسل من غرفته واتجه نحو غرفة التلفزيون . رأى مصباح المطبخ الكهربائي يرمي شعاعاً على أرض الحوش الحجرية . كانت السماء باهتة اللون ، خالية من النجوم . مر بغرفة عمته واستمر سائراً حتى وصل السلم فارتقى الدرجات الترابية بخفة . انكشفت له فسحة الفضاء واتسعت السماء أمام ناظريه . لمح نجمة أو نجمتين في طرف الأفق . كان الهواء صافياً ، وليس في السطح أحد غيره في هذه الساعة الكئيبة من نهاية النهار . جلس على أحد الأسرة . أراحه أن يكون هنا ، في هذه اللحظة ؛ متروكاً لنفسه ، يتأمل . لن تلفه المشاكل دون علمه على الأقل . ذلك ما يجب أن يضمنه لنفسه . ثم ، أن تتخذ منهجاً حياتياً يجب أن يعني حساباً للعوائق والمصاعب التي قد تقف دونه . المهم أولاً وأخيراً أن نستوعب حقيقة هذه العوائق وأن نلم بحدودها وأبعادها . قام يتمشى ببطء . كانت الحمرة قد تلاشت في أقصى الشرق وخلفت بعدها رماداً أرجوانياً قاتماً ، والحيطان الترابية خبأت بؤسها تحت الظلام . وقف أمام سرير في طرف من السطح غير بعيد . فاذا أمكن أن نسمي

المشكلة باسمها ، منيرة ، فلا موجب أن تتدخل أمور أخرى لتمنع هذه التسمية . ابتسم . أنها ترقد على هذا السرير ، لكن وزنها كمشكلة .. أين يرقد ؟ وما هي ، خارج الانجذاب الجنسي والعاطفي ، خارج عالم التوحد والوحشة والملل ؟ كانوا يتصارخون ويتنادون في أسفل ، ورائحة الدهن المحروق تتصاعد إلى أنفه . انها تجذبه إليها دون خفاء ، وهو يشعر أنه لا يقاوم هذا . لن تجد فتاة جميلة كل وقت تتجاذب معها شيئاً ما ! نودي عليه من الحوش . أما حديثهما المستمر .. كانت النجوم قد تكاثرت في سماء لا لون لها ، وأغطية الأسرة البيضاء تبدو كخيم في صحراء . أنه على مبعدة ؛ ولعل هذا هو المكان الذي يلائمه أكثر . أما هي .. لقد بدأت تتكون أمامه .. شخصاً جلياً لا غنى عنه . صارت شخصاً .. لأول مرة . تكررت النداءات عليه . لم يرد أن يجيب . أحب فجأة أن يبقى هكذا في الظلام ؛ صامتاً بعيداً عن نداء العالم . لابشر ولا خطط ولا مشاريع ولا رعب أبدياً مجهولاً .

سمع ساعة الجامع تدق دقاتها اللينة الرخيمة قبيل وصوله دارهم . كان الدرب خالياً موحشاً تكتنفه الظلمة . فتح الباب عندما عادت الساعة تردد دقاتها ، وسار ببطء وحذر في المجاز الضيق . تعثر بعد المدخل بقليل . ثم نسي المنخفض الأخير فتعثر مرة أخرى وارتطم بالباب الخشبية الكبيرة . توقف لصق الباب . كان الضياء المقبل من الحوش ينسل من الشقوق العريضة . قرّب عينيه منها ، فلم ير شيئاً فدفعها بقوة ودخل . كان المصباح الكهربائي يشع وسط الطارمة الكبيرة في الطابق الأول ، معلقاً فوق الكرسي الذي يجلس عليه أخوه عبد الكريم . نظر إلى الساعة في معصمه فلم يميز موقع العقربين . سار قليلاً ثم توقف . كانت ظلال الأعمدة الخشبية تترامى على الحيطان العالية ، وأغصان الزيتونة منكمشة على نفسها . سحرته تلك الأضواء المنشطرة والظلام الطويلة التي أحاطته وهو وسط الحوش . استدار حول نفسه ثم استدار مرة أخرى . مثل الطواحين العمالقة . عمالقة دون كيشوت . عمالقة باب الشيخ .

سمع شخصاً يخاطبه :

– مدحت يابه ، شوكت جيت ؟

كانت عمته تقف متكئة على المحجر أمام غرفتها . هتف بها :

twitter @baghdad_library

– هاي شنو عمة ؟ انت لويش گاعدة ليهسه ؟ ها ؟

بكلمات ممطوطة بعض الشيء . أجابته :

– يا عيني عليك يا مدحت . ليش آني شوكت نايمة بهالليل الطويل !

– وشمطولك خايب يا هليل !

– شنو ؟ شنو ؟

– سلامتچ عمة . أمر ؟ خدمة ؟

– لا أمرِ عليك ظالم يابه . بس ردت فد بطل ماي بارد من الثلاچة . گلبي مثل النار وآني كل شي ما ماكله .

– الله أكبر . لويش ما تعشيتِ عمة ؟

– علم الله ما حطيت لگمة بحلگي . شوف لي ،رحمة الله على أجدادك ، بلكي أكو فد شيف ركي آكله ويه الكعك ؟

– تأمرين .

شرب من فم القنينة ماءاً مثلجاً ثم حملها وقطعة الرقي وعاود سيره . سحرته مرة أخرى لوحة الأضواء والظلال . مثل أعمدة معبد روماني\متهدم . لمح عمته تراقبه وهو يدور حول نفسه ، فرفع يده عالياً بقنينة الماء .

حيّا اخاه من رأس السلم ثم سلك طريق الطارمة الضيقة نحو غرفة عمته. وجدها تجلس على الفراش واضعة يديها في حجرها . كانت الشبابيك العريضة مرفوعة كلها وضوء المصباح الكهربائي البعيد ينير جوانب الغرفة . سألها :

– وحدچ ، عمة ؟

ففتحت ذراعيها ولم تجب . سألها :

– وينها بيبيّي ؟

– صعدت للسطح . ما گدرت تتحمل الحر عيني . وينه الماي والركي ؟

دخل الغرفة فأحاطته هالة غير منظورة من الحر . وضع حمله أمامها على الأرض ووقف متردداً . تناولت قدحاً فملأته ماء ثم شربته .

قالت بسرعة :

– اگعد يابه مدحت . ليش واگف ؟ ساعة بيش هسه ؟

– ما أدري عمة . يمكن ورا نص الليل . شنو ، كلهم صعدوا للسطح ؟

– كلهم عيني ، كلهم . بس هذا أخوك صار له أربع ساعات عيونه ما شالها من الكتاب . گلبي ديتفطر عليه وأخاف احچي وياه .

أمسكت « شيف » الرقي بأناملها فانتزعت منه قطعة رفعتها إلى فمها وبدأت تلوكها. سره أن يراقبها ملتذة هكذا بأكلها . تكلمت وهي تنبش في كيس ورقي عتيق :

– ليش واگف يابه مدحت ؟ هسه تهب نسمة هوا ترجّع ألنا روحنا .

أراد أن يداعبها بكلمة أو كلمتين ثم ينصرف ، إلا أنها عادت تتكلم :

– ورا ما طلعت بدقيقة جا خبر نقل منيرة لبغداد . يمكن ما چنت واصل لراس العگد .

– شنو ؟ شنو ، عمة ؟

أجابته وهي تقرض قطعة الكعك :

– مو دا أگلك أگعد . هسه تجي نسمة الهوا البارد . منيرة انّقلت لبغداد . يگولون بمدرسة صايرة بالحيدرخانة .

– منو يگول ؟ منو جاب الخبر ؟

– عدنان . عدنان ابن مليحة . انت طلعت ، عدنان دك الباب . چان ديريد يشوفها . سناء فكت الباب . هي حچت لي .

انتبه فجأة إلى بعض الانفعال يسيطر عليه . سحب كرسياً وجلس :

عدنان ؟ عدنان شنو علاقته بالقضية ؟

رفعت نظرها إليه :

– ابني مدحت ، انت شعليك منهم ؟ كلها چم يوم وكل واحد يروح على خر أذنه . يا هو مالتك ابني .

كانت عيناها حادتين رغم الغضون التي تحيطهما . أزعجه أنه لا يفهم الأمور المختلطة الغريبة التي تلمح لها . عاودت الكلام ببطء :

twitter @baghdad_library

– الخبر جاهم لبعگوبة . للمدرسة مالتها . وهو أخذه وجا يطارد لبغداد .

كأنها تلهو باطلاق كلماتها المتلاينة . سألها بصوت خشن :

– اي ؟

لم تعره التفاتاً وباشرت بقطع الكعك وحشو فمها به . بدا عليها أنها انصرفت عنه انصرافاً كلياً . هتف بها :

– أي ؟ وبعد ؟

– ماي هيه . تگول أمها عد لازم نلگي بيت ونتحول .

كان فكاها يتحركان باستمرار :

– اي . شكو بيها . بنتها معلمة وعندها معاش وبعدها ما متزوجة . شكو بيها عيني . خومو مثل حظنا . الله يرحم كل من صار السبب . الله يرحمه . محتاج رحمة . خلوني گاعدة راسي وراس الحياطين . كل ابن حلال يتقدم يطلعوه من بيت هيبو . بس هم المكملين المستورين ولد العوايل . الله ينتقم منهم . الله لا يرحمهم .

ثم انقضت بأصابعها على بقايا الرقي فأمسكت بقطعة كبيرة حمراء أبقتها في يدها لحظات . كان الضوء الشاحب يرتمي على وجهها دون بقية جسمها ؛ وكانت ملامحها المنسجمة رغم الغضون ، تخفي آثار جمال زائل . سمعها تتنهد :

– ماكو فايدة . الراح راح ، وانت يا ابني ديربالك .

– هاي شكو عندج اليوم عمة ؟ أشو انتِ مو على بعضج ؟

– شوكت چنت على بعضي آني يابه ؟ عمرنا كله خيط خربيط .

شربت جرعة من الماء :

– شوف ابني ملحت . انت عاقل.ما أريد تگول لهم آني نقلت لك الخبر . هاي سناء ، گلبي عليها ، چتني تختض مثل السعفة ووجهها أصفر كركم ؛ شاورتني تگول عمة جر منيرة من ايدها وگام يصيّح وشمر الورقة عليها .

شعر بالانفعال يعاوده وبدقات قلبه تتزايد :

– منو ؟ شنو ؟ علمن تحچين عمة ؟

– على عدنان يابه ، على عدنان . مو گلت لك چا ورا ما طلعت . چان چايبلها الخبر . ما أدري الأمر مال النقل ، ما أدري شنو . وعلويش العركة ، عيني ؟ ما يروحون يتعاركون ببيوتهم ! أحنا شعلينا ؟ هاي البنّية سناء فزّت خطية . صوچ ذنب ؟

– لويش يتعاركون ؟ علويش ؟ شنو علاقته هو بيها ؟

– ابن أختها يابه .

قام من الكرسي :

– ادري ، ادري . لاكت شيريد منها ؟ شيريد ؟

– آني ادري يا ابني . مو گلت لك أخذ الخبر وچا يطارد بسيارة أبوه لبغداد . هينة لينة . سيارة چواه ولا شغل ولا عمل . هينة لينة . وانت يا هو مالتك عيني ؟ انت ما تگولي يا هو مالتك ؟

– انت شبيچ اليوم عمة ؟ منو گالچ آني عندي شي بكل هالحچي ؟

نظرت إليه مفتوحة الفم . لم تكن مندهشة بقدر ما كانت غير مصدقة :

– شلون ما عندك شي يابه مدحت؟ منو عنده لعد ؟

– هذا أنصاف منچ ؟ آني خاشش طالع ؟ بيها عليها ؟ آني يا هو مالتي ؟

فاستنار وجهها :

– الف رحمة على والد والديك وعلى أجدادك وعلى كل أموات أمة محمد . بردّت گلبي بليلة الخير هاذي . يابه الله ينطيك .

أراد أن يخرج . تردد . كان مشدود الأعصاب ، يحس باختناق غريب في أعماقه :

– ومنيرة ؟ ما گالت شي ؟

أشارت بذراعها اشارة عريضة :

– أبد . أبد . صاموط لاموط .

– وأبويه ؟ ما سمع شي ؟

– أبوك شعليه ؟ ابوك منو يحچي وياه ؟

– يعني يصير يجي هالزعطوط يعتدي على الناس ويروح بلا ما أحد يأدبه ؟

– لا تحچي هالحچي عيني مدحت . مو هسه ترّحمنا على الميتين والطيبين . محد يدري بالقضية . سناء بس تعرف وجت سرتني بيها خطية . أستر علينا يابه ، الله يستر

twitter @baghdad_library

عليك . سبحان الله ، هسه دا أگول ...

– لا يظل بالچ عمة . سدچ أمين . بس انت بوچدانچ تقبلين هالشي ؟

– آني ما أقبل . شلون أقبل ؟ منو يقبل بالتعدي ؟ لاكت .. مو هسه گلنا .. أحنا يا هو مالتنا يا ابني ؟

لم يكن هادىء النفس ، لكنه شعر أنه انتهى مع عمته إلى نقطة ميتة والا فائدة من الحديث بعد ذلك :

– صار . صلو عمة . صدك دتحچين . كلمن يتعدى ، ألله الله .

– اي ، لعد شلون يابه ؟

سار خارجاً :

– ألله الله .

سمعها وهو يحس بالهواء البارد يلامس وجهه :

– ما لحگنا نترحم على الميتين والطيبين ! الله ينطي العقل لأمة محمد .

لم ير كريم وسمعه يقلب الكتب في غرفته . نزع ثيابه المبللة بالعرق ثم ارتدى بيجامة خفيفة . كان رأسه ومعدته ثقيلين بعض الشيء . أكثر من أكل الفستق واللبلبي هذا المساء . خرج من الغرفة وأطل على كريم فسأله عن دراسته فأجابه هذا مهمهماً بكلام لم يفهمه . غسل وجهه وفمه وقدميه . أنعشه الماء البارد . طرقت أذنيه ، وهو يصعد درجات السلم إلى السطح ، دقات ساعة الشيخ متأنية متراخية . لم يحصها ؛ كان يستمع إليها فقط . وحين انتهى من ظلام السلم وضاعت عيناه في سماء تزدحم بنجوم خافقة النور ، بدأت الساعة تعيد دقاتها المنغمة الرقيقة . تنفس بعمق . كان الهواء البليل سحراً غريباً ينفخ صدره بالحياة . لم تألف عيناه الظلمة أول الأمر ، وتلامحت له الأسرّة البيضاء كطيور الليل الجاثمة . مشى بهدوء نحو سريره ثم جلس على طرف منه . كانوا يشخرون بشكل غير منتظم في عدة جهات من السطح ، الا أن ذلك لم يخدش سكون الليل . تطلع إلى الجهة التي فيها سريرها ، فلم يميزه . أحس بمشاعر متناقضة تختلط في نفسه . أثارته الحكاية التي روتها له عمته ، وأزعجته تلك الفكرة اللعينة عن انتقالهم إلى بيت

آخر . اضطجع على فراشه وأغمض عينيه لحظات فدار رأسه . لا بأس . سيزول كل شيء مع البرودة والاسترخاء . هنالك بعض الغرابة فيما نقلته سناء إلى عمته ؛ ناحية غير مألوفة . ما هي أسبابه ، مثلاً ، كي يأتي ليتنازع معها هنا ؟ ماذا يوجد بينهما ؟ أم أنه في حقيقة الأمر ، لم يتنازع ولم يدخل معركة وإنما .. هكذا .. أهانها بصورة عرضية ؟ لماذا ؟ عاد إليه انفعاله وتوتره . فتح عينيه ، فامتلأتا بتراقص النجوم . وفي بيتهم أيضاً . دون اهتمام بمن يسمع أو يرى . وماذا لو ... يثب هو نحوه من لا مكان ويلطمه . بكل قوة ووحشية ولكن بهدوء مميت . يلطمه بكبرياء ، ذلك الجلف . ثم تنهدّ أعصابها وترتمي عليه . استراحت نفسه لهذه الصورة . ترتمي عليه ، ترتمي عليه . إنما الأمور بدأت وانتهت بشكل آخر ، لو صح كلام سناء . والغرابة في كل الحكاية هي أنها يجب ألا تحدث . لأنها ضد منطق الأشياء المعروفة . وما يجب أن يُعمل هو أن تُقطع من شريط الأحداث .. ثم تُحرق . ويُقال لمن يسأل أن الرقيب قام بقطعها ، لأنها ضد الحقيقة . أما اللطمة فتكرر عدة مرات . تراخت أجفانه وأنطفأت أضوية السماء . تكرر اللطمة عدة مرات تلبية للطلبات الملحة . عدة مرات .. عدة مرات .

... قعد في فراشه يابس الفم محترق الجوف . تلفت يمنة ويسرة ثم قام نازلاً من السرير وسار بخطوات غير مستقيمة ، نحو محل « التنگة » قرب المحجر . مسح عينيه وعدّل من وضع بيجامته . كان الجميع نياماً في هذه الساعة الغامضة من الزمان . وصل مكان الماء فتناول « الحبانة » . كان القمر في الجهة الشرقية مثلوماً يلتمع في سماء بلورية لا لون لها ، وأنوار الفجر الأولى تتصاعد وتنفرش مثل غلالة خفيفة الحمرة ؛ وكان العالم الساكن من حوله قد توشح بلون فضي يميل إلى الزرقة . لبث جامداً يحمل كاس الماء الفخاري في يده . كان شعرها الأسود منتثراً على المخدة البيضاء وقسم من كتفها العارية يبين فوق اللحاف . لم يكن يبعد عن سريرها غير خطوتين ، وكانت النسمات الباردة تتلاعب بقماش الفراش . شعر بفمه جافاً فانحنى وملأ « الحبانة » ماء ثم كرع السائل السحري البارد بشراهة فتسايل على جانبي فمه . تنفس بعمق نفساً طويلاً . كان الصمت غريباً تلك الساعة ؛ حتى النيام انقطعت أنفاسهم . أرابته حركة منها ، ثم رآها ، بغتة ، تجلس في فراشها واضعة يديها فوق اللحاف ، تتطلع إليه . كان شعرها

twitter @baghdad_library

يغطي الكتفين وقسماً من ذراعيها وثوب نومها الأزرق أو الأبيض أو الرمادي ، يكشف عن عنقها وصدرها . لم يدهش ، ولكن انبهاراً غير مفهوم تملكه . خيل إليه وهو يحد بصره في وجهها أنها كانت مغمضة العينين ، الا أن بريقاً من ضوء القمر انعكس عنهما وكذّب ظنه . بقيا يتبادلان النظر .. همس :

– ماي .

فسمعها تتنهد حالاً . كأنها ظنته شبحاً . أخفت وجهها في راحتي يديها وانحنت قليلاً إلى الأمام فتهدلت خصلات شعرها . داخله بعض القلق والاضطراب . كانت لا تزال منحنية وقد بدت له غاية في النحول . انحنى فملأ « الحبانة » ماء ثم تقدم خطوة منها . همس مرة أخرى :

– تريدين ماي منيرة ؟

رفعت رأسها بسرعة . كانت ملامح وجهها واضحة على ضوء القمر الممزوج بأنوار الفجر . خيل إليه أنه يرى في عينيها نظرة فارغة وأن شفتيها تراختا قليلاً . لعلها تكلمت ، تلفظت بكلمة أو بحرف . غير أن كل شيء فيها كان يدل على أنها لم تكن تراه أو تسمعه . كانت بشرتها شاحبة بيضاء وشعرها الكث يحيط وجهها ويترامى على كتفيها وصدرها . لمح شق الثوب يكشف عن النقاء نهديها . داخله القلق وهو يقف قريباً واسترق نظرة أخرى سريعة إلى ارتفاع نهديها الجميل . كانت تجلس جامدة يكتنفها الذهول . مد يده بالكأس الخزفي وتمنى مخلصاً أن تتناوله وتنهي ذلك الموقف . كانت عيناها طويلتين تحت الظلال وقوس شفتها السفلى يبدو مستديراً . رآها تمد ذراعها ببطء وتتناول منه كأس الماء . تلامست أصابعهما هنيهة برفق . لمسة سحرية لا نهاية لرقتها . رفعت يدها بالكأس إلى فمها . لاحظ الفرق في شعرها ، خطاً خفيفاً تخفيه بعض الخصلات المضطربة . ثم أعادت إليه الكأس دون كلام . توقف لحظة أمامها . لم تكن تنظر إليه . كأنها في عالم آخر . تراجع يضع « الحبانة » مكانها فوق « التنكة » . التفت . رآها قد عادت إلى الاضطجاع ثانية وغطت جسمها باللحاف . سار بخطوات ثقيلة نحو سريره . تطلع ثانية إليها . كانت نائمة ، دون حراك . جلس على الفراش . كانت أرض السطح الترابية مصبوغة بلون فضي ، وفي الجهة الغربية من

الأفق بعض النجوم البيضاء . ساوره ارتياح مشوب بضيق وانزعاج . كم بدت مختلفة الطباع ! انتبه إلى قلبه يدق بسرعة تتباطأ رويداً رويداً . لا قبل له بمثل هذه التجارب معها . وخاصة ، أن هذه الساعة الضائعة بين الليل والنهار ، بين الفجر والقمر ، لا تدع للانسان أن يفهم ما سيعمل بعد لحظة . ولعلها ظنت به الظنون . يوقظها عند الفجر وينلس معها في الفراش . هكذا دون دعوة . أحدهم يعتدي عليها عصراً ثم يكمل الآخر الاهانة قبيل مطلع النهار ! لا بأس ؛ ما دامت فتاة ضعيفة ليس بمقدورها الدفاع عن نفسها ! يا للصور المؤلمة ! انكمشت نفسه . وهي ، آخر الأمر ، قد تبتعد عنهم ، وتغادر دارهم . من يدري ؛ وتختفي من عالمهم البيتي تلك الخطوات الخفيفة والضحكات الناعمة والهمسات والابتسامات ولمحات العيون العسلية الكحيلة وذلك الوجود الانثوي الحار . ازداد انكماش نفسه . أنها لم تعد غير داخلة في حياته ؛ وهو يحس أنها ، حتى في عزلتها ، تترك له أنفاساً غير منظورة من روحها الفتية .

اضطجع في فراشه . كان المشرق يلتهب حمرة ويطفيء لمعة القمر والنجوم، والعصافير ، في عمق الحوش ، بدأت تغني اولى أغنيات النهار . سمع المؤذن يفتح سماعة مكبر الصوت ويخدشها بأصابعه وبأنفاسه الثقيلة . لم يكن قلقاً اكثر مما يجب ، وشعر، مع التصاق أجفانه ، أن باستطاعته أن يفعل شيئاً جميلاً في يوم من الأيام القريبة .

twitter @baghdad_library

- ٦ -

كسرت سناء الماعون الأبيض ذا الورود الحمراء وهي تشترك مع أمها في غسل الصحون بعد الغذاء . صرخت بها الأم وكفختها مرتين . بهتت سناء ووضعت يديها فوق رأسها تحتمي من ضربات أمها . عاطت هذه بها :

– ولج بنت الحرام لا تخلين أيديج فوك راسج وكلها زفر . بنت الحرام . المواعين مال الخلفج ، واكعة بيها كسر !

ثم ضربتها على كتفها بشدة ودفعتها صارخة مرة أخرى . خنقتها العبرات ووقفت بعيداً وهي ترفع يديها أمامها كيلا يبتل ثوبها . كان ذلك هو الصحن الأول الذي تكسره . انزلق فجأة من بين يديها . رمت أمها البقايا في سلة القاذورات وعاودت الصراخ :

– ملعونة الأهل . مضروبة الچلوة . شكو عندچ مستعجلة ؟

والعرق يسيل من وجنتيها ورقبتها . كان هذا هو الصحن الأول الذي ينكسر بين يديها . قالت ذلك لأمها ، فهمّت بضربها وهي تعيط :

– أمشي منا كلبة بنت الكلب . قشمر مال ابوچ آني . خلصت مواعين البيت . أول ماعون ! روح موتاچ أحسن. طلعي روحي ولي . روحي صعدي فوگ . ماكو نومة بالسرداب . تموتين وما تنامين بالسرداب اليوم .

لفحتها حرارة الشمس وهي تركض عبر الحوش نحو السلم . رأت جدتها أم مدحت تقصد المطبخ من الجهة الأخرى . ترددت قليلاً . كان بودها أن تكلمها ، لكنها

استمرت تركض والدموع تغرق عينيها . لم تكسر أي شيء قبل الآن . كان هذا أول صحن ؛ وأمها تعرف ذلك جيداً . تعثرت بدرجات السلم الأخيرة فوقعت على الأرض مجهشة بالبكاء . تمخطت ومسحت أنفها وعينيها بأطراف ثوبها ثم قامت تركض نحو غرفتهم . آلمتها ركبتها اليمنى . سمعت نداء باسمها من غرفة العمة ورأت أم حسن تشير إليها من خلال الشباك المفتوح . هزت لها رأسها دون كلام ثم دخلت غرفتهم . كانت شبه مظلمة ، لا أحد فيها . نزلوا جميعاً إلى السرداب ، ينامون على الحصران الناعمة تحت هواء المروحة البارد . تناولت دميتها من على الكرسي وارتمت على الفراش . احتضنتها وأخذت تمر بيدها على شعرها الأصفر الفاقع . كانت تنظر إليها بحنان ثم تعدل من شأن لباسها وتعاود امرار يدها على الشعر المضطرب . لم تهدأ ضربات قلبها ولا ألم ركبتها ، لكنها لم تشعر بالحر . قعدت في الفراش ومسحت أنفها . أجلست الدمية أمامها . أخذت تكلمها :

– لا تبچين عيني فلوى . لا تبچين . لويش دتبچين عيني ؟ لويش ؟

سحبت ثوب الدمية إلى الأسفل ومسحت أنفها :

– چم مرة أگول لچ لا تكسرين شي ؟

صمتت . بدا عليها كأنها تنتظر جواباً من دميتها :

– لاع . لاع . انتِ . منو لعد ؟ كلبة بنت الكلب . أگولچ لا تبچين . لويش دتبچين عيني فلوى ؟

ثم أمسكت بها واحتضنتها . ضمتها إلى صدرها وأخذت تهزها ببطء :

– نامي عاد . نامي عيني . يالله تعاي خل دنام . تعاي .

استلقت على الفراش ووضعت الدمية جنبها . كان الحر شديداً . سمعت أمها وجدتها تتكلمان في المطبخ . أنصتت إليهما . لم تفهم شيئاً . مسحت وجهها فشمت رائحة الدهن في يديها . همست تتكلم :

– چم مرة أگولچ غسلي أيديچ ؟ حارة الدنيا عيني فلوى . دنامي عد.

روحت بيدها على وجهها وعلى وجه الدمية :

twitter @baghdad_library

– نامي عيني نامي . ميخالف . آني هسه أگول لخالة سها تفتح البنكة . لاكت وين ألگيها هسه عيني ؟ نايمة بالسرداب ودتاكل دوندرمة . شتريد بعد . خوما تگول هاي سناء خطية ، نايمة بالگبة بوحدها والدنيا حارة نار ؟ لاع . عدين انت هم صيري مثلها . ناكل الدوندرمة بسكوت . ها ، عيني ؟ ديالله . نامي عد .

آلمتها تصوراتها فضغطت الدمية إلى صدرها ثم أخذت تعبث بشعرها وبثيابها الممزقة . أغمضت عينيها وعاودت الهمس :

– باچر ناخذ من خالو لو من جدو عشر فلوس نشتري بيها دوندرمة أم المصاصة. شكو بيها عيني ؟ أحنا ما عدنا أب،وأمنا كل وكت عصبية وتبسطنا . شكو بيها عيني ؟ دنامي عد مگموعة.چم گلاص وماعون كسرت هاي ؟ شنسوي عيني ؟ طلعت اولى على الصف،لاكت شوية وكيحة . تكسر مواعين هواية وتخاف من الجريدية من يركضون بالسگف .

تطلعت بعينين مذعورتين إلى السقف الخشبي الداكن . كان البيت ساكناً . طمأنتها قرقعة قباب على أرض الحوش . بقيت متعلقة بنظرها في السقف دقائق . رطب العرق جبهتها ووجنتيها وما حول فمها . أحست عطشاً شديداً . بدأت تربت بأصابعها على الدمية :

– لا تخافين عيني . لا تخافين . ماكو جريدية هسه . لا عيني ، هسه وكت جريدية ! الناس نايمين ودياكلون دوندرمة وهاي عقلها بالجريدية ! لا تخافين . دنامي . نامي . لا تخافين . باچر تنفتح المدرسة ويجي بابا يشوفچ . وتطلعين اولى على الصف . شگد حلو . وناخذ عشر فلوس نشتري بيها دوندرمة وچكليت . ومن السما عيني هم . دنامي . دنامي عيني

سمعت أمها تتحدث ولم تميز كلماتها . انغلقت أجفانها بسكون وتوقفت الضربات الرتيبة.

وقفت سناء أمام الحوض الصغير مترددة ؛ تتأمل قدميها والقبقاب ذا الجلد الأحمر . كانت تحت أغصان الزيتونة المنفوشة والعصافير في حمى أناشيدها قبيل الغروب . أرادت أن تضع أطراف أصابعها في ماء الحوض ؛ تغمسها لحظة ثم تسحبها . كانت صفحة الماء الراكد تعكس ضوء السماء،تقطعه خطوط الأغصان الملتوية . لم

تسمع من أمها ولم تظهر لها منذ مدة . لا بد أنها تحضّر العشاء في المطبخ . رفعت رأسها رأت أختها سها واقفة في الطارمة الضيقة تحمل الدمية بين يديها . لمحت أمها تخرج من المطبخ . سمعت دقات على الباب الخارجي . قالت لها سها :

– راح أصّعد اللعابة ويابة للسطح .

ورأت أمها تتقدم من الباب الوسط وتهتف :

– منو ؟ منو ؟

ثم تلتفت إليها :

– ليش واكفة مثل الحجارة ؟ روحي شوفي منو بالباب .

فتحركت . أشارت إلى أختها اشارة رفض :

– هاي لعابتي . خليّها . ماكو . ماكو .

واندفعت تركض على أرض المجاز الطويل المظلم . قالت قبل أن تفتح الباب :

– منو ؟

كان واقفاً على الجانب الأيسر وظهره للنور . خيل إليها أنها تعرفه . سألته :

– نعم عمو ؟ ألمن تريد ؟

كان طويلاً ذا صوت أجش حاد :

– هنانة ... منيرة ؟

يرتدي ثوباً أبيض شفافاً وبنطلوناً غامقاً . لم تميز ملامحه الغامضة . أرادت أن ... صرخ بها :

– شبيج واكفة ولج ؟ روحي صيحيها دا اكولج . جبت أمر نقلها .

وهز يده بورقة عدة مرات . هلعت وتراجعت قليلاً ثم عادت تركض خافقة القلب . لم تعرفه . وأخافها ذلك . واجهتها أمها عند مدخل المطبخ :

– علمن ؟

– يوم فد رجال ديريد أبلة منيرة .

twitter @baghdad_library

- منو هو ؟
- ما أعرفه ، يوم . يگول جايب النقل مالها .
- النقل مالها ، شنو ؟

بقيت ساكنة . سمعت أختها سها تنادي :

- أبلة منيرة . أبلة منيرة .

تقدمت أمها من مدخل المجاز وهتفت :

- منو ؟ منو عيني انت ؟

بدت منيرة في الطارمة . إلتفتت أمها رافعة نظرها :

- منيرة عيني ، ما أدري منو جاي عليج . هاي سناء تگول جايب النقل مالج .
- النقل ؟ أمر النقل ؟ الله يبشرچ بالخير مديحة . هذا لازم فراش المدرسة حسين .. خطية جاي من بعگوبة لهنا . يوم .. يوم .

ثم عادت منيرة تدخل الغرفة . كلمتها أمها :

- أمر النقل ولج ، بومة . حچي ما تفتهمين هم .

وسارت ببطء إلى المطبخ .

بقيت متكئة على الحائط ، شاعرة باضطراب يداخلها . أخافها لغير سبب ، ذلك الرجل المجهول . سمعت حركة في الطارمة ورأت منيرة تسير بخفة نحو السلم . كانت العصافير تتقافز فوق أغصان الزيتون والظلام يهبط . أمسكت صدرها في موضع القلب . خرجت جدتها أم مدحت من المطبخ فجأة وسألتها :

- ليش واگفة هنا عيني سناوي ؟ تعاي شوية عاوني أمج .

انزلت ذراعها وأطرقت . سمعت أمها تجيب :

- لا يوم ، الله يخليج . خليني اشتغل وعقلي براسي .

انسحبت الجدة وعاودت أمها الكلام :

- روحي ولج سناء صعدي فوك يم أختج .

كانت منيرة تسير وسط الحوش مبتسمة في وجهها . مدت لها يدها وهمست :

- تعاي ويايه سناء ، تعاي .

بادلتها الابتسام وأمسكت بيدها :

– نعم ، أبلة منيرة .

ثم بدأتا تخترقان ظلمة المجاز . كانت أصابع منيرة ناعمة بـاردة ، فشعرت باضطرابها يخف قليلاً . وصلتا الباب الخارجي فتوقفتا عنده . سحبته منيرة ببطء وأطلت برأسها متسائلة :

– نعم ؟ منو هنا ؟

أرادت هي أن تشاركها النظر حينما طرق سمعها ذلك الصوت الخشن العالي :

– آني . آني . ما تعرفين ؟ منو يجي عليج غيري ؟

تراجعت منيرة بسرعة وبصورة مباغتة فارتطمت بها ودفعتها نحو الحائط . أحست بها ترتجف رغم أن جسميهما لم يتماسا وسمعتها تشهق شهقة صغيرة وتهمس :

– عدنا ... ؟

لم تلتقط أذناها الاسم جيداً وبقيتا ساكنتين مستندتين إلى الباب . عاود الكلام :

– وين رحت ، منيرة ؟ لويش دتنهزمين مني ؟ ها ؟ تردين تخبليني ؟

ثم ارتفع صوته :

– ها ؟ لويش ؟ تخلصين مني تردين ؟ يعني هاي هيه ؟ تنقلين لبغداد وروح يا عدنان ذب نفسك بالشط . هذا عقلج ؟

ضرب الباب بشدة فارتج جسداهما وتلاصقا . وجدت سناء نفسها محصورة بين الحائط والخشب . كانت أطرافها باردة وساقاها ترتجفان . شعرت بمنيرة تندس بها في زاويتها المظلمة . تملكها فزع لم تجربه قبلاً . وتأكدت خلال الرفسات التي أخذت تنهال على الباب أنها ستموت لا محالة . كان صوته المبحوح المتقطع يعلو على ضجة الضربات :

– ما تخلصين مني . ما تخلصين. هذا الأمر أشكك عشرة مثله . ما يخلصج هذا الأمر . ما يخلصج. ماكو واحد ...

شعرت بمنيرة تتحفز أثناء ذلك ورأتها تستدير عنها وتدفع الباب فجأة بقوة وبسرعة

twitter @baghdad_library

فينغلق محدثاً صوتاً عالياً كالانفجار. ثم رأتها تضع الرتاج وتتكئ بظهرها عليه والتراب يتصاعد حولهما . ران عليهما الصمت . رفعت نظرها إلى وجه منيرة . بدا لها أبيض شاحباً ، كتمثال من الشمع وهي تطلق أنفاساً كالحشرجات وصدرها يعلو ويهبط . سمعتاه يتكلم :

– فوكي الباب .

بصوت متهدج . كانت منحشرة في الحائط ، تحس بالعرق يسيل قرب عينها اليسرى وكان المجاز الطويل مظلماً أسود الحيطان . عاد صوته خافتاً متكسراً :

– فوكيها . الله .. يخليج خا .. فوكيها .. منيرة .. الله يخليج .

أخافتها تلك الكلمات المهموسة ورفعت يدها ببطء فمسحت عينيها وجبهتها . نظرت إلى منيرة . كانت مغمضة العينين صفراء الوجه ، تبدو كأنها في غيبوبة . استجمعت نفسها وأمسكت برسغها . لشد ما كان بارداً ، بارداً ! شعرت بها ترتجف تحت لمس أصابعها وتسحب رسغها وتفتح عينيها متطلعة إلى الأعلى . كانت السماء المشعة بالزرقة الخافتة تمتد فوق جدران المجاز العالية ، دون نجوم .انهم يفرشون الأسرة هذه الساعة في السطح ! بدأت ، على الباب خلفهما ، طرقات خفيفة لا تكاد تسمع . رأت ورقة تحت أقدامهما ، بيضاء مطوية عدة طيات . كانت منيرة تنظر مثلها إلى الورقة . رأتاها في نفس الوقت ، ثم تبادلتا النظرات . كانت الطرقات الخفيفة على الباب تنقطع لحظة ثم تعود ، ترافقها كلماته المهموسة ذات المعنى المبهم . أشارت إليها منيرة أن تناولها الورقة . انحنت بخفة والتقطتها . سلمتها إلى اليد الممتدة فانطوت عليها الأصابع . رأت في عيني منيرة أشارة لعمل آخر . أن تتقدم ، أن تنصرف . انسلت من جانبها ببطء وهي منحنية الظهر قليلاً شعرت بمنيرة تتحرك خلفها فالتفتت . أشارت إليها أن تسير دون أن تتكلم . كانت الدقات الغريبة لا تزال تتردد على الخشب . تسارعت خطواتهما عندما وصلتا منتصف المجاز ، وحين أرادت هي أن تركض لتفتح الباب الآخر ، أمسكت بها منيرة . كانت صامتة يتدفق من عينيها الحنان . أحتضنتها بسكون وقبلتها في شعرها وعلى صدغها . لم تقل شيئاً وكانت رائحتها طيبة وملمس ثوبها وجسمها ليناً . هبت على وجهها نسمة طرية حين فتحتا الباب على الحوش . ارتكنت على

الحائط القريب. أخذت تمسح العرق عن وجهها ورقبتها . تركتها منيرة وسارت بخطوات سريعة إلى السلم . شعرت بنفسها متعبة عطشى . كم أرعبها ذلك المجنون ! مشت بتثاقل فدخلت المطبخ . رأت جدتها أم مدحت جالسة تدخن بهدوء على تختة صغيرة . كلمتها :

– شبيج سناوي ؟ أشو وجج أصفر ؟

لم تجبها . بقيت واقفة باضطراب أمامها . نفثت أم مدحت الدخان من أنفها وفمها . وعادت تسألها :

– منو چان بالباب ؟

– ما اعرف بيبي .

– شنو ما تعرفين ؟ منو چان يعني ؟

كان فمها وبلعومها يابسين :

– عطشانة بيبي . خليني دا أشرب ماي .

– شماكله ؟ جيبي لي بدربج فد گلاص ماي بارد آني هم

أسرعت إلى الثلاجة القريبة . أنعشها الماء المثلج . حملت إلى جدتها كأساً . كانت هذه واقفة أمام الموقد تقلّب التمن وسيكارتها في فمها . شربت الماء بعد أن أمسكت سناء بسيكارتها . انسحبت عائدة بالكأس الفارغ . أفرغت القطرات المتبقية في راحة يدها وبللت بها وجهها . ركضت قاصدة السلم دون أن تكلم جدتها . سمعت ضجة في السطح . لم تهتم بها ، لم يعد بمقدورها الصعود إلى السطح . ارتقت السلم واخترقت الطارمة ركضاً إلى غرفتهم . وجدتها فارغة مظلمة والتلفزيون مطفأ . سمعت نداء باسمها من غرفة العمة . كانوا هناك . ابتسمت لها منيرة وهللت في وجهها عمة مدحت. سألتها أم حسن :

– عيني سناوي ، شوكت راح ناكل ؟ شوفي أمج نزلت من السطح الله يخليج .

وقبل أن تجيب هتفت عمة مدحت :

– دخليها تستراح شوية يا أم حسن . تعاي عيني سناوي . أخذي هذا البطل أملي ماي بارد . يالله عيني . انت مو عطشانة أم حسن ؟

twitter @baghdad_library

كانت أم منيرة تستمع باهتمام إلى همس منيرة في أذنها وسيكارتها في يدها ، ناولتها عمة مدحت قنينة فارغة فأخذتها وعادت تسير بتكاسل . سمعت منيرة :

— ... ماكو بعد روحة يعي لبعگوبة . هذا ...

وخرجت من الغرفة .

سارت مسرعة ، جنب منيرة ، بمحاذاة الجدار الأسمنتي العالي لجامع الكيلاني . كانت أشعة الشمس الدافئة تملأ الرصيف الضيق ، ولم تفهم السبب الذي كان يدعوهما للاسراع هكذا . سمعت منيرة تحدث أمها هذا الصباح قبيل الفطور : « مديحة ، ما أدري أگدر آخذ سناء ويايه نروح نشوف المدرسة الجديدة ؟ بالحيدر خانة يكلون صايرة . عندج شي وياها ؟ » ثم تعجلتا في ارتداء الثياب ومغادرة البيت . يا لغبطتها ! وستبقى سها مع أمها لتساعدها !

قالت منيرة حين عبرتا الشارع :

— أبلة منيرة ، علّوا أصير مثلج من أكبر . شگد حلو !

رأتها رشيقة حلوة بعباءتها ووجهها المبتسم والنظارات السوداء على عينيها . لم تجبها منيرة . غذت هي الخطى تلحق بها .

انعطفتا نحو موقف الباص عند التقاء شارع الكيلاني بشارع الكفاح . واجهتهما الشمس البيضاء الحارة فالتحقتا بجمع المنتظرين . كان شارع الكفاح تلك الساعة يهدر صاخباً بالسيارات المسرعة وبالناس . لم تعرفه أول وهلة ولم تسمعه حين كلمهما ، إلا أن منيرة ردت تحيته فهتفت هي :

— هلو خالو .

ثم وقفتا معه خارج دائرة الجمع المنتظر . داعب مدحت شعرها وهو يبتسم في وجه منيرة :

— شكو عندكم من الصبح ؟ للسوك رايحين ؟

— لا يابه ، يا سوك ! دا أروح أشوف المدرسة . ما أدري وين صايرة .

بدت لها منيرة سعيدة بشكل ما . سمعتها :

— عبالي نروح ونرجع من وكت . لويش هالزدحام .

– كل يوم هالشكـل . ليش ما تدرين ؟

كان يتكلم متمعناً في وجهها :

– صار لي ربع ساعة تقريباً واكَف . تلث بـا صات فاتت مليانة .

التفتت ناحية الشارع ثم أمسك بذراعهاهي فجأة وهتف بمنيرة :

– تعالوا . هذا تاكسي نفرات فارغ . تعالوا .

وسار أمامهم إلى الطرف الآخر فأشار بيده إلى سيارة تاكسي كانت مقبلة نحوهم. فتح الباب الخلفي فأسرعت سناء تدخل وتجلس قرب الشباك . رأت منيرة تتبعها ثم خالها مدحت . ركض شخصان قريبان فركبا في المقعدين الأماميين ، وهب الهواء اللطيف فعبث بشعرها وأعاد إليها أنفاسها . أخذت تراقب بحبور مناظر الشارع المزدحم والسيارات والباصات الكبيرة . لم تقم بمثل هذه النزهة منذ مدة طويلة . آخر مرة كانت منذ أشهر ، قبل العطلة الصيفية ، حين ذهبت مع أمها وأختها لشراء أحذية للعيد .

أعطى مدحت السائق نقوداً . نظرت منيرة في عينيها فابتسمت هي لها . كلمتها :

– ديري بالچ من الباب سناء .

– نعم ، أبلة .

ثم عادت إلى تطلعها المسر . ستخبر أمها عما رأت . كذلك عمة مدحت وأختها سها . ستحكي لهم بالتفصيل كل ما شاهدت . مر بمحاذاتهم باص كبير دفع الهواء في وجهها بقوة فتراجعت خائفة . خيل إليها أن مدحت كان يضع يده فوق يد منيرة . سمعته يتساءل :

– شسمها المدرسة ؟

استفهمت منيرة :

– نعم ؟

– أكَول المدرسة ، شنو اسمها ؟

– ها . البتّراء . مدرسة البتّراء .

twitter @baghdad_library

ابتسم :

– وين أكو هيچي مدرسة بالحيدرخانة .

– صدك ؟

اتسعت ابتسامته ومد يده فربت على يد منيرة المخفية تحت العباءة :

– لا . لا . دا أتشاقى . بس يعني ...

لف ذراعيه حول ركبته :

– يعني لازم يومية تطلعين من الصبح ؟

– اى ، طبعاً . هسه خل ديبدي الدوام والله كريم .

تكلمت هي :

– أبلة منرة ، يصير آني هم أروح وياچ للمدرسة ؟

– ليش ما يصير عيني سناء ، بس أخاف أمج تزعل . يمكن تريد تروحين وياها للمدرسة .

سالها مدحت :

– انت تحبين أبلة منيرة هواية ، سناوي ؟

نظرت إليه مندهشة ، ثم هزت رأسها مترددة :

– نعم ، خالو .

فالتفت نصف التفاتة إلى منيرة :

– كاش زين . أحنا يبين فد حزب . خليني على يمناچ .

– نعم ، خالو .

– يعني نسوي اتفاقية ونقدم طلباتنا ؟

كان يكلمها كأنها غير موجودة ، وقد استدار أكثر بنظره نحو منيرة :

– شتگولين .. سناوي ؟ اتفقنا ؟

ضحكت منيرة وأخفت وجهها بيدها وعباءتها . أفرحها أن ترى الابتسامة العريضة تملأ وجه خالها وهو يتطلع بحرج إلى ركاب السيارة . ثم عادت السيارات والناس والدكاكين تمر سراعاً أمام ناظريها . لم تكن تدري متى سيصلون ، وتمنت ألا يصلوا .

-٧-

عدت إلى غرفتي وأغلقت بابها خلفي ثم جلست على السرير . قمت وضغطت على الزر الكهربائي فاستضاء المكان . كنت قد أكلت جيداً . وبعد ذلك شربت شاياً وتحدثت مع والديّ . حكيت لهما عن امتحاني الأخير الذي لم يكن رديئاً . جاء سؤالان مهمان عن مادة قرأتها خلال ركوبي الباص إلى الكلية . اعتبرا ذلك رحمة من السماء وتفاءلا خيراً به

أما أنا فقد كنت أفكر بأني إن بقيت أفكر هكذا فلن انتهي إلى نتيجة . لم ينته أحد قبلي إلى نتيجة ما حين ملكه هوس التفكير بأن لا شيء يستحق العناء ، لأن كل شيء مزيف . وأخذت نفسي على أن تعتاد بأني شخص بين بلايين عديدة من البشر إن لم يفضلوني كلهم فلا محيص من أن يتقدمني في درجات الفكر والاتزان وقوة الارادة عدة مئات من الملايين منهم . ورغم أني لم أكن في معرض مراجعة عامة لتقويم نفسي والآخرين ، إلا أن الذات لا تنسى ذلك . ويخيل إليّ أن الحديث عن أعماق مظلمة في الذهن أو في المستوى النفسي للانسان ، ليس حديثاً فارغاً .

جلست على سريري إذن في غرفتي ذات الاضاءة الجيدة ، وأنا أريد أن أتذكر السبب الذي جعلني أحجم عن اخبار أبي — دع عنك أمي — عن كيفية اضاعتي لنصف ساعة من وقت الامتحان وأنا أحاول أن أدفع عني تلك الفكرة المؤسية عن بطلان كل شيء . الفكرة التي كانت تفترسني ، وأنا أتأملها وهي تفعل ذلك ، منذ شهر أو أكثر . أتأملها هكذا ، مثلما يتأمل عصفور صغير ثعباناً يبتلعه رويداً رويداً . خطرلي آنذاك :

twitter @baghdad_library

سمعت ، بعد دقائق ، خالها يطلب من السائق التوقف . كان لا يزال مبتسماً وهو يخبر منيرة عن وصوله إلى دائرته وعن موقع المدرسة بالتقريب وأين يجب أن ينزلوا . ثم سلم مودعاً بخفة وأغلق الباب خلفه . كانت منيرة تجلس بانتباه تراقب معالم الطريق وقد غابت عن وجهها كل دلائل الفرح . ولم تسر السيارة طويلاً حين سمعتها تكلم السائق :

– نازل . نازل هنا من فضلك .

أسرعت سناء بالتحرك من مكانها بعد أن أشارت إليها منيرة برأسها . نزلتا من السيارة ووقفتا قرب الرصيف . كان عليهما أن يقطعا مسافة قصيرة قبل الوصول إلى منطقة المدرسة . عبرتا الشارع وغذتا السير دون كلام . وصلتا بعد قليل شارع الجمهورية فبانت لهما بعض الدور المهدمة . سألت منيرة أحد المارة فأشار إلى الجهة الأخرى من الشارع . أمسكت منيرة بيدها :

– تعاي سناء . ديري بالچ .

وقفتا بتردد أمام درب ترابي ضيق . دخلتاه فصادفتهما استدارة أعقبها مفترق طرق . رأت الحيرة على وجه منيرة لأول مرة . مرّ رجل عجوز فسألته سناء بخجل عن المدرسة . أرشدهما إليها بسهولة فسارتا ؛ وكانت مغتبطة القلب برؤية الابتسامة الجميلة على فم منيرة .

لوآقوم وآترك القاعة ؛ دون حقد أو بطولة ، متظاهراً بأني أكملت امتحاني ، ثم .. وأتوقف مثل كل مرة أتساءل عن أي مشروع أبدأ كي أنهي به كل المشاريع ! هذا إذا أردنا أن نبعد الانتحار مؤقتاً ، لأني لست في حالة صحية تجعلني أقدم على الانتحار. هذا هو كل شيء .

ولقد كان ممكناً أن أدرك أموراً مهمة أو أصل إلى نتيجة مؤثرة خلال تلك الدقائق من التفكير ، لولا أن سقط قلم التلميذ الجالس بجواري فأفزعني وقطع صلتي تلك الغريبة بنفسي .

قمت أفتح باب الغرفة ، تاركاً لهواء الليل الرطب أن يدخلها ، ثم عدت إلى مكاني على السرير . يمكنني هذا اليوم ، هذه الليلة ، أن آخذ قسطاً من الراحة لأن الامتحان المقبل سيكون بعد يومين . نظرت إلى رفوف مكتبتي ، فشعرت بوهن يمنعني عن ايجاد كتاب يمتعني خلال الساعات الآتية . كان جسدي مرهقاً من حر النهار ، حر أيلول ، ومن جهد الامتحان . لعل بمقدوري إذن أن أنام في ساعة مبكرة . وضعت رأسي بين يديّ . لم أكن أفكر بأمر معين محدود ؛ وكنت في الحقيقة أريد ذلك عبثاً . كنت أشعر أن الدخول ضمن خطة انسانية ، أو بالأصح ضمن حياة انسانية معلومة ، قد يتيح لي أن أكون انساناً سوياً عادياً رضي النفس . ويخيل إليّ أن ما يبعدني عن الشعور بأني داخل اطار حياتي تقليدي ، هو انفلاتي — فكراً وعاطفة — عند أول ثغرة في زماني الشخصي . لست مصبوباً بشكل قوي مضمون ؛ وأن ما يفيدني حقاً هو أن أكون مهيأ على الدوام للاهتمام بالحياة ؛ إذ لا مجال للتفرغ للفراغ المطلق ، كما أنا عليه الآن . ان برهة وجيزة تمر على الانسان هكذا ، بالمصادفة ، كافية لتغلق حياته أو تخلخلها إلى الأبد . ولكني ... ولكني انتظر ، ألست منتظراً ؟ رفعت عينيّ أديرهما في نواحي الغرفة وفي الفضاء الخارجي الأسود . أنا أمارس شيئاً بحياتي إذن هو أشبه بالعمل ... أنا أنتظر . لن تذهب أيامي سدى ، لأني أحصيها وانتظر ؛ ولن يهم أن تُخلف المواعيد . ما علاقة الموعد بالانتظار ؟ خرجت أقف في باب غرفتي . كان الجو لطيفاً والهواء تثقله بعض الرطوبة . نزلت من السطح مع أول النازلين : والديّ والعجائز والصغيرتين . بقيت منيرة يومين بعدي ولا يزال مدحت ومديحة يقاومان . غريب الحر هذه السنة ،

twitter @baghdad_library

كيف يجرجز أذياله ببطء . كانت غرفة عمّي مشرعة النوافذ مفتوحة الباب ، والضوء الكهربائي فيها يميل إلى الاحمرار . بدت جدتي ام حسن متكومة في الفراش على نفسها وعمّي تراقبها بصمت . لقد نالتا حصتهما من العشاء وهما الآن في فترة التراخي . وكانت الضجة تأتي من غرفة التلفزيون حيث يحتشدون . لم يبق للنهار أثر على صفحة السماء الداكنة ، ولا بد أن تكون الساعة قد جاوزت العاشرة . أنهم لم يعودوا بعد ؛ ولعل هذا الضوء في الطابق الأسفل قد تُرك مشعلاً من أجلهم .

خطر لي قبل أن أدخل الامتحان صباح اليوم وأنا أقف تحت الشمس جوار حائط لكلية الخارجي ، أنه إذا كان من الممكن ألا يعرف الواعون في هذا العالم أن الأرض في طريقها إلى أن تبرد ويفنى النوع البشري برمته ، تذهب كل حضاراته وانجازاته وأحلامه وحروبه وسلامه ... مع الريح ؛ فانهم لا بد أن يدركوا تلك الظلمة التي تبتلع الانسان وترسله إلى الأعماق ... إلى اللاشيء ، كيف تسنى لهم إذن أن يستطيعوا المعيشة بحماس من لا يعلم شيئاً ؟ أولئك العارفون ، أليسوا أدعياء لا يصدقون أفكارهم ؟

ولكني أعتقد أني أخلط في الترتيب الزمني لأفكاري ، لأني أتذكر جيداً أني كنت أداور هذه الفكرة عن الأرض التي ستبرد وعن الموت ، أثناء رجوعي بعد الانتهاء من الامتحان وليس قبله . لم تشغل مخيلتي ، في وقفتي تحت الشمس الحارة قرب الجدار ، غير صورة أو ربما فكرة مصورة عن شخص ينصت إلى حشرجته . يستمع إلى نفسه يحتضر . هكذا .. يحتضر ؛ ولو للحظة ، لثانية ، لعشر من الثانية . تسمع آذناه صوت موته ، فنائه . أو ذاك الذي يصطدم في داخله ، في مكان ما من وعيه ، يصطدم شيء بآخر ... كلك .. ثم تغمره الظلمات . أو ، ثالثاً ، يسمح انفجاراً فيهم بالالتفات نحوه معتقداً أنه بعيد عنه ، لكنه ينغمر ، أيضاً ، بالظلام .

وكانت فكرتي عن مدى الرعب المحيط بالانسان وكيف أنه ، أي الرعب ، قد وجد من أجل الانسان في الدرجة الأولى ؛ وأنه حين يمكن أن يوجد الرعب هكذا في الحياة ، فيجب أن يبتعد عنها العبث . يكفي الحياة غاية ألا تمتلىء بالرعب حتى الجنون .

دخلوا يضحكون واغلقوا الباب الوسط خلفهم . كانت منيرة ، تحت الضوء الكهربائي البعيد ، تبدو مبتهجة مشرقة الوجه وهي تستمع إلى مدحت يحدثها وسناء بما لا أدري . تراجعتُ قليلاً حين انفتحت الغرفة المجاورة وخرجت سها . تطلعتْ إليهم ممسكة بالمحجر الخشبي ثم عادت بسرعة تهتف بأنهم قد أتوا . نادت عمّي تتساءل عمن أتى بلهجة من لا ينتظر جواباً . دخلت غرفتي وجلست على السرير . بدأت النداءات ، من الأسفل والأعلى ، تترادف . اسئلة وأجوبة وأسئلة أخرى ؛ وكنت أسمع والدتي ومديحة والصغيرة سها يتكلمن بنفس الوقت وسناء تتولى اجابتهن . كذلك فعلت منيرة مرة . بدا لي صوتها منغماً طرباً . قالت أنها ليست جائعة . ثم ارتفعت ضوضاء المراعين والملاعق وصوت الثلاجة تفتح وتغلق ، تتخلل ذلك ضحكات مرحة وحديث متبادل . قمت فأطفأت الضوء واضطجعت مسترخياً. رأيت بعض الأشباح تمر من بعيد مخترقة الطارمة ثم تنزل إلى الأسفل. نادت عمّي مرة أخرى تتساءل عمن أتى ومن يأكل في هذه الساعة من الليل

كنت أحاول ، في الحقيقة ، أن أجمع أفكاري : أن أرى ما يمكن أن تعنيه حياتي وما هو الموت بالنسبة إليّ . لكنني — في ظلمة غرفتي ، مستلقياً أستمع إلى الصخب البعيد في المطبخ وأتأمل قطعة السماء السوداء البادية من بابي المفتوح — شعرت بأمر فريد واحد : انخذالي .. مرة أخرى . ان ممارسة الحياة بعيدة عني لأني لا أقوى على مغالبة مجتمعي وشروطه الخاصة . وهكذا لا أستطيع مقاومة احساسي بأني أنتظر ، في زاوية نائية ، أن يُسمح لي بممارسة الحياة . أتذكر تلك الوقفة أمام الجسر ذات مساء قبل أشهر . كنت قد أبللت من مرضي وجئت عصراً إلى الكلية أستعلم عن الامتحان . أحزنت قلبي البناية الخالية ووجه الحارس الشاحب وأبعدني عن العالم جدول الامتحان الصعب . ووقفت في الشارع قرب المقهى الفارغ غير بعيد عن الجسر أنظر إلى الشمس الحمراء . كنت أقف في مقبرة لا تحدها حدود . ومرت سيارة فارهة بيضاء تسوقها فتاة . يالله ، كم بدت بعيدة ، بعيدة ! كالنجم المتساقط في أقصى أطراف الأفق . أن تملك بيتاً وسيارة .. مع امرأة .. يا للطريق الطويل !

ولقد قلت لها كل ذلك ؛ حدثتُ به العينين الصفراوين الحزينتين ؛ وكانت تنصت

twitter @baghdad_library

إليّ ، جالسة على طرف السرير وهي لما تنزل في ثوبها الأخضر القصير الأكمام . دخلت عليّ بعد أن انتهوا من الأكل وصعد من صعد إلى السطح وكنت قد أضأت مصباحي وجلست إلى المكتب محاولاً استغلال الوقت قبل النوم . دخلت علي عندئذ وجلست على طرف السرير . ثوبها الأخضر يكشف عن ركبتيها أيضاً . كان شعرها الطويل الأشقر مسرحاً بعناية على كتفيها وآثار الزينة خفيفة في وجهها . بدت متعبة قليلاً . سألتها :

– وين چنتو ؟

كنت مثلها متعباً وقد ظهر ذلك في صوتي. أدارت عينيها في أرجاء الغرفة :

– بالسينما . شلونك بالامتحان اليوم ؟

– يا سينما ؟

افترقت شفتاها فيما يشبه الابتسامة وأغمضت عينيها برهة ثم نظرت إليّ :

– لا صدك ، شلونك بالامتحان ؟

حدثتها بما كان من أفكاري قبل وأثناء الامتحان ، دون مبالاة . كنت أستمع معها إلى نفسي . شاعراً بلا جدية ما أصرح به هكذا إليها . لبثت تتأملني بصمت بعض الوقت :

– لويش دتفكر هالشكل ؟ يعني .. أگول .. أنت چديات دتحچي كريم ؟

– ليش لا ؟

– لا . قصدي .. ما ادري شلون. بس انت شعليك من هالأشياء ؟ يعني أگول .. ولو هذا تدخل بحياتك .. خلّص الكلية والله كريم .

– وإذا خلّصت .. شنو يعني ؟

بانت ظلال قلق على وجهها :

– هذا شلون حچي . تاخذ الشهادة وتتوظف ، وتالي يمكن .. يعني تبدي حياتك الخاصة بيك . تگعد .. تستقر ، تمام ؟

– شهادة ، وظيفة ، استقرار ...

– ليش ما تاخذ هالأشياء بنظر الاعتبار ؟ ما الك حق تحتقرها ، إذا ماكو شي غيرها

بحياتنا

كانت مهتمة أكثر مما توقعت ، تنظر إليّ مقطبة الحاجبين وهي تعبث بخصلة شعر تتدلى قرب أذنها اليسرى . تكلمت مرة أخرى بليونة :

– شوف كريم ، تره لازم تنجح . أرجوك . لويش تضيّع نفسك بهالحچي ؟ انت شابّ والدنيا كلها گدامك ، علويش هالأفكار ؟

تذكرت ، فحكيت لها :

– اسمعي منيرة ، حچايتچ ذكرتني بفد قصة . گبل أكثر من سنة ، ورا ما طار « كاكارين » چنت دا أصبغ قندرتي عند صباغ أحذية گبال شارع الكيلاني . فد صباغ أرمني وچه مشوه . فچه معووچ وعيونه طالعة لبره .

كانت تصغي بجد ، تلك المخلوقة الجميلة ، وقد وضعت ساقاً على ساق أثناء ما كنت أتكلم :

– چنت بوحدي بالتكان . سألني أول ما گعدت .. صدك صعدوا للسما ؟ گلت له : أي يگولون . صاح بوچي : والمسيح ؟ والمسيح ؟ حقيقة ، تفاجئت . وضعه چان مخربط شوية ، عيونه تچدح وركبته محتنگة . يعني چان دبين عليه كأنه القضية قضية حياة أو موت .

ثم ابتسمتُ :

– شاهدنا ، انت هسه ذكرتيني بهالقصة . آني هم ردت أسئله : ولك يا ابن الخايبة انت أشجابلك على هالحسبة وعلويش دتفكر هالشكل ؟

استنار وجهها وهي تتكلم بحدة :

– لا . لا . آني ما گلت هيچي شي .

– هذا چان مختصر رأيچ . آني أقرا كتب هواية وأتفلسف على كيفي ، يعني مترهي على زماني ...

رفعت محتجة اصبعاً رقيقاً :

– لا ، كريم . أرجوك ...

– اسمحي لي فد دقيقة منيرة ، تره آني أولاً ما أقرا هواية . بالحقيقة أقل من القليل .

twitter @baghdad_library

تانياً شنو هالأفكار .. آني هم ما أدري . يمكن هي مسئلة طبيعة ، لأن مد أشعر أفكاري منظمة أو عندي فد غاية أريد اوصلها . لا . يعني هيچي .. أفكار .. تجي وتروح ، شوية أتأثر بيها أكثر من اللازم .. هاي هيه .

رأيت عينيها تغيمان قليلاً وبعض الغضون الصغيرة تظهر تحتهما . رفعت اصبعها مرة أخرى محتجة عليّ :

— شوف كريم . تره انت ما افتهمتني زين . آني هواية أحترم آراءك وأفكارك . بس أريدك أن تهتم بشؤونك الخاصة واتدبر أمور دراستك . يعني مستقبلك هم مهم ؛ وهذا ما يتعارض ويه .. ويه الفلسفة . تمام ؟ ولو هذوله الفلاسفة تره ما عندهم پروة بأحد . متطفلين يعني .

— متطفلين علمن ؟ علمن ؟

كنت معنياً بأفكارها الجديدة هذه . ابتسمت :

— عاينا غير ! هم شعليهم منّا ؟ ليش ما يخلونا عايشين ؟ يعني مثل ما گال مدحت لا شغل عندهم ولا عمل غير اللغوة . الناس تريد تعيش وهذوله الله ذاب كل اللغوة عليهم .

ابتسمت لها أنا أيضاً ؛ للوجه المضيء المتورد وللعينين اللامعتين ، للحياة العذبة التي تمثلها ؛ وهززت رأسي :

— ما ادري على يا فلاسفة دتحچين ، بس تره أكو ناس ما يلغون . أكو ناس فهموا الحياة ، أو فهموا فد قسم منها وكتبوا عنه . هم مو متطفلين . يمكن أحنا المتطفلين عليهم . أحنا مرات ما نگدر نعيش بلا مساعدة . تسحگنا الحياة بلا ما نحس . آني أعرف زين . تحترك من الهوا . آني اعرف زين ، يكتلنا الهوا الحار احياناً .

لم يكن بودي أن أتحدث هكذا ، وأن يكون لكلماتي رنين عاطفي خاص . غير أن قلبي امتلأ ، على حين غرة ، بصورة فواد وحياته وحبه ومحاولاته وموته ؛ وكنت أحدث نفسي أكثر مما كنت أحدثها . أجابتني :

— العفو كريم . بس آني ما چنت أقصد شي معين . چنت دا أتشاقه طبعاً . وانت هم لازم تعبان وتريد تقرا يمكن وما أدري هسه ساعة ...

ثم همت ، لذعري ، بالقيام فقاطعتها :

— وين رايحة منيرة ؟ بعد وكت .

— ساعة بيش ؟

— مو مهم . احچي لي على الفلم . يا سينما رحتوا ؟

— انت ما تريد تقرا . هذا ملخص القضية .

— القراية ما مهزومة مني . ثم ، هاليوم امتحنت . آني چان لازم أروح للسينما ، مو انتو . خاصة وانتِ يبين ما تعرفين حتى اسم الفلم .

نظرت إليّ باستغراب :

— لويش يابه ما أعرفه ؟ لاكت منو خلاني افتهم . سناء من صفحة تريد تفتهم كل طگة بالفيلم ليگدام . ومدحت .. هم .. الله يسلمه .. ما أدري شلون . يابه دجوز . ما خاوني افتهم شي . لاكت السينما چديدة وحلوة . سينما النصر . أما الفلم .. والله مثل ما تگول ما افتهمت راسه من چعبه .

ضحكنا .

كان البيت ساكناً ، كأن الجميع أخلدوا إلى النوم ؛ وكانت منيرة أمامي تضحك .. تشاركني الضحك .. وقد صعد بعض الاحمرار إلى وجنتيها . رأيت نهاية ذراعها قرب الكم الأخضر ، ملساء ذات لون خمري ، وأسنانها البيضاء وصوتها . نسيت الموت آنذاك ، وكنت أحدس بأن لديها ما يهمني وما يجب أن أعرفه من فمها . سألتها :

— شلو نچ بالمدرسة ؟

— زينة . زينة . بس شوية بعيدة عليّ . يعني اذا بقينا هنا ..

— شنو اذا بقيتوا ؟ وين تروحون يعني ؟

عادت الغيوم إلى صفرة عينيها والتوت قليلاً شفتاها . صمتت برهة :

— شوف كريم . كل شي بحسابه . ما يصير نبقى هالشكل .. عالة عليكم .

ثم رفعت يدها تطالبني بالسكوت :

— ادري . ادري شتريد تگول . بس .. مع ذلك . آني راح أكتب لأخويه مصطفى وانتظر جوابه . ما أگدر اگول لك أحنا يعجبنا نگعد بوحدنا .. آني وأمي . وضعنا ما يساعد طبعا . تعرف ، الوضع المادي .. وأشياء أخرى . لاكت ...

twitter @baghdad_library

أخفضت رأسها ببطء شديد واستحالت إلى مخلوقة أخرى . مدت ذراعها وغطت كل ركبة بيد ثم تراخى شعرها إلى الأمام قريباً من خديها وبدا أنها انتقلت إلى عالم مسحور خلال لحظات . لم أكن أرى غير الفرق في رأسها وحاجبيها وأهدابها وأعلى أنفها ، كمن يتطلع إلى عبدة راكعة تحت قدميه . كانت منحنية على نفسها ، منغلقة على شيء في أعماقها . ذكرتني بصورتها ، في ذلك الفجر قبل أشهر ، حين وقفت تحت فيض النور الخفيف بملابس نومها الزرقاء ، تناجي المجهول وتصغي بكيانها كله إلى الصمت . كانت آنذاك ، مثلما هي الآن ، قد فارقت زماننا ، ديمومة الحياة حولها ، وانتقلت إلى مجال شخصي يحوى العالم بين ثناياه .

انتشلتها بكلماتي البطيئة :

– تعرفين صديقي فواد ، منيرة ؟

كانت عيناها جامدتين ، مثل وجهها . لم تجب ، لم تفهم ما قلت . همستُ :

– فد صديق عزيز هواية عليّ ، مات گبل چم شهر .

قطبت حاجبيها :

– مات ؟

ثم أردفت بسرعة :

– اي . اي . اي . أتذكر . حچت لي أملك عليه . فد هالواحد لأهله . انت چنت وياه من ...

قطعت عليها كلامها :

– مو مهم . مو مهم . بس انتِ منيرة ...

بدأ قلق غامض يغمر وجهها ، تسرب إليه من العينين المبتلتين قليلاً ووصل فمها فتقبضت شفتاها . استمررت :

– انت لويش تذكريني بفواد ؟

مكثت تنظر إليّ . استحال طابع القلق على ملامحها إلى بلادة يشوبها بعض الاستسلام. سألت ببرود :

– آني أذكرك بصديقك .. المات ؟

ثم ابتلعت ريقها ورمشت أهدابها عدة مرات . هززت رأسي ، فاستدارت ببصرها عني وقالت :

– شوف كريم ، تره آني أعصابي مو قوية ، يعني مثل صحتي . هاليوم بالسينما مفاجئة وانت هسه ...

– العفو منيرة . بس چنت دا أفكر ، يعني الواحد من يحب أشخاص . يعني ولو مختلفين ، يشوف بينهم تشابه غريب ما أله تفسير . شتگولين ؟

عادت عيناها إليّ ، صافيتين نديتين :

– يعني انت دتشوف الموت ... على وجهي ؟

كانت تداعبني ، لكنها أخافتني :

– لا . لا . ليش ما تحچين على الناحية اللخ من كلامي ؟

قامت . بدا لي قيامها مباغتاً فوقفت أنا أيضاً استوضحها :

– ها ؟

كانت تمسد الثوب على جسمها ، من أسفل الثدي ، على جانب ، إلى أعلى الفخذ . كررت العملية مرات وهي تتشاغل بالنظر إلى الأرض . ثم تكلمت :

– فات الوكت كريم والحچي ما يخلص . هيج نوع حچي ، وآني تعبانة اليوم شويه .
أسرعت أسألها :

– غير يوم ... يعني ...

فابتسمت . ابتسمت بكل حنان وتفهم ، ملء تقاطيعها وروحها . كان فمها منفرجاً ووجهها البيضاوي محاطاً بظلال الشعر الملتوي؛وكانت في عينيها الصفراوين الكحيلتين التماعة حب وفرح .

ثم غادرتني بخفة متمنية لي أن أصبح على خير ، وبقيتْ في الجو من ابتسامتها هزة أو صورة أثيرية أو قوس قزح غير مرئي ؛ بقي شيء ما لا يوصف أسكرني ساعات .

twitter @baghdad_library

لم أنم ولم أقرأ . لبثت ممدداً على فراشي في ظلام الغرفة أنصت إلى أصوات الليل . حركة عصفور نائم على غصن يابس . طقطقة غامضة في المطبخ . عواء الكلاب البعيدة . وقع خطوات خفيفة ، تروح وتجيء مع النسائم .. ثم .. أنا وأصوات نفسي المكتومة والصباح الذي لا يشرق .

* * *

أصرت والدتي أن تجلب لي فنجان قهوة إلى الطابق الأعلى . وقفتْ في مدخل المطبخ وأخذت تكلمني . كنت جالساً في الطارمة الكبيرة أمام الايوان أحصر ذهني في الكتاب المفتوح . سمعتهما تتكلمان منذ فترة في المطبخ . أمها وأمي . لم أفهم من نبرة صوتيهما شيئاً . كانت السماء صافية ، سماء الخريف ؛ والبيت يخلو ممن يمكن أن يحدث ضجة فيه ؛ وكان حديثهما يبدو مثل وشوشة ماء يغلي . ثم أطلت والدتي لتنقل لي رغبتها في جلب القهوة لي . قلت لها أن بمقدوري أن أنزل إليهما . لم أكن متحمساً لشرب القهوة ؛ نمت عدة ساعات ، قبيل الفجر ، منحتني راحة عميقة . لكنها أصرت . كانت تبتسم ابتسامة عريضة ووجهها الممتلىء الأبيض يعلن سرورها بما تعمل . سألتني كيف نمت في الليلة الماضية وسألتني عن دراستي وصحتي . كأنها لم ترني عند الفطور !

ثم جلست قريباً مني . خيل إليّ أن وقتاً طويلاً مرّ قبل أن تتكلم . كانت الزيتونة هادئة ، تغرقها أشعة الشمس الذهبية والسماء زرقاء جداً . لم تسبق كلامها نأمة أو حركة غير اعتيادية . كان البيت ساكناً ، اشياؤه وناسه ؛ وكذلك العالم والكون . حتى السماء . قالت :

— عيني كرومي ، مدحت ديريد منيرة . البارحة حاچاها بالسينما . هاي المگموعة سناء سمعته و گالت لأمها ومديحة حچت لي . تره آني لا بيها ولا عليها . عرفت من أختك الله يشهد .

كنت ارى بعض الشعيرات البيض في حواجبها والطيات القليلة تحت عينيها . بقيت هادئاً لولا خفقات القلب السريعة . عادت تتكلم :

– هي البنية ما نطت جواب ، وهاي أمها المخربطة ما تعرف شتحچي . ما أدري هي جابت طاري القضية وياك البارحة بالليل ؟

هززت راسي بالنفي . لم يزل البيت ساكناً ، مسرحاً لعدم اكتراث مطلق . هززت رأسي .. وعلى الأرض السلام .. وقلت لها أني لا أعلم شيئاً . لكنها تهجست أسئلة قلبي ، رأتها في شيء مبهم لعله كان يحيطني ، فأجابتني عليها :

– هذا أخوك الجبير عيوني كرومي . متخرج وموظف وعنده جم فلس ، وانت ..آني أگول ، هي الدنيا ما راح تخلص ؟ كلكم شباب عيني وانشالله تشوفون ولد ولدكم .

بدت كمذنبة تتحمل وزر غيرها ؛ وشعرت ، بشكل ما ، كأني ضحية يراد لها أن تعاود التضحية من جديد . أغلقت كتابي المفتوح وأغلقت معه كل أفكاري عن المستقبل . التفت نحو والدتي . كانت انعكاسات الشمس على الحائط البعيد تأتيي من اليمين تقطعها الأعمدة طولياً . لمحت جدتي تظهر في اطار باب غرفتهم . قلت :

– تعرفين انت يوم ، منيرة عزيزة عليّ . ومدحت هم . بس ما أحد منهم عرض عليّ فد شي . وما أدري انت شلون تصدگين .. أو يعني تعتمدين على حچايات هاي الزغيرة سناء .

– عيني هي زغيرة لو شيطان . كل طگة بالبيت تسمع حسها عندها . بس حچايتك هماتين . يعني ينراد واحد يسأل .

كانت تتطلع بعيداً :

– بس علمن نروح ؟ مدحت حچاياته تنعد على الأصابع . ما أدري بلكي انت عيني كرومي .. اگول .. بلكي هي تحچي وياك ، لو انت تسألها ؟

وتوقفتْ :

– هاي بيبيتك جت . شكو عندها بهالساعة ؟ أشو ريوك أكلت ووكت الغدا ما صار بعد .

ثم قامت تلتقيها .

كان الكتاب أمامي مغلقاً على المائدة ، وقربه قلم الحبر . أمسكت بالقلم وفتحت الكتاب . انتبهت إلى قدح القهوة لم يمس . هل كانت تروم أمس أن تقول لي شيئاً ؟ لم يبن عليها لحظة انها مرت ، قبيل ساعات ، بتجربة الفتاة التي عرض عليها الزواج !

twitter @baghdad_library

ومستقبلي ونجاحي ، أنا المقطوع عنها ،   كل هذا التساؤل عنهما ؟

أردت أن أكتب شيئاً ، اسما ما ، ـى الورق . ثم عدلت عن ذلك . كنت أحس بفراغ حولي وببعض القلق . كانت الأفكار تتوارد على ذهني دون أن أفهم حدودها بالضبط . لم أرها اليوم صباحاً ، ولكن صوره بشرتـا الوضاءة وانعكاس الثوب الأخضر في نهاية ذراعها ، واختلاط اللون وطية اللحم الرقيقه ، جاءت تلفني وأنا أمام الكتاب المفتوح أمسك بالقلم .

أغلقت كتابي مرة أخرى ووضعت القلم جا:؟

twitter @baghdad_library

- ٨ -

أيقظتها ابنتها سناء من نومة الفجر العميقة وهمست في أذنها :

– يوم .. يوم .. الجني بالمطبخ گاعد ديغسل المواعين . يوم . دا أخاف . يوم ، الله يخليج . يوم ، الجني .

كانت تسمع صوتها آتياً من كهف لا قرار له . استجمعت حواسها الضائعة وسألتها :

– ها ؟ شبيج ولج ؟ يا جني ؟ يا مواعين ؟ لويش كعد ...

– يوم ، الجني . الجني بالحوش ديغسل مواعين . سمعي . سمعي .

جلست في سريرها مرهفة أذنيها . كان نور السماء الحليبي يدخل الغرفة من بابها المشرع ، ومن قعر الحوش تناهت لسمعها طرقات مضطربة لا معنى لها . مثل أنبوب حديد فارغ تُضرب به الأرض الصلدة . طرقة وطرقة ثم طرقة وسكون ، ثم ثلاث طرقات متوالية . شعرت بيد ابنتها سناء تقبض على ذراعها :

– سمعتي يوم ؟ سمعتي ؟

– صنته . سكتي .

طرقتان مسرعتان ثم واحدة يعقبها الصمت . كانت مرتاعة ، تحس بجذور شعرها تنكمش . طرقة خفيفة ثم أخرى أخف منها . ليس لهذا الشيء أي معنى . حتى حديث الجن لا يشبهه ! أنزلت قدميها من السرير العريض ثم وقفت ولبست نعليها . سألت سناء ، دون سبب ، عن أختها سها فأجابتها الأخيرة بأنها تشخر قربها . سارت ببطء واجفة القلب نحو الباب . لاحت لها السماء الخفيفة الزرقة وشجرة الزيتون . لم تبدأ بعد

عصافير الصباح غناءها . كانت الخبطات تأتي من الأسفل ثقيلة متقطعة . وقفت على العتبة بتردد وأطلت برأسها . لامست وجهها نسمة باردة وأحست بأصابع ابنتها المرتجفة تتشبث بذراعها . كان الحوش داكن الضوء ، لا يبين قاعه بسهولة . أرادت أن تعبر الطارمة الضيقة وتطل فوق المحجر ، لكن الخوف منعها . خشيت أن يفزعها المنظر الذي قد تراه . لعلها ستطلع على شيء لا يجب أن يعرفه إنسان مثلها ؛ عالم الجن مثلاً ؟ أو مخلوقات أخرى لا يرضيها أن يسترق النظر إليها انسان تعيس غير خالد !

ازدادت خفقات قلبها شدة وهي واقفة في اطار الباب ، يسيطر عليها تردد تمازجه كل مخاوف الحكايات الخرافية وأقاصيص الجن التي سمعتها في طفولتها . كانت ابنتها سناء خلفها تلتصق بها باصرار . أرادت ، بعد هنيهات ، أن تتراجع وتغلق الباب وتعود إل سريرها وعالمها ، حينما لمحت حركة في غرفة عمتها قربهم إلى اليمين . حولت بصرها . كانت عمتها واقفة ، منكوشة الشعر الأحمر ،تتكيء على طرف الباب وتنظر بعيون فارغة نحو الحوش . ثم سمعتها تتكلم :

– خلف الله عليج يا أم حسن . هو آني عندي عيون أشوف بيها الطنطل لو الجهجهون! الأوادم الصاغ صلغم نايمين وبطونهم مليانة . آني هم جوعانة وافادي سايح وهمينة غشاوة على عيوني اللهُ معاف . خلف الله عليج يا ام حسن والله ينطيج ، گعدتني والفجر بعده ما طلگ .

كانت تتحدث مع نفسها بصوت هامس لا تريد أن يسمعه أحد . استراحت هي لرؤية عمتها فكلمتها :

– عمة ، شكو عندج گاعدة ؟

التفتت إليها عمتها رافعة راحة يدها اليسرى فوق عينيها :

– اللهُ مصلي على محمد . مديحة ؟ عيني الدنيا مگلوبة جوه بالحوش . طاك طيك من وذان العشا ليهسة . ما تگولين لهم ...

ثم توقفت وأشارت بيدها إلى أسفل :

– ... أحچي وياهم على كيفچ . شدعوة هلگد يغسلون راسهم . الماي خلص من البواري . احچي وياهم مديحة عيني على كيفچ ، بلا زعل .

twitter @baghdad_library

عادت إليها أنفاسها وهي تستمع إلى هذر عمتها مختلطاً بتلك الطرقات الغريبة التي لم تنقطع لحظة . تقدمت بتردد نحو المحجر . كان الفجر قد أغرق بنوره السماء والجدران العالية وقمة شجرة الزيتون . نظرت إلى أسفل . خبطة وأخرى ثم فترة صمت أعقبها أنين ضعيف مخنوق لم تسمعه من قبل . كانت أرض الحوش تبدو لها سراباً مظلماً ، لا تبين للأشياء فيه حدود . أحدت البصر وهي تشعر بقشعريرة خفيفة تخترق ظهرها . لا شيء ، لا شيء . ثم تناهت إليها همسة سناء :

– هناك يوم .. هناك يم الحوض. هذا شنو ؟

كان الشيء يتحرك مثل ظل يختفي بين الظلال ؛ لون اسود يضطرب بين ألوان سوداء أخرى . لم تميز عيناها تكويناً معيناً ، سوى كتلة رمادية مقطوعة النهاية تميل نحو اليمين فترتفع طرقة من تلك الطرقات المجهولة ؛ ثم تميل الكتلة ببطء يصاحبه الأنين نحو اليسار . أذهلها ما ترى بقدر ما أدخل الخوف إلى نفسها . سمعت صوت عمتها خافتاً :

– صلي على النبي عيني مديحة . أقري قل هولل وشعلي الضوا فوك راسچ . ما ندري منيش راح نموت ، من الجوع لو من الخوف ! أقري عيني ، أقري .

ثم أحست بحركة خلفها انبثق بعدها ضوء المصباح الكهربائي ، فغمرت الحوش غلالة من النور الأحمر أبعدت الظلال إلى جانب . حاولت أن ترصد الحركة ، قرب الحوض . لم تدرك جيداً ما يجري هناك . كان الذيل قصيراً وكذلك الأرجل الأربعة ، لكن الرأس .. أطلقت ابنتها سناء صرخة وهتفت :

– با .. هاي شنو ؟ هذا الهر ، عاصي راسه بالكتلي . زمال . شگد خوفني ماما .

كان الهر يتمايل برأسه المثقل بخوذة التنك الغريبة ، فتصدر عنه موسيقى الطرقات تلك ، التي قطعت عليها نومة الفجر . لبثت تتطلع إلى المنظر بعض الحنق والضجر . عاد إليها الهدوء واسترخت أعصابها المتوفزة . تساءلت العمة :

– شنو هر ، ولچ سناوي ؟ ليش ما قريتوا گبل ما تشعلون الضوا ؟ شوفوا شلون گلب نفسه هر وگام يضحك علينا .

– عيني بيبي ، هذا الهر الأبيض اللي أكل الكباب مالكم ذاك اليوم .

– نزول عليه . عساه بابو زايد . شوفي ربج شلون دينتقم منه . عساه بابو زايد .

تحركت مديحة بتثاقل تجتاز الطارمة الضيقة متجهة نحو السلم . كانت تفكر فيما يجب أن تعمل ، لأنها هي المسؤولة عن كل اختلال يقع في نظام البيت . مرت بغرفتي أخويها النائمين ؛وحينما كادت تتوسط الطارمةالكبيرة فتحت أمها باب غرفتهم وأطلت عليها ووجهها الأبيض المدور لا يزال يحمل آثار النوم . سألت :

– وين رايحة مديحة ؟ مو بعد وگت على الچاي ؟

حكت لها متذمرة ما رأوه قبل قليل وأضافت بأنها ستنزل لتخرج رأس الهر كانت متعبة ، تقتصد في حركات قدميها وتمسك بجدران السلم المظلم . لم تقل لها أمها شيئاً ، حتى ولا كلمة استغراب . أحزنها ذلك وأشعرها بموضعها ، الذي لا تريده ، في البيت . كان الحوش كئيب الضوء موحشاً . أعادت إليها خبطة من رأس الهر النحاسي على الأرض ، حقيقة الموقف الذي تجابهه . سمعت أمها :

– ديري يالچ عيني مديحة ، لا يخرمش ايدچ البزون .

وهتفت سناء :

– ماما ، أجي ؟

هدأ الهر حينما أحس بوجودها قربه . لو استمر في هدوئه اللعين هذا دقائق أخرى لانتهى كل شيء بسلام . أمسكت بأعلى ظهره فارتجف وأنّ أنيناً خافتاً . سحبت الابريق النحاسي باليد الثانية فلم ينتج من ذلك شيء ، واشتركت مع الهر في احداث خبطتين أخريين . كانت أطرافه منفتحة إلى جهات أربع وذيله الرفيع متدلياً على الأرض . قبضت على الابريق بيديها الاثنتين ثم رفعته والهر عالياً . أخذ يرفس الهواء بأطرافه ويعاود الأنين . كانت مضطربة مشدودة الاعصاب . هزت حملها مرة ومرتين ثم بدا لها فرمت بالهر والابريق بعيداً قرب المطبخ . تدحرجا بين الظلال ، خلف اسطوانة العامود الخشبي ، ثم رأت الهر يقفز بخفة راكضاً وسمعت الابريق الفارغ يواصل تدحرجه على الأرض قريباً من الباب الوسط . نادت سناء مصفقة :

– عفية ، ماما ، عفية . عفية عليچ ماما الشاطرة .

قاطعتها أم مدحت :

twitter @baghdad_library

– على كيفج سناوي . لا تگعدين خوالج .

عثرت مديحة على الابريق مقلوباً بجانب الحائط فحملته ودخلت المطبخ المظلم . لم تزل حواسها مخدرة قليلاً . وضعت بعضاً من مسحوق التايد وبدأت تغسل الابريق . كان مطعجاً ، تستقر في قاعه كمية من الترسبات البيضاء . ملأته بعد ذلك بالماء ثم أشعلت الموقد النفطي ووضعته فوقه . ارتفعت رائحة النفط الخانقة فأسرعت تخرج من المطبخ وتجلس في مدخله على تختة صغيرة . لم تر أحداً في الطارمة فنادت بصوت منخفض :

– سناء ... ولج سناء .

أطلت ابنتها من الأعلى ، فكلمتها :

– گعدي أختج وحضروا هدومكم وغسلوا وجهكم .

– بعد وگت ماما . نعسانة آني . هاذي سها ولا فكت عيونها . شگد ...

– گعديها ولج . مو وكت نوم بعد . لا تسوويني عصبية من الصبح وآني وراية تدريس ولغوة خمس ساعات .

سمعت أمها تكلمها :

– على كيفج عيني مديحة . شعلي الأوجاغ وحضري الچاي وآني هسه أروح ألبس البنات . انت ما عليج .

ثم رأتها تمضي نحو غرفتهم .

تملكتها قشعريرة خفيفة،فلمت أطراف البلوز الأسود على صدرها وسحبت ثوبها إلى أسفل. كان ضوء الصباح قد ملأ الحوش وأيقظ عصافير الزيتونة فارتفعت صرخات الفرح الأولى . لاحظت علبة سكاير وشخاطة موضوعين على الأرض قرب التختة فتناولتها وأشعلت لنفسها سيجارة . لم يرتفع صوت من الطابق الأعلى ، ولم يزل بمقدورها أن تبقى مرتاحة هكذا بعض الوقت . قابعة كقطة صغيرة تنتظر أن يستيقظ أسيادها . سحبت نفساً طويلاً من سيجارتها فشعرت بمرارة الدخان في فمها . ابتلعته ثم عادت ونفثته من فمها وأنفها . أجالت نظرها في أنحاء الدار الفارغة . أين اختفى ذلك الهر اللعين ؟ لقد مكثوا نائمين جميعاً ؛ ولم يجد أحد غيرها من أهل الدار أن من واجبه أن يتجشم مشقة

النزول لانهاء المهزلة ! هي ، وحدها ، المصابة بداء غامض يجعلها تخدم الجميع . كأن قبولها في هذه الدار ، دار أبيها ، كان بهذا الشرط . ورغم أنها لم تكن كسولة في مراهقتها وشبابها قبل الزواج ، فان شعور القسر الداخلي الذي تحسه الآن لم يكن يساورها قط . كان باستطاعتها أن تلبث في فراشها ، أي صباح تشاء ، حتى التاسعة أو العاشرة . ما كان الرعب يتملكها مثلما يحدث لها هذه الأيام لو فاتها أن تضع الماء على النار قبل شروق الشمس ! ولم تتساءل عن سبب كل هذا ، ما دامت تعرف الجواب.

كن يتحركن ويتحدثن بهمس في غرفتهم ، أمها وبنتاها . انهن صديقات العمر ، لا يفصل بينهن فرق السن ؛ وعسى الزمان أن يسمح بأن تطول هذه الألفة بينهن . سمعت الماء يبدأ بالغليان . امتصت نفساً أخيراً من سيجارتها ثم رمتها . احتضنت ساقيها بذراعيها . حتى ابنة خالتها منيرة يعتبرونها ضيفة عليهم ولا يطلبون منها أن تقوم بعمل . ومن يدري ، فلعلها توافق على الزواج من مدحت ! عند ذاك ستدخل الدار من بابها الواسع ، ولن يكون بمقدور أحد أن يعدها ضيفة شرف .

لم تجب جواباً صريحاً حتى الآن ؛ ولا يبدو أنها مهمومة بهذا الأمر . كأنها تجهل أن الجميع يعلمون وينتظرون ! جميلة هي ، نعم . لكنها ، هي نفسها ، لم تكن تقل عنها جمالاً حين تقدم حسين لخطبتها . ومع ذلك ، لم يتركوا لها مجالاً للتفكير أو لابداء الرأي . كأنه كان الأغا خان الكبير !

رئيس شعبة في مصرف الرافدين ؛ لا يستطيع حتى أن يتكلم بشكل واضح دائماً . ورغم أنها لم تكن ضد فكرة الزواج منه ، لكن إلحاح أهلها ومحاولتهم انهاء الموضوع بسرعة ، أشعرها بثقل العبء الذي تحس به العائلة تجاهها .

ازداد غليان الماء وارتفعت أنغامه المعهودة . قامت بتثاقل تحضّر الشاي والفطور . لم تكن سنواتهما الأولى رديئة جداً . حياة معتادة لعائلة عراقية . عمل وأكل وجنس وزيارات . أصابها نزيف في قطار البصرة ، وأفزعها بشكل خاص لون الدماء على الشراشف البيضاء ؛ ولا تعلم كيف لم تمت حين اتصل بها المجنون ثانية قبيل وصولهما ، فعاد النزف أشد عنفاً ! لم تكن تعي تماماً ما يُعمل بها . كانت في الثانية والعشرين ، ولم

twitter @baghdad_library

تكن قد رأت ، حتى في الأحلام ، أعضاء الرجل التناسلية . للملك اعتقدت أن كل شيء يتم حسب الأصول وكما يجب ، رغم الآلام والفزع والاشمئزار والخجل ! يا لها من بداية لحياة الزوجات هنا !

طرقت أذنيها ، وهي تضع انبيق الحليب على النار ، خطوات سريعة خلفها . لم تلتفت ، سمعت صوت منيرة :

– صباح الخير مديحة .

استدارت ببعض الدهشة . رأتها في ثياب النوم :

– صباح النور . اشگعدچ عيني منيرة ؟ لازم على حسن المرجة .

فتحت منيرة الثلاجة وتناولت قنينة ماء شربت منها ثم أعادتها :

– لا والله مديحة ؛ بس آني كل يوم أگول باچر راح أگعد من الصبح وأنزل أساعدچ بتحضير الريوك . متأسفة ، لاكت ...

كانت ترتدي بلوزاً أزرق فوق ثوب النوم الأبيض المزركش . ابتسمت في وجهها:

– ريش عيني منيرة ؟

وكانت فتحة الصدر واسعة وقسم من نهدها الأيمن مكشوفاً :

– مستعجلة على الشغل والضنى ؟ لو تريدين تدربين من هسه ؟

– شنو ؟ أتدرب ؟ علويش ؟

لبثت ممسكة بكأس الماء في يدها . حيرها ألا تجد منيرة تفهم بسرعة . لم تكن تضع الكحل في عينيها ، لكن صفاء لونهما واسوداد أهدابها ، أبقى لهما جمالاً خاصاً . عادت مديحة إلى عملها بفتور :

– على الشغل عيني منيرة ، على الشغل .

– لا ، صدك ؟

– أي والله . لا يظل فكرچ . شكو عدنا غير الشغل أحنا ؟

لم تلاحظ عليها ذكاء غير عادي ؛ لكنها لمست فيها انكماشاً عن عالمهم . أنها تحب مخالطة أولاد خالتها على مخالطتها هي. تمكث مع عبد الكريم ساعات طويلة، تحادثه وتضحك

معه . أو تخرج مع مدحت والصغيرة سناء في نزهة إلى باب الشرقي أو لمشاهدة أحد الافلام . لا لوم عليها على كل حال ؛ أنها تحب أحاديث الشبان .

كلمتها وهي تراها من طرف عينيها ، واقفة تتأمل شجرة الزيتون :

– منيرة ، أگول ، ما جا جواب من اخوچ مصطفى .. على ذيچ القضية ؟

رأتها تلقي بنظرة سريعة عليها وعلى المائدة ، ثم تستدير مرة أخرى إلى الزيتونة :

– لا . لا .

وضعت مديحة الشاي قرب مواد الفطور الأخرى وسارت نحوها .لم تكن تقصد أن تقول لها شيئاً معيناً . أمسكت بيديها :

– شوفي منيرة ، تره مدحت ، ولو أخويه ، بس آني أعرفه زين وأعرف شگد خوش ولد هو . يعني ، ما أدري بيش أحاف لچ ، ترتاحين هوايه وياه .

رأت ابتسامة خفيفة على فم منيرة ، ثم بدت لها عيناها ، خلال لحظات ، تمتلئان بالمرارة والقلق . أجابتها :

– أدري ، مديحة ، أدري .

كان صوتها خشناً ، كمن لم يتكلم منذ أيام .

– لعد ليش ما تنطيه الجواب يا عيني يا منيرة ؟ خالته متعذب هالشكل ، لا للموت ولا للحياة ؟

تقبضت أصابع منيرة على يدها ثم استرخت . نظرت إليها مرة أخرى نظرة سريعة طائرة عادت بعدها لتتأمل الزيتونة . استمرت مديحة :

– يمكن تگولين بگلبچ ، آني مو مال وحدة تنطي نصايح للغير عن الزواج . لاكت ...

كان قلبها معتصراً بغم مفاجيء .

– تره منيرة ، ماكو وحدة مثلي تعرف ، خاصة هسه ، قيمة الزواج والاستقلال . تخلقين عالمچ ، أنتِ . ماكو أحد فوك راسچ . بس ... الله اذا ما يريد للواحد يرتاح .. و ينسعد ؛ صعبة .

التفتت إليها منيرة وأمسكت بكلتا ذراعيها وعصرتهما . كانت عيناها تفيضان

twitter @baghdad_library

بالحنان ورأت شفتيها ترتجفان قليلاً :

– لا تلومين نفسج عيني مديحة . ارجوج . انت ضحية ظروف قاسية . آني أعرف كلش زين . لا تعذبين نفسج . الله يخليج .

ثم أنزلت ذراعيها بسرعة واستدارت عنها . لمحت انعكاس ضوء في عينيها المبللتين وسمعتها تغمغم :

– أما آني ... فخليني هسه ، أرجوج . خلوني ارتاح شوية . شمسويه آني ؟ خلوني ارتاح شويه الله يخليكم .

وتحركت تريد الابتعاد عنها ، إلا أنها توقفت بعد خطوة أو خطوتين ، والتفتت إليها مرة أخرى :

– عيني مديحة ، انت تعرفين ، جواب أخويه مصطفى لازم يجيء . بس ، ساعديني انتِ . خليهم يصبرون شويه .

وكانت تضع قناعاً على وجهها الباكي الجميل .

صدمت مديحة بردة الفعل هذه ، ولم تدر كيف تعبر عن نفسها وبماذا يمكن أن تشارك منيرة فيما بدا لها محنة شاقة . راقبتها بحزن، تسير جوار الحيطان الغربية ، نحيلة بطيئة الحركة وشعرها المسترسل يخفي وجهها الشاحب . خطر لها أن منيرة ، هذا الصباح أيضاً ، لم تساعدها في اعداد الفطور . ثم جذبت بصرها حركة بنتيها وأمها وهن يتهادين في الطارمة الكبيرة وتذكرت أنها لم ترتد ملابسها حتى الآن وأن الوقت ضيق بعض الشيء .

وقفت قرب الموقد المشتعل تنتظر أن تتكلم أمها . كانت أم مدحت جالسة على التختة الصغيرة في مدخل المطبخ ، تدخن سيجارتها بهدوء . غسلتا الصحون سوية منذ ساعة أو أقل ؛ وعندما أخبرت أمها بأن الفراشة جاسمية جاءت إليها صباح اليوم في المدرسة لتقول لها أن احدى قريباتها نقلت إليها خبراً بأن حسين مريض منذ عشرة أيام وحالته خطرة ، قعدت على التختة تدخن سيجارة تلو أخرى . ظهر عليها انشغال البال والانزعاج ، ثم تكلمت بصوت خافت :

– شنو حالته خطرة ؟ نشلة . نشلة ، وكل الناس ينشلون . يعني چيف اسمها صار ..

علاونزة ؟ او شنو ؟

ونظرت إلى مديحة مستفهمة . لم تجبها . كانت متضايقة أكثر منها . أردفت أمها :

— كيفج عيني مديحة . تريدين تروحين ، روحي . الله وياج . اخذى البنات وياج وروحي . آني ما أگدر أجي . بس تندلين بيت خالته ؟ يگولون ورا گهوة ياس بذيج باب الشيخ .

ونفثت نفساً عميقاً :

— اذا سووه راح يموت من النشلة ، بعد شنگدر نحچي .

كانت السماء مدلهمة ، مثقلة بالغيوم ، والهواء بارداً . أحست بكآبتها تزداد ساعة بعد ساعة منذ أخبرتها تلك المرأة عن مرض زوجها . لم يكن يهمها أن تعلم أنه وقع في الشارع ميتاً ؛ إلا أن الشعور بأنه لا يزال حياً ، على شفا الهاوية ، أيقظ في أعماقها شيئاً ، نبضاً في القلب تخالطه شفقة شديدة تحز في نفسها . كان حين يأتيها مريضاً ، اثر ليال متواصلة من السهر والشراب ، تعامله كأنه طفل صغير فقد أبويه . ثم أدركت بعد ذلك أنها كانت تسعد بتمريضه . لم يداخلها قلق حقيقي عليه بسبب من علمها بقوة جسمه ؛ ولذا كانت تتمتع ببقائه طريح الفراش مشدوداً إليها . ثم كانت فورته الجنسية تفاجؤها في أيام نقاهته . فتمر بتجربة غير مؤذية تشبه عملية الاغتصاب . وبعد ذلك يفر الحيوان من قفصه مرة أخرى . تنهدت . لم تعد تريد أن تتذكر كل تفاصيل عمليات الجماع التي مارساها خلال حياتهما معاً . كانت بعضها تجارب فذة ؛ إلا أن ما تبقى منها لم يعد يتجاوز نوعاً من الاحاسيس الغامضة والصور المتشابهة التي تخدر الجسم دون فائدة .

أيقظتها أمها :

— أخذي وياج شوية فواكه . روحوا من وكت خاطر ترجعون گبل ما تغيب الشمس . تردين أجي وياج ؟

— لا . يوم . خليني أروح فد ساعة وأرجع ، أشوف وضعه شنو . علويش الفواكه ؟

— ميخالف عيني مديحة . مو حلو تخشين وأيديج فارغة . صدقة على راسج وراس بناتج .

twitter @baghdad_library

لم تجبها ومضت تصعد إلى الطابق الأعلى .

طلبت من بنتيها أن تستعدا للذهاب معها . كانت مترددة أول الأمر في أخذهما ؛ لكنها افترضت أن وجودهما قد يخفف من وطأة موقف محرج لا يطاق . غسلتا وجهيهما ومشطتا الشعر المضطرب . كانتا مندهشتين بعض الشيء ، يساورهما الانفعال . رأت وجهها في المرآة شاحباً تتقاطع فيه الغضون ، فعاد إليها ترددها مرة أخرى . بأية صفة ستذهب إليه ؟

جلست على السرير . لم يقل لها حتى أنه سيتركها . غاب عدة أيام وليال ثم رجع مستنزفاً مفلساً . وانتهت المعركة بينهما بأن بقي أسبوعاً كاملاً لا يكلم أحداً . يأكل ويدخن وينام ولا يخرج من البيت . لم تعرف ما جرى له بالضبط وهل فصل من وظيفته أم ماذا ؛ ولم تطاوعها كبرياؤها على طلب النقود منه أو مصالحته . أرادت أن تتصل بأصدقائه في المصرف بعد أن خمنت أنه يلاقي مصاعب جدية لا يريد أن يفصح لها عنها ، لكنها لم تجد الوقت لذلك . لعله افتعل هذا الخصام كي يخفي عنها أمراً أشد ازعاجاً . وخرج ذات صباح ولم يعد . ثم وصلتها منه رسالة من الكويت يقول فيها أنه يشتغل هناك في شركة ما وأنه يسعى لتهيئة مسكن لائق لهم . لم يعطها عنواناً . وكتب لها بعد أشهر كتاباً مضطرباً بارداً حدست منه أشياء كثيرة . عرفت أنها يجب أن تألف فكرة بعده عنها وأن تعد نفسها وبنتيها لحياة أخرى بدونه ، فانتقلت إلى بيت أبيها .

رأت سناء تقف أمامها وتنظر إليها بصمت مستفهمة . سألتها :

– وينها أختج سها ؟

ثم شعرت بنفسها تتنهد . أجابتها سناء :

– خلصت لبسها وگاعدة دتحچي ويه خالو مدحت .

– ليش خالچ ما نايم ؟

– ما أدري . آني شفتها گاعدة دتحچي وياه . يمكن خشت عليه بالگبة وگعدته . هاذي سها ، يوم ، غير بنية .

– روحي صيحي عليها .

قامت تعدل من شأن لباسها وهيئتها . رأت الكثير من الشعيرات البيضاء في شعرها فأخفت قسماً منها وقطعت بعضها . لم تعد تتساءل ، تلك اللحظات ، عما تعمل ولمن . وأبدلت بلوزها وحذاءها و تناولت العباءة وخرجت . لم يعكر مزاجها كثيراً منظر السماء ولونها الرمادي الغامق . كان البيت فارغاً ، فسرها ذلك . تذكرت حقيبتها اليدوية فعادت إلى الغرفة مرة أخرى وأخرجتها ووضعت فيها حاجياتها الصغيرة وبعض النقود الورقية . أنعشتها نسمة باردة حين خرجت ثانية من الغرفة . فوجئت برؤية بنتيها تقفان مع مدحت في نهاية الطارمة الضيقة وهم ينظرون باتجاهها . ترددت قليلاً . رأت ابنتها سها تبتسم في وجهها وهي تمسك بيد خالها .

هتف مدحت :

— تفضلي مديحة . آني أندل بيت خالة حسين . رحت لهناك فد نوبة . عرفت هاي غيبته مو خالية . گلت لازم مريض . اسبوعين صار له ما جاني للدائرة .

ثم مشى بهدوء أمامها ، فسارت خلفهم .

داخلها بعض الاطمئنان بسبب رغبة أخيها في مرافقتهم . كانت تحس بغموض أن زيارتها لا تستند إلى أساس مكين مقبول ، ولقد فكرت فيها اشفاقاً . إلا أن هاجس ذهابها منفردة أو حتى مع طفلتيها ، كان يعذبها . تراجعت سناء قليلاً ، قبل أن يقتربوا من الباب الخارجي ، وأخذت تسير بجانبها فمسدت شعرها برفق فرفعت سناء إلى أمها عينين لامعتين باسمتين . اشتروا شيئاً من الفواكه وبعض اللوازم الأخرى قبل أن يدخلوا جامع الكيلاني ويخترقوه . لم تكن الشمس قد غربت بعد ، وكانت أشعتها الحمراء تلون رأس المنارة وبرج الساعة العالي . وصلوا قهوة ياس واتجهوا نحو الفوهة المظلمة لحي الاكراد. أزعجتهم رائحة التبغ المنبعثة من الأرض المرشوشة بمياه النارجيلات. سدت سناء أنفها باصبعها . لم يتكلموا كثيراً . أرادت أن تسأل مدحت عن منيرة ، عن شيء ما يخصها أو يتعلق بها من بعيد ، لكن حبوره وخفة أحاديثه مع بنتيها منعتاها . لم تكن لديها أسباب محددة ، إلا أنها خشيت الا يسره الأمر .

انتقلوا إلى عالم آخر حين اجتازوا الفوهة السوداء . كانت الأزقة الضيقة عكرة

twitter @baghdad_library

الأرض مظلمة ، تتقارب حيطانها وتكاد تُغلق على ساكنيها وتمنع عنهم وجه السماء . وكان الأطفال منتشرين بكثرة وضجتهم ترتفع من كل زاوية ؛ وكل شيء مغلفاً برائحة الطبخ والاظلام والقاذورات .

أمسكت بطفلتيها واستدارت إلى مدحت ، بعد خطوات ، تسائله .
– شوكت نوصل
هز رأسه :

– بعد شوية .

وأشار إلى منعطف على اليسار . كان الضوء رمادياً والجدران كالحة قذرة تتراكم عليها الخطوط وبعض الشعارات الملونة. خيل إليها أنها تسير في سراديب لا يسكنها بشر، تنساب عميقاً في باطن الأرض ! ماذا يمكنها أن تجد في هذا العالم الكئيب ؟

وقفوا أمام باب قديمة سوداء يغطيها التراب وتغوص نهايتها تحت أرض الشارع . تردد مدحت قليلاً ونظر إلى جهة أخرى من الزقاق ثم عاد يتفحص الباب . كانت مستقرة في منخفض وأمامها عتبة عالية تمنع تسرب المياه إلى داخل الدار . رفع العتلة الحديدية وطرق الباب وهو يبتسم . لم يجبهم أحد . بدا لها ذلك أمراً طبيعياً وتمنت ألا يكون أخوها مخطئاً . أعاد مدحت الطرق بشدة . تحركت الباب بعد ثوان دون صوت وببطء ووقف الشيخ في الفتحة الضيقة . أحست بوجيب قلبها يزداد سرعة والتصقت بها احدى بنتيها . تكلم مدحت :
– الله يساعدك خالي . وينها الحجية ؟ جينا نشوف حسين . شلونه ؟
فانبعث صوت أجش :

– ها ؟ يا حجية أخوية ؟ المحلة مليانه حجاج . انتو منين ؟

سأل مدحت بحدة :

– هذا مو بيت حجي رحمن ؟

– ها ؟ بلى . تمام أخوية

– حسين ، أبو سها ، مو هنا ؟ گالوا مريض .

لم تكن تميز وجه الرجل الذي كان يكلمهم بلكنة غير اعتيادية . لبث ساكناً هنيهات ، ثم كرر سؤاله بنفس لهجته الآلية :

– أنتو منين أخوية ؟

همس مدحت :

– هذا الحچي مخرف وماد يعرفني .

ثم صاح به فجأة :

– روح صيح الحچية بالعچل . يا لله . كل لها خطار . يالله بالعجل .

تراجع الشيخ باضطراب داخل ظلمة البيت . انتظروا ، في سكون الزقاق الرمادي، والنسائم الباردة تهب عليهم من لا مكان وتحمل إليهم ضجة مبهمة لا تنقطع . سمعوا خطوات خفيفة مترددة ثم أطلت عليهم امرأة قصيرة متشحة بالسواد ولا يميزها عن الشيخ غير شيء مجهول في هيئتها يعلن عن جنسها . تكلمت حال ظهورها :

– نعم ، يابه ؟ ألمن تردون يابه ؟

– مساء الخير حچية . آني مدحت ابن أم مدحت ، أخو مديحة مرة حسين . شلونكم ؟

– أي يابه ، اي . هلا بيكم ، هلا . تفضلوا يابه .

عاد مدحت يسألها :

– شلونكم حچية ؟

كانت تتراجع بهدوء وتلف العباءة عليها :

– هلا بيكم يابه . شلونا ؟ هالدتشوفه يابه . دنخيس . تفضلوا يابه . عذرونا ، ماكو ضوه بالمجاز .

– چينا دنشوف حسين . هذوله بناته ويانا . هاي مديحة ، مرته . سلونه هو ؟

– اى يابه ، هنا موجود ،حسين الخير . عشرة تيام صار له نايم . لا أيد ، لا رجل ، مثلنا صاير . تفضلوا يابه .

تقدمهم مدحت يجتاز ظلمة المجاز ، فتبعته ممسكة بالصغيرتين بعد أن سلمت على الحچية . وجدوا الحوش خالياً منارأ ببقايا أضواء الغروب . كان الشيخ واقف على جهة ، ينظر إليهم نظرات عدائية . كلمته العجوز :

– الجماعة كرايب حسين ، چايين يشوفوه . عذرونا يابه ، ما عرفكم .

twitter @baghdad_library

همهم الشيخ من وراء لحيته البيضاء الطويلة :

– بيرم ، بيرم ، أفندم

أشارت المرأة إلى السلم القريب :

– تفضلوا يابه . گدامكم الگبة أول ما تصعدون . آني ما عندي قابلية أصعد، سلموا لي عليه .

كانت كئيبة الملامح ، لا يبين من وجهها الضيق غير الغضون . أجابها مدحت .

– اشكرج حجية . آني أعرف الطريق .

ثم باشر يرتقي الدرجات العالية بخفة . همست :

– ديروا بالكم .

قاطعتها سناء :

– دا أخاف ماما .

– سكتي ولج . لمن وصلنا لهنا ! سكتي . صعدي على كيفج .

أحدثن ضجة خفيفة بملابسهن واحذيتهن وهن ينحشرن مع بعضهن فوق الدرجات المظلمة . همست سناء مرة أخرى تكلم أختها بعصبية :

– ديري بالج . شبيج گاعدة تدوسين على رجلي . ما شايفة ناس يصعدون درج !

أجابتها سها :

– زمالة

هتفت سناء :

– انتِ . انتِ . سمعتِ ماما ؟

كانت بمواجهتهم فسحة أقل ظلاماً من السلم بسبب النافذة العالية التي كانت تُرى منها زرقة السماء البعيدة . وكان مدحت واقفاً أمام باب مغلق على اليمين ينظر إليهن ببعض التجهم . بقي ساكناً حتى تراصفن قربه فدفع الباب بسكون ودخل . تمهلت قليلاً ، ثم لما رأت بنتيها تتبعان خالهما ، خطت هي الأخرى نحو الداخل .

لم تتبين شيئاً وهي تقف عند العتبة . كان الظلام قاتماً في الغرفة الجرداء، والنافذة الضيقة بمواجهتها لم تكن تبعث إلا بارقة نور خفيف . لاحظت على يمينها معالم سرير تنفصل ألوانه عن الظلام . مد مدحت ذراعه خلفها فاصطبغت الغرفة بشحوب المصباح الكهربائي الضعيف. رأت على فم أخيها ظل ابتسامة وهو يتقدم نحو القريولة الصغيرة السوداء . لم تر أحداً ، أول الأمر ، تحت البطانية التي رمي عليها معطف مطر قذر ؛ لكن ارتفاع كومة الأغطية وشكلها ، أعطاها انطباعاً بأن إنساناً يرقد تحتها . كانت ، بعيداً عن العواطف ، بأشد الفضول لرؤيته حياً ؛ ارؤية وجهه وتقصي ما يختفي وراء ذلك الوجه . ان موته لا معنى له عندها ؛ وهي تفتش عن ملامح المستقبل في وجوده حياً أمامها .

— حسين . حسين .

سحب مدحت الغطاء بحذر ، فبرز شعر كثيف لشخص مغمض العينين سرعان ما انتبه وتطلع إليهم ببعض الذعر . كان وجه حسين ملتحياً بلحية شعثاء مليئة بالشعر الأبيض ، وعيناه منتفختين وسط دائرتين من السواد الحائل . لبث يحدق في مدحت ، دون أن يرفع رأسه ، كمن يرى شبحاً . كان شعره مضطرباً منكوشاً ووجهه كالنحاس .

سمعت صوته الخشن :

— ها! شكو ؟ شنو ؟

ثم استولت عليه نوبة سعال قوي أجبرته على الاستواء قاعداً في فراشه وهو يمسك رأسه وفمه ويشهق عدة شهقات غريبة مع كل قحة يطلقها . مثل كلب يعوي متألماً . تناول مدحت كأس ماء من فوق مائدة صغيرة وقربه من حسين فدفعه هذا بعيداً . هدأ قليلاً فأخفى وجهه بين كفيه ، تتلاحق أنفاسه وتهتز كتفاه هزات متقطعة متشنجة . كان شعره ناصل اللون ، قذراً تتخلله القشرة بكثرة ويبدو جلد رأسه من تحته . أشار إليها مدحت لتجلس على قنفة طويلة مركونة بجوار الحائط قريباً من السرير . ترددت . كانت منفعلة بشكل لم تعهده من قبل . رأت كم تبقى من ذلك الزوج الشاب الذي عاشرها سنوات ! كأنها تراه يودعها الوداع الأخير ! شعرت أنه استمر يعيش ،

twitter @baghdad_library

بشكل ما ، من أجل أن تراه ، من أجل أن تلمس بنفسها عمق الهوة التي انحدر إليها . شكت ، هنيهة ، في أن هذه الملامح ، هذه التقاطيع المعدنية الممصوصة اليابسة ، هي ملامحه . ثم ميزت شيئاً ما ، خطاً غائماً يحتوي الحاجبين والعينين وينزل بشكل خاص نحو الأنف المعوج إلى اليسار . ولكن العينين ... لقد فقدتا لونهما وبريقهما وتقلص الفم وانكمش على نفسه . كان في ثياب الخروج ، والرباط الأسود ذو العقدة الصغيرة يتراخى عند الرقبة المغضنة السمراء ليفسح له مجال التنفس . تكلم فجأة :

— تعذرني أخوية مدحت . مدا أشوف زين . مريض چنت . آخ يابه . هواية مريض چنت عيني مدحت . تعذرني .

لم يكن ينظر إليها . كانت سترته الزرقاء الغامقة مغطاة بطبقة من التراب والاقذار . وياقة قميصه المدعوكة ملوية إلى الخارج . أجابه مدحت :

— آني متأسف حسين . ما عرفت انت بهالحال . چنت مشغول . شلونك هسه ؟

— هسه ؟ زين . زين . زين .

لمحت خيطاً من المخاط يسيل من أنفه . أدخل يده ، وهو يتكلم ، في جيب سترته وأخرج كفية مكورة مسح بها أنفه وعينيه ثم فمه. تطلع نحوهن لحظة، ثم عاد يمسح وجهه المليء بالشعر كأنه لم ير شيئاً يبعث على الاهتمام . قال مدحت :

— تره أحنا اليوم سمعنا صدفة بمرضك . عد جيت آني ومديحة والبنات نشوفك يبين ما عرفتهم حسين ؟

استدار حسين ثانية نحوهن بصورة آلية :

— ما عرفتهم ؟ اي والله . اي . تعرف ...

لم تكن في عينيه المنطفئتين أية حماسة او انفعال ، ولم يظهر عليه أنه يحاول أن يهتم بهن . تكلمت هي :

— فراشة عندنا بالمدرسة گالت عليك مريض ديموت ...

اضطرب فجأة لسماع صوتها وسحب الغطاء قليلاً ثم قاطعها :

— دا اموت شنو ؟ لا . لا. لا. زين هسه . آني زين هسه . كل شي ما بيّ .

أراحتها علامات اضطرابه :

– اى ، يبين . جينا دنشوف ، أخاف تحتاج طبيب .. مستشفى .

قاطعها مرة أخرى وهو ينحني على نفسه :

– مستشفى ؟ لا . لا . ماكو حاجة . علويش مستشفى ؟ ما تسووه . ما تسووه .

ثم وضع راسه بين كفيه :

– القضية كلها تره ما تسووه . لا ، ما تسووه .

نظرت إلى مدحت فرأته ينظر إليها هو الآخر . جالت بعينيها في الغرفة حولها . كانت خالية بشكل غريب ، عارية ، جرداء . رأت على الأرض المغطاة بالغبار ، آثار قيء يابسة وأعقاب سجائر منتشرة في كل مكان ؛ كانت آثار مياه المطر السائلة من النافذة التي لا ستارة عليها ، تبدو كالخطوط البيانية . ارتفع صوته مرتعشاً على حين غرة :

– ارجوكم . مدحت . تعذروني . وضعي ، مو هلگد .. شوية لايق .

وكان يتكلم من تحت كفيه :

– لاكت .. هذا المرض .. المرض ما يرحم . وآني چنت دا أعرف كلش زين .. لازم ما أتمرض . الوضع ما يساعد اتمرض . لاكت .. أرجوكم .

وحينما كشف عن وجهه لمحت سائلاً متجمعاً في مآقيه ، إلا أن ملامحه لم تكن ملامح من يبكي . توجه نحو مدحت بنظراته الزائغة :

– استبردت فد ليلة وما درت بال . شي فظيع . آخ يابه . صخونة يمكن فوك الأربعين درجة ووجع راس فظيع . فظيع . وباردة ورا باردة . دون انقطاع . الليل كله سن يطلك بسن . وما من مجيب . الله أكبر . أما بالنهار .. فأعوذ بالله .

مد يده فأخرج كفيته ومسح بها أنفه وعينيه ثم أعادها إلى جيبه . رفع يديه فمررهما في ثنايا شعره . لاحظت ارتجاف أصابعه الطويلة الأظافر . سكن لحظة وتنفس بعمق معدلاً من جلسته . كان يصحو على الآخرين ويستعيد حواسه . ثم استدار قليلاً نحوهن . تسارعت حركة أهدابه المبللة وبدا كأن أساريره تنفرج :

– شلونكم مد .. مديحة ؟

twitter @baghdad_library

لم تجبه . أدهشتها قبح تقاطيعه . أليس من المحزن ألا تملك هي وبنتاها علاقة حقيقية في العالم إلا مع هذا الانسان المهشم ؟

تطلع إلى بنتيه :

– شلونچ بابا سها بالمدرسة ؟ وانت سناء ، شلونچ بابا ؟

أخرجتا أصواتاً ناعمة خافتة وهما تجيبانه . التفت إلى مدحت :

– شكو ماكو مدحت ؟ أخبار الزعيم شنو ؟

– كل شي ماكو . شتريد يصير بعشرة تيام ؟

– عشرة تيام ! أي . صدك . بس آني كل طگة ، أگول علگت .

– ماكو هيچي شي . منين جايب هالحچي ؟

– أيهو .. حچاية طويلة هاي . هذا الزعيم كل ساعة محسوبة عليه . يمكن كل دقيقة . صدك والله .

جذبت نظرها بغتة قنينة بيضاء فارغة ، مرمية تحت السرير . لعلها القنينة الأخيرة التي شربها قبل مرضه ؛ أو أثناء مرضه . من يدري ! ولكنه يتبادل الحديث مع مدحت وكأنه في مجلس عائلي مألوف . كأنه لم يقم بأي عمل مخجل تجاههن ، أو كأنه ليس مديناً لهن أو مسؤولاً عنهن بشكل من الأشكال ! انه يتكلم ويتناقش كشخص محترم أوفى جميع التزاماته على أحسن ما يرام وجلس هكذا يتفكه بالثرثرة السياسية التي لا تضر أحداً . أزعجتها هذه الفكرة . هتفت :

– شرف ، حسين . أنت أحسن ما تحچي بالسياسة وتتبطر ، ما تگول لي شراح تسوي بنفسك ؟ وين راح توصل ؟ آني ما چان عبالي أشوفك طيب . لا والله . أبدا .

ابتعد بوجهه وكتفه اليسرى عنها ، كمن يتلقى لطمة يريد أن يتحملها بصبر فلا يستطيع . ثم تقلصت شفتاه المشدودتان وانحنى برأسه ونظره نحو الغطاء . استمرت :

– أحنا ما نريد منك شي . خلي هالحچاية گدامك . ما نريد منك أي قرش بارة . أحنا ما محتاجين فلوسك ...

أرادت أن تصف نقوده بالقذارة ، لكنها بدأت تحس ، وهي تحدثه ، بشعور من

الأسى والأسف يمس قلبها :

– شوف الله ما يگطع بعبده . الله يخلي ابويه وأخوتي ويعمر بيتهم . بابهم چانت مفتوحة إليّ ولبناتي . وأحنا ما محتاجين لأحد . الله يرضى على اللي چان السبب لاكت ...

ترددت :

– لاكت الواحد .. الانسان آخر مو مثل الحيوان .. هماتين أگول ؟ لا صوچ لا ذنب . ليش دتسوي هالشي بينا وبنفسك ؟ آخر هذوله بناتك ، بالله آني .. گول ماكو ، ما موجودة . لاكت .. بناتك ؟

لم ترد ، اللعنة ، أن تتكلم هكذا . أي شيء في هذا المخلوق يجعلها تسترضيه أو تحاول الاقتراب منه ، حتى في الكلام ؟

لكن تلك النسمات من الحزن والأسى والشفقة والأسف والندم والذكريات وصور الماضي المؤلم البعيد وأيامها السعيدة القليلة معه ؛ وكل هذه التقاطيع والحركات القبيحة ، الخرقاء ، المريضة المتجمعة فيه ، جعلتها تتفوه بأشياء لم تفكر بها حين جاءت إليه . كان ساكناً مثل حجر أسود . رأته يحك ظهر كفه بحركات بطيئة وهو لا يزال منحنياً على نفسه ، منكوش الشعر . نظرت إلى مدحت فرأت على وجهه علائم حرج . أشار بعينيه إلى الصغيرتين منبهاً . كانت نفسها مليئة بعاطفة من الشفقة والاستسلام والقبول بكل شيء . لم يكن بمقدورها أن تصر على كل أقوالها أو أن تدافع عنها . لا حجج كثيرة لديها رغم كل الأساءات التي وجهها إليها . خطر لها أن تختم هذا المشهد المزعج . سمعته :

– ما ادري . حقيقة يعني ، شلون اعتذر ، يعني .. منچ . لاكت .. يمكن تعرفين .. ومدحت يعرف كلش زين ...

لم يكن ينظر إلى أحد :

– يعني .. آني ما چنت .. تعرفين يعني .. مسائل الشرب وغيرها والظروف . ما چنت حاسس بنفسي آني وين . فد دوامة .. لو أصحى ساعة ساعتين باليزم ، لولاع . لاكت هاللأيام من تمرضت .. عرفت يعني آني وين صاير . وما أدري شلون

twitter @baghdad_library

أعتذر . أريد طبعا هسه .. يعني أسوي فد شي .. يعني آخر . خاطر تعرفون .. يعني شگد والله آني متأسف .

— شتّريد تسوي ؟ شنو نيتك ؟

جذب سؤالها عينيه المترجرجتين المهتزتين إليها :

— نيتي ؟ ليش .. آني أكو أمل أطيب ؟ أگوم مرة لاخ ؟

قال مدحت :

— طبعا . طبعا . انت حسين ليش متشائم هالشكل ؟ انت كلشي ما بيك . نشلة وفاتت سلاماة .

— أشكرك مدحت أخوية . تره آني محتاج تگولون عني آني ما بيّ شي . آني تره موبها العالم . هسه ما أدري آني زين ، لو لاع . أموت لواعيش . بس انتو من تگولولي آني زين ، راح أصير زين . آني انسان عاطل . أخويه مدحت ، لاكت مد أگدر أجوز من هالدنيا .

ثم استدار ببصره الزائغ إلى زاوية من الغرفة :

— علويش كل هالطرگاعة . خوف وحساب وكتاب . تاليها كومة عظام .

كان يتكلم بهمس ذاهلاً عنهم بعض الشيء :

— كومة عظام ما ينراد لها اسم ، ولا عليها حساب ولا كتاب . لاكت الموت مو هين يا فلان . آخ يابه ، شلون ليالي سود مرت عليّ ! أحس ملك الموت فوك راسي والروح جوه السرير ، وآني ألوب وأتوسل . يا أهل الرحم ، ولكم آني مو حسين . آني مو حسين . بدلت اسمي . ماكو فايدة . ماكو فايدة . وليلة ورا ليلة ورا ليلة . لا للموت ولا للحياة . وهسه ...

رفع نظره إليها وانحرف به لحظة نحو مدحت ثم عاد إليها :

— هسه ، آني هالدتشوفين ، شتّريدون .. آني حاضر . بس ...

فتح ذراعيه المرميتن على الغطاء باستسلام . كان في هيئته اشارة ما ، بأنهم كانوا السبب في مرضه وعذابه واشرافه على الفناء ؛ هم السبب لأنهم يريدون الدخول إلى حياته الخاوية ، يفتشون عن فتات أمل . سمعت مدحت يكلمه :

– حسين ، ما تگول لي منين چايب أفكارك السودة هاذي ، خاطر الله ؟ انت بعدك شاب وگدامك حياة مليانة ...

أليس هو إذن ، ببؤسه وخرابه ، على حق في أن يرفض نداءاتهم ؟ لقد عبر إلى الجهة الأخرى ...

– ... طبعاً أنت مو أول واحد دخل المصح واتعالج ...

وفقد زورقه وطريقه . ومن العبث الآن ، آه .. اي عبث محزن ، لا مجدي ، أن توجه إليه كل هذه المطاليب والشروط والمقولات التي لا يفهمها .

– ... هذا فاضل ، صاحبك فاضل بالطابو ، نسيته ؟ گاعد ديكتب مقالات طويلة عريضة بالجرايد عن تجربته بالمصح . والله وداعتك المسئلة أسهل منها ماكو .

لكنه كان يقول لهم ، بعينيه وببشرته النحاسية وبفمه المعوج ، أنه لا يعود لهم وأن ما تبقى منه لا يشهد على حياته ، لأنه قد مضى عنهم وأنه ، في آخر الأمر ، ليس إلا ذكرى .

– ... شتگولين مديحة ؟ ها ، بالله ؟

أحست بغيمة من الدوار تنتابها فأغمضت عينيها . كان حياً ، ليثبت لهم أنه ليس كذلك .

– شبيچ مديحة ؟

– ما بيّ شي عيني مدحت . دخت شوية . تعبانه يمكن .

ثم شعرت بحركة قربها . كانت سناء . لمست يدها الناعمة الصغيرة . رأت انطباعاً بالخيبة على وجه أخيها وهو يتجه نحوهن . قالت :

– الله كريم عيني . بس الوكت فات علينا . مو ؟

سمعت حسين يهمهم بكلمات لم تميزها . أجابها مدحت :

– زين . زين . نجي غير وكت انشالله .

قامت . استمر مدحت :

– نجي غير وكت لعد . زين يابه حسن ، عندك العافية . ما محتاج شي هسه ؟احنا نجي مرة لاخ طبعا

twitter @baghdad_library

– اى والله مدحت أخويه . لازم تجي .. تجون كلكـم .

لم تقل شيئاً وهي تتجه نحو الباب وتفتحه ثم تخرج إلى الظلام ، لكنها سمعت زوجها :

– اگول ، عيوني مدحت ، الله يخليك ما عندك فد دينار ،حبك ؟ آني تره ...

واختلطت همسات ابنتيها بكلامه . لم تر مدخل السلم جيداً وانتبهت إلى الدموع تغرق عينيها . أرادت أن تخفي ذلك ، فرفعت يدها لتمسحها فشعرت بكيس الفواكه فيها . أعطته بسرعة إلى سناء :

– روحي خلي هذا يم أبوچ .

جففت عينيها . لم ترد أن تبكي هناك ، على باب غرفته . أمسكت بيد ابنتها سها وسارت مع أخيها . لحقت بهم سناء بعد لحظات . شعرت وهي تنزل الدرجات بحذر وتغادر الدار المظلمة أنها تتركه في قبره .

كانت النسمات باردة ذات رائحة كريهة في الأزقة الموحشة الشاحبة الضوء ؛ وكانت تخفي دموعها تحت العباءة السوداء وتكتم النشيج في صدرها . ولم يكن الدرب إلى بيت أبيها طويلاً لحسن الحظ .

twitter @baghdad_library

- ٩ -

جالسة كنت ، على سريري في غرفة العجائز ، نصف مضطجعة ، أقرأ في قصة بدت لي شيقة أول الأمر ثم أخذت الحيرة مؤلفها ، حينما كلمتني والدتي . يهمها ألا تجدني منصرفة إلى شيء لا تعرفه :

– شوفي بنتي منيرة ، لازم تكتبين لأخوج مصطفى . اگول يحچي ويه صديقه بلكن ايچيبوچ لبغداد بالعجل .

كانت تدخن سيكارة طويلة وتلوك الكلمات في فمها كالعلك . عادة قبيحة ما استطعتُ أن أجعلها تقلع عنها . لم أجبها وقلبت صفحة من الكتاب . لكنها لن تدعني لنفسي . كنا بمفردنا في الغرفة ؛ خرجت عمة مدحت لقضاء حاجة وكذلك فعلت جدتي أم حسن . وكان الحر أكثر من مزعج . إلا أنه لم يسبب لي الصداع الذي اعتدت عليه سابقاً . لعلي مرتاحة نفسياً هنا ، أو أن الله سبحانه وتعالى شفاني منه أخيراً .

– هذوله ألف شغلة براسهم يا بنتي ، والواحد اللي يجوز من نفسه منو يدير باله عليه ؟ وأخوچ ، انت تعرفيه ، خوبن .

– ليش ما تحچين زين ، ماما . لسانچ خلي يگعد بمكانه واحچي . مو كلت لچ آني ما اكتب بعد لمصطفى ، لويش هالملّحة ؟ كتبت له مرة وافتهم . بعد ما اكتب يعني ما اكتب .

– هذوله الدنيا ما يعرفون يا بنتي محنة غيرهم . آني بس أعرف ...

وضعت كتابي إلى جانب ونظرت من فتحات الشبابيك الخشبية . لست ماولة ولا

متعبة ، ولكن موعد الشاي قد حان ونفسي انغلقت لهذا السبب . أما كلمات أمي ذات الوتيرة الواحدة ، فلن تبعث فيّ الكثير من المشاعر . أني أتسلى هنا ، منذ مجيئنا ، بأن أنسى سريعاً معاني الكلمات المبطنة . يهمني ألا أشقى طول الوقت ، إذ يبدو أن من التعقل ، ونحن في ملجأ أمين ، ألا نأكل لحمنا . أن نلعق الجراح فقط ، هذه هي المهمة المثلى. يكفي أحياناً ان ننجوا من بعض الأخطار لا كلها ، وأن نشعر أننا بعيدون عن ساحة العذاب . وليس هذا من قبيل التواضع . أن شهيق الحياة لا يمنع أن يعقبه بثوان زفير الموت . بل هذا هو المنطلق الوحيد . فاذا سنحت الفرصة لشهيق آخر ، فهو نعمة زائدة .

كانوا يعدون الشاي في مكان ما من الدار ، وكنت أحس بعجز عن مكالمة والدتي المتربعة بسكون قرب السرير . أن الحقائق التي نعرفها لا تختلف كثيراً في العدد ، ولكننا ، ما زلنا منذ بعض الوقت ، نخرج منها بمعاني وتتمات غير متفقة مطلقاً . وليس باستطاعتي أن أضرب الأمثال دائماً ؛ ولكن لنأخذ مسألة النقل إلى بغداد أو العودة إلى مدرستي في بعقوبة . هي تجد أن الرجوع إلى بعقوبة شاق علينا ، أو هو على بعض المستويات صعب التحقيق. وهي تتألم لهذه النتيجة التي توصلتْ إليها . أما أنا ، فمنذ أن قررت الا بعقوبة بعد الآن ، أو في حياتنا على الأقل ، تجمدت عناصر القلق عندي واختلفت تتماتي ، على نحو من الانحاء ، عن تتمات والدتي .

انها تدخن ، ممسكة بجبينها الملفوف بعصابة سوداء لامعة ، محيطة نفسها بكتلة من الدخان الأبيض الكريه الرائحة . وهي حين تتكلم لا تبدر منها أية حركة . هكذا ، في جلستها على الأرض ، ينبعث منها الصوت ذو الكلمات المشوهة :

— ... وانتِ يا بنتي ، لويش عبالج الناس شايلة دردج ؟ آني أحلف بالأئمة كلها ، أحنا لو نموت لو نحتيي ، فلا أكو بشر على هالگاع يگول الله يرحم والديهم . بنتي اللي ما يلحك على نفسه ، ما كو أحد يلحك عليه .

ثم تنقطع السلسلة اللفظية فجأة ، كما لو أخذتها سنةمن نوم أو أمسكت عليها لسانها فكرة قائمة . وأريد أن أقول لها ، وأنا مضطجعة بجانب الكتاب المغلوق ، بأني أؤيدها في المعنى العام لكلامها ، في المسحة الحزينة اليائسة التي تصطبغ بها كلماتها ، في الفكرة

twitter @baghdad_library

السوداء خلف أقوالها ؛ لولا أني انتهيت قبل ذلك إلى أنها متفائلة بالحياة أكثر مني وأن يأسي لن يدخل نفسها قط وأنها ستزيد من ثرثرتها المتشبثة بالتوافه وستسبب لي صداعاً . ثم اني أسلي النفس هنا كما قلت ، في بيت خالتي هذا العتيق ، مع أبنائها وبنات ابنتها . وأنا ، في ذلك ، على حذر ؛ أمسك بيدي على موضع الاصابة وأخفيه فلا يعود له وجود ظاهر ، ويصير بالامكان معاودة العيش السوي ، ثم تتساوى الأمور كلها .

هكذا أنتظر ، هكذا أنتظر ؛ أو لعلي أتظاهر بأني أنتظر هكذا .

— ... بكركوك ، شلون سنة حلوة فاتت علينا . مثل الحلم يا أمة محمد . ومصطفى أخوچ وولده أحمد وسامان ، ومرته بلقيس .. الله يرضى عليها . مثل الحلم فاتت علينا . أكل ونوم يا أهل الگوم . اوف يا بنتي .

— انت چنت تريدين بغداد . گاعدة تدگين براسي وبراس مصطفى على بغداد .

— اي ، هاي ما بيها عيب بنتي . أحنا من أهل بغداد ونريد نرجع لولايتنا . شكو بيها ؟ أهلنا كلهم أبغداد . لاكت گولي بعگوبة الخير .. لا والله بعگوبة الشر .. شلون چت بالوسطية ؟ هاذي گوليها .

وتضرب بيدها على فمها ضربة ثم أخرى .

كرهت منها هذه الحركة أول مره رأيتها تقوم بها . لم تكن ذات معنى عامي سمج غليظ فقط ، بل تعدته ، مع تكرارها ، فصارت تتلون بقبح العمل السري الشائن . ثم أخذت تبث في قلبي ، بشكل ما ، رعباً أسود غامضاً تصاحبه أتعس مشاعر الشؤم .

وهكذا ، حتى معها ، لم أعد أفتح نفسي هذه الأيام . اني أخفي كل اندفاع نحو الخارج وأحاول أن أتعلم الانكماش عن الحياة . وهذا كله أحس به ضد طبعي ، لكنه يساير عاداتي الأخيرة . ولذلك ، عدت إلى تناول كتابي بصمت ، أفتش في صفحاته عن الضياع المريح .. هوايتي التي لم أتقنها بعد . سمعت ضوضاء تأتي من الطابق الأرضي وكلاماً تتبادله سها مع أختها وأمها. لعله الشاي أخيراً . لم أكن أقرأ . نظرت خلسة إلى السماء ، سماء الصيف الرائقة عصراً . تعالت ضجة أخرى ونداء باسمي فوضعت الكتاب جانباً . قالت والدتي :

— ما ادري شكو عندهم يصيحون هلگد .

ظهرت سها في الباب وهتفت :

– أبلة منيرة . يريدوچ جوا .

قمت . علقت والدتي :

– خير انشالله . يا غافلين ِذكروا ربكم .

كلمتني مديحة ، وأنا أسير في الطارمة ، عن شخص قالت أنه جلب لي أمر النقل من بعقوبة ، أليس هذا غريباً ؟ وواتتني خفقة في القلب ثم أسرعت نحو السلم أهبطه . رأيت سناء تقف باستكانة قرب الباب الوسطي فمددت لها يدي وأخذتها معي . كانت ظلمة المجاز الطويل تخيفني دائماً . سرنا نحو الباب الخارجي بسكون . خطر لي ، ونحن بين الحيطان العالية وسط المجاز ، أن أعود أدراجي ، تاركة لمديحة أو لأمي أن ترى من هناك . لعل في الأمر خطأ ؛ ولستُ قادرة في كل الأحوال على التعامل الصحيح في وضع كهذا . لكن ، قد يكون هو فراش المدرسة حسين ؛ ثم أني سمعت كلاماً عن أمر النقل أو ما يشبه ذلك ، وهذه الصغيرة سناء تمسك بيدي قوياً وكأنها تخشى ظلمة المجاز أكثر مني ! فتقدمت ، بعد أن صار العناء مبرراً .

كان الباب موارباً فوقفت وراءه ؛ يا لهواجسنا لخوف الغريب ، وأطللت ممسكة بالمزلاج . الضوء الباهت كان على الجدار المقابل ، والشخص الطويل الواقف قرب العتبة ، بدا مبهم الملامح لي . سألته سؤالاً ما ؛ عمن يكون كما أظن . لم يكن ملتفتاً نحوي ، فاستدار . لم يكن ملتفتاً نحوي فاستدار حين تكلمت ؛ ولو لم أتكلم ما استدار . كنت أسأله ببراءة عمن يكون . لم أدرك المدى العميق الذي حاذيته آنذاك . واجهني ، معتم التقاطيع ، فتعرفت على العينين والشارب الأسود الطويل والحنك المربع . ليس في الأشخاص ما يهم ، غير تاريخ العلاقات ؛ ولذلك فهم يحملون معهم رعب الماضي ووحشيته . كان ذلك الوجه ذو التاريخ ، سكيناً باردة حادة انغرزت في أحشائي . ولم أدفع الباب وانحرف مختبئة خلفه ، إلا ردة فعل غير معقولة لألمي . لم أكن مروّعة بقدر ما كنت متألمة ، ارتجف بوهن ولا أسمع غير الأصداء . وكان يضرب على الباب ويهتف بأشياء لا أعيها تماماً . لم أجد ، تلك اللحظات ، أية قوة في جسدي تمكنني من الفرار ،

twitter @baghdad_library

وبقيت أنظر بغباء إلى الورقة البيضاء المدعوكة تحت أقدامنا . إلا أنني لم أكن من السوء آنذاك بحيث يغمى عليّ . لن يلبث أن يمضي . لن يجرؤ على الدخول عنوة . لن يجرؤ إلا أن يمضي . انتبهت على الباب ما تزال مفتوحة فجمعت آخر قواي ودفعتها دفعة قوية وانزلت المزلاج ثم ارتكزت عليها بظهري حافقة القلب . عاود ضرباته المجنونة بعنف. كنت أمسك بيد سناء الحارة وأذني يطرقها صوته الأجش المخنوق. ثم اهتزت الباب هزة قوية أثر ما بدا لي رفسة من رجله . بدأتُ عند ذاك أحس بثقل مفاجيء في تنفسي . كأن حجراً ثقيلاً رهيباً حط على صدري . أخذت ضربات قلبي تبطيء وتبطيء والصوت المخدوش يقطع أنفاسي . كنت أتهاوى بسرعة وأنا واقفة أستند على الباب المسدود وأنظر إلى السماء . أنظر إلى شق السماء ، طريق السماء المضيء ، يبين لي بعيداً بين الحيطان السامقة ،وقلبي تتناقص ضرباته وأنا أضغط على يد سناء واتهاوى وأتهاوى ...

... كانت معه في السيارة المنطلقة بجنون على الطريق الملتوي المحاط من الطرفين بأشجار البرتقال ، ورائحة القداح تملأ أنفها وروحها وهي تهز رأسها مع الأغنية العاطفية المنبعثة برقة من الراديو . حدثها ضاحكاً ولم تسمعه ، فأخذ يهتف ويهتف وهي لا تسمعه . فتحتْ نافذة السيارة فهاجمها الهواء الربيعي الدافيء وتطاير شعرها حول وجهها . كانت سكرى برائحة الحياة التي تحملها نسمات القداح المعطرة . نسيت ساعات الصباح المزعجة في بيت أختها مليحة وصراخ الأطفال وتصرفات الأب الخرقاء وشكاوى أمها ؛ ولم تتصور الخلاص يأتي بمثل هذه السهولة . همست في أذن عدنان تشكو له ضجرها وطلبت منه أن يذهبا إلى بستان أبيه على نهر ديالي . كان اليوم جمعة ، والشمس تغني في سماء زرقاء تهلهل ، حينما انطلقا خارجين من البيت خلسة . وسار هكذا بجنون يقطع الشوارع الضيقة والناس يتقافزون حوله حتى صارا في أطراف بعقوبة . وفي الطريق الحلوي ذي الحواشي الخضراء بدأت الأغنية ورائحة القداح والهواء المعطر . أسكرتها كل هذه الأشياء مجتمعة ،فلم تعد تسمع كلماته وكانت اجاباتها ضحكات مرحة تتبعها ضحكات أخرى . هذا هو ربيعها الثاني في بعقوبة . جاءتها مرة قبل سنوات ولم تلبث فيها غير أيام معدودة بقيت متألقة في نفسها مشبعة برائحة القداح . وها هي تعود إليها ثانية لتمكث فيها بعد أن نُقلت إليها . لم تتصور

أي شيء قبل مجيئها هي وأمها ذات مساء حزين من ايلول السابق إلى بيت أختها . كانت تعلم بغموض أن المنغصات كثيرة هناك ، لكنها لم تتعب فكرها بتقصي عناصرها ودرجاتها . اتفقت مع أمها وأخيها بأن هذا هو الحل الوحيد لهذه السنة الدراسية ، وتمنوا أن يكون حلاً وقتياً . وعدها أخوها بأن يكلم شخصاً ذا نفوذ يعرفه في كركوك، كي يتوسط لنقلها إلى بغداد . أغلق هو الراديو ، فالتفتت إليه فعاد يفتحه مقهقهاً . كان شاباً مكتمل النضوج أنهى السابعة عشرة من عمره قبل مدة قصيرة ، طويلاً بشارب وشعر أسود كثيف وعينين سوداوين حادتين . ولأنه كان مزهوباً في البيت ، يخشاه ابوه على نحو ما وأمه وأخوته ؛ ولأنه كان ذا افكار غير واضحة يريد أن يقلب بها كل شيء ، مالت إليه وأعجبها أن تكون خالته وأن تستطيع أن تتذكر طفولته وصباه وأن تسترسل معه في أحاديث ودية صميمية . أمسك بها من شعرها المتطاير وعابثها فقرصت يده بلطف ضاحكة . كانت الأشجار تندفع على الجانبين كطابور من المجانين لا ينقطع له آخر ، ولم تكن تخشى شيئاً . تعودت سياقته بعد كل تلك النزهات والرحلات الخاطفة إلى بغداد . يسمعان بخبر فيلم جديد في احدى سينمات بغداد ، فينفلتان من الطوق العائلي بخفة ويستقلان السيارة طائرين مع الريح . ثم يعودان بعد نزول الظلام ، ولا تزعجهما كثيراً كلمة أو كلمتان من أختها أو أبيه . كانا يخشيانه في أعماقهما ، ولطالما ساءلت نفسها عن السبب . أهي علاقاته الحزبية أم مستقبله أم عنفه اللامحدود ؟ وكانا يكتفيان بنكتة منه، حينما يشكوان من مصروف البنزين المرتفع. لا داعي لطبق واحد من أطباق الطماطة التي ترد إلى علوة أبيه ! استدار بالسيارة استدارة حادة فترامت على جهة وصاحت مذعورة وكان يغني . دخلا ، تحت أشعة الشمس البراقة ، طريقاً ترابياً ضيقاً فثار وراءهما الغبار وتقافزت بهما المقاعد . انتبهت إلى شخصه المتمرد القلق اول وصولها . كانت العائلة كلها في كفة ، وهو بمفرده في الكفة الأخرى . أخبرتها أمه ، أختها ، بأنه ترك المدرسة قبل سنة أو سنتين حين كان في الصف الثاني المتوسط . لم يكن يبدو عاجزاً عن متابعة دراسته ، إلا أنه توقف عدة أيام بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم فعاد إلى البيت ولم يفكر بمدرسته بعد ذلك . اشتغل مع أبيه في العلوة ،

twitter @baghdad_library

وأخذ يقضي وقته متنقلاً في السيارة حيناً وجالساً في المقاهي أو حاضراً بعض الاجتماعات الغامضة ، أحياناً أخرى . ثم أخبرتها أن لديه مسدساً يخفيه في مكان ما وأن باستطاعته أن يجلب رشاشة إذا اقتضت الحال . ناقشته مرة في بعض الشؤون السياسية ، فلم تقدر أن تحكم بأن أفكاره طفولية . أحنقها ذلك فجرّت شعره بشدة معابثة دون أن تدري الدافع لذلك . ابتسم لها بلطف مبالغ فيه ، وتوثقت صداقتهما . بدا لها معجباً بجمالها ، يفرحه أن يسير معها في طرقات بعقوبة ، و يذهب بها إلى المدرسة أو السوق أو السينما أو إلى المحطة حيث يشاهدان القطار متجهاً ، عند الغروب ، إلى بغداد . وكان ، في بيتهم ، شديداًشرساً مع اخوته وأخواته ؛ يضربهم لغير سبب أحياناً ويحتقر أمه ولا يعترف لأبيه بأية سلطة عليه . ولم تره ، بمرور الزمن ، يهتم إلا بأمرها ، فأسعدها ذلك كثيراً وأثار غرورها . شعرت بسطوتها على هذا المخلوق العنيف ، وكانت تسر بمعاتبته وتقف في طريقه أحياناً حين يهم بضرب احدى أخواته الصغيرات . استنجدت بها أمه مرة فركضت نازلة من غرفتها وأسرعت تمسك ذراعه بقوة . وقف محمر الوجه كالوحش المتوفز ، ينظر إليها بعينين ملتهبتين . كانت أخته الصغيرة تبكي تحت قدميه . التفت إلى يدها الممسكة بذراعه ، ثم انصرف دون أن يقول شيئاً . رجاها بعد ذلك ألا تأتي إليه وهو في تلك الحال . قال ، وهو يعض شفته ، أنه لا يعرف ماذا يمكن أن يفعل أحياناً ؛ وأنها يكفيها أن تناديه من بعيد . عابثته بجذب شعره الذي يعنى به . رد عليها مداعباً هو الآخر ، لأول مرة . لوى ذراعها . أحست بيده قوية خشنة حارة فصرخت متأوهة . كانا يشتركان ، في المطبخ، في اعداد الشاي للعائلة عصر أحد الأيام بعد شهرين أو ثلاثة من قدومهم . أوقف السيارة أمام باب كبير في نهاية الطريق وقفز منها فتبعته وساعدته في فتح الباب ثم اندفعا راكضين داخل البستان . كانت الشمس حارة والهواء رطباً منعشاً والساعة جاوزت الحادية عشرة بقليل . تراكضت قبله على الممر الترابي ، شاعرة بجسمها خفيفاً على غير العادة ؛ كأنها تهم بالطيران ، تمس بخفة رؤوس الأشجار المهتزة مع الريح وتملأ كيانها بالشمس والحياة . لم تكن تجد ، آنذاك حرجاً منه أو ضيقاً . كان قريباً إلى قلبها وكانت في غفلة عن نفسها . لم تتساءل كثيراً ولم تحاكم وضعها . كانت تتصرف وكأنها بمنجى ؛ ولذلك لم تر معنى خاصاً في تماس جسديهما المتكرر أو في ودهما المتبادل الزائد أو في اعجابه المفرط بها . هنالك من موانع القربى

والتقاليد والعمر والاحترام ، الكثير . كانت بمنجي ، غير مكترثة بامارات الشهوة المختبئة تحت الأيدي والكلمات والنظرات . وتقافزت ، دون حذر ، نحو دغل غير كثيف . كانت ترتدي بلوزاً ازرق فاتحاً وتنورة رمادية تناولتهما كيفما اتفق ضيقة قصيرة ، لاتتذكر جيداً ؛ وتركت شعرها خصلات تترامى على الكتفين ، أشقر يميل إلى الصفرة . كانت تركض وتقفز ، ثم تعاود الركض وتقفز بعض السواقي الضيقة وهي لا تروم شيئاً غير أن تملأ صدرها بالهواء النقي المعطر وتضرب بلا غاية أوراق الشجر بيدها ، وكان يتبعها صامتاً . وحين توقفت ، تعبى ، تحت شجرة برتقال مليئة بأزهار القداح البيضاء ، رأته يقبل نحوها مسرعاً . كان محمر الوجه ينزل شعره الأسود على جبينه وهو يحمل سترته على ذراعه ؛ ولم تلمح في هيئته ما ينم عن شيء غير مألوف فيه . ضحكت بين أنفاسها المتلاحقة ، فداعبها برمي سترته عليها . أرادت أن تبعدها قبل أن تصلها ، فلم تستطع ، وغطت السترة وجهها ثم أحست بذراعيه يطوقانها . أزاحت القماش بسرعة عنها فرأت وجهه قريباً من وجهها . أنفاسه الحارة كالشمس تلفح بشرتها . نظرت إليه ، لاهثة متسائلة ، ثم نفخت في وجهه تعابثه . كانت خالية الفؤاد حقاً . عصرها إلى جسمه . صرخت به ونفخت في وجهه معاودة عبثها مرة أخرى . ثم استطال الزمن واستطال . كانا متلاصقين . شعرت بصدرها مضغوطاً على صدره وأنفاسها المتلاحقة تدفع نهديها بشدة نحوه . طلبت منه ، أخيراً ، أن يتركها . كانت منهوكة ، مثارة الجسم والعواطف . رجته ألا يزيد من تعبها وأن يتركها . كان يشدها إليه بقوة ويحاول أن يحتوي جسدها بفخذيه العريضتين ؛ وكانت في شك من كل شيء ، مترددة في تقدير حقيقة الموقف . وأراد أن يقبلها فأبعدت فمها عنه ؛ وأحست حالاً ، في موضع آخر من جسمها ، بحركة منه تشير إلى حالة غريزته وما يضمره لها . دهشت قليلاً ولم ترتعب . خطر لها أن كلمة أخرى منها ستعيده إلى صوابه. ثم أرادت أن تتخلص منه وأن تقطع ذلك التيار الرهيب الذي يسري بينهما فدفعته عنها . دفعته برخاوة، مشمئزة بعض الشيء من الفكرة التي خطرت لها . أرادت مقاومتها من التصاقهما ومن احتكاكه بأسفل بطنها . كانت أطرافها متشنجة وقلبها المتعب يخفق بقوة لم تعهدها . دار رأسها لحظة وهي تحدقه، عن قرب ، في عينيه المتوهجتين وفي فتحتي أنفه الواسعتين وتشم رائحة العرق في جسمه الحار . أمسكت بكتفيه تريد أن تعاود محاولتها للخلاص من قبضته ، فشعرت بجسدها يُهصر بعنف

twitter @baghdad_library

شديد وبفمه يلتصق بفمها . ارتجفت ، ارتجفت ؛ ثم زفرت وتلقفت نسمة هواء تمنع عنها الاختناق . كانت ، لحظتئذٍ ، في كامل وعيها بما يجري لها . تسلسلت الأحداث سريعاً في ذهنها ، فباغتها هلع زاد من ارتجافها . صرخت بشيء ما لا تتذكره ، ثم ترامت فجأة تحت ثقله . كان ، في ارتكازه عليها ، قد سحب احدى رجليها وهو يضمها إليه باستمرار . لم تشعر بألم السقطة على الأرض . قدر شعورها بعري فخذيها وبمهانتها وضعتها . أنها تُعامل كبهيمة ملوثة بالبراز . تماكتها تلك الرغبة الجارفة التي لن تنساها بالبكاء ؛ أن تبكي قهراً وحنقاً وذلاً . كان يرفع ملابسها فضمت ساقيها إلى بعضهما ثم وجهت إلى رأسه المدفون في رقبتها ، ضربة من قبضة يدها . تراجع قليلاً . رأته ، رأته . وجه مجنون يقتتل طلباً للفريسة . صفعها ثم لطمها في حنكها . تراخى جسمها ، تراخت لحظات دائخة بتأثير ضربته . انفتحت ساقاها بسهولة وأنزل ما تبقى من ثيابها وتَركت لها ثانية واحدة من الشعور العميق ، العميق جداً ، بما يحدث لها ، كانت ، بلا أمل ، على مشارف الهاوية ، أمام الانتهاء . تركزت حياتها كلها في هنيهة اندمج فيها عريها وبكارتها والدوار الوحشي في داخلها ، فاستسلمت . ثم واتاها الرعب متأخراً ، الرعب من كل شيء ؛ من الظلال البعيدة ومن التراب الحار تحت عجزها ومن الشمس ومن السكين تشق أحشاءها ومن الزفرات المتشنجة ومن الدماء التي تصبغ اللحم المرتعش . صرخت وصرخت وصرخت . كانت تصرخ كي تبقي على حياتها ، كي لا تجن ؛ وكان مذهولاً أمامها . يلهث منحنياً ويحاول أن يخفي عورته الملوثة . لكنها لم تره، لم تعد تراه . خرج من عالمها دفعة واحدة إلى الأبد . وكانت على الأرض المشبعة بدمائها ، تصرخ يابسة العينين ، تحت شمس الربيع وبين أشجار البرتقال الخضراء ... وأتهاوى وأتهاوى أيضاً حتى أصل القاع ، فتأتي خفقة القلب التي تفصل الحياة عن الموت . نبضة صغيرة تتبعها دفقة من الدماء تتسرب إلى الشرايين فأعود ، مرة أخرى ، إلى هذه الدنيا المظلمة . كان زقاق السماء المتلامع بحنان فوق رأسي هو الذي أرجع إلى نفسي ترتيب المكان والزمان . تنفست كيلا أختنق . انتبهت إلى لمسة الأنامل الرفيقة . كانت سناء ، بعينيها السوداوين المدورتين وفمها المزموم ، تستعطفني ؛ وكان الهمس المجنون المتقطع والطرقات الخافتة ، تخيفها أكثر مني .

رأيت الورقة المدعوكة ، كالشراع ، على أرض المجاز السوداء . أسرعتُ إليها سناء فجلبتها لي . كنا على اتفاق في العذاب والخوف والهرب . وحين رأيتها تسير على أطراف أصابعها منخفضة الرأس كأنها تتحاشى سهاماً مسمومة تُطاق عليها ، أدركت أن ألمها المجاني ، فاق ألمي . أمسكت بها ، في ظلمة المجاز ، وضممتها إلى قلبي .

وعلى السرير ، بعد ذلك ، جلست غير منصتة إلى الضجة حولي في الغرفة الحارة ، وغير مجيبة على أسئلة أمي وعمة مدحت ، استجمع شتات نفسي وأفكاري . لقد أفرزتُ اعتباطاً ووُضعتُ في مكان ما بين فكي آلة الهرس . كنت ارتجف قليلاً ، شاعرة بالعرق البارد يتجمع على جبيني وقحف رأسي وصدري . لم يعد من الغرور والجمال والقحة ، أي جدوى . كانت الشمس قد غربت فاستلقيت على الفراش والورقة مطوية في يدي . لست ضحية كما تقتضي التقاليد ؛ ولا أنا ذبيحة مجهولة على جانب الطريق ، ولا ريشة ، كما يقولون ، في مهب الريح . أني أحس بأني أجمع طرفاً من كل معنى من هذه المعاني. أنا ضائعة بين تعاسات وقذارات يجب ألا تُعلن . ولست أشكو ، لأني لا يجب أن أشكو . وأفضل ما أقوله لنفسي : أن ما تبقى مني كان يمكن أن يُدمر أيضاً . وهكذا تعلمت خلال وقت قصير جداً ، أن أفكر بما تبقى لي وأن أعنى به ، ولذلك شطبت على بعض العناوين الكبيرة في حياتي وبدأت أجرجر أطرافي المهشمة كي ألحق بذيل القافلة وأمكث هناك . بين مثلومي النفس ومطعوني القلب ، يمكن أن تعيش دون كبرياء أو مجد . ليس بينهم أي معنى لطموح البشر وللمستقبل . هنالك ، تجد السعادات الصغيرة الرائعة أحياناً .

كانوا مجتمعين حولي ، مديحة وابنتاها وخالتي أم مدحت وأمي ، يسألونني في غبش الغرفة ، عن الورقة المطوية بين أصابعي وعن الزائر المجهول وعن الشاي الذي لم أشربه بعد . جلست أواجههم وأمسح العرق ، ثم حاولت أن أبتسم .

قبيل سفرتنا إلى بعقوبة ، اعتدت أن أحس أني بمعزل عن العالم ؛ وذلك يعني أن ما يخص الناس ويحدد مصائرهم وأسباب معيشتهم ، لا يمكن أن يؤثر على المستقبل الذي ضمنته لنفسي . لعل الباعث على هذا الشعور مجهول الأساس أو لا يمكن معرفته

twitter @baghdad_library

بسهولة ؛ ولكني ، اعتماداً على شكلي وراتبي ، كنت أجد من حقي أن أثق بحصولي على شاب موسر مثقف ذي مركز ، كزوج . لقد قيل لنا ، من أفواه غامضة أحياناً ، ان الزواج هو كل شيء في حياة الفتاة هنا ، كخطة حياتية وكغاية . انه يحوي الجنس المشروع والأطفال ، ثم الأشياء الجميلة الأخرى ؛ وكذلك الرجل . ولقد أحسنوا صنعاً حين كتموا كل الأشياء القبيحة التي ترافق هذه المشاريع . وقبل هذا ، تركوا لنا أن نتمتع بالأحلام التي تتطاير عادة حول هذه المواضيع . وتركوا لنا أن نأمل دائماً ؛ إذ لا حياة بلا أمل . كذب فاضح . ما أكثر الحيوات التي تخلو من الأمل ! وقد يبدو الأمر غير ممكن .. أن تعيش بلا أمل ؛ إلا أن العادة والزمن كفيلان بكل شيء . وأنا معتمدة – فيما يخصني – عليهما وعلى تنظيم أخذت به نفسي من أجل أن أصل يوماً ما إلى الحالة النفسية والفكرية التي لن تؤثر عليّ فيها إلا الأمور النادرة الوقوع ، الخارجة عن التبويب الذي كنت أنوي وضعه قبل ذلك .

ولقد بدأت ، خلال ساعات عزلتي الطويلة التي سبقت عودتنا من بعقوبة ، بتقدير الضرر الذي لحقني والضرر الذي كان من الممكن أن يلحقني ؛ فانتهيت أولاً إلى أن بقائي على قيد الحياة كان بمحض صدفة . كذلك كان الكتمان الذي خنق الحادثة وأحالها إلى طارىء غامض وقع لي ولا يعرف أحد كنهه أو فحواه . ولولا الحس الأنثوي الذي تملكه والدتي تجاهي ، ولولا بعض الأمارات التي لم أستطع اخفاءها ، لأمكن أن تجهل كل شيء ولا تلم حتى بالصورة المشوشة التي كانت في ذهنها عما جرى . أنها لا تعرف سوى أن ابنتها قد أصيبت بشيء ما . مرض أو عاهة أوخبل ، لا تستطيع التأكيد .

ثم اني ، ثانياً ، أفلتُ من مصير علاقة الذكر بالأنثى ؛ وطرت فرحاً وبكيت طويلاً حين مجيء العادة الشهرية بموعدها ونزول قطرات الدم الأولى . يا للدم من مؤشر متطرف في شؤمه وتفاؤله !

وكان ذلك فاصلاً حقيقياً لما انتهى ولما يجب أن أبدأ به .

هيأت نفسي ووالدتي لعملية فرار غير متوقعة منه ؛ فرجوت مديرة المدرسة أن تساعدني باستلام دفاتر الامتحان والدرجات مني قبل غيري من المدرسات ، وأن

تتركني أعود إلى بغداد بتاريخ مبكر. وهكذا ، بعد ظهر أحد الأيام من أواخر مايس ، تركنا بعقوبة خلفنا . كان الهواء بارداً رطباً يأتي من البساتين مثقلاً برائحتها ؛ وكنت أريد أن أترك كل شيء في هذه المدينة المنحوسة .

لم أنظر ورائي ونحن نجتاز الجسر لنواجه الأفق والطريق الأسود الملتوي الممتد أمامنا . كان الموت هناك والذل والعار ؛ ولم يخطر لي اني بحاجة إلى كل هذه الأشياء . ولكني مسحت دمعة متحيرة ونحن نبتعد وتختفي الخطوط الخضراء خلفنا . تذكرت الاغاني والملامح والاجواء والقليل القليل الذي بقي لي من حياتي .

ووصلنا بغداد عصراً ؛ وصلنا تلك المحلة القديمة باب الشيخ والبيوت العتيقة والأقرباء الودودين. لم نكن قد زرناهم منذ أشهر ، إلا أن الحب لم يكن مفقوداً بيننا . وخلال جلسة الشاي في الايوان،احسست كأني مغمورة بمثل دفء الشمس بعد برد الشتاء . كنت ، بشكل ما ، في مأمن . أخبروني عن مرض ابنهم عبد الكريم ، فقمت معهم ألقاه وأحادثه وأتعاطف معه . وعلى المخدة ، في الغرفة المفتوحة النوافذ ، تركت عيناي ، قبيل النوم ، أثراً من دموع ذرفتها لأسباب أخرى . لن ألقى الموت ، على الأقل ، هنا . وخلال نزولي من السطح فجر أحد الأيام بعد ذلك ، خطر لي أنني إذا وضعت في حسابي الا حق لي في أي شيء ، وأنه كان عليّ أن أموت قبل ذلك ، فان نسمة الهواء البليلة التي أشمها وأنا أقف هكذا بمفردي وسط الدار الخالية ، هي بحد ذاتها سعادة صغيرة من نوع خاص . سعادة المتخلفين عن القافلة ، المتروكين لأنفسهم . أولئك الذين يرون الشمس حقاً والأزهار والطيور والقلب الرحيم .

وكذا كان ، من تلك السعادات الصغيرة ، حديث هذه البنية الساحرة سناء معي ، صباح كل يوم ونحن نتناول فطورنا الجميل ، جبن وخبز وشاي ونعناع ، تحت شجرة الزيتون . وساعات الكتب التي أقرأها في الغرفة الهادئة ، دون رقيب عليّ . واجتماع العائلة عصراً في الايوان لشرب الشاي ، وأنا بينهم ، ملحوظة أو غير ملحوظة ، لا أدري ، ولكن مفتوحة النفس سعيدتها . ثم التطلع المستديم اللامنقطع إلى السماء والنجوم فوق رأسي ، في السطح الواسع المتلاعب الهواء ، على الفراش البارد . والاستماع إلى أحاديث العجائز المبطنة ، والتظاهر بعدم الاكتراث . حتى تلك المهاجمات الطفولية

twitter @baghdad_library

من قبل عمة مدحت ، لم تكن لتضير في شيء . في ضحى رائع ، بعد ورود أمر النقل بأيام ، كنا أمي وهي وأنا ، في غرفتهم التي لم تصلها أشعة الشمس بعد . كانت قد أفطرت وأرسلت جدتي أم حسن في مهمة غامضة إلى المطبخ ، وكنت أقرأ مضطجعة على السرير ، حينما سمعتها تكلم أمي :

– ام مصطفى ، أگول ، بعگوبة غالية ؟ يعني المخضر ، الحواش ، المعيشة ؟ مثل بغداد عجبا ؟

– لويش دتصير مثل بغداد ؟ مصخمة وملطمة آخر . هي ولاية لو گبر . تريديها تصير غالية هم . هي أكو بيها شي مال أوادم ؟

– اللهُ أكبر . شلون گاعدة بيها بنتچ ام عدنان لعد ؟

– نصيب عيني . ليش انت ما تعرفين ؟

– لا والله ما اعرف . الله هو أعلم العالمين .

فترة سكون . انقطعت عن القراءة . عادت عمة مدحت تتساءل :

- اگول ، ما چان أحسن لكم لو باقين هناك ؟ شكو عندكم أبغداد الگشرة هاي ! يومية طاك طيك . ما تعرفين شوكت تعيط العيطة . چان تبقون أبعگوبة مرتاحين ، ماكو واحد يگول لكم على عينكم حاجب . تمام ؟

صمت طويل . أنزلت كتابي . سمعت واللتي كأنها تحدث نفسها :

- أيه . اليدري يدري ، والما يدري گبضة عدس .

فحدجتها عمة مدحت بنظرة حادة وهمهمت :

- اى يعني ، أگول . لازم اكو شي .

- لويش لازم أكو شي ؟ وحدة من البنات حظها أسود ، أحنا شنو صوچنا عيني ؟ مكتوب علينا يعني نعيش عيشة السگم هذيچي طول عمرنا ؟ يعني فوك حگة دگة ؟ مو الله ما يقبل . واحد يخلي گدامه ، أكو جنة ونار .

- اللهُ اكبر . اللهُ أكبر . اللهم أدفع عنا ... ما أدري شلون الآية . شنو القضية أم مصطفى ؟ أكو شي ؟ شنو هوه ؟ احچي عيني .

نال مني لحظة دوار في الرأس فساعتدلت قاعدة في الفراش . نظرتا إليّ ببعض

الدهشة . لم يعد حديثهما ممتعاً . قلت :

– عمة ، أمر نقلي لبغداد صدر وانتهى كل شي . لويش بعد هالحچي والسؤال والجواب ؟ قابل أحنا من أهل بعگوبة خاطر نسكن بيها ؟ شكو عدنا هناك ؟ أحنا من أهل بغداد وكل گرايبنا هنا ولازم نرجع لهنا .

– اى عيني منيرة . محصنة . شلون حلو تحچي دادة . بس هذا رجل خالتچ أبو مدحت، رجّال ما عنده شي . خو انتو تعرفون . لا فلس لا بارة . وهذوله هم ولد خالتچ ، رياچيل؛ والناس ، غضب الله عليهم، ما يسكتون عيني . وهاي باب الشيخ تره مو مثل باب الشيخ مال گبل ، كل أهلها وأشرافها طلعوا عيني منها . بقوا بيها هالما يخافون من ربهم . يحچون بالصدك وبالچذب . وانتو ، يا عيني ، شكو عندكم هنا ؟ شمضيعين ؟

أردت ، لغير سبب ربما أو لكثرة الأسباب ، أن أداعبها :

– يعني ، عمة ، إذا أحنا مضيعين شي ، نگدر نگليه أباب الشيخ ؟

فرفعت ذراعها وأنزلتها وهي تهتف :

– يبوه ، على حظ اللي يدور عيشة أباب الشيخ ! يبره عليه والله يساعده ألف نوبة .

تصدت لها أمي ببعض الشراسة المفاجئة :

– لو يش هالحچي صفية ؟ ما يصير نگعد چم يوم ابيت أختي ؟ شنو هالحچي منچ ؟ أشو انتي هواية فايته بيها ؟ القاضي راضي ، انت شعليچ يا عيني ؟

قمت خارجة وعمة مدحت ما تزال ساكنة تنظر متفحصة في وجه أمي وهي بين الشك واليقين في تقدير معنى كلماتها . إنقلب الجدال إلى تحقيق للنفاذ إلى الماضي وهو ما أكرهه . لم تخفني شخصية عمة مدحت ، بل غريزتها . أنها تنثر علينا الحقائق المرة مثل المطر الملوث . الرجال والأنثى الخالدة ! أليس غريباً هذا المقدار الكبير من الصحة في أقوالها ؟

ولكن من شروط حياتي الضيقة التي أخطط لها أن أعتبر كلمات هذه العجوز ، التي لم أحبها ، هراء يجب أن تأخذه الريح .

شعرت أول ما رأيت ابني خالتي أنهما شابان ناضجان لا ينفع أن نتذكر الماضي

twitter @baghdad_library

كي نحيلهما إلى صبيين أحمقين . لقد كبرنا وتغيرت بالضرورة مستويات العلاقة بيننا . وهذه الحقيقة أدركتها جيداً ؛ ولم أرد أن أفسر ، بعد ذلك ، أي شيء . لا النظرات ذات المعنى ولا الابتسامات ولا الكلمات الخاصة ولا الانعطاف الظاهر منه . كنت ناقهة من مرض ما برح يتخايل لي مرة أخرى ، وكنت أستطيع أن أتحمل عدم التفسير فترة من الزمن . إلا أن اقترابه مني وصل حد التماس والالتصاق الجسدي ، المتعمد وغير المتعمد ، في ذهابنا معاً كل صباح إلى العمل وفي أثناء حياتنا اليومية الضيقة في البيت الكبير . وكان يجب أن أفعل أمرين متتالين : أن أصارح نفسي بحقيقة ما يجري وأن أصمم شيئاً بعد ذلك . ولم أفعل أياً منهما . وكان جذلي لمرافقته لي في ذهابي إلى المدرسة ينمسح سريعاً بقلق أسود يطفيء كل شيء . كنت مغلولة بطريقة ما ، ولم أكن أريد أن أتصرف . ألستُ فتاة هذا البلد ، المعلقة دوماً بين الموت والعهر ؟

ثم كشف لي عن وجهه ووجهي ؛ ووضعني ، على حينِ غرة ، عارية أمام المرآة . كانت البداية في سيارة الاجرة التي اندسسنا فيها متعجلينِ قرب السائق . قال أنه قطع لسناء وعداً بأن يذهب بها عصر اليوم إلى السينما . كان يهمس بأذني ، في ذلك الصباح الخريفي الجميل ، لأول مرة . ولم أجبه الا بابتسامة حرج ، أو هكذا أردت ، فوضع ذراعه حول المقعد خلفي ، كأنه يريد أن يحميني من السقوط . كان يمسني بأنامله ، في كتفي اليمنى ، وبساقه في أعلى الركبة اليسرى . شممت رائحة دواء الأسنان المعتادة وشعرت بدغدغة بسيطة في أذني التي يهمس فيها . لم يكن لدي مجال الالتفات إليه فاستوضحت منه عن علاقتي بهذا الأمر وأنا لا أزال محرجة ابتسم . قال أن سناء رفضت الدعوة بدوني ؛ ولذلك فان تحقيق المشروع متوقف عليّ الآن . شعرت ألا بأس في هذه الدعوة المغلفة للخروج معه ، ولم يخطر لي أن أرفض حالاً . كنت أود الذهاب للترويح عن نفسي أولاً ، ثم اني لم أجد ، في الوقت المناسب ، صيغة الرفض الملائمة لأقولها له ، ثانياً . كذلك لم أدرك بشكل خاص تلك العلاقة الغامضة بين كتفينا المتلامسين وذهابنا إلى السينما ، وبين ابتسامات خالتي ومديحة وأبي مدحت . وخنقت هاجساً بأني أكتم عن نفسي أموراً أفهمها أو يجب أن أفهمها ؛ وتصورت أني أستعجل الخوف بعض الشيء وأتصيده في الأمور التافهة اليسيرة . إلا أنه حين مال عليّ قليلاً في ظلمة السينما

الخفيفة يسالني عن رايي في قضية صديق يريد ان يفاتح احدى الفتيات برغبته بالزواج منها وهو حائر بين ان يكلم اهلها او يكلمها شخصيا ، علمت اني كان يجب ان ارفض دعوته . غاض دمي رعباً . يا الهي ، أي رعب تملكني من هذه الكلمات المهموسة بكل رقة ! بقيت واجمة ، أتطلع إلى الألوان تتحرك على الشاشة البعيدة . خيل إليّ أنه كان ملتفتاً نحوي . لعله ينتظر جواباً ، ولكن ، أي جواب ؟ كلمت سناء متشاغلة عنه . كانت تجلس في المقعد الأمامي من المقصورة وقد اندمجت في حوادث الفيلم . أجابتني بسرعة ورجعت إلى اندماجها الأول . شعرت به يقرّب كرسيه مني ؛ ثم يعاود الالحاح. لم يكن هناك مجال للتهرب من أسئلته ذات المظهر البريء . أجبته لماذا يتصورني قادرة على ابداء رأي سديد في مثل هذه الشؤون ؟

عاقلة ، متزنة ، مثقفة . ذات نظرة مختلفة . قلت له ، وأنا أبلل شفتيّ ، ان من الأحسن لصديقه أن يتبع ما تفرضه التقاليد ، ويتقدم إلى أهلها بطلب يدها . ثم ندمت . لعلي أستطيع الفرار منه بمفردي ، أما أن أجد معي والدتي أو أخي ، فذلك ما لا يُطاق حتى التفكير فيه . أسرعت أكلمه . إلا إذا كانت الفتاة واسعة الأفق ، حديثة الأفكار ومجربة ؛ يمكنه عندئذٍ أن يتوجه إليها شخصياً وأن ينتظر جوابها وأن يفهمها . كنت أتحدث هامسة مثله ، ومن زاوية فمي اليابس وأنا نصف ملتفتة إليه . ولم يهدأ قلبي ولا ضرباته المجنونة ولم يفارقني هاجس الرعب ؛ وحمدت الله لأن كل ذلك يحدث في هذا المكان وعلى هذه الأضواء الخافتة المتراقصة . ثم رأيته بغموض يتحرك وأحسست بيده تمسك ذراعي الموضوعة على مسند الكرسي . سيطرت عليّ الحيرة لحظات . كنت متحيرة مرتبكة أكثر من كوني مضطربة محرجة . ماذا يجب أن أفعل الآن ؟ هل أتظاهر ، ككل الفتيات ، بأني لا أحس شيئاً ؟ أم استوضح منه أو التفت إليه أو أسحب نفسي أو ... لكنه عاد يهمس متسائلاً : أأنا ، على العموم ، ضد الزواج ؟ التفت ناحيته . كنت مندهشة بعض الشيء . بدا لي وسيماً ؛ ينعكس الضوء في عينيه وشعره، وعلى فمه ابتسامة تجذب النظر . أدهشني أن هذا الشاب الأنيق يتقرب إلي ويحاورني بمثل ذلك اللطف ! كان وجهه ملوناً مضيئاً سعيداً . لم أرد أن أجيب ، فاستدرت عنه . ضغط على ذراعي برفق . همست أن لا علاقة لي بالموضوع . لماذا ؟

twitter @baghdad_library

كنت قد هدأت قليلاً خلال لعبة الكلمات هذه فلم أسرع بالجواب . لبثت أتطلع إلى الشاشة وأنا أحس بضغط يده وبنظراته موجهة إليّ . لماذا يعتقد أن لي ، من دون الناس أجمعين ، علاقة بالزواج ؟ ولكن القضية ليست أن تكون لكِ علاقة بالزواج أم لا . القضية هي أأنتِ ضده أم معه ؟ هل يهمكِ أن يتزاوج البشر وأن يتحابوا وأن ينجبوا ؟

ولم يبق لي أن أجيب بالنفي ، خاصة وأن الإيجاب لم يعن شيئاً بنظري . قال انه معي في هذا الموقف وأنه يؤيدني من كل قلبه . ضحكت فجأة . شعرت بأية طريقة ملتوية يسوق عروضه ويقدمها لي دون أن يبدو أنه يتقصد شيئاً أو يتعمده . تضاحك معي فالتفتت إلينا سناء تمطرنا بأسئلتها . سحبتُ ذراعي من قبضته ففكها وتراجع فعاد وضعنا طبيعياً .

أخذت عدة أنفاس عميقة . لعلي أخطأت حين ضحكت ، أنا المدماة . ان الضحك يترك لهذا المتغزل الجاد أن يتصور أن فريسته تفتش عن الشباك لترميها على نفسها ! وهو ، يا ربي ، أول علامات الاستسلام والرضى .

انزويت صامتة في كرسيّ ، بعيداً عنه قدر المسطاع . لم أكن حزينة ؛ كنت ، بطبعي ، أقرب إلى تقبل المرح والبهجة المطلقين ؛ إلا أن الصخرة ، التي اخترت أن أستسلم لها ، كانت تشدني إلى القاع وتبعدني عن الدفء وعن الحياة وعن الجنون الطيب . ولم يكن بودي بعد ، أن أترك كل شيء دون حسرة .

تابعنا الفيلم حتى نهايته . لم نتبادل غير بضع كلمات ، وخرجنا مع الجمع الكبير . كان يمسك بي خلال ذلك كلما سنحت له الفرصة . حاولت أن أتجنب ما أمكن هذا التماس معه ؛ أنه يبعث فيّ توجساً وانشداداً في الأعصاب غير مريح . ولم أتعوده رغم تكراره منذ أكثر من شهرين . ضربت وجوهنا نسمات الليل الباردة حال خروجنا إلى الشارع المزدحم . أراد أن نعود بسيارة أجرة فاعترضت لكنه أصر ، فركبنا احدى السيارات الواقفة . لم تترك لنا سناء أن نتكلم في طريق العودة إلى البيت ، وبدا لي راضياً عن ثرثرتها . كنت سعيدة لانتهاء الفيلم والأحاديث ذات المزالق .

وحين وصلنا بداية طريق البيت المظلم ونزلنا ، سمعت ساعة الجامع تدق عدة دقات بطيئة رخيمة . سبقتنا سناء بخطواتها القصيرة السريعة . كان الدرب خافت الضوء تبدو جدرانه متمايلة . قال فجأة بصوت غير مضطرب :

– راح تنطيني جواب ... منيرة ؟

وكان يسير بخطوات وئيدة وهو ملتفت إليّ . تسارعت ، في الحال ، دقات قلبي :

– جوابيش ؟

– يعني ما فهمتِ علويش چنت دا أحچي ... بالسينما ؟

عاد الرعب يختلط مع أنفاسي :

– لاع ، العفو .

– ولا هسة ؟

– يعني شنو مدحت ؟

– يعني ممكن .. تقبلين .. فكرة الزواج .. مني ؟

تلعثم قليلاً وهو يطلق كلماته الأخيرة . كان قلبي يخفق في صدري وفي فمي وفي أطراف قدمي . شعرت بوخزة في مكان ما من رأسي . وسحبت العباءة إليّ أستر بها بعض وجهي . رأيت أننا على مبعدة أمتار من البيت وسناء تقف على عتبته تحت الضوء الشاحب ، تنتظرنا . كانت تبدو بعيدة عنا ، في نهاية الأفق يا إلهي . لو لم أتركها تسبقنا لما أمكنه الكلام .

بقيت أسير صامتة كالمومياء . تعثرت مرتين قبل أن نصل قرب الباب . هتفت سناء تحدثنا عن المجاز الطويل وعن خوفها من العقارب ومن الدخول بمفردها ، ثم أمسكت يدي بقوة . دخلنا ثلاثتنا بسكون . كانوا ينتظروننا بشوق في البيت كأننا غبنا أعواماً . رأيت مدحت يبتسم وهو يسألني بحضور والدته عما إذا كنت جائعة . أجبت بالنفي وكنت مرتجفة الجسم أود أن ألقي بنفسي على الفراش . سألتني والدتي عن سبب تأخرنا فلم أجبها .

جلبوا لي طعاماً خفيفاً وأنا مضطجعة استريح في غرفتنا . أخجلني هذا الاهتمام

twitter @baghdad_library

الزائد وشكرت مديحة عدة مرات . كنت مضعضعة الحواس لغير سبب واضح ولم أشعر برغبة في النوم أو بتبديل ثيابي رغم ما كنت أحسه من ارهاق . قيل لي أن عبد الكريم يسأل عنا . كريم ؟ كريم ؟ هذا الانسان المعذب بتصوراته ، الذي تمرضه الحياة والذي يشبهني ، أيمكن أن أجد عنده كلمة مريحة ، اشارة ، جواباً لسؤال غير مفهوم ؟ قمت أقصد غرفته خالية الذهن ، وليس لدي غير أن آراه . كأن المعجزات تحدث حين ننتظرها !

تذكرت حال امرأة في فيلم رأيته صدفة قبل سنوات . مخلوقة مسكينة من احدى القرى الإيطالية ، حُرمت العطف والاهتمام طوال حياتها ، فلماوجدتهما في شخص مهرج ظريف ، قتله زوجها أمامها . لم أتذكر شيئاً كثيراً من الفيلم ، لا أسمه ولا حتى سحنات أبطاله ؛ حالتها هي فقط بعد مقتل المهرج . انكسر شيء ما في داخلها وبدا عليها أنها انطفأت فجأة ، وأن ما يظهر منها هو نفحات الحياة الأخيرة . ثم تراجعتْ عن مشاركة زوجها في عمله وسقطت مريضة ، وكانت خلال ذلك كله تئن أنات قصيرة ناعمة متباعدة ولكنها مستمرة . انات مختضر ، انات رفض للحياة . تبدأ ساعة استيقاظها وتمتد على مدى النهار والليل . تذكرت حال تلك المرأة ، حينَ وعيت تنهداتي المتكررة أنا الأخرى . أنها تأتي حين أخلد إلى نفسي . لا يهم الزمان أو المكان . في الباص المزدحم وأنا عائدة إلى البيت . خلال اضطجاعي قبيل قيلولة الظهيرة . وحين أحرك الملعقة في قدح الشاي حركات لا نهائية . وفي الليل ، في أوله ومنتصفه وعند الفجر ، تأتيني التنهدات ، تفرج عني بشكل ما . هذا الصوت الأخرس ، ما معناه ؟ أهو حديث الروح ؟

كنت شبحاً فاجأه ضوء النهار ؛ لا أحب وحدتي ولكنها ملجأي الأخير . لأني كنت مطاردة من الجميع ، تضغط على نفسي رؤية امارات ذات معنى في حركاتهم وكلماتهم ونظراتهم . كانوا يسألون سؤالا واحداً تلبسهم ولوّن هيأتهم بلونه . لماذا لا أجيب بالايجاب ، لا أنخرط في سلك المسبحة ، لا أنزل إلى ساحتهم البشرية السوية ، لا أوافق بسرعة وأحيا معهم ؟

وكان هذ أشق عليّ من تلك الأيام المريرة في بعقوبة ؛ حين كنت أنهزم من الظلال وأبحث عن الظلمة تحت الشمس وأناور وأحاور كي أبقى على قيد الحياة زمناً آخر .

كنت موقنة آنذاك أن حادثة البستان لن تتركني أعيش فترة طويلة وأن شيئا ما سيقضي عليّ بغتة . تبدل جو المنزل الكبير المليء بالفوضى وتركز في دائرة صغيرة لا تتعدى تجميع الأسباب لزيادة الحقد الذي توجه نحوي . لم يبن لي بوضوح كيف استطاع أبنهم ذاك أن يقنعهم بأني صرت عدوته اللدودة بين ليلة وضحاها ؛ فلجأتُ إلى غرفتنا البائسة الحارة بعذر المرض ؛ وكانت أمي تحمل لي الطعام وتسجن نفسها معي ناسية كل شيء إلا حبها لي. وكنت أحس أني على وشك أن أفقد عقلي ، حين أعود من المدرسة لأجلس في عتمة الغرفة ، متكومة على جانب من السرير ، أتفصد عرقاً وأتوجس من كل حركة في الخارج . وهاجمني في اليوم الخامس أو السادس ، عندما غادرتني أمي لقضاء حاجة ما . لم أعرف بالتحديد ماذا أراد مني . فتح الباب ووقف في العتبة ينظر اليّ صامتاً . كنت أدفن رأسي بين ذراعي وأمسح بعض الدموع . لم أر ملامحه جيداً . اقترب مني مسرعاً ، مثل من يريد أن يلقي بنفسه في هاوية أو مثل من يروم تقبيل قدميّ حبيبته الميتة . وأرعبني الظل الأسود والذكرى الدامية ، وكنت على شفا الجنون فصرخت به ، صرخت به ، صرخت به . ولم يسنح له الوقت ليسترجع أنفاسه أو يرف له جفن . تراجع مفزوعاً يردد كلمات لا معنى لها ، وخرج وبقيت أنظر في الفراغ بين دموعي وأنفث من صدري عويلاً ولا عويل الذئاب الجائعة . وزاد كرههم لي فانقطعت عنهم وشعرت أن المخرج هو في أن أقاوم كي أبقى سليمة العقل وعلى قيد الحياة . وساعدني على ذلك أني اتخذتهم لي أعداء أتربص بهم وأناكدهم كما يتربصون بي ، وابدي لهم الجفوة والاحتقار .

كنت حينذاك أتجه لانقاذ نفسي مع مرور الوقت ، ولم أكن أتنهد ليل نهار مثلما أفعل الآن وأنا أشعر أني أتوجه مع مرور الوقت نحو مشكلتي ، نحو الباب المغلق الذي يعلقون مفتاحه في فمي . لم يتجنبني من أهل البيت غير مدحت ووالدته خالتي ؛ هما اللذان كانا يعتقدان أن جوابي يجب أن يكون لهما وأن مضي الأيام دونه يضعهما في مأزق غير مريح . لكنهما لم يقولا لي ذلك . أبعد مدحت نفسه عني قليلاً وخفف من تعقبه لي وكنت شاكرة له ذلك . إلا أن خالتي أم مدحت لم تقطع شكواها المريرة المنبعثة من عينيها المتعبتين. كان سلامها وحديثها وصمتها وضحكها القليل وانشغالها ،

twitter @baghdad_library

محاطين بنظرات تتحدث بلغة واحدة : ابنتهم العزيزة التي تسيء إليهم ... دون سبب .

ثم أدركت يوماً أني لا أسير بتفكيري على مستوى واحد وبخط مستقيم . ان أفكاري ، المختلطة ذوماً بالعواطف ، تلتف حول نفسها ولا تتحرك إلا لمسافة ما لا تقربني من الهدف . اني أعيش حالة نفسية وذهنية ذات حدود وأوصاف معينة ، دون أن أفيد من المعطيات الواقعية كي أقرر شيئاً . أنا أدغدغ مواطن الكآبة فيّ كمن يعاود ، بلذة ، لحس جراحه ، كأني أملك كل وقتي وعالمي . وحديث أمي الهامس معي ذات ليلة هو الذي وضعني أمام صورتي هذه . كنت في فراشي حوالي منتصف ليلة من ليالي تشرين ، لا أفكر بشيء كالعادة ونفسي غارقة فيما يشبه مياه غير منظورة من التعاسة والسوداوية ؛ وكانت أمي ترقد ساكنة على الأرض قربي في غرفتنا مع جدتي وعمة مدحت ، حينما سألتني فجأة :

— ليش هالگد دتتحسرين يا بنتي ؟

توفزت وكتمت أنفاسي . عاودت حديثها بصوت خافت :

— انت عاقلة يا منيرة يا عيني ، وآني خالتج على فكرج . بس انتِ بقيتِ أليّ ، وانت تعرفين راحتج ومستقبلج. بس لا تأذين روحج هواية . المكتوب علينا لازم نشوفه ؛ واحنا مگطوعين يا بنتي .

كان العالم ، تلك الليلة ، ساكناً من حولنا وهمساتنا المتذبذبة النبرات تخمش قلبي . إنها لم تكلمني هكذا من قبل . كانت بجانبي ، ألجأ إليها فتسندني وأشعر بدفء حنانها يبعث فيّ القوة .لكنها لم تكن معي في أزمتي . كانت تعرف أن أهميتها كمرشدة لي قد تضاءلت بحيث لم يعد أمامها أن تبدي أي رأي مسموع . وكنت أراها تمسك نفسها لئلا تتكلم أو يزل لسانها ؛ وكنت أراها تتألم لألمي .

تنهدت طويلاً . انها تضع اشارات الطريق بحسها . سألتها كأني أسأل نفسي :

— ليش مگطوعين ، يوم ؟ ليش ؟ أشصار بالدنيا ، قابل ؟ راتب عندي وتقاعدج لويش يعني مگطوعين ؟ ما نگدر نعيش هالشكل ، آني وياج ؟ لازم يعني ... لو زواج ... لو نموت ؟

– لا عيني ، لا . اسم الله عليچ . لويش دتموت بنتي ؟ لاكت اگول كل واحد ملتهي بنفسه بهالدنيا ، وأحنا بوحدنا ، ألنا الله . مگطوعين من شجرة .

وهكذا عندما تبدأ باعادة كلماتها ومعانيها أدرك عبث مجادلتها أو فتح الحوار معها . ليس في ذهنها غير فكرة واحدة تتكرر وتتكرر ، وهي رغم هذا لا تترك في نفسي أثراً . أشعر أني أصير بكل كياني ضدها . إلا أن المعنى الغامض الذي كانت تحتويه أقوالها ، قوّته كلمات رقيقة لم أتوقع صدورها ممن صدرت عنه . كانوا ، ذات مساء ، بعد ذلك بأيام ، مشغولين بضيوف من النساء الأقارب جلسن في احدى الغرف . ساعدت مديحة في نقل الشاي والأكل لهم من المطبخ ، ثم حملت قدح شاي وقطعة بقسماط إلى أبي مدحت في غرفته . كان جالساً أمام الباب المفتوح ، يعبث بمسبحته . ابتسم ابتسامة عريضة بانت معها أسنانه الصفراء تحت الشارب الأشيب . كانت طيبته اللامحدودة تسبغ عليه وعلى حركاته صبغة من البراءة الطفولية غير المفهومة . شكرني بكلمات فخمة اخجلتني ، ثم تابع حديثه بود عميق وهو يراني أريد أن أنسحب :

– منيرة ، بنتي ، عندي فد حچاية زغيرة وياچ .

وقفت قرب الباب محرجة وأنا أمسك الصينية خلفي . رأيت جفن عينه اليمنى يرتجف لحظة وشفته السفلى تلتوي قبل أن يتكلم :

– حچاية زغيرة ما دا تسمح الظروف أگولها ألچ .

وضع مسبحته وتناول قدح الشاي :

– اريد منچ تعرفين .. وتتأكدين يعني ...

وبدأ يحرك الملعقة بسرعة غريبة :

– هذا البيت بيتچ وبابه مفتوحة گدامچ . لا تگولين صار وما صار ، أرجوچ . تذكري حچايتي هاي . هذا البيت ما تنسد بابه گدامچ ... أبدا .

ثم ابتسم ، كأنه يعتذر ، ابتسامة الأطفال البريئة . تركته وأنا أتمتم بكلمات شكر لم أتبينها جيداً ، ووقفت في الايوان الفارغ بمفردي . هنالك جلست على كرسي في زاوية مظلمة وأجهشت باكية كما لم أبكِ منذ زمن بعيد . كانت دموعي تتساقط بهدوء

twitter @baghdad_library

وأنا أنشج واضعة يدي على عينيّ . لم أكن بمثل تلك الدرجة من التعاسة واليأس والوحشة. انه الانكشاف المؤلم لضعة النفس وتفاهتها . لا طريق مفتوحاً ، ولكن لا سبيل للنكوص. كانت كلماته تتمه للمعنى الذي أرادت أن تنقله إليّ والدتي . نحن ، المقطوعين عن العالم ، الذين لا يملكون من مصائرهم غير أن يشاهدوها تحدث لهم ، لا مجال لنا أن نختار . يمكننا أن نتظاهر بغير ذلك ، إلا أن الحقيقة تبقى : أننا نحن المنقطعون المكرهون .

كانت سماء الغروب ، في تلك الأمسية الحزينة ، تلمع صافية نقية . بدا لي الحوش مظلماً مثل هاوية لا قرار لها . كنت فارغة القلب ، خففت عني بضع دميعات سفكتها صدفة . رأيت سناء تقبل من جهة السلم فناديتها ورجوتها أن تجلب لي كأس ماء . كانت ضجة الضيوف عالية مستمرة وكنت أحس وجعاً في رأسي . أجلست الصغيرة قربي وشربت قسماً من الماء الذي أحضرته ثم غسلت وجهي ومررت بيدي المبللة على شعري . كانت سناء تراقبني مسحورة بحركاتي فعابثتها برمي قطرات من الماء عليها . سألتها عن خاليها فقالت أنهما خرجا قبل قدوم الضيوف .

خطر لي أني لو كتبت كلمة إلى اخي مصطفى أخبره بابهام عن وضعنا الحالي لأمكن ... ولكن ماذا ؟ ليست لدي قوة للنفاق والتخاتل رغم أن الجميع يتوقعون مني ذلك ، لأنها عادة الفتيات . ثم ان أخي لن يقول لي شيئاً جديداً ما دام لا يعرف كل الأشياء . لن يقول أحد ، في العالم طراً ، شيئاً لا أعرفه أنا .

ولكني لا أفتش عن كشف جديد ، ويجب أن أعلم ذلك . لقد تهشم منظاري للأمور وتناقضت عناصر الحياة أمامي . وما بي الآن ، كما أعتقد ، هو حاجة مميتة لرؤيا مستقيمة تقبل معطياتي وتثق بها ، تثق بها يا إلهي .

كنت أتوق ، وقد غادرتني سناء ، أن اصعد إلى السطح الخالي أتملى من منظر السماء واتيه فيها . أرمي بنفسي في هذا الخضم الأزرق المتلألىء فأتلاشى وأنسى قليلاً .

كانوا يخرجون من غرفة الضيوف وهم مستمرون في ثرثرتهم التي لم تنقطع . كن خمس نساء بدينات ، لم يسكتن منذ ساعتين . مررن بي . واقفة في زاويتي ، فسلمن

عليّ بين الكلام المتبادل المتقطع. عندئذٍ ، وأنا أراقبهن وأ راقب نفسي تجاههن ، ومن خلفهن الحوش المظلم والسماء الرائقة ، خطر لي ، تصاعدت في نفسي فكرة هي أشبه بالاحساس : لا علاقة لي ، في الأعماق وبمستوى النفس الأصيلة ، مع هذا الجمع البشري ، مع هذه الكتل المتراصة من اللحم التي انتمي إليها . أني أقف على مبعدة ؛ بين الموت والحياة ، بين الوهم والعذاب ؛ أضعف من قصبة وأنا مسؤولة عن شروق الشمس وغروبها . ولم يكن بمقدوري ألا ينتهي أي شيء ؛ أن يستمر تعلقي هكذا فترة أطول . لست إلا من هذا التراب الحي ؛ وكان يكفيني ، احدى الليالي ، وأنا أتظاهر بالنوم تحت اللحاف ، أن أقف وسط الدار أستغيث صارخة في وجه الظلام ، لعلي أستريح أو لعلي أجن . وكنت أريد أحياناً أن أصلي وأن أدعو من ربي أن يرحم بي . ثم أتردد . إذا كنا حكمنا أن نعيش كما كُتب علينا .. فما فائدة الرجاء . أو كنا نملك بأيدينا .. فما فائدة الرجاء أيضاً . ثم بدا هو لي، هو الذي كان موجوداً — وكان مختفياً — على الدوام في عالمي . قيل لي أنه فشل في الامتحان وسيعيد سنته الدراسية مرة أخرى . كنت أعلم جيداً ماذا يعني هذ الفشل ، عند هذا المخلوق المحكوم بذكرياته وأشباح موتاه ؛ وكنت أجد أني ، القريبة إليه كما أظن ، يجب أن أواجه هذه المحنة معه بشكل من الأشكال . ثم انه على علم ؛ وقد يفهم شيئاً لا أفهمه أو يرى شيئاً لا أراه ؛ وقد يقوى على عمل ، أو يمنحني قوة لانتظار أمل هو آخر الآمال ، أو اشارة بالنجاة . وهكذا ، عصر أحد أيام الخريف ، كنت أرتقي درجات السلم الترابية المهدمة إلى السطح . وقبل ذلك ، رأيته يخرج من غرفته ويسير ببطء ، يمسك بالمحجر الخشبي بين حين وآخر متجهاً نحو باب السلم . فتحها دون ضجة ثم اختفى صاعداً . كانت في الجو لسعة برد منعشة فاختطفت شالاً وخرجت أتبعه .

لم يرني أول ظهوري . أحاطتني السماء الزرقاء الصافية جداً ، المنثورة عليها حمرة الشمس الآيلة للمغيب . وقفت أسترجع أنفاسي مبهورة بتوزع الألوان . كان متكئاً على الحائط بظهره ، مغموس الرأس ببقايا الأشعة المتوهجة ، والتخوت الخشبية الفارغة ، مصفوفة في أنحاء السطح كالتوابيت . التفت إليّ حالاً ، فاقتربت منه . لاحظت تهجسه مني . كان يزرر سترته باضطراب وهو ينظر نحوي ويبلل شفتيه بطرف

twitter @baghdad_library

لسانه . لم أرتح لتلك المظاهر منه . سلمت عليه بهدوء وسألته لِمَ لم يخبرني عن فشله في الامتحان ؟ راعتني مسحة الغباء التي انسدلت على وجهه والتي لم آلفها من قبل . استدار إلى جهة أخرى وقال :

— العفو ، ما أدري . مو ... فد شي مهم .

بدا لي نحيلاً مقوس الظهر وهو يضع يديه في جيوب بنطاونه العريض ثم يسير ، بشكل عشوائي ، إلى الحائط القريب الآخر . كان منزعجاً . شعرت أني لم أحسن اختيار وقت الحديث معه . قلت :

— الأهمية نسبية بهالحالة . مع ذلك ، تگدر تتفوق بالسنة الجاية .

لم يجب ، اكتفى بصوت مبهم وبشبح ابتسامة ساخرة ، وضرب بقدمه حجارة صغيرة دون أن يلتفت إليّ . ثم رفع عينيه نحو المغرب ، حيث تموت الشمس الضاحكة . ظهر أنفه ضخماً وسط وجه حزين باك . أردت أن أعيد كلاماً آخر عن قصة التفوق ، إلا أنه قطع عليّ ذلك :

— لا تواسيني ، أرجوچ منيرة . خاصة أنتِ . هواية حچيتِ ويايه گبل الامتحان . هواية . كل كلامچ .. أتذكره . بس چنت أشوفه زايد ، لأن ما چنت أفكر بالرسوب . هذا چان فد شي خارج تفكيري .

ووقف على جانب يحفر تراب الأرض بطرف حذائه :

— لويش يريدون يخففون عني الصدمة ؟ ماكو داعي . هاي هيه . لو أعرف المسألة ما تهم .. آني ما أدير بال . لاكت .. بعديش ؟

— شنو بعديش ؟ انت بيش دتفكر هسه ، كريم ؟

— ما دا أفكر بشي . بيش ترديني أفكر ؟ آني فشلت ولازم أتحمل نتائج الفشل . عدنا هنا ، كل وكت متعودين نهرب من نتائج أعمالنا . لويش ؟ آني أريد أتحملها .. وانتهي .

— شنو تنتهي ؟

استفزني بحكايته فتابعت :

— آني دا أشوفك متناقض بأفكارك كريم . گبل چم شهر چنت تعتبر الامتحان فد شي بسيط ، لا تفتكر بيه ولا يهمك هوايه . هسه دتعتبر الفشل كأنه حكم عليك

بالسجن المؤبد . هاي شنو ؟ ثم انت إذا تريد تتحمل النتائج ، مو معناها تنتهي . لويش تنتهي ؟ هذا مو تناقض ؟ صدك والله كريم . إذا واحد يريد يتحمل النتائج السيئة ، مو يعني خاطر يتجاوزها ؟ خاطر يستمر بطريقه ؟ تمام ؟

بقي يحفر الأرض بحذائه ثم يسوي ترابها مرة بعد أخرى ، وبعض الشعيرات في رأسه تبدو حمراء لامعة . كنت أجهد من أجل نفسي ، ضد ضعفه وتردده والتباس أموره . تكلم بصوت خافت متقطع :

– ما أعرف ، ما أعرف آني . بس .. هذا .. كل شي هم لازم ينتهي . ليش ما نعترف ؟

– شنو يعني ، كريم ؟ مدا أفتهم زين هالحچي مالك ؟

التفت إليّ ، رفع نظره فجأة :

– العفو منيرة . ماكو شي معقد بكلامي . ومع ذلك ...

كان صوته جافاً . حاداً ، لا يتلاءم والمرارة التي كست وجهه :

– آني شخص فاشل ، ماكو مني فائدة . شخص ضعيف ما عندي أي قابلية . وما أگدر أگولچ راح أتحسن. بالعكس. دا أتراجع يوم بعد يوم . أي هاي هيه . شخص منتهي ، ماكو منه فائدة .

– لويش دتحچي هالشكل ؟

كنت خافقة القلب ، ولكن رابطة الجأش ؛ وكنت أعلم بكياني كله ، أنه يوجه حديثه إليّ ... انا التي جئت إليه ؛ وهو يعلم بالتأكيد معنى ما يقول . كان مستنداً إلى خشب سرير فارغ ، ينظر إليّ . أعدت كلماتي ببطء :

– لويش دتحچي هالشكل ، كريم ؟

تقبضت أصابعه ثم انفتحت وترك مكـــانه متحولاً إلى الجهة البعيدة عني . كان منحني الظهر ، وهو يقف محدقاً في الجدران الغامقة . لم ينقطع خفقان قلبي . كنت خائفة بعض الشيء ، كئيبة النفس ؛ والسماء الفسيحة الملونة فوقنا تبدو على وشك الانغلاق إلى الأبد . يخطر لي أني أفسر لهجته وأصغي إلى نغمة صوته ، لا إلى كلماته . أليس هذا جنوناً ؟

twitter @baghdad_library

ثم رأيته يرجع إليّ . استدار بسكون واتجه نحوي ثم جلس على السرير أمامي . وضع يديه متشابكتين في حضنه فبدا كمن يصلّي . كانت أضواء الغروب تحيط به . تكلم بصوت خشن عميق :

— العفو منيرة ، بس ما أدري لويش دتسأليني علويش دا أحچي . أنت تعرفين كلش زين علويش دا أحچي ،انت تعرفين زين منيرة . بس مع ذلك ، لازم أگولچ ... تره آني مو بس شخص فاشل ، ما عنده حظ بهالحياة ، لاكت آني شخص يائس هم . يعني آني دا أفشل مو لأن قابلياتي ناقصة بس ، لاكت لانه .. آني .. يعني آني ما عندي ايمان .. ما عندي اهتمام بالدنيا .

رفع يده كأنه يريد أن يمنعني من الكلام :

— لاع . لاع . ارچوچ . انتِ بس منيرة .. انت الشي الوحيد الغريب بحياتي . انتِ ...

سكت ، مبعداً عينيه عني وهمس :

— انتِ شنو ؟ وآني شأريد منچ ؟ وشنو يعني فد إنسان غبي فاشل يحبچ ؟ شنو يعني ؟ وإذا ... ؟

كانت همساته غارقة في الظلام ؛ وكنت ، أمامه ، انصت مرتجفة مثل ورقة تلعب بها الريح :

— لويش هلگد أحبچ منيرة ؟ ولويش انتِ بعيدة عني هالشكل ؟ بعيدة يا ربي ، بعيدة عني .

وأخفى وجهه بين يديه . كان يتهامس مع طيف غير مرئي . أخافتني رنة الأحلام في صوته الأجوف . لست قادرة ، الآن ، على ضياع أملي في تلافيف خيالاته . مددت يديّ إليه . كنت ، في ارتجافي ، ميتة اللسان . أردت أولاً أن ألمسه ، أن أحس بحرارة حياته . ولعلي بعد ذلك ، ألمس قلبه ، ألمس صورتي في نفسه . ولم تطله أناملي ، لم تصله . أفزعته حركتي وبدا كمن أوقظ من سبات عميق . تراجع في جلسته قليلاً وهو ينظر إلى يدي بذعر . ثم قطب جبينه وانقلبت سحنتة، تدلى فكه وشفته السفلى ، ثم خبا في عينيه شيء ما : نور او سراب أو شمس ؛ فزفر وقام بعجلة فاصطدمت رجله بطرف السرير . انزلت يديّ . كان يمشي باضطراب بين الظلال والظلام مبتعداً عني . يسحب

نفسه ، يجر قدميه بمحاذاة الحائط الترابي الأجرد . وقف مستنداً بذراعه عليه ، ناظراً إلى الأرض مثل من فقد عليها شيئاً : الأمل أو معنى الحياة . بهت ، حسبته ، لحظة ، يحاول أن يأخذ بيدي ؛ هو الذي بان عليه كأنه فهم كل الأمور وأحاط بالألغاز . لكنه ... قمت من مكاني . كانت لدي بقية ضئيلةمن سعادة بعثرها اعترافه في نفسي ، وكنت مرتبكة مترددة . أردت أن أعود نازلة إلى الأسفل ، إلا أنني تقدمت منه . كنت فارغة الذهن ، لا أملك سوى خوفي من أن ينتهي كل شيء هكذا .

وجه إليّ الحديث قبل أن أصله . لم يلتفت ، تكلم وهو على وضعه البائس ذاك متطلعا الى التراب :

– آني متأسف منيرة . لا تصدگين حچاياتي هاي . آني ما أقصد شي تره ، ما أقصد شي أبداً .

جمدتُ مكاني . أردت ، كان عليّ ، أن أتفوه بشيء يصف له معنى كلماته ، يضعه في عالمي المحترق :

– ليش تشعر بالأسف ؟ تندمت يعني كريم على ...

– لا تخدعين نفسچ منيرة . لا تخدعين نفسچ . آني شخص منتهي . خلصان . ماكو مني فائدة .

– ليش ؟ ليش كريم ، عيني ، ليش ؟

همد جسده لحظات وسكن سكون الحجر . خلته فارق الحياة . ثم استدار ببطء وهو لا يزال ملتصقاً بالجدار . كان وجهه مبللاً بالدموع :

– لا ، منيرة . لا . لا تحچين ويايه هالشكل الله يخليچ . آني شخص منتهي . جبان .

رفع يده بسرعة ومسح وجهه :

– ما أگدر أدخل حياتچ منيرة . ما أگدر . آني ...

شعرت بغتة وأنا أنصت إليه ، بصدري ورقبتي تختنقان بما يشبه النحيب . هتفت بصوت عال أقاطعه :

– لويش ؟ لويش ما تگدر ؟ لويش ما نگدر ...

صرخ بي :

twitter @baghdad_library

– ما أگدر . ما أگدر . أگلج . انتِ ... انتِ...

ثم مسح وجهه مرة أخرى وانكفأ إلى الحائط يضربه بكفه :

– ... أنتِ مو أليّ . أنتِ مو أليّ . تعرفينْ زين أنت مو اليّ . گاعدين دينتظرون جوابچ . كلهم دينتظرون . يردون ياخذوچ . كلهم . كلهم ، يعرفون انتِ مو الي . يردون ياخذوچ . يزوجوچ . يردون تزوجين . أخذوها . أخذوها مني .

ولكني كنت أبكي مثله رغم حذري . بكيت يأساً . أجهشت ، هكذا ، وأنا أنظر إليه ، يحتضن الجدار الطيّي ويكلمه بكلماته الطفولية الخرقاء . ماذا قد أجد لدى هذاالمخلوق الهش ، البائس أكثر مني ؟

أجهشت دون دموع ؛ كنت أنشج بأصوات متقطعة لم آلفها قبلاً ومن صدري تتدافع لهثات تكاد تخنق أنفاسي . ثم انطلقت الكلمات بين شفتيّ المرتجفتينْ :

– آني مريضة كريم . مريضة آني وما أگدر اتزوج . ما يصير أتزوج ، ما يصير . ما أ گدر آني ... وهذوله أهلي ...

توقفت . لم يعد باستطاعتي أن أملك نفسي فأخفيت وجهي بيدي ثم نكصت عائدة ، بخطى عمياء ، إلى السرير الفارغ . كان بكائي تكملة لكل تلك الشهور الحزينة المؤلمة ؛ وكنت أبكي هذه الحياة التي ضُيعت علي دون سبب مفهوم ، وكنت أبكي لأني رأيت في وجهه الكابي المغطى بالدموع آخر الأبواب وهي تنغلق . ووقعت على خشب السرير ولملمت نفسي عليه أفتش عن منديل في جيوبي . لم أرد أن أعاود الكلام أو أن أسمعه يتكلم . شعرت أن ما بقي لدي ، وهو قليل القليل ، لاعلاقة للعالم وللآخرين به . انه الاختيار الصرف ، دون مداورة أو تزييف ، بين الموت والحياة .

ولذلك ، حين رجع وتوقف قربي بمسكنة يستوضح مني عما لا أدري ، لم أجبه . كنت أغلق عالمي . لم أكن أحتقره ، لأنه كان في الواقع على حق ؛ ولكني كنت ، بشكل ما ، نائية عنه وعن كل ما حدث لي معه قبل دقائق . كان يسألني عن مرضي وما هو ولم أنا مريضة وهل أنا مريضة حقاً وهل .. وهل .. ، وكنت لا أجيب ، جالسة بانكماش على السرير ، غارقة في نفسي وفيما حصل لي .

ثم قمت بتثاقل وأردت أن أنصرف فأمسك بذراعي . كانت أصابعه متشنجة باردة . نظرت إليه . لم أسله عما يريد . بدا لي غير ذي حقيقة صلبة ؛ وكنت ، في قتامة المغيب ، أتطلع إليه يتحدث دون ان ادرك حدود كلماته .

قبل أن يصير الخوف عادة ، يمكننا اجتثاثه من النفس بأن نرفع جذوره المغروسة فيها . ولقد وجدت أن البدء بعملية الاجتثاث هذه ، وبأية عملية أخرى ، يجب أن ينبثق من افتراض عدم وجود الأسباب وتخيل ما يمكن أن نعمل بناء على هذا الافتراض.

وهكذا ، محوت عدة ساعات من ماضي ووضعتها بين أقواس ودوائر ، ثم أخذت أفكر بحياتي بعد ذلك . لم أجد التغير كبيراً ، فحلقة اليأس تجاور حلقة التحدي . وفي كل الأحوال ، خلال الزمان الانساني للفرد ، لا يليق أن ننسى طبيعة المعايشة بين البشر . أنها الأخذ والعطاء ، وليس في الأمر مواقف . انها السيولة والاشتباك ، وليس فيها جدران أو حدود. انها جسور للعبور والعودة ، ثم للعودة وللعبور ... وما أنا ، ما أنا من كل ذلك ؟

كتبت رسالة إلى أخي مصطفى في كركوك أساله مشورته بشأن ما يعرض عليّ .لا أعتقد أن جوابه ، الذي أعرفه جيداً ، سيتأخر .

* * *

twitter @baghdad_library

- ١٠ -

كان ينصت إلى حديث يجري بين جليسين قبعا خلفه في مقهى المربعة . جذبت سمعه غرابة الحوار ولهجة المتكلمين . كانا يتحدثان بلهجة أهل الشمال ؛ وقد خمن ، حين رآهما يمران قربه ، أنهما قد يكونان من عمال المطاعم أو سواق السيارات . كان أحدهما محمر العينين ، ضائع النظرات . بقيا ساكتين فترة يديران ملاعق الشاي بعنف ، ثم بدأ أحدهما متسائلاً :

— وهايي الورقة ، أشعمل بيها ؟

بصوت تتخلله بعض الخدوش ، افترض أنه يلائم صاحب العينين الضائعتين . استمر بعد وقت قصير :

— أنا أفتكرها مزورة هايي الورقة . أشتقول ؟

— أشقول أنا ؟ ما دحق امضا القاضي بأسفلها . أشقول أنا ؟

عاد الصوت الأول يرتفع في لهجة تتراوح بين البكاء والتضرع :

— ما بيصير . أنا أقولك ما بيصير . وجدان ربك ما كان يرضى . بقى وين أروح بالويلاد ؟ ما معقولة . تهرب من البيت وتترك الويلاد وتقشع لي هايي الورقة تقول كان صارت مسلمانه وصارت حرام عليّ وكان صار الويلاد مثلها وصرت أنا خيّك بطرس ، بعيلتنا أربع قسان ، اركض خلف القحبة من شان تستر على حالي ؟ بحياة المسيح ، هايي الورقة مزورة . هاي قاعدة تلعب بدماغي .

لم يمر وقت طويل على مدفع الافطار ، ولكن شارع الرشيد كان مزدحماً بالمارة وبالسيارات ، والأنوار في المخازن المقابلة أضيئت منذ زمن . شرب الشاي مرتين منذ مجيئه قبل ساعتين. لم يطب له الجلوس أمس في المقهى ، إلا أنه عاد إليه اليوم مع ذلك . رفعوا الستائر والخرق المعلقة على الواجهة قبيل الغروب ، فانكشفت له سماء بيضاء بين العمارات العالية .

— بقى أقشع للقاضي أشقوله ؟ بدي صير مثل ماتيلد ؟

— أشلون حكي بطرس فتحكي ؟ والله ليحطك بالسجن . آشلون هذا ؟

ثم رآه ، بين الحديث ، يدخل المقهى بخفة ويسير على غير هدى بين القنفات والطاولات متطلعاً بنظره هنا وهناك . قصيراً كان ، احمر الشعر سقيم الوجه . صادقه فترة من أيام الدراسة منذ سنوات . اتجه نحوه . وسهر معه ليلة أو ليلتين ، بصحبة حسين كما يتذكر . سلم عليه وصافحه بحرارة :

— مساء الخير أخي . شلون الصحة ؟ شلونك ؟ زين ؟ زين ؟

أجابه على أسئلته المتكررة ثم أشار إليه بالجلوس فجلس قبالته . تذكر أنه يدعى سعيد لا يعرف ماذا ، وكان موظفاً في الكمارك . كانت عيناه ضيقتين صغيرتين يحيطهما شعر فاقع الحمرة . سأله عما يعمل هذه الأيام فأجاب سعيد :

— چنت مريض أخي . دخلت مستشفى . كلشي ما بيّ ، لاكت فقدت ذاكرتي . مادا اشتغل هسه . تقاعد . ما عندي شغل . فقدت ذاكرتي .

وفتح عينيه فجأة تأكيداً لكلامه .

— لويش فقدت ذاكرتك ؟

— ما أدري أخ .. أخ .. تعذرني ما أگدر يعني أتذكر اسمك . دا تشوف شلون ؟ گعدت فد يوم من الصبح واذا كلشي ما أعرف . ما أتذكر شي . منو آني ؟ منين ؟ وين رايح ؟ هنوله منو ؟ شكو ماكو ؟ كلشي ما أعرف ، فدخلوني مستشفى . هسه أحسن . نوبه أتذكر ونوبه ما أتذكر . هسه لو أصفن على اسمك ...

ثم وضع يده فوق جبينه وأخذ يفرك صدغه . سمع صديق بطرس :

— ... وانت ابويه تروح تقشع للقاضي وتفتهم منه أشراح يصير بيك وبويلادك .

twitter @baghdad_library

تفتهم منه ، قتفتهم ؟
– مكتوب بهايبي الورقة . نصير مثل ماتيلد .
– شوف شلون ما دا أتذكر.

وأغمض عينيه :
– كلش زين آني أعرف اسمك . كلش زين . لاكت شوف أخ مدحت شلون مادا أتذكر ؟

وصرخ فاتحاً عينيه على سعتهما :
– مدحت .. مدحت .. أخي ، أنت مدحت .

امتلأ وجهه النحيل بضحكة بلهاء :
– مدحت .. مدحت .

... كان ، في مراقبته لها ذات مساء خريفي ، تسير على صفحات قلبه مخترقة باحة الدار ، في ثوبها الأزرق الفاتح ، مسدلة شعرها إلى الوراء ، قد انشد إلى الانحناءة اللينة في جذعها وهي تميل بخطوها با رزة النهدين ، وإلى نظراتها المختلسة إليه وهو يجلس على القنفة مع أبيه قرب السرداب ، وإلى الابتسامة الرقيقة جداً التي أعلنت له بخفاء ، أنها تعرف ...

سمع صوت بطرس المتهدج :
– بقى راح انخبل . لو كنت اعرف هي وين . قالوا قـا تشتغل مربيـة خابرتنا تسأل عن الويلاد . تحكي كلمة وتسكت وصارت تبكي بعدين وغلقت التلفون . أنا راح أنخبل .
– بلاكت أخ مدحت ، مو كل وكت أتذكر هيچي زين .

سأله :
– بعدك بالكمرك ؟

أخذ يشير اشارات عنيفة بيديه :
– لا . لا . لا . طلعوني تقاعد . لا . ما عندي وظيفة . تعبان ومريض چنت أخويه .. مدحت .

– شد سوي هسه لعد ؟

– ... أربع قسان وكاهن بعيلتنا . عايلة مسيحية عتيقة نحنا . أنا ابتليت على عمري . وين أروح ؟ وين أرحل بالويلاد ؟ الله ما كان أخذ روحها ، لو روحي .

رأى سعيد ينحرف بنظره قليلاً وراءه ثم يعود إليه :

– ما عندي شي . أگعد من الصبح واتريك ، تالي أجي للگهوة أگعد هالشكل.

وعقد ذراعيه على صدره لحظات :

– ربع ساعة . نص ساعة . گاعد وصافن . تالي أگوم أرجع للبيت . زوجتي ام حازم خوش بنية . مرتاح وياها . أنام بگبة وحد ، خاطر ارتاح . كلش مرتاح . ما عندي شي . اجي يومية للگهوة . الصبح والعصر . ربع ساعة نص ساعة أگعد .

ما زال عاقداً ذراعيه ، مستكيناً كخروف أحمر . سأله مرة أخرى :

– ما تقرا ؟ ما تكتب ؟ انت مو چنت تكتب بالجرايد .. خواطر ، ما أدري شنو ؟

ارتفعت ذراعا سعيد تنفيان بحركات سريعة :

– لا . لا . لا أخي . لا . كلشي ما عندي . ما أتذكر شي ، علويش أكتب ؟ شكو عندي أكتب ؟ مخبل آني ؟

ثم هدأ :

– زين انت شد تسوي هالأيام أخ مدحت ؟ بعدك بديوان الوزارة ؟

هز رأسه . التوى فم سعيد وبدا عليه أنه لم يفهم . آلمته حيرة رفيقه . قال :

– نعم . بعدني بالديوان ، بس عندي اجازة هسه .

... خلفت حركة صغيرة من أهدابها ، حين عمل على انتظارها ذات ضحى من يوم جمعة مشرق قرب غرفته ، ووقف أشبه بمن يعترض طريقها وسألها وكانت تضع العباءة لغير سبب ووجهها الملون منور بين السواد ، فتحاشت سؤاله ومرت ، وأنزلت لحظة مرورها ، أهدابها جامدة الملامح ، فخلفت له الأهداب السوداء الطويلة خدشاً في الأحشاء ...

– ماكو مانع . شكو بيها . اجازة اعتيادية يرتاح الواحد بيها . ماكو مانع .

twitter @baghdad_library

حضر خادم المقهى حاملاً صينية تحتشد عليها أقداح الشاي . فوضع واحداً أمام سعيد ونظر يتساءل إلى مدحت . أشار إليه أن نعم فأبدى الخادم استحسانه بحركة خاصة من ذراعه وهو يتأنى في وضع الاستكان أمام مدحت . وأتته من الخلف أصوات وكلمات مختلطة ثم ضجة مخاط وبصاق . لم يلتفت . سمع رفيق بطرس يتكلم بحنان :

– لا بابا ابو ميخائيل . لا بابا . عيب على الرجال يبكي ، لا يابه . عيب ابويه . كلشي كان ينقضي . عيب يابه .

كان سعيد ينظر إليهما مندهشاً مقطب الجبين وقد ظهر عليه أنه يجد وضعهما مستعصياً على الادراك. ثم رفع قدح الشاي إلى فمه وجرع منه جرعة وخزته بحرارتها فتقلص وجهه وارتجفت أهدابه . تطلع إليه فحرك مدحت كتفيه حركة خفيفة فتراجع سعيد في جلسته قليلاً واستدار عنهما . انهما يمثلان تأزم العالم وتعقده بالنسبة لسعيد ، العالم الذي فقد علاقته به .

سمعهما يقومان ويمران جنبه . كانا متماسكين بذراعيهما وأحدهما يغطي وجهه بالمنديل . وابتعدا متمايلين ، في المقهى الدافئة المليئة بالدخان . ذاق شايه . ما على بطرس المعذب إلا أن يفقد ذاكرته ، فينسى خيانة الزوجة وينسى ما كان دينها أو دينه . كان سعيد جالساً بسكون متشابك الذراعين . أنهى شرب الشاي وأبعد القدح عنه ؛ ثم رأى وجهه يستضيء فجأة وهو يتلفت من جهة لأخرى ويعود إلى سكونه . سأله :

– گاعد تنتظر احد ، أخ سعيد ؟

فتح عينيه دون دهشة ثم أغلقهما . بدا كأنه لا يريد أن يجيب :

– لا . لا . آني ما انتظر .

... جرحته ذات مساء حين كان يهم بمغادرة البيت فطرقت سمعه ضجة غير معتادة في غرفة أخته فسعى إليها خالي الذهن فرآها وأمها منفردتين تتناقشان وهي تبكي محترقة مع زفراتها وثوبها الأحمر مفتوح على مرمر صدرها الأبيض ، فواجهته ، عيناها المبللتان ازدادتا اصفراراً ولمعاناً وشفتاها قانيتا الحمرة ، وأجهشت في وجهه ، رمت بنارها عليه ثم اعتذرت له ، اعتذرت له ...

كان سعيد يلملم نفسه ويهم بالقيام :

– وين أخ سعيد ؟
– أروح .
– شكو عندك ؟ مو بعد وكت ؟
– ميخالف . أريد اتعشى .
– يعني انت مو صايم ؟

رفع حاجبيه مستغرباً :

– آني ؟ لاع . لا . آني ما أصوم . أعصابي ما تتحمل .

ثم ابتسم بانكسار ونهض رافعاً يده :

– زين يابه . فيمالله اخ ... شوف شلون نسيت الاسم .

كان ضعيف البنية قصيراً . مضى ، خافضاً رأسه ذا الشعر الأحمر ، بين الموائد والقنفات ، خالي الذهن والنفس . لا وجود لأحد في داخله ، ولا يهمه أن يقابل أحداً يعرفه أو أن يندس بين البشر . شخص سعيد ، مثل اسمه ، ضد الذكريات . توقف قرب صاحب المقهى فدفع له شيئاً ثم التفت بغتة ناحيته . رفع ذراعه عالياً يحييه متفتح الوجه. هل تذكر الاسم أخيراً ؟ ثم اختفى في الخارج .

أخرج سيجارة وضعها في فمه متمهلاً .نبهته تقلصات معدته المتكررة إلى أنه لم يأكل منذ ثماني ساعات أو أكثر . كان فمه مراً مرارة المرض . ستزداد هذه المرارة حدة لو أشعل سيجارته . استعادها من بين شفتيه . مست أنامله صفحة حنكه فخدشتها لحيته الطويلة . ماذا تغذى اليوم ؟ كباب شامي ؟ في مطعم الميناء ؟ كلا . العش الذهبي ؟ هبت من داخله موجة حرارة مؤذية صعدت إلى صدره. ماذا لو ارتاح قليلاً .هل يمكن لسعيد أن ينسى آلامه مع ذكرياته ؟ أن تنسيه الذاكرة المفقودة آلام جسمه وجوعه ؟ أن تنسيه ...

... حين عادا ليلة فأوقفها في ظلمة المجاز قرب الباب المضاءة أطرافه وضجة الأهل والأغاني وأمسك بكتفيها الناعمتين فوق العباءة وقرب وجهه من وجهها فلامس الشفتين المخمليتين الطريتين الحارتين الذهبيتين ...

twitter @baghdad_library

وجد نفسه يقف كمن خُز بنصل حاد ، خافق الجسم مرتجفاً . نظر حواليه بخجل . كان بعض الرواد ينظرون إليه . عاد يجلس ببطء . أخرج سيجارته وأشعلها ثم جذب منها نفساً طويلاً . تملكه دوار بسيط فأمسك بجبينه وأغمض عينيه . أربعة أيام مرت منذ أن جرى له كل شيء . اربعة أيام . إنما المهم الآن أن ينهي الأمر بشكل واع . لا يكره شيئاً مثل هذه الحركات الخرقاء اللاارادية التي تفضح جهله بحقيقة نفسه . ألا تعرف نفسك إلى هذا الحد ! مع أن البدء منها وبالتأكيد ومهما حاولنا . لكنه ، الآن ، لا يريد أن ينتهي أو أن يبدأ ؛ يريد أولاً أن يفهم . أن يفهم حدوده في هذه اللحظة ؛ ولنترك كل شي آخر . حدوده الآنية والمكانية . الآن في هذا المكان ؛ دون حقد ، دون حب .

... بين ثرثرات الأهل المرتفعة عن الخطبة والزواج والمستقبل ، فاجأه حبه لها حين بزغت عيناها هنالك أمامه ، أمام قلبه الذي توقف وارتجف فجأة ، كانت بينهم تلك التي يحبها و ... نهض من مكانه بسرعة وسار خارجاً . ان البقاء في مكان واحد لن يساعده على البقاء في الحاضر . والعكس ، اللعنة ، هو الصحيح . كان هواء الشارع بارداً تثقله رائحة البنزين المحترق . أحس بضعف في رجليه وهو يقف أمام المقهى حائراً إلى أين يتجه . أي جسم مخرب جسمه هذا ! منذ ساعات وهو جالس لا يتحرك ، فاذا قام بعد ذلك عجزت رجلاه عن حمله ! كانت واجهة سينما « الشعب » مغطاة بصورة لعبد الكريم قاسم ضخمة بشكل جنوني . عبر إلى الجهة الأخرى من الشارع وانحدر مع السائرين نحو الباب الشرقي . جاوزت الساعة الثامنة بقليل . ليس هنالك ، لو تأملنا ، زمان أو مكان ؛ أو أنهما موجودان بحدود رخوة . فهو ، مثلاً ، حين يسير في شارع الرشيد بعيد الساعة الثامنة مساء ، إنما يسير خلال الزمان والمكان . هو الذي تؤلمه تقلصات معدته الفارغة استطاع ، بهذه السهولة ، أن يخترق طرفي حياة الانسان . الآن ، مثل آخر، قرب مخازن بيع الكيك واللبن ، وبالتحديد أمام محل « آرام » لصنع الكيك وبيع البسطرمة ، أمام « الفترينة » بالضبط ، يقف جائعاً ضعيفاً طويل اللحية . تاركاً البيت منذ أيام ؛ والناس وتلك الصور الملونة اللعينة والأغاني ، والهمسات والوقت الجميل ... خاف عليها حين ضمها إليه ، إلى قلبه ، فزفرت باطف وأحس بضغط نهديها على صدره ... أهذه هي الحقيقة؟ وشيء آخر فوق كل هذا ، العالم الذي يضيع حين تريد

أن تنظمه بدقة فائقة . دخل الدكان وطلب من البائع العجوز كأس لبن وقطعة كيك . وهذه التهويمات المستمرة قد تسدي إليه صنيعاً ، من يدري ، بأن تمنع عنه غير الحاضر المعاش .. الآني والمكاني . تغمسه في المكان والزمان . تمنع عنه الناس وتقطع علاقته بهم . ليس هذا الشخص المهوم من البشر . لم يولد ولكنه قد يلد .. توقفت يده حاملة قطعة الكيك قريباً من فمه المفتوح. قد يلد ، قد يلد . اعطى البائع ثمن أكله ثم خرج . كان الهواء بارداً ، أين سينتهي ؟ والشارع يضج بالسيارات المتراصة . أيمكن أن يكون قد غرس بذرة الحياة في أحشائها ثم فرّ هارباً ؟ وكان الغناء ينبعث من راديو في أحد المخازن وهو في سيره المتعجل يصطدم ببعض السابلة المتباطئين على الرصيف . وهل سيغير شيئاً أنه لم يفر ؟

وقف ، على حافة الرصيف ، قبالة دائرة البرق والبريد كمن يهم بالعبور . لم يكن يرى أحداً ، وكان متعباً مخذولاً . أحس بطعم اللبن مراً في فمه . بدأت الأمور تزداد صعوبة عليه . لم تكن هكذا قبل يومين أو ثلاثة . أراحه النوم المستطيل في فندق « الرصافة » بعد أن ألف الكوابيس الكثيرة ؛ لكن الأمور صارت تتغير في نفسه بعد ذلك . انه يخشى الآن شيئاً رهيباً لا يلبث أن ينقض عليه . اختلال من نوع خاص في نفسه أو في العالم حوله ، لن يبقي على عقله أو على حياته .

كانت السيارات تتراءى له ، ظلالاً غير محددة ، تتحرك وتمر بسرعة هازة الأرض . قفزة صغيرة ترمي به تحت هذه العجلات السوداء اللينة ... وينتهي كل شيء . تغيب معه الصور المتلألئة والبسمات والنجوم والدموع ... احتضنته ، لأول مرة ، ودفنت وجهها بين رقبته وحنكه فأحس بأنفاسها الحارة وهي تهمس « لا تتركني مدحت . لا تتركني بوحدي ، الله يخليك » ولم ترفع المحيا الحبيب إليه حتى أمسك بشعرها وواجه العينين المغمضتين والدمع يفيض منهما فقبلهما الواحدة تلو الأخرى ... والآن ، الآن لو قام بهذه القفزة الحاسمة فلن تكون هذه الصورة إلا دماً نازفاً وعظاماً ولحماً مثروماً . لن تعود هي ، غير أثر من الآثار ؛ كان موجوداً في ركن ما غير معلوم من هذا التكوين اللحمي المفتت . ليست هي رائحته ولا ألوانه ، ولكنها أو لعلها كانت

twitter @baghdad_library

نغمة تنبعث منه بشكل من الأشكال ؛ نغمة لن يسمعها أحد بعدالآن . حتى هي ، لن يكون باستطاعتها أن تعلم أن في أرجاء هذا الخليط الدموي القبيح كانت تتردد أصداء ضحكاتها والتماعات عينيها . كانت أرضية الشارع السوداء تعكس بقتامة لمحات أضوية بعيدة . ضاق صدره فاستدار وعاود المسير ببطء . كان يتحاشى تلك الغريزة المميتة للاشفاق على النفس . ماذا سيجد لو مكث أمام ساعة دائرة البريد المتوقفة ، يغرق العالم بدموعه الساخنة ، يبكي بها نفسه منتحراً ؟ بان له مدخل أوتيل الرصافة على الجهة الأخرى من الشارع . لم تمل نفسه للصعود إلى غرفته الجرداء الباردة . الغرفة الخاوية الخاوية ، الخاوية ... رآها ترتب فراشه تبيل الزواج ، منحنية قليلاً ، والغرفة ، وهي فيها ، تبدو ضاحكة منورة متراقصة مليئة بالشمس ، يا ويلتاه ...

شعر بنفسه يُرمى وسط الشارع بغتة ، في محاولة خرقاء لعبوره ؛ في محاولة خرقاء لعبور أفكاره ومجرى عواطفه . ضج في رأسه نفير سيارة قوي وأصوات عجلات مكبوحة . لم يلتفت . قفز راكضاً إلى الجهة الأخرى بسرعة . تناهت لأذنيه شتائم وسباب ارتفعت وراءه . كان خافق القلب مضطرباً بعض الشيء . رأى زقاقاً مظلماً فاندفع يختفي فيه . تعثر عدة مرات قبل أن يشعر بابتعاده عن ضجة الشارع . وسار ، لاهثاً ، ببطء بين الجدران القذرة . راعه . خلال لحظات اندفاعه بين السيارات المسرعة، هاجس بالخوف ، تملكه هنيهة ثم زايله . انه يتخبط ضمن دائرة فناء مجهول السبب ، انطفاء لا معنى له . كانت رائحة طعام ودهن محروق تضرب أنفه في الطريق الضيق . فُتح باب واندلقت مياه وسخة من سطلة تحملها عجوز . وسيعود لنا في النهاية، لنا وحدنا ، أن نمسك بحبل النجاة وأن نبدأ المحاولة . أن نفضل البقاء أو لا نفضله . لامست وجهه نسمة باردة هبت عليه حين انتهى الزقاق إلى شارع خال يمتد بمحاذاة عمارات تُشيد ، وتبدو في أقصاه أضوية خافتة. وقف تحت جدار قديم أسود ... قبّلها قرب الباب الخشبي الكبير في المجاز الرطب المظلم ثم احتوى جسمها فنزلت عباءتها على كتفيها وتهدلت خصلات الشعر المعطر ... أخذت خفقات قلبه تزداد فجأة فاستند على الحائط خلفه . شعر بضعف شديد ينتابه ، وسرت في رجليه ووسطه رعشة خفيفة .

كانت أحجار الحائط البارزة تنخر عظامه . ساورته رغبة في الجلوس على الأرض . كانت في بطنه عاصفة تمور وتدور . ضغط عليها وأخذ يمسح وجهه المبلل بالعرق . كان قلبه يرتجف خافقاً . ماذا يحدث له ، هو المتشرد المنتزع ! ثم فاجأته تقلصات هائلة في أحشائه فأحس بجسده المرتخي يتهاوى . تثنت رجلاه وأخذ ظهره يسحب تراب الحائط في نزوله . غشي بصره قليلاً فحاول أن يتمسك بشيء قربه . تزحلقت يداه مع حركة ظهره ثم سقطتا كالحجارة معه على الأرض الملوثة بالطين . عادت التقلصات تطحن داخله وتتعالى موجتها نحو صدره . شهق ثم سحب نفساً عميقاً . كان مغمض العينين ، تتردد نبضاته بسرعة ويتسايل العرق البارد على وجهه . سمع سيارة تهدر قريباً منه وتمر . وحيداً يحتضر هكذا على حين غرة . شهق مرة أخرى وزفر . أزعجته أصوات تنفسه وكان يحس ببلعومه وفمه يابسين مغلقين . لم يعرف ماذا يحل به ؛ ولكنه ، متكوماً تحت جدار على مفترق طرق في محلة « السنك » المظلمة ، شعر أنه قد وصل القاع أخيراً . بلع ريقه ثم مسح جبينه اللزج . لم يوغل في الزمن طويلاً بمفرده ، قبل أن يدرك الأعماق السفلى . خفت موجة التقلصات في داخله ففتح عينيه . لم يجد أحداً في الشارع قربه . أنعشته نفحة هواء عذبة رطيبة . لقي نفسه ممدداً على الرصيف القذر في زاوية داكنة الضوء ... كانت ترتجف وهي بين ذراعيه عارية بلورية خائفة العينين لا تني تبلل شفتيها ثم تخفي بأيد متشنجة نهديها النافرين الحارين ... ارتكى برأسه على الحائط وراءه . واحتواها ولم تقل له ، لم تقل له . ما كان إلا موضع سخرية لها ؛ ولم ترد أن توقظه برفق من حلمه الزاهي . صفعته . ضرب رأسه بالحجارة خلفه . تركته ينهار ، مع المرارة والروع والانخذال . دافئة الحنايا ، لينة ، ناعمة . أرادته أن يمرغ بالتراب . لم تشفع له الذكريات ولا الشوق الطويل . دق الحائط برأسه . أحس بعظام جمجمته تعيد الصدى المؤلم . انتظم نبضه وتنفسه بعد أن زايلته ثورة أحشائه . اعتدل في جلسته ونفض يديه مما علق بهما من طين ثم ثنى رجليه واستند على الأرض وقام . أخرج منديلاً مسح به رقبته ووجهه ويديه . كان رأسه يطن ويخفق . تلفت حواليه . لا زال فمه مراً يابساً . اتجه راجعاً ، يسير ببطء في الزقاق الذي أتى منه . كان ضعيفاً يساور جسمه وهن غريب . تعثر بحجارة وطمست قدماه في حفرة مليئة بالمياه القذرة .

twitter @baghdad_library

أتاه من الأفق صوت أجش متماوج يتلو آيات من القرآن . لم يميز المقاطع ولا الكلمات ، إلا أن خشونة الصوت وارتجافه أحزناه . كان يسير بخطوات مهتزة على جانب الطريق ، متعباً ، تؤلمه جهة رأسه الخلفية . سيحاول أن يغتسل في غرفته وأن يرتاح بعض الشيء ، وقد يجد ما يأكله ...

... دخل محل أوانيس للمشروبات الروحية وسأل عن حسين ثم مضى ، دون اهتمام بالدهشة التي ارتسمت على وجه أوانيس ، وأزاح الستارة القذرة التي تفصل الدكان عما خلفه . كانوا جالسين بمحاذاة الحائط على كراسيهم الخيزرانية المتآكلة وأمامهم براميل العنبة الفارغة تحمل لهم كؤوس الشراب مع المزة ؛ حسين وأبو شاكر واعرابي ملتف بعباءته لا يعرفه . رآهم على الضوء الأحمر الخافت وهم يتجهون بأبصارهم إليه . هتف :

– السلام عليكم .

أجابوا بصوت واحد :

– وعليكم السلام .

ثم بدأوا يتفرسون في وجهه ليميزوا شخصه . قفز حسين من مكانه واحتضنه فشم رائحة نتنة يمازجها مسك العرق وزفرة المزة . سمعه يهمهم :

– عيوني مدحت . هاي وين أنت ، عيني ؟

مست قلبه تلك الحركة العاطفية وأخذ يفتش عن محل يجلس فيه . ربت على كتف حسين بصمت وأبعده عنه . قام أبو شاكر وعلى وجهه بعض التساؤل وعدم الفهم وتحرك الاعرابي في مكانه ثم سكن . سحب حسين كرسياً من زاوية مظلمة وضعه جنبه ودعا مدحت للجلوس . هتفوا حالما جلس :

– الله بالخير . الله بالخير .

نادى حسين :

– ابو كمال . ابو كمال .

والتفت متسائلاً إلى مدحت نافثاً دخان السيجارة في وجهه . أجابه باقتضاب :

– ربع زحلاوي .

تأمله حسين بتردد ثم رفع رأسه إلى أوانيس :

– ربع زحلاوي بالعجل ابو كمال الله يخليك .

ارتفع صوت خشن :

– مساكم الله بالخير والكرامة .

كان الاعرابي يشير بيده محيياً . أجاب :

– الله بالخير أخي .

– هذا طير جديد ، أبو شاكر الورد صاده گبل أسبوعين تلاثة .

كان حسين يهمس في أذنه وهو مشغول باخراج علبة السجائر وتقديم واحدة منها إلى مدحت . رفضها . كان الجو ثقيلاً داخل الدكان ، ذا رائحة عطنة لا يمكن معرفة مصدرها . سمع حسين يسأله :

– شتريد مزة ؟ باگلا لو لبلبي ؟ بس هذا الموجود اليوم . تريد أكل ؟

– لاع . لاع . أكلت گبل ما أجي . فد ماعون باگلا .

– صار . ابو كمال ، ماعونين باگلا الله يخليك .

ثم التفت إليه :

– شلونك عيوني مدحت ؟ مرتين رحت للدائرة عليك . گالوا مجاز . والبارحة ، لا والله يمكن أول البارحة ، جا كرومي عليّ للبيت خطية .

– خليني دا ارتاح شوية حسين . راسي ديوجعني .

– نعم . نعم .

واطلق دفقة من الدخان ثم التفت ناحية ابي شاكر فتطلع إليه برهة عاد بعدها إلى مدحت ينظر إليه من طرف خفي . كان الجالسون والأشياء التي تحيط بهم ظلالاً يختلط فيها الأسود بالحمرة الكابية . لم يهتم بالتمعن فيهم وكان بوده أن يغلق حواسه عن دنياهم . أزيحت الستارة بعنف ودخل أبو كمال يحمل ربع العرق والكأس وصحن الباقلاء . وضع كل شيء بمساعدة حسين ، على برميل العنبة الفارغ أمامه . تكلم

twitter @baghdad_library

أبو شاكر :

– ابو كمال ، يراد فد چم طبلة بالمحل .

نظر إليه أوانيس ببرود :

– أيبي محل أخوية ؟

فأشار أبو شاكر بذراعه اشارة دائرية :

– ها .. هالمسئلة هنا .. أگول .. قضية الگعدة .

– أخوية ، آني صاحب دكان ، أبيع مشروبات . ما اتمكن آخذ اجازة افتح بار . لو كان أفتح بار ، كنت غلقته برمضان . ممنوع أخويه . رمضان هذا . بس أنا ، هاي مساعدة من عندي الكم .

ظل أبو شاكر رافعاً وجهه الداكن ونظارتيه السوداوين العريضتين إلى أوانيس دون كلام . تكلم حسين بعد انصراف أوانيس :

– شلك بها لحچاية يا أبو شاكر . طلع ديسوي فضل علينا .

رفع أبو شاكر كأسه وأشار إلى الاعرابي فرفع هذ اكأسه أيضاً وشربا . قال أبو شاكر :

– تالي هم يگولون لويش الدنيا راح تنگلب .

كان مدحت ينظم أمور شرابه . لم يعد يهمه الآن أن يمارس لعبتهم . أكل بضعة أسياخ من الفشافيش قرب باب الاوتيل مع قطعة خبز حارة ، ثم اغتسل وتمدد بعض الوقت . أدار العرق في الكأس ثم وضع قطعة الثلج والماء وأخذ يراقب السائل الحليبي .

سمع الاعرابي :

– اللهُ أكبر .

همس حسين :

– هذا صاحبنا أله فد قصة ، تالي أحچي لك عليها .

هتف ابو شاكر يكلمه :

– استاذ مدحت ، صحتك أخي .

ـ اللهُ اكبر

ورفع الجميع كؤوسهم . التهب بلعومه واحشاؤه لحظات ثم بدأت الحرارة تسري في نواحي جسمه الأخرى . لم يزل بحاجة إلى وقت قصير كي يتخلص ، كي ينفلت ويرفع نفسه قليلاً . كان يحس ببداية ما يشبه التوازن داخله : أن يكون برفقة أحد ، اختار هو أن يكون معه ؛ لانه يثق أنه سينصت إليه باهتمام .

كانوا يتبادلون الحديث والضحكات قربه ، وكان يشعر ، والخدر يزحف ببطء في حنايا جسده ، بأنه لم يكن بمثل هذا الهدوء منذ زمن وبأنه محاط نفسياً بغلاف غير مرئي يعزله عن رفاقه المثرثرين . التفت حسين إليه وقرّب وجهه منه :

ـ لو تدري شگد مشتاق لك عيوني مدحت . بس أريد اعتب عليك . هسه تگول هذا المطي گام يخربط حسب الأصول . لاكت والله يا عيوني مدحت ، يعني بصاية هلگد انت عزيز عليّ ، أريد منك تذكرني . آني أعرف شنو آني . لا تخاف على أخوك . أعرف شنو ومنو آني . لاكت طيط على هالدنيا . بأربع فلوس ما أشتري هالدنيا الجربة الواگفة على راس ثور . أربع فلوس زايدة عليها . وبالمقابل ، أرجوك ، آني هماتين ماكو أحد يشتريني بفلس واحد . مقابلة بالمثل أخي . لاكت انت مدحت .. لاع .. انت ، لاع . خلي حچايتي بفكرك . آني أعتب عليك إذا تسمح لي . خليني أعتب عليك ، ها ياب ؛ خاطر دا استراح ، خاطر احترم نفسي ، خاطر أگول عندي خيط ويه الدنيا بعده ما انگطع .

ورفع كأسه وشرب منها ثم التقط حبة باقلاء دسها في فمه بسرعة . اختلطت الظلال المحيطة برأس حسين مع تجاعيده السوداء فتباعدت عنه مظاهر الانهيار واكتست ملامحه ، على نحو ما ، بمظهر الحدة والتكامل . آه لاوياً عنقه نحو أبي شاكر ورفيقه ، يراقبهما يتهامسان . ثم مدّ يده مرة أخرى فتناول شيئاً من صحن الباقلاء وضعه في فمه . كان منشغلاً بما يدور بين رفيقيهما ، ذاهلاً عن نفسه وعن اتمام الحديث الذي بدأه فجأة معه . ثم همس في أذنه :

ـ هسه حچايتهم تنجرع . بس من يسكر هذا ابو عبعوب تنلاص علينا .

كان ابو شاكر يكلم الاعرابي بحدة وهذا ينصت إليه باستكانة ولكن باهتمام.

twitter @baghdad_library

هتف حسين :

ـ الله بالخير ابو شاكر ، النتيجة ، أخي ؟

واجهتهما سحنة أبي شاكر الغامضة لحظات . كانت نظارتاه السو داوان تخفيان نصف وجهه ، وشاربه المتهدل الطويل يمحي الفم من الصورة . أجاب :

ـ أخوية ابو سها ، أخي استاذ مدحت ، احنا خاشين بقضية ما تنحل ، آني والزميل المحترم ابو عبعوب ، وأحنا نعرف كلش زين هاي القضية ما تنحل ...

ـ اللهُ أكبر .

التفت ابو شاكر نصف التفاتة إلى الاعرابي وهو يعاود الكلام :

ـ ... فأحنا نعرف ، بس ما أدري منو گال ، نريد نلزم الصفحة البيضا منها ، أو بالأصح والمعذرة يا جماعة ، ما نريد نجوز من هالفطيسة .

رفع حسين كأسه صارخاً :

ـ أحسنتأبو شاكر . جريو بالعجل .

وكرع ثلاثتهم محتويات الكؤوس . تمطق حسين وهمس حالما وضع كأسه :

ـ لا تصدك بهالحچي . هذا ابو عبعوب ، قصته قصة . آني هسه أحچي لك عليها . فطيسة شنو ، بطيخ شنو ؟ سرسرية .

كان في نشوة وهو يستمع إلى كل هذا الهذر. بدأ العرق يعمل عمله في أعصابه منذ دقائق ، فارتدت الأشياء والوجوه والحركات ، ألو انا غيرمألوفة . كان را ضياً عن تلك الغمامة التي تلتف حول عينيه ، مسروراً بشكل من الأشكال .

ـ ... أي والله مدحت ، بنت السركال نفسها دا أگولك . حورية اسمها . ملعون الوالدين ما لگيت وحدة تحبها غير بنت السركال ؟ وانت منو ياب ؟ راعي غنم ، أو يمكن مساعد راعي غنم أخ الگحبة .

ثم غرق في ضحكة اختلطت بسعال خض بدنه . كان ابو شاكر ورفيقه في خضم حديث لا ينتهي :

ـ أخ يابه . بعدها النشلة الى هسه بصدري . انعل مذهب هالقنزونزه .

سأله مدحت بصرت أجش :

ـ شنو بنت السركال ؟ منو هذا ؟

أشار إليه حسين بيده أن يخفض صوته :

– على كيفك عيني مدحت . مو دا احچي لك صار لي ساعة . هذا چان يحب بنت السركال ، حجي علوان الجلعوط ، لا والله .. المهطور ، نسيت اسمه أنعل والديه . ويغني عليها چان . لاكت هو مثل الخادم ، تعرف . سگند راعي غنم . نص راعي غنم على گولة أبو شاكر . آني ما عليه ، هذا حچي ابو شاكر . اكو هيچي شي لو ماكو ، آني ما أدري . بس الأخ چان بها لمركز الرفيع . لاكت ربك من يريد ، سبحان الله ، وإذا بحورية ، بين ليلة وضحاها ، حامل بشهرها العاشر ، ما أدري الرابع عشر .. يعني مچلچلة بنت اليمني .

توقف ، رآه يتطلع اليهما خفية ، وقد بدا عليه التوجس والحزن لغير سبب. تساءل :

– هذوله شد يحچون خاطر الله مدحت ؟ گاعد دتسمعهم ؟

– لاع . لويش خال فكرك يمهم ؟

مط شفتيه :

– آني فكري يمهم ! لا ، على بختك .

ثم رفع الكأس وكرع منه طويلاً . أغمض عينيه قبل أن يعيده إلى مكانه :

– هذوله نص جواسيس ، نص حيوانات . ما تعرفهم على حقيقتهم . وآني هالأيام ما أدري شكو بيّه . مقهور شويه ودا أحس أكو فد شي بالجو .

رسم بذراعه عدة دوائر مضطربة :

– كل طگة ، أفز . شكو ؟ ما أدري . بس فد شي بالهوا ، بالسما ، ما ديخليني أرتاح . شنو هو ، هالمذهب الحلو ؟ ما أدري .

– وهذا ابو عبعوب ، تالي أشصار بيه ؟

استغرب سؤال مدحت :

– هياته . عرج ما يكتله . نص بطل بزمية وبيك عوازة أحياناً ، رب الكركدن . انت لويش دتسأل عليه عيني مدحت ؟

twitter @baghdad_library

ثم نظر إليهما مرة أخرى :

– مدا أسمع شد يحچون هذوله الگواويد .

– وبنت السركال حورية ، وين وصلت حچايتها ؟

– شمدريك بيها الله يخليك مدحت ؟ خاطر الله ، على كيفك لا يسمعك هذا الرب الحلو ابو عبعوب . تراه هذا خنجره بحزامه الملعون الوالدين . أنت منين سمعت بيها؟

لم يجبه.شرب من كأسه :

– شنو انت مخرف ، حسين ؟ لو دتنبى بالعجل ؟ مو هسه گاعد دتحچي لي عليها انت ؟

بدت الريبة على وجه حسين ، ريبة غبية . لم يكن يفتعل شيئاً . مد يده بسكون والتقط بعض الباقلاء ثم دسها في فمه . عاد يهمس :

– اي . اي صدك . دا انسى . ما أدري شكو بيّ هالأيام . على كل حال . هذا قصته قصة . زوجوه لحورية ؛ زوجوا حورية لأبو عبعوب ، لهذا الأجرب وهم الممنزنين . تالي دزوهم يسكنون بغداد والمصرف عليهم . گواويد ما أدري منيش خايفين ! هسه أشصار ؟ بنية غلطت، اى شنو يعني ؟ ترسية الف سالفة مكسرة جوة راس كل واحد منهم . لعنة الله على والد والديهم إلى سابع ظهر .

تناول مدحت كأسه ودلق محتوياتها كلها في جوفه بسرعة . تقلص فكاه قليلاً ؛ لكن الطعم اللاذع لم يدم في فمه طويلاً . كان الدخان يتماوج في جو ذلك الكهف المظلم : أبيض ، ليناً ؛ وجمرات السجائر تلتمع بين هنيهة وأخرى . سمع ابا شاكر يتجشأ ثم يتنهد ويقح :

– البارحة ابو سها رجعت أشوف ذاك الحلم اللي حچيت لك عليه گبل شهرين . حلمت مرة لاخ دا أقود مظاهرة يا جماعة .

– اللهُ اكبر .

– اي والله ابو عبعوب ، مظاهرة من صدك يعني وأخذوك على راسها ، وأحنا نركض ونهتف « متأسف جداً للغاية » والدنيا يا اخوان ...

... أرادت أن تقول له شيئاً حينما تركته يسحبها ، ذات ليلة قبيل الزواج ، إلى غرفته . كانت مبتسمة أول الأمر ، يتناثر شعرها على عينيها خلال تطلعها إلى نواحي الدار

الساكنة قبل أن تدخل . ثم أمسك بها ، احتضنها مشغوفاً وأطبق بفمه المحترق على شفتيها . أغمضت عينيها ومنحته الشفاه الطرية المبللة ، ولم يسعها الكلام . وفي تلك الهنيهات الأثيرية ، خارج حدود العالم والزمان ، كانت الراحة الأزلية المتأتية من تملك الكون ، تفعم فؤاده . كان يشدها بذراعيه ، يطوقها ويضمها إليه ؛ وهو خائف متردد حذر من سعادته الفائضة . سحبت فمها وزفرت بشدة وصدرها يدفع صدره ؛ ثم همست شيئاً ما فرفع يده إلى وجهها وأمرها على صفحة خدها الحارة وعلى رقبتها . كانت عيناها الصفراوان تعكسان أضواء غير مرئية . همست مرة أخرى بكلمات لم يفهمها . ثم غامت قليلاً رؤياه . كان متوتراً تحرقه الرغبة المجنونة . لعلها أرادت آنذاك أن تفهمه بأمر معين عبر كلماتها التي لم تصله . مد يده نحو صدرها يمسك بالنهد النافر . كانت ترتجف ورآها تبلل شفتيها فعاد يطبق عليهما . لم يكن في العالم غير ذلك المذاق الطيب المتأتي من فمها وغير تلك الملامسة الناعمة . وكانت أصابعه قد تجاوزت حدود القماش واندست برفق ، أول الأمر ، تلاحق طراوة اللحم اللين . شعر بها مستسلمة له ، ولم يدخل في وعيه ارتجافها المستمر . كان ممسكاً بقسم من ثديها الأيسر العاري كطير صغير حار الجسم . منعته فتحة الثوب الضيقة من تملكه ، فدفع يده بشدة فسمع انقطاع الخيط وسقوط شيء على الأرض ، واحتضنت أصابعه بغتة نعومة النهد المهتز بخفة وسمعها ، تحت فمه ، تشهق . أذهله عمله ، ثم نزل بفمه نحو رقبتها وصدرها فغطى صفحة عنقها بالقبل وأراد أن يرفع الثوب ويصل بشفاهه إلى الأسفل لكنها سحبت نفسها قليلاً وجلست على طرف السرير خلفها . لا . لا . لا . لا . كانت هذه هي تنهداتها ورآها تضع يداً رفيقة على يده المختبئة تحت الثوب . كان قلبها خافقاً ، ترتجف نبضاته وتتسارع بشدة . شعر بنفسه يمسك بقلبها أثناء ما كان يحتوي النهد الدافيء ويعصره . كانت تمنحه ، بشكل غامض ، حياتها ، ولم يخطر له آنذاك أن يتساءل عن السر في ذلك ...

— جريو . صحتكم يا جماعة . جريو بالعجل .

— الله أكبر . الله أكبر .

كانوا يصرخون لسبب لم يعرفه ، ويضحكون رافعين كؤوسهم إلى أعلى . تناول

twitter @baghdad_library

قدحه هو الآخر وعب منه . هتف ابو شاكر :

– شوف ابو سها ، الحچاية هي مو آني دا أقود مظاهرة سلمية لو مو سلمية ، الحچاية آني لويش دا أشوف هالحلم كل چم يوم ؟ ها يابه ، استاذ مدحت ؟ هو شنو الفرق بين الحياة والحلم ؟ كلها أحلام وداعتك ابو عبعوب ...

قاطعه حسين :

– صح ابو شاكر ، صح . لاكت أحنا ملاحظتنا على الشعار .. متأسف جداً للغاية ، شنو ياب ، اويش متأسف أخي ؛ ولويش طالع مظاهرة وشالع گلبك وگاوب الناس إذا أنت متأسف للغاية ؟

وقهقه . عاد أبو شاكر :

– شاهدنا والسلام ، نريد نعرف الحقيقة من هالأحلام يا جماعة .

– منو يگول اكو حقيقة بيها ؟

دهش ابو شاكر وابقى الكأس في منتصف الطريق إلى فمه :

– ليش ماكو حقيقة ابو سها ؟ تره البشر كلهم يموتون إذا ماكو حقيقة . آني أحذرك .

همس حسين :

– شو وين راح يخششنا .

ثم هتف :

– عيوني ابو شاكر ، آني مو ضد الحقيقة . آني يا هو مالتي . لاكت شوف أجدادنا هم يسموها أضغاث أحلام ، مو آني ؟ شنو علاقتها بالحقيقة ؟ تمام يابه مدحت ؟

التفت ابو شاكر إلى جراره :

– ليش ساكت ابو عبعوب ؟

نفث ابو عبعوب دخان سيكارته بقوة ولم يتحرك . كرر ابو شاكر سؤاله :

– ابو عبعوب الورد ، لِمَ السكوت يا أخي ؟

ارتفع صوت الاعرابي :

– صلي على النبي خالي وگول اللهُ أكبر .

ضحكوا .

أغمض عينيه فدارت به الدنيا . استراح لدورانه ذاك وود لو استطاع أن يغني أغنية حزينة ، أو أن يسترسل مع الشلال الخفي الذي يهدر داخل أعماقه وينتقل معه من عمق إلى أعمق واعمق ؛ عساه يكشف عن النفس المفعمة بالأسرار التي لم تزل مغلفة بألف غلاف . النفس ، نفسه ، التي يهرب منها . هروب هو أشبه بالهروب من الشمس أو من الموت . هروب تعيس محكوم بطبيعته أن يكون موقتاً ، محدوداً بزمان . لعله هروب من أجل استرجاع الأنفاس ... ربما .

سمع حسين يكلمه :

– ... باشا والله كرومي . رقيق ، حساس ومرد بنفس الوقت .

فتذكر أن أخاه عبد الكريم زاره :

– شكو عنده كريم وياك ، حسين ؟ لويش جا عليك ، ها ؟

كان حسين يحشو فمه بالباقلاء فتوقف ثم استدار إليه ببعض الدهشة :

– ذكرتني رب الحلو مدحت .. العفو .. عيوني مدحت ذكرتني . لساني هالأيام مجرور على غير مستوى . لاكت انت هسه ذكرتني . كريم تره جا يسأل عليك . ليش أنت وين أخي ؟

... كان وجهها المنور الهاديء ، هو نفسه حين جاء يسألها عن محتويات رسالة أخيها وحين طالبها بتحديد يوم الزواج وحين خرج ذلك الفجر من حياتها وأراد أن يغلق باب غرفتهم خلفه فوجدها نصف جالسة في فراشها ، فراشهما ، ووجهها المنور الهاديء يتركه أمام مصيره ...

– ... گلت له عيوني كرومي ، خليني افتهم بعض الحقايق . چنت دايخ شوية . شربت هواية گبل ليلة . وربك كل ما أشرب شوية زايد ، تجيني ثاني يوم كل مشاكل الدنيا . تعال حل مسائل عويصة وانت راسك مو بمكانه .

صاح ابو شاكر :

– صحتكم اخوان . وينك ابو عبعوب ؟

twitter @baghdad_library

– چريو أخي . چريو بالعجل .

وتعالت أصوات الكؤوس توضع مكانها على براميل العنبة . صفق ابو شاكر بشدة :

– ابو كمال . ابو كمال . ماي وثلج الله يخليك . انت شگد العوازة مالتك هاليوم ابو عبعوب ؟

– نص ربع ، خالي .

– نص ربع مستكي ابو كمال مع المزة المشهورة الله يخليك . ناويها الليلة ابو عبعوب ؟

– اللهُ اكبر .

ثم ارتفع صوته مغنياً :

– چن ألولف .. يمه حو .. چا وين أهلنا .. چا وين .. چا وين أهلنا .

همس حسين :

– هاي بداية اللواص .

ثم عاد يسأل :

– وين وصلنا ؟ ها . فآني دايخ وكرومي الله يسلمه يحچي الحچاية على النص . هواية حرت وشطت . شنو مدحت ماكو ؟ شنو طلع ؟ شنو تزوج ؟ گلت له عزيزي كرومي اوگف . اذا ما تنطيني الحقايق قطرة قطرة فعلى الأقل حسب الحروف الأبجدية .

كان ابو عبعوب يتجشأ ويعتذر ثم يعاود الغناء ، وابو شاكر يتناول أطباق المزة وقنينة العرق من يد ابي كمال ويصفها بعناية أمامه . سأل حسين :

– لويش .. لعد .. چا .. عليك كريم ؟ أگول لك .. شكو .. عنده وياك ؟

بدا له صوته خشناً ، يتلاين في بعض المقاطع دون ارادته . أجابه :

– مو دا حچيلك عيني مدحت . هو چا يسأل عليك . يگول مدحت عندك ؟ مدحت شفته لو ما شفته ؟ مدحت ما تعرف أشصار بيه ؟

ثم رفع كأسه إلى فمه :

– آني .. تعرف عيني مدحت .. كلت له كرومي أخويه ، ليش آني أعرف نفسي وين خاطر أكولك مدحت وين ؟ ثم ، عيوني انت ، مدحت لويش يطلع من بيته يابه ؟

... انفرد أخيراً بُعيد منتصف الليل ، وكانت في ثيابها البيضاء البسيطة والوردة الاصطناعية الحمراء الصغيرة على النهد الأيسر . مزوقة الوجه كحيلة العينين . ولم يكن قلقها خافياً . طلب بحزم من أهله أن يخلدوا إلى النوم وألا ينتظروا منهما شيئاً ، وكان متعباً ، ترهقه الأشواق وتفاهات المراسيم التي مرا بها . أحس بها ، بشكل ما ، بعيدة عنه ؛ وارجع ذلك إلى قصر مدة تعارفهما قبل الزواج . قال لها ...

– ... چاوين اهلنا . چا وين . چا وين أهلنا .

– ما يريد يگول لي صارت خطبة ومهر وزواج وآني ما أدري ولا أعلم . حسيت ديستحي من عندي . تأثرت ، لا والله شطت .

– اعد ابو عبعوب . ورد حقيقي انت .

... كان الحوش ساكناً ، وكانت تجلس على حافة السرير تنظر إليه . صفراء العينين وفمها ذو حمرة لامعة ؛ وكانت تعصر المنديل بين أصابعها وتبدو ذات هموم أكبر مما يتحمله موقفهما . اقترب منها وقبلها دون أن يمسها وكانت تنظر إليه . لمح شيئاً ما خلف كل هذه الملامح الجميلة والالوان. احتضنها ولمس اللحم الطري البارد وشم تلك الرائحة العطرة النفاذة منها ، ونسي ، خلال لحظات ، تعبه والأصداء المترددة داخل نفسه وصار يستجيب لمتطلبات جسده المتحفز . كانت تلك الهنيهات فترة راحة لهما ، لم تستمر طويلاً ... كرع محتويات كأسه ، أفرغها من السائل المحرق ولم يهمه الطعم المرير في فمه . كان مهتاجاً ، تغلي مشاعره بهدوء دون أن يرتد جسمه بردود فعل مؤلمة ؛ وكان حديث حسين وغناء ابي عبعوب الحزين يمسان نفسه مساً رقيقاً. سمع حسين يكلمه بصعوبة ، داكن التقاطيع :

– ... سمفونيات تقوي عضلات روحهم . واحنا .. أخينا يالله .. يتحسر على أهله وعلى الباعر مال روح موتاه . سگند خروف وگاعد يجوعر براسنا . هاي شلون عيشة عيوني مدحت ؟

twitter @baghdad_library

أجابه بصوت أجش مراخٍ :

– انت .. لو .. لويش حاقد علي .. ابو بعبو .. عبعوب ؟

لم يقصد أن تتعثر كلماته هكذا ؛ وخطر له أن من الأفضل أن يتحاشى الجمل الطويلة . تلفت حسين بسرعة ثم أشار إلى الاعرابي :

– أحقد على ابو عبعوب ؟ لا والله مدحت ، ما عندي قوة ، مالي خلك أحقد على أحد . لا . ماكو هيچي حيل ولا قوة .

– آني .. هم مثلك . ما عندي حقد .

– لويش عيني مدحت ؟ شاب وموظف ومتزوج والمستقبل گدامك ، ليش ما بيك حيل تحقد ؟

اختلطت الأمور قليلاً عليه . لم يعرف هل كان حسينُ هازلاً . مسح وجهه وعينيه براحة يده اليمنى . سمع ابا عبعوب :

– يمه حو .. يمه حو .. چاوين أهلنا .. چاوين .. چاوين أهلنا .

أيحن هذا المخلوق المتبلد إلى أهله ، وطنه ، رائحته الخاصة ؟ ويرفض الحياة التي رتبوها له مع حبيبته الخاطئة ؟

– على كيفك اخي من فضلك . الدنيا رمضان والشرطة رايحة جاية .

كان ابو كمال يتكلم بهدوء وهو يقفُ نافدَ الصبرِ أمامهم . وجموا ، ثم أخذوا يشغلون أنفسهم بأمور الشراب كأن الحديث لا يعني أحداً منهم . خرج ابو كمال . تمطق ابو شاكر وتجشأ ابوعبعوب . قال حسين يحدث نفسه :

– اشهد ما بالله خوش موسيقى . سمفونية بشرية ، بس شوية منحرفة عن الأصول الموسيقية . ينراد لهم مايسترو قوي وتمشي أمورهم .

ثم ضحك دون صوت ووجه الكلام إلى مدحت :

– هاذي بداية القسم الثالث من سهرة المساء ، فاذا لازمنا الحظ إلى نهاية الجولة ، يمكن أن تشوف أخي مدحت بعض أعاجيب الطبيعة . تره انت معزوم عندي اليوم ومشروبك على حسابي . تدري لو ما تدري ؟

– شكو عنده كريم ؟

تطلع إليه بدهشة :

– انت شبيج عيني مدحت ؟ لويش بالك يم كرومي ؟ ما عنده شي . والله ما أتذكر گال فد شي مهم . يمكن وحده من العجايز وجعانة، بس ما أگدر أگلك منو هيه.

– ... يمه حر .. چاوين أهلنا . چا .. وين .. چاوين أهلنا .

– لا ، شكو .. عنده كريم ؟ بالبيت .. كلهم زينين ؟

– كلهم زينين . هم شكو عليهم . انت .. أنت .

ثم ضرب حافة الكرسي براحة يده :

– انت عيني مدحت ، شكو عندك گاعد وينا بها لاسطبل ، وتارك الحلوة وحدها بالبيت ؟ انت تدري يا عيوني شمضيع ؟

رأى ذراعه تمتد نحو كأس العرق وترفعها ثم تقربها بطيئاً من فمه . أحس لذع السائل المر وحرارته في أحشائه :

– أشكرك .. ابو سها . آني مرتاح هسه وياكم . هذا .. مو اسطبل .. بالمناسبة . ولا هو زريبة . آني .. دا أحس آني مرتاح وياكم . ماكو واحد ، يعني من الگاعدين ، يريد يخدع أخوه . تمام يابه ؟ ماكو هيچي شي . انت گاعد تشرب وآني گاعد مثلك ، والأخ ابو شاكر والأخ ابو بعبوع .. العفو .. أقصد .. ابو عبعوب . كلنا گاعدين اخوان . ماكو واحد يخدع اللاخ . زين ، انت لويش تگول هذا اسطبل؟ الحيوانات ، ابو سها ، اذا تريد .. يعني تخليها على مستوى الغش والخداع ، فهي ما تعرف تقشمر الواحد على اللاخ . ما عندها وكت أخي . ما عندي شغل أخي آني أحوك مؤامرات من أجل التسلية ؟ شكو عندك .. هي كلمات متقاطعة ؟ فآني ما مضيع شي . من الناحية الثانية ، لأن بهالدنيا الجربة أنت ما تضيع غير حياتك . آني حياتي ...

– تعذرني استاذ مدحت .

– آني حياتي وياكم . مع القطيع النقي القلب ، الغبي . آني سعيد مع الأوادم الجيدين . جيدين ، شنو ؟ ما ياكلون حق غيرهم . لويش ما ياكلون حق غيرهم ؟ لأنهم زمايل .

twitter @baghdad_library

سمع ضحكاً مكتوماً فالتفت . كان ابو عبعوب ساكتاً ينظر إليه برزانة وابو شاكر محشو الفم بشيء يمضغه بصعوبة . رجع ينظر إلى أبي عبعوب :

– نعم ؟

– تفضل ، خال خالي .

– صحتك ابو بعبـ .. عبعوب . آني هواية متأسف لأن ما متعرف عليك من كَبل . فآني ، ابو سها أخي ، ما مضيع شي . والناس .. الكَاعد تحجي .. عليهم .. بالحقيقة .. آني كل شي .. ما عندي وياهم . آني مدا أفتهم هالناس .. يعني شيريدون مني .. يعني أشچانوا .. يريدون ، أرجوك ؟

– خالي ، أنت بعيد عن هلك ؟

كان ابو عبعوب يعيد الكأس إلى مكانها وهو ينظر إليه بعينين سوداوين كعيني ذئب . لا غرو أنه راعي غنم :

– الأهل ؟ منو هم الأهل أول نوبة ؟ ابو بعبـ .. عبعوب ؟

تدخل حسين :

– أخ ابو عبعوب ، الاستاذ مدحت موظف بالوزارة وهو بغدادي أباً عن جد وكرايبي هماتين .

– العفو ، خالي . آنا ما قصدي ...

– لاكت آني ما عندي أهل ابو .. ابو عبعوب . والأخ حسين تره غلطان ، أرجوك

– هاي شنو مدحت ، عيني .

رفع ذراعه اليسرى إلى أعلى :

– لا . لا . لا . شوف ابو سها ، شوف ، الأخ ابو بعـ .. أبو عبعوب ، نعم ، سؤاله وارد . وانت تعرف زين ، أبو سها ، منو الأهل ؟ أنت .. أنت مثلاً .. انت منو عندك ؟ أنت منو بحياتك هسه ؟

– الكأس والخمرة وصحن اللبلبي .

أجاب أبوشاكر ضاحكاً بضحكه وهو يرفع الكأس ويشير بكلتا يديه ، يحث أبا عبعوب على الشراب . شاركه حسين الضحك دون أن يبدو عليه الانزعاج . كان بوده

الاستمرار في الحديث رغم هذه الاستجابات . لم تتماكه مثل هذه الرغبة من قبل في الانفتاح وفي ابداء الرأي . صاح وكأنه يتكلم بشكل اعتيادي :

— كلامك نص صح ابو شاكر . هاي الأشياء ما تخونك ، اذا تسمح . يعني الگلاص فد يوم ما يصير جرة بين ايديك ، ولا العرك دبس .

تعالت ضحكاتهم المختلطة وتسربت إلى أذنيه كلمات ابي عبعوب :

— ولا الليلي .. بعرور . لا ، خالي ، ما الداعية ؟

كانوا ، في ظلمة الحر المثقلة بأنفاسهم ، يشهقون بدخان سجائرهم وبشرابهم فتتعالى أصداء قحاتهم مع ماتنفثه رئاتهم المخربة . ضرب على سطح البرميل قبالته عدة ضربات فتقافزت الصحون والكؤوس وصرخ مكملاً حديثه :

— تشبيهك .. هم وارد أخ .. بعبوب .. أكول ابو عبعوب .

— ماني عاملها عمدة خالي .

أغضبته هذه المقاطعة :

— خليني أكمل سيد .. عبعوب ، أخ أبو عبعوب .. خليني أكمل .

سكنوا قليلاً . نسي لحظة ما كان يريد أن يقوله . نسي فكرته :

— أريد أگول فد حچاية وحدة بيها معنى ، أخوان . صار ساعة طامسين بلغوة ما ألها نهاية . خل دنفتهم حچاية وحدة على الأقل .

كان متقطع الأنفاس ، يلهث بهدوء وهو يتكلم . لم يرد أن يتوقف أو ينتهي حديثه هكذا ، كانت في نفسه حاجة للاستمرار إلى الأبد . سمع ابا عبعوب :

— خالي ، آنا أتشاغه . آنا ما أريد الا خاطرك طيب .

أجابه ابو شاكر :

— ولو ابو عبعوب . أحنا دنشاقه هماتين . لا تدير بالك .

— انت علويش هسه دتشاقه يا ابو عبعوب ؟ مو الاستاذ مدحت ديتفاهم ويانا .

أكمل حسين . بدا على الاعرابي كأنه يحاول الاعتذار . سكن لحظات :

— آنا .. يا خوان .. من حلاة روحي .

twitter @baghdad_library

– انت شبيك هالنوبة يا ابو عبعوب ؟

– شنهو ؟ لا . ما شي إلا الخير . ماني مرتاح يا خالي . هلي هي المسعلة . روحي يم هلي . أريدن أكون جريب عليهم ؛ على الغنمات والعتابة وطرة الفجر والهوا الطيب والخبز الحار والحليب ... والروايح .

ثم أخذ يهز رأسه من جهة لأخرى ، كمن يغني أو كمن يداري ألمه .

– يا روايح ، أبو عبعوب ؟ ريحة الروث وضراط الزمايل والأباعر ؟ ما تخلينا عايشين بين هالوجوه الحلوة وماي الورد . خلينا أخي .

ثم رفع ابو شاكر قدحه فتبعه ابو عبعوب بسكون . شربوا جميعاً . كان حسين يهمهم شيئاً ما ، يلوك كلمات لا تصل أذنه . خبت في نفسه تلك الرغبة في الكلام وأحس تعباً وخموداً ينتابانه . ثقلت أجفانه وانبعثت في رأسه بداية دوامة . أشعل سيجارة وخطر له أن من المستحسن أن يغسل وجهه بماء بارد . التفت إلى حسين . رآه يكلم ابا شاكر . أمسك بذراعه . كان رأسه يدور . قال لحسين :

– شوف .. حسين . شوف تره .. آني يمكن .. شوية دايخ .

قرّب حسين وجهه منه :

– شنو ياب ؟

– اگولك ، تره دايخ .. شوية دايخ .

– ليش عيوني مدحت ، الليل بعده بأوله والفصل الختامي ...

ثم سمعه ينادي :

– ابو كمال .. ابو كمال . الحساب بالله ابو كمال .

– اشو من وكت ابو سها ؟

– خلهم خالي يرحون لهاليهم .

– نعم ، سيد حسين ؟

– الحساب ابو كمال . اي ، أحنا الاثنين . بالعجل بالله .

... كانت مضطجعة بسكون ، لا تريد أن تبوح له بسرها ؛ وكان محترقاً بنار

تتأجج في داخله وتصل قلبه وعقله . ولمست جبهته وانكشف نهداها المستديران فتركتهما لعينيه ولأنامله وشفتيه . لم تتكلم . امتص شفتيها ؛ السفلى المتوردة ، وضعها في فمه وضغط عليها بأسنانه ؛ وكان مغمض العينين ، مستسلماً لدفئها ورائحتها ونعومتها ، فأحس بها تحرك لسانها وتمس به شفته . رآها نصف مغمضة عينيها والصفرة الذهبية المشوبة بخضرة خفية تبدو له من وراء الأهداب السوداء . أحس فيها نبضة الشهوة الأولى وإيماءة الحب . أنها لا تكره كل هذا ، ولعلها لا تخشاه مثله . عصرها ...

– خليني جاعد يا خالي . يا هي مالتي آنا .

– لا تتعيقل براسي ابو عبعوب . طلع صرتك وادفع حسابنا .

– انت شمالك يا ابو شاكر ؟ چنك مهمود الصفحة أخو كاطع . تتكاون ويا الهوا.

– يا الله عيني مدحت .

قام مع حسين يسير بتخاذل لم يعهده قبلاً ونظره مضبب

– ... هاي عليّ هالنوبة ابو عبعوب ؟ دحگّ هنا، تره آني بايع فرارات وخبز يابس ، تره آني ...

منحه الهواء البارد لحظة ارتياح فاستنشقه ملء رئتيه .

– عربنچي . عربنچي . او گف ، أو گف .

ثم استدارت به الدنيا من هنا إلى هناك وتقلبت بعض المناظر أمامه فاتكأ مغمض العينين ، على ذراع حسين .

– تعال أخي جاي . شو رب الحلو وين وگف . عيوني مدحت. أنت ترجع لبيتكم . مو هيچي ؟

– لا .. ع . لا .. ع . لا .

– أويلاخ . وين نازل لعد ؟ وين تريد تروح ؟ شنو ؟ هاي شلون طرگاعة . تعال ارجع شوية لاخ . شنو ياب ؟ شنو سكارى ؟ ماكو عدنا واحد سكران . انت دير بالك على خيلك . أخاف انت سكران ! هسه وين تريد تروح عيوني مدحت ؟

لم يجبه . امتدت يد تحت أبطه ورفعته فارتقى درجات العربة ثم تهاوى على المقعد .

– إنا لله وانا إليه راجعون . ودينا يابه لعگد الكراد بذيچ باب الشيخ . ورا گهوة

twitter @baghdad_library

ياس . تعرف انت زين المنطقة ؟ شيخلي ، جنابك ؟ تشرفنا . بعد علويش هالحچي كله يابه . دمشي ، دمشي الله يخليك .

... كانت معتصرة بين ذراعيه ، متلاينة تحته ؛ تتلاحق أنفاسها ذات النكهة الغريبة . ابتعد عنها قليلاً ، رفع صدره عن صدرها العاري . أخذ يتملى من رؤيتها هكذا . منيرته ، زوجته ، حبيبته . كانت رقيقة الجلد ، ممتلئة النهدين والبطن . جذبت نظره لحظة عظمتا حوضها ورآها تغلق ببطء فخذيها . كانت معتصرة ، لا تتكلم ، تحته . كانت تقول له بجسمها ذي السمرة الخمرية، شيئاً لم يكن يفهمه . وحين جذبته إليها كأنها لا تريد منه أن يطيل النظر في خفايا الجسد ، أحس بها تعيد فتح فخذيها لتحتويه ...

كان الهواء بارداً ، مشوباً بروائح طعام محروق ، وأرجل الخيل تضرب الشارع برتابة وبعض الأغاني الخافتة تصل أذنيه من حيث لا يدري . لم يشعر بحسين قربه ففتح عينيه . رآه مستلقياً ، مثله ، إلى جانبه واضعاً ساقيه على المقعد أمامهما . كان الحوذي يغمغم أغنية مع نفسه وشارع الكفاح الفارغ ، مغلق المحلات إلا من مقهى أو اثنين . عاد يسدل أجفانه الثقيلة ويستسلم لأرجوحة العربة المهدهدة وللنسائم الخفيفة الباردة . دار رأسه وامسكت به دوامة حالما أغمض عينيه . صارت ترفعه وتدور به وتدور ، دوائر فوق دوائر داخل دوائر . سلسلة من الدورات المدورة بلا معنى ولا هدف . لم يقاوم . أحس بأحشائه تتخاذل أمام ضغط الدوار عليه ، فتضطرب وتفور . سمع أحدهم :

— وين يا جماعة ﮔلتوا تروحون ؟ عگد .. شنو ؟

قح حسين بعنف وأشعل سيجارة :

— لا تغشم نفسك أخي الشيخلي . أحنا وين هسه ؟ هاي مو فضوة عرب ؟ بعدنا وين ! مو ﮔلت لك ورا ﮔهوة ياس . بعد كبل أخي . من توصل مكبرة جامع الكيلاني ألفت على اليمنة . وين القلغ ، هو هذاك الشارع . شنو ؟ شنو يا قلغ ؟ مركز شرطة باب الشيخ أخي . تره انت ثخنتها . يبين عرني هم ما تفتهم .

كان الاصغاء إلى حديث حسين يبعد عنه الغثيان بشكل ما ؛ الغثيان الذي يحس الا مندوحة منه الآن أو بعد قليل ، أو بعد طويل زمن . لكنه ، هذه المرة ، يشعر أن بامكانه أن يواجهه ، أن يتغلب عليه ... حين انتهى كل شيء خرج من الغرفة يتمشى في ناحية من الدار دامسة الظلام . كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحاً والليل جاثماً على الدنيا المرعبة ؛ وكان موزعاً مشتتاً . أراد أن ينزل فلم يستطع ووقف في زاوية بعيدة من الطارمة مستنداً على المحجر الخشبي البارد . كان يرتجف ، واحشاؤه وصدره تفور . لم يرد أن يرى بشراً . داهمه هذا الاحساس لحظتئذ ولم يفارقه . لم يرد أن يرى بشراً . كان مشمئزاً ، مهاناً ، يريد أن يخلد إلى صمت أبدي . آنذاك ، وهو يتطلع إلى ضوء غرفتهم الخافت ، هاجمه غثيان مزيف . اهتز بدنه المرتجف بموجة من التقلصات تبعتها أخرى فامتلأ فمه بسائل مر المذاق ودمعت عيناه . كان مطحوناً ، لا ترتبط أفكاره بواقعه . تهوع مرة ثالثة واستند إلى المحجر لاهث الأنفاس . كان بمقدوره أن يموت بسكون هناك . إلا أنه لم يرد أن يرى أحداً . تلفت بذعر حين تخيل أنه سمع حركة ما . كانت السماء داكنة لامعة تبرق عليها النجوم والحيطان العالية السوداء تحيطه مثل حيطان البئر . لم يرد أن يرى أحداً . عاد بهدوء إلى الغرفة يرتدي ملابسه . كانت غافية ، ينتشر شعرها على المخدة ويخفي بعض وجهها . لبس ملابسه كاللص يخشى أقل نأمة تصدر عنه . لكنها استيقظت حين كان يهم بالخروج من غرفتهما . جاست متكئة على السرير ، منورة الوجه رغم الارهاق وفي عينيها المضببتين تساؤل مؤلم . ولمح ، قبل أن يفصله الباب عنها ، الخط المدور لنهدها الأيمن والتجعدات الرقيقة لما تحت إبطها ...

— مدحت ، عيني مدحت ، تروح للبيت ؟ تره وصلنـا شارع الكيلاني وبعد وكت هسه . إذا تريد ...

قاطع حسين بفزع :

— لا . لاع . لاع . لاع دا اگولك .

ثم تابع :

— وديني للأ .. وتيل . منو گال لك .. أنت .

توقف :

twitter @baghdad_library

ـ أحنا وين ؟ وين أحنا ، حسين ، ها ؟

ـ على كيفك مدحت ، على كيفك . ما دام هيچي القضية ، ما عليك انت . لا يظل بالك . آني أعرف وين أوديك . ميخالف . تنكضي . امشي گبل أخي ، على طريقنا القديم . على الدرب القديم نسير . أمشي شوية بعد ، من توصل الشارع مال القلغ ألفت على اليمنة . افتهمت ياب ؟ ديالله أخي .

ثم ربت على كتفه :

ـ ميخالف عيني مدحت . انت اليوم ضيفي حتى مطلع الفجر . بس لو ناطيني خبر على بختك گبل فد مدة مناسبة ، فد اشعار بسيط . ميهم . أخوك مستعد اكل طاريء . ميهم .

لم يفتح عينيه . بدا له الاستسلام لتلك الدوائر الدائرة ، لذيذاً غير ذي خطر ؛ ولو انتهت ليلته هذه دون تعقيدات الغثيان وملحقاته ، لأمكن أن يقول عنها أنها كانت سهرة ناجحة . إلا أن الفوران المستمر في أحشائه وصدره ورأسه ، يجعل هذا الافتراض غير معقول . وعندئذ ، يتوجب مواجهة الأمور على مستوى آخر ، هو : مدى افتراس الغثيان له ؟ أو ، إذا أمكن أن نضع السؤال بصيغة أخرى ، ماذا سيبقى منه بعد تجربة الغثيان المقبلة ؟ بالطبع الجواب هو ...

ـ اي . اي أخي . على اليمنة . شنو وين صار القلغ ؟ دمشي شوية أخي . أحنا راح نوصل وهو يسألني وين صار القلغ . أنت يا هو مالتك ؟ مدحت عيني ، ما عندك ولا طگة خردة ؟ آني بقى عندي نص دينار أعزل ، أخاف أسلمه لأخونا الشيخلي ...

مد يده إلى جيبه فأخرج حفنة من القطع المعدنية اختطفها منه حسين بسرعة . كانت العربة تتمايل بشدة والحوذي يهتف بخيله شاتماً لاعناً .

ـ يمك أخي . يمك . هاي شنو ؟ على كيفك . لويش دتشتم الخيل ؟ صوچ ، ذنب ؟ تفضل أخي . هاي مية وخمسين فلس . يالله عيني مدحت . شنو ، ياب ؟

ـ ماكو شي عمي . شوية دا أكفر بس وألعن هالدنيا الزفرة .

ـ وأحنا شعلينا أخي ؟ روح اكفر أبيتك ، مو يم الجامع ، يم بيت الله . تمام لو لاع ؟ واحنا بأول أيام رمضان ، سيد . هاي خوش حچاية حچايتك .

كانت المصابيح الكهربائية القوية لا تزال مضاءة في مقهى ياس ، وبعض الجالسين يدخنون النارجيلات . نزل من العربة ببطء . كانت مفاصله متراخية ونظره زائغاً ؛ لكنه توقف بثبات ينتظر من حسين أن يقرر وجهتهما . شعر بأنفاسه ثقيلة وفي أعماقه ما يشبه الصخر . أمرّ براحته على صدغه فوجده ندياً بارداً . سمع حسين :

— ما أدري مدحت ، يعجبك تكّعد راسك بفنجان كَهوة مرة لو استكان چاي ؟ تره بعد وكت هسه .

أشار رافضاً وبقي ينتظر . لم يكن يشعر بحرج ولا بانزعاج من وجوده مع حسين . كان الأمر طبيعياً بغير اختلال . سمع حسين يحدثه وهو يتلفت كأنه يبحث عن شخص ما في الجوار :

— يالله يابه . عبالي أشوف هذا الكَواد ابو الصميط . داسني الجوع شوية . دير بالك تره الكَاع مرشوشة ومليانة نكَر .

كانا يسيران متلاصقين بين صفي القنفات . اخترقت أنفه رائحة كريهة من التبغ والتراب والماء وتزحلق مرة أو مرتين . واجههما زقاق بدا مظلماً كالكهف فدخلاه . تركه حسين يسير بمفرده ، ثم سمعه يحدثه بصوت عال :

— عيوني مدحت ، انت تعرف شگد أنت غالي عليّ وشگد آني أعزك ؛ بس ما أريد ادّخل نفسي بحياتك . عندي حچاية زغيرة گاعدة تنق بدماغي صار ساعتين. آني ما أريد أتطفل عليك عيني مدحت . اعتبرني أخوك بس ، لا كت يا عيوني لا تأذي نفسك مثل ما سويت آني . لا . لا . ما عندي نصايح هواية . منو يسمع مني نصيحة ؟ مخابيل الناس ؟

قهقه مقاطعاً نفسه :

— لا كت وياك ، عندي حچاية زغيرة بس . شوفني آني هسه ، باوع عليّ عيني مدحت . آني شنو ؟ آني ما أحل مشاكل . آني موحل ؛ آني تأجيل . آني هروب . زوغان . تفادي .

وكان يحرك ذراعيه بحركات افعوانية :

— بس شوف ربك ، شلون التأجيل صار ويه الزمن حل واقعي .أمر واقع أخي تگدر

twitter @baghdad_library

تبني عليه مذهب فلسفي إذا تريد . آني أنطيك كل المقتضيات والمعطيات . وهكذا ، عيوني مدحت ، بقى أخوك يقاوم مثل الصكر ؛ بس صكر معلك من ذيله . لا للموت ولا للحياة . لاكت ، مع ذلك ، أكدر أركص ويه الهوا . شوف ...

ابتعد عنه قليلاً وصار يقفز ويرفع احدى رجليه من جهة ، والثانية من الجهة الأخرى ؛ شبحاً أسود أخرق . ثم أطلق ضحكة عالية . كانا في ملتقى أزقة مربع شاحب الضوء تتوسطه بركة من الماء الآسن . توقف حسين لاهثاً :

— منا عيوني مدحت . انت راح تنام بفراشي الليلة . انت ضيف الشرف ؛ ولحسن الحظ الليلة مو باردة كلش .

توجه إلى اليمين وهو لا يزال يقفز قفزات متقطعة :

— ماكو مشكلة ، عيوني مدحت ، ما ألها حل . والحقيقة تره ، أكو حلول ضايعة ، لو ندّور عليها نلكيها . لاكت كل هالحجي مو هو المقصود ، خرة بأجدادك ابو عبعوب الله يذكرك بالخير .

وتعالت قهقهاته :

— ابن اليمنى ، يريد يرجع لأهله ياكل بعرور !

توقف أمام باب عتيقة حائلة السواد ، يختفي قسم منها تحت أرض الشارع :

— تعال عيني مدحت دوّر المفتاح ويايه . تعال ، تعال . ما أدري وين خليته ، بس هو موجود ، انعل أبو الشيطان مقدماً .

اقترب ببطء من حسين . كان رأسه يدور بعض الشيء. لم يدر أين يمكنه أن يفتش عن مفتاح الباب .

— دقيقة مدحت .

وأحس به يمسكه من ذراعه . كان صوته صافياً خافتاً وأصابعه تضغط بقوة . أراد أن يرى وجهه فلم يستطع . لبث ينتظر لحظات دون اهتمام ، مستسلماً إلى دوران رأسه . سمعه يهمس :

— مدحت عيوني ، أرجوك .. لا تفرط بيها ، أرجوك . أرجوك ، مدحت .. لا تفرط بيها .

كانت النبرات مخنوقة ، باكية ، مهتزة . بقيا ساكنين زمناً ؛ مثل الحيطان السوداء المتقابلة حولهما . سمع من بعيد ، قرع طبل يطفو لحظة فوق ضجيج الشارع والمقهى . أزعجته الأصابع المتشبثة بذراعه ، فسحبها وتراجع متكئاً على الجدار خلفه :

– أحنا .. جايين أنام ، سيد ، لو نسمع . محاضرات ... تربوية ؟ ها ؟

لبث حسين جواره جامداً ، تختلط ظلال هيئته مع انوار الطريق المحتضرة . فارقته فورة الحياة بغتة وبدا غير قادر على متابعة بحثه عن المفتاح . أرخى ذراعيه ونزل الدرجة نحو الباب فقعد على أرض الشارع . تنهد عدة مرات ثم دفن رأسه بين ذراعيه المتشابكتين على ركبتيه . كان يراقب حسين منزعجاً . لم يشعر بالاطمئنان إليه منذ البداية . لا فائدة من طيبة قلبه حين يجب تدبير بعض الأمور الجدية . سمعه يعاود التنهيد ؛ تنهدات طويلة تبعها صوت غامض لم يتبين كنهه أول الأمر . لم يكلمه ، مدركاً أن لا بد للموقف أن ينجلي أخيراً . كان متعباً مكدوداً ، ثقيل الجسم والروح ؛ عاجزاً عن تبادل الآراء أو استعادة صورة أو ذكرى . لم يرغب بشيء آنذاك سوى أن يغيب عن الدنيا بشكل ما . كان يشعر ، وهو يقف بتخاذل وسط ظلمة الزقاق ، على رأس هذا السكير المنفلت العواطف والمزاج ، أنه لا يستطيع أن يستمر بعد الآن .

ثم سمع النشيج المكتوم يأتيه من لا مكان . استدار حواليه . كان الظلام يخفي منعطف الطريق الضيق القريب ، وشرخ من الضوء الأحمر الآتي من الخانة ، يسقط على الحائط المقابل . لا أحد هناك . عاد النشيج يعلو هذه المرة متقطعاً . كانت كتفا حسين تتقلصان ثم تنبسطان مع بكائه الغريب المفاجيء . لبث يراقب باعياء تلك الكومة السوداء من الشعر المضطرب والقماش الداكن . لم يكن بكاء عادياً . تنهدات طويلة تعقبها نشجة قصيرة ثم زفرة وتنهدة مستطيلة أخرى .

... شهقت حين دخلها أول مرة وتقبضت ذراعاها حول ظهره العاري ، ثم صارت تلهث مثله بعد ذلك . أخذه انفتاحها على حين غرة ؛ كمن يسقط في هاوية لا قرار لها . كان ملتاث الحواس وهو يتهيأ لدخولها . بعثت فيه رائحة جسدها وعرقها وعطرها ولمساتها الناعمة وعيونها وشفتاها وساقاها المنفتحان عن حب للقياه ؛ جنوناً واضطراباً لم يعهده قبلاً . كان ينبوع حرارة مستديمة يمسك بخناقه ، فسكبت عليه مياه متثلجة . وفي

twitter @baghdad_library

ثوان ، انقلبت به حياته . لحظة دخوله فيها وهي تحته : أنثاه الحبيبة التي تتحول إلى سراب . لحظة ثانية : ينسحب وشهوته لا تعطي مجالاً لعقله أو شكوكه ، فيعاود الطعن ويفقد في اللحظة الثالثة توازنه وتفيض روحه مع ماء الحياة الذي انبثق منه كدم القلب ، كدم القلب ...

كان جالساً هو الآخر ، في ظلام الحفرة أمام الباب الأسود المغلوق ، يتصنت إلى حسين مستمراً في نفث زفراته اللامجدية . لم يكلمه . لطمته الذكرى فتقوست رجلاه وقعد على الأرض الرطبة بهدوء . لعل النهاية ليست بعيدة عنه ، النهاية التي يتمناها . نهاية حيرته وتعبه وآماله . كان فارغاً ، عاجزاً عن البكاء . شعر بذلك وهو يحس بكتفه تلامس جسم حسين المهتز . ألن يستطيع أبداً أن يطفيء احتراقه بهذه الوسيلة الانسانية السهلة ؟ عبثاً . عبثاً .

صرّت الباب الثقيلة وتحركت ببطء ، تكشف عن خيال ضئيل يأتيه الضوء من الخلف . قطع حسين أصواته كلها في الحال ورفع رأسه . تكلمت العجوز القصيرة المتلفعة بالسواد وهي تقف أمامهما في فتحة الباب :

— منو هذا ؟ منو انتو ولدي ؟

— ها ؟ خالة عطية ؟ مساچ الله بالخير . صار لنا ساعة ندك الباب . أشگعدچ ؟ لازم دتتسحرون ، مو بالله؟ عافيات ، عافيات. تره آني ميت من الجوع الله يخليچ خالة. شويه شوربة حارة وشيش كباب تكفي . تفضل عيني مدحت . خالة ، هذا مدحت، ابن ام مدحت . تعرفيه انتِ . عزمته على السحور عندنا. تفضل . تفضل . الحچي شلونه ، خالة؟ ما شفته من الصبح .

قح عدة مرات وهو يقوم ويمخط ويمسح أنفه وعينيه وفمه . رآه لحظة واحدة على الضوء المرتمي من الدار ؛ كان أنفه أحمر مبللاً وخصلة من شعره الباهت ملتصقة على جبينه ؛ وكان كالطفل يوقظ من نومه .

تراجعت العجوز دون كلام وتركت الباب فدفعها حسين وتقدم ممسكاً بذراع

مدحت . كان المدخل ضيقاً وباحة الدار تبدو مشعة بالضوء مفعمة برائحة الطعام . همس حسين وهو لا يزال يمسح أنفه وعينيه :

– بس ليكون أخونا الحجي ، المكصوف العمر ، شرب الشوربة كلها .

twitter @baghdad_library

- ١١ -

سارتا جوار الحائط المهدم بحذر ، متجنبتين وسط الطريق المليء بالطين وبرك الماء . كانت أختها سها أمامها ، تتكلم بصوت عال :

– هاليوم ست سهيلة ، ضربت عايدة بالمسطرة عشر ضربات . گامت تبجي فد بچا ! لچ عيني فد بچا وعياط !

– هاي لويش كل يوم هالبسط ؟ ليش هي سوب وكاحة ؟

– لچ انتِ شگد زمالة سناء . ليش هو البسط بس على مود الوكاحة ؟ ما تعرف تحل مسائل الحساب . هاي عايدة كلشي ما تعرف من الحساب . فد زمالة !

– انتِ زمالة

– انچبي . انت شعليچ منها ؟

– انتي انچبي .

– انتِ .

– انتِ .

– انتِ .

– والله لومه جدو وجعان چان گلت له سها بسطتني .

– كذابة . زمالة .

– انتِ زمالة .

لم تجبها سها ، بل قفزت قفزة صغيرة اجتازت بها الما

الجانب الآخر . كانت الشمس ساطعة قوية الأشعة والسماء صافية زرقاء ، إلا أن نسمات باردة بقيت تهب بين الفينة والفينة . سمعت سها تتكلم :

– لچ سناء ، تدرين ؟ لگيت بجيبي حامض حلوة مال عرس خالو . لچ عيني متت من الفرح . شگد طيبة ! الله .

بقيت تنظر إليها :

– أكلتيها كلها ؟

– لچ هي فد وحدة چانت . خاتلة بجيبي ، شگد حلو .

كانت حزينة :

– فد حامض حلوة ؟

– لچ اي . دا أگلچ فد وحدة وأكلتها .

كم رقصوا وعبثوا تلك الليلة ! والأغاني المتواصلة والأكل الكثير والناس والأطفال. لم تصح من نومها إلا عند الظهر . أيقظتها أمها . كان اليوم جمعة ، لكنهم كانوا جميعاً واجمين ، يلفهم الغموض ولا يجيبون على أسئلتها . لم تر خالها مدحت ولا استطاعت الاقتراب من منيرة ، تلك العروس الجميلة . كم تحبها !

رأت أختها تسبقها بمسافة طويلة ، فتحاملت على نفسها وأغذت السير خلفها . كانت جائعة بعد دروس الصباح ، إلا أنها تشعر بشكل غامض أنها لا تملك شهيتها المعتادة للأكل، وقد لا تستطيع الأكل . لعل من المستحسن أن تصوم مثلما تفعل أمها وجدتها . جدها وقع مريضاً بعد أسبوع من الصيام . قالت جدتها أم مدحت أنه يصوم ، كل سنة ، أسبوعاً واحداً لكي يمرض بعده . كم تكره أن ترى جدها طريح الفراش ! يختبيء تحت اللحاف وينكمش على نفسه كالقطة الصغيرة . ويئن دائماً . آلمها كثيراً أن تسمعه يئن حين رافقت أمها لتقديم الأكل والدواء له . صاحت أختها :

– لچ انت شبيچ سناء ؟ طمستِ بالطين زمالة . ديرى بالچ .

أفزعتها صرخة أختها . كانت حافة حذائها الأبيض ملوثة ببقع داكنة من الطين . سحبت قدمها إلى جهة ثم ضربت الأرض بشدة عدة مرات واستمرت بعد ذلك في

twitter @baghdad_library

سيرها دون أن ترفع نظرها . كانت تحس بغشاوة سوداء في نفسها . لم تفارقها منذ أيام . حتى دروسها . لم تعد تفهم أغلبها . ولحسن الحظ ، انتهى امتحان نصف السنة بخير وليس لديهم هذه الأيام امتحانات أخرى .

وصلت بداية طريق البيت فأخذت أختها تركض . لبثت تراقبها ، يتراقص ثوبها وشعرها . كم أفزعتها حين صرخت ! ستخبر أمها . كلا . ستسألها عندئذ عن حذائها . ستخبر جدتها وام حسن وعمة خالها مدحت . ستخبر منيرة ، صديقتها الجميلة . تذهب إليها وهي في غرفتها التي تغلقها عليها وتطرق الباب برفق كما علمتها وتستأذن منها أن تخبرها كيف أفزعتها الحمارة سها بصرختها المفاجئة .

مرت بين ضلفتي الباب المواوب وأغذت الخطى خلال المجاز الطويل . خطر لها أنها قد تكون مريضة . لا تشتهي أكلاً ولا تفهم دروسها ولا تقدر أن تسير بسرعة أو تركض. عليها أن تخبر أمها بذلك . فتحت الباب الوسطى ببطء فرأت جدتها أم مدحت أمام المطبخ :

– هلو بيبي .

– تعاي عيني سناوي . الله جابچ . ركضي اشتري لنا عشر كرص خبز بالعجل . هاي اختچ سها المگموعة ما تسمع كلام أحد . تعاي عيني . هاچ الفلوس . يالله بيبي . تره هذوله العجايز راح يفكون حلوگهم بعد شوية . يالله عيني يالله . ستري علينا .

– نعم ، بيبي .

وضعت كتبها على التختة الصغيرة قرب مدخل المطبخ وتناولت النقود من يد جدتها. ترددت قليلاً قبل أن تسلك طريق الخروج . هل تخبر جدتها كم هي متعبة ثقيلة الجسم لا تقوى على الركض ؟ ولكن، من يجلب لهم الخبز إذن ؟ ستحكي لها كل شيء بعدما ترجع .

عادت تجتاز المجاز الرطب ، لتخرج إلى الطريق قاصدة الخباز في شارع الكيلاني . جدتها تحبها أكثر مما تحب أختها سها . تعطيها الكثير من الحلويات والأكل ، ولكنها تتعبها بالشغل مثلما تفعل مع أمها . لا بأس ؛ ولكنهم يجب أن يعلموا كيف تعاملها سها بقسوة وتصرخ بها وتفزعها بين فترة وأخرى . المجنونة . تصيح بأعلى صوتها كلما

أرادت الكلام . لماذا لا تحدثها مثلما يفعل الآخرون ، بكل لطف وهدوء وتسامح ؟ خاصة أبلة منيرة . كسرت قدح الشاي وماعونه الصغير حين دخلت عليها أول أمس . فزعت وقفزت من فراشها ؛ لكنها عندما رأتها هي ، هدأت واحتضنتها وقبلتها ولم تقل لها شيئاً . ثم أخفيا القدح المكسور والماعون عن الانظار . كم كانت رائحتها طيبة وملمس ذراعها ناعماً ! ثم أخبرتها أبلة منيرة بأن عليها بعد الآن الا تدخل الغرفة قبل أن تطرق الباب وتسمع الجواب . اعتذرت وقالت لها بأنها نسيت ذلك رغم أن معلمتها أوصتها به منذ زمن بعيد . كانت تريد أن تسر زوجة خالها بشيء مهم فذهلت عنه بعد أن انكسر الاستكان اللعين . كان الدرب فارغاً ظليلاً والسيارات والعربات تمر مسرعة في شارع الكيلاني . رأت أمامها ، على حين غرة ، خالها عبد الكريم وهو يخرج سائراً ببطء من استدارة الطريق . تبادلا الابتسام :-

— وين رايحة ، سناوي ؟

— أشتري خبز خالو . بيبيّ انطتني فلوس وگالت لي أشتري لنا خبز ، عشر كرص .

— زين خالو . يالله أمشي .

أمسك يدها برفق وسارا نحو دكان الخباز . سرت من تلك الرفقة الطيبة ورفعت بصرها إليه بامتنان وضغطت على راحته بأناملها . بدا لها حزيناً شاحب الوجه ، يسير بتثاقل . لم يعطها أقراص الخبز رغم الحاحها عليه كي تحملها . سألته قبل أن يصلا البيت وهي تدور حوله :

— خالو ، انت صايم ؟

— لا .

دفعت الباب وفتحته على مصراعيه :

— خالو ، وينه خالو ؟

تبعته بعد أن أغلقت الباب . كان يسير صامتاً أمامها :

— خالو ، وينه خالو ؟

أعطاها أقراص الخبز قبل أن يصلا بقليل نهاية المجاز ، ثم دفع الباب الوسطي وأشار

twitter @baghdad_library

إليها أن تدخل . نظرت إليه لحظات بانكسار ، ثم مضت نحو المطبخ . وضعت اقراص الخبز مكانها . كان المطبخ خالياً دافئاً ، تنتشر فيه رائحة الأكل . لم ترد أن تزعج خالها كريم ، ولكنها اعتقدت أنه الوحيد الذي قد يجيبها أخيراً . آلمها صمته . عادت لتحمل كتبها . وجدتّها مرمية باهمال على الأرض . انحنت تجمعها دون تذمر . لماذا لم يقل لها شيئاً ؟

سمعت أمها تنادي :

— سناء ؟ سناء ؟

— نعم ، ماما .

— وين چنت ولچ؟

كانت تنظر إليها من الطارمة قرب غرفتهم :

— دا أشتري خبز ، ماما .

سمعت جدتّها أم مدحت تهتف من مكان ما في باحة الدار :

— آني دزيتها عيني مديحة ، آني دزيتها .

ارتفع صوت عمة مدحت :

— خبز حار ؟ خاطر الله فد لگمة خبز . گلوبنا ساحت الله يخليكم . متنا من الجوع يا فاينين .

خرجت جدتّها من غرفة قريبة من السرداب تحمل صحوناً وقدراً وأشياء أخرى. رأتها تلمح خالها عبد الكريم وهو يهم بصعود السلم . نادت عليه فوقف . سعت إليه وأخذت تكلمه . لبثت هي ، في مدخل المطبخ الدافيء ، واقفة ويداها متخاذلتان إلى جانبها ، تتطلع إليهما يتهامسان باهتمام تحت الشمس. كانت تعلم أنهما يتحاوران عن أشياء خطيرة لا يجب أن تسمعها هي . هي الصغيرة التي لا رأي لها ولا كلمة تُسمع . حتى الذين تحبهم ، لا يمكنها السؤال عنهم !

كانت تحس بضعف في جسمها وببعض الارتخاء في ساقيها . أتعبها شراء الخبز هذه المرة . سمعت أمها :

— يوم ، يوم الله يخليج ، صبي الغدا . عدنا فوك راح تقوم القيامة ...

كانت تقف أمام غرفتهم في الطارمة . رأتها تصمت حين رأت جدتها وخالها يتكلمان ، ثم تسرع نحو فتحة السلم . ستلحق بهما وتشترك معهما في الحديث . تحركت هي أيضاً نحو السلم . سارت ببطء بعد أن حملت كتبها تحت ابطها ، منحنية برأسها تنظر إلى الأرض كأنها تحصي عدد الطابوق . لعلها تلتقط كلمة أو اثنتين مما يقولانه . كانت تسمع وقع أقدام أمها على درجات للسلم . وكانت تتمنى أن تصل قبلها إليهما . رأت خيالها يقترب من محل وقوفهما وطرقت أذنها كلمة من خالها :

— ... لاع .

ثم علا صوت أمها :

— لچ سناء ، غسلتي ايديچ گبل ما تصعدين ؟

كانت تنظر إليها بعينين تقدحان . تراجعت ببعض الخوف :

— لا ، ماما ، نسيت . هسه راح أغسلها .

ثم ركضت راجعة ، مرة أخرى ، إلى المغسلة قرب المطبخ . وضعت كتبها بعناية على الأرض لصق الجدار . كان قلبها يدق بسرعة ، وفي صدرها يجيش شيء مثل العبرة . هي الوحيدة ، أصغر من في البيت ، التي تلاقي كل هذا العناء . ولا أحد يهتم بأن يستمع إليها . كان الماء بارداً ، لكنها لم تشعر ببرودته وراحت تتأمل القطرات التي كانت تنزل من بين أصابعها وهي تفركها مع بعضها . كانت قذرة شبه سوداء . سمعت خطوات في المجاز . أعادت غسل يديها بالصابون وهي تحاول أن تزيد من حجم الرغوة السمراء . وتلك الملعونة سها ، هل غسلت يديها ؟ لقد تركوها تمر دون أن يعترض طريقها أحد . تلك التي أكلت حامض حلو قبل الغذاء . تركوها تمر بسلام دون أن يسألها أحد هل غسلت يديها القذرتين ؟ بل لم ... فُتحت الباب الوسطى القريبة من المطبخ فجأة وأطلت منيرة منها ثم دفعتها ودخلت . أذهلتها المفاجأة . كانت عيناها صفر اوين حزينتين . هتفت هي :

— هئو أبلة منيرة .

twitter @baghdad_library

رأتها تنزع العباءة عن كتفها وهي تنظر بحدة حيث وقف أهلها :

– هلو سناء . شد تسوين ؟

– دا أغسل أيدي أبلة منيرة . أمي گالت لي . هسه جينامن المدرسة ، آني وسها . رحت اشتري خبز ورجعت ويه خالو كرومي .

كانت منيرة لا تزال تتطلع بقلق جهة السلم . أرادت هي أن تلتفت ، لكن صوت جدتها منعها :

– أهلا منيرة ، عيني . أشو اليوم من وگت راجعة ؟

– نعم ، خالة . اليوم خميس . أگدر أساعدكم بالمطبخ ؟

رأت أمها تدخل المطبخ بسكون وتتجه إلى ناحية مظلمة فيه . أجابت أم مدحت :

– لا ، عيني ، ماكو شي . دنريد نسد حاوك العجايز بس .

– خالة ، كريم رجع ؟

– أي .

– عنده شي .. خبر ؟

توقفت سناء عن مسح يديها . كانت حواسها متوفزة ، منتبهة بشكل حاد . تمنت لو كانت غير مرئية ، لو كانت مختبئة في مكان قريب . أدارت أم مدحت رأسها :

– ماكو شي . الله كريم . راح اليوم ...

ثم نظرت إليها :

– روحي عيني سناء ، شوفي جدو يريد ياكل هسه ؟

التفتت إلى منيرة بنظرة توسل خفي ، فمدت هذه يدها وربتت على شعرها برفق . أجابت جدتها :

– نعم ، بيبي .

ثم سارت متباطئة قدر استطاعتها . سمعت جدتها :

– ... بالدائرة ، ماكو آحد .. مجاز گالوا له . وما گدر ..

أخذت ترتقي الدرجات المظلمة بحذر . لن يتركوها بسلام . بعد أن تقابل جدها

ستنزل مرة أخرى لتخبرهم بما يريد . سيصمتون حين تقترب منهم ، ثم يطلبون منها أن تقوم بعمل آخر . سيجعلونها تصعد مرة ثانية وثالثة . وأختها تلك ، جالسة في غرفتهم تلعب بدميتها أو تمشط شعرها . كان جدها متربعاً في فراشه يسبّح بمسبحته الصفراء ذات الأحجار الكبيرة ويضع النظارات على عينيه . ابتسمت له :

— شلونك عيني ، جدو ؟ لويش گاعد هيچي ؟

وكانت لحيته طويلة مليئة بالشعر الأبيض :

— أهلا بسناوي الحلوة . انت شلونچ جدو ؟

اقتربت منه ثم صعدت على السرير :

— آني دا أسئلك شلونك ، مو أنت تسألني .

أمسكت بيده وعصرتها مداعبة :

— انت ما تگول لي شلون وجعان انت ؟ آني ما شايفة هيچ وجعان . گاعد بالفراش والمناظر على عينه . ليش ما تنام عيني جدو ؟

ثم هزت يده برفق وهي لا تزال تبتسم في وجهه . كانت أصابعه عظمية متغضنة الجلد . رفع يدها وقبلها :

— هاي شلون أيد نظيفة وريحتها طيبة .

— أشكرك عيني جدو . تره لحيتك چكچكتني . وبيبي تگول شيعجبك تاكل . انت مو صايم ، ليش آني ما أدري . بيبي تگول من أول أسبوع يوگع وجعان

وضربته ضربة خفيفة على يده :

— انت لويش توگع وجعان من أول أسبوع برمضان جدو ، وتخلينا مقهورين عليك ؟ ها ؟ أشو دحجي ؟

— ما أحچي

— لويش ؟

— أگول لچ ما احچي .

— لويش عيني ما تحچي ؟ ما يعجبك تحچي ويايه جدو ، عيني ؟ انت هم مثلهم ؟

twitter @baghdad_library

– مثل من ؟

– كلهم . بيبي وخالو وأمي .. حتين أبلة منيرة .

أحست بنفسها يفارقها المرح الذي تجده عادة بصحبة جدها . رأته يتناول يدها ويسحبها مرة أخرى ليقبلها . اقتربت منه بوجوم واندست به . سألها :

– شبيها أبلة منيرة ؟

– أحبها جدو . هواية أحبها . بس هي مقهورة . يمكن على خالو مدحت . وينه خالو ، جدو ؟ وينه ؟ محد يگول لي . كلهم .

عصر يدها فالتصقت به ، شاعرة بالدفء يغمرها . كانت في صدرها رغبة بالبكاء. أحاطها بذراعه :

– لا تقهرين نفسج انتِ هم سناوي انتِ بعدچ زغيرة جدو ، ومن تكبرين راح تفتهمين كلشي . هم لويش ما يحچون وياچ ؟ تدرين ؟ خاطر لا يقهروچ . يگولون هاي زغيرة بعدها خطية ، لويش دنقهرها .

– آني ما انقهر جدو . ها ذي سها بس گاعدة تقهرني . صايرة فد شيطانة ووكيحة ومخبلة ... ما ألها تك .

ثم سحبت نفسها من ذراعه وواجهته :

– جدو ، وينه خالو ؟

رأت بعض الغضون في وجه جدها تتحرك وكذلك فمه . كان ينظر إليها فأبعد عينيه إلى جهة أخرى . عادت إليها تلك الرغبة الخفية بالبكاء . تكلم :

– سناوي ، جدو . خالو مسافر . يوم ، يومين ويرجع . ليش انتِ ما تعرفين ؟

كان هادىء الصوت رقيقه . لم تترك لها كلماته أي منفذ للشك . لبثت صامتة تنظر في عينيه المحاطتين باطار النظارات البيضاء :

– صدك ، جدو ؟ صدك؟ گول والله ، گول والله جدو .

مد يده فعبث بشعرها وأنزله على وجهها :

– ليش جدو يكذب عليچ سناوي ؟

كانت تراه من خلال الشعر الأسود المنسدل على عينيها ، ولم تره يبتسم وهو

يداعبها . تنهدت بصوت مسموع :
ــ ما أگدر عليك عيني جدو . هسه انت شتريد تتغدى ؟ دگول أشو .

كانت شفتاه يابستين منكمشتين . لم يستطع اجابتها . انفتح الباب ببعض الشدة ودخلت جدتها ام مدحت تحمل بصعوبة صينية كبيرة بين يديها :
ــ هاي تاليها وياچ سناء ؟ وية خبصة الغدا انت گاعدة تلهين جدچ بالحچي وما تخلي يرتاح ؟ گومي ناوشيني هذا الميز .

قفزت من مكانها وهرعت إلى طاولة صغيرة في طرف الغرفة فجلبتها قرب سرير جدها . وضعت ام مدحت الصينية عليها :
ــ هلكت تره اليوم آني ابو مدحت . آني فد يوم ما تشوفوني إلا واگعة بالمطبخ الزفر هذا ، ميتة فوك الأكل .
ــ اسم الله عليچ بيبي .
ــ لا توگفين هيچي سناوي . ركضي على امچ بالمطبخ ساعديها شوية . هذوله أهل الفوك رح تنفك حلوگهم علينا . روحي عيني بالعجل .
ــ نعم ، بيبي .

ثم أسرعت تخرج من غرفة جدها دونَ أن تنظر إليه .

ملأت رائحة الطعام أنفها فأرادت أن تنزل إلى الطابق الأسفل ، لكنها توقفت قرب شباك الغرفة . كانت تسمع بغموض جديها يتكلمان . خشيت أن تقترب من الشباك لئلا يراها أحدهما . كان النهار مشرقاً والتعب قد فارقها قليلاً . سمعت اقداماً ترتقي السلم فمشت إلى مدخله . برزت منيرة تحمل صينية ضخمة وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية وتهدل شعرها على بلوزها الغامق . كانت تبذل جهداً عظيماً لحمل الصينية بين يديها والسير بها . توجهت نحوها :
ــ بأه ! أبلة منيرة عيني ، ليش شايلة الصينية ؟

أومأت منيرة لها برأسها أن تتنحى جانباً :
ــ خليني سناء . انت ما عليچ . امشي گدامي بس سوي لي مكان . انت ما عليچ مني

twitter @baghdad_library

كان وجهها الجميل محمراً والعرق يتجمع على صدغها وهي تزم شفتيها . ركضت أمام منيرة وهي تشعر بوخزة في قلبها لمنظرها . كم تحبها ! تعثرت قرب باب غرفتهم . كانت تسير باضطراب ، موزعة النظر بين موقع قدميها ووجه منيرة . لم يكن ذلك أمراً معهوداً من قبل . أمها ، وحدها ، كانت هي المسؤولة عن حمل الطعام وتقديمه للعجائز . رأت منيرة تتوقف في عطفة الطارمة الضيقة وتضع الصينية على حافة المحجر . كانت تتنفس بسرعة وفمها مفتوحاً . أشارت إليها :

— فكي الباب ، سناء .

رمت بنفسها على باب غرفة العجائز فانفتح ضارباً الحائط وراءه بشدة . سمعت صرخة عمة مدحت :

اللهُ أكبر

دخلت هاتفة :

— عمة ، الغدا حاضر .

كانت عمة مدحت نصف جالسة في فراشها ، مفتوحة العينين والفم ، يرتسم الفزع على محياها :

— اكو أحد سوّا هالدگة ، سناء . ليش دتفكين الباب هيچي ؟ مو نزلتي حيلنا ، الله يرضى عليج . هذا غدا لو زقنبوت .

رفعت أم منيرة رأسها ببطء . كانت مضطجعة على القريولة مقابل الباب . كلمت سناء عمة مدحت :

— العفو عمة . شوية مستعجلة چنت .

دخلت منيرة بصعوبة ووقفت بحملها وسط الغرفة . نظرت إليها عمة مدحت ببعض الدهشة . سألتها سناء :

— أبلة منيرة ، أجيب الميز خاطر تخلين عليه الصينية ؟

— لاع ، ماكو حاجة .

ثم كلمت عمة مدحت :

— أخلي الصينية گدامج على الگاع ، عمة مدحت ؟

أجابتها هذه بسرعة :

– اي عيني . الله ينطيج العافية منيرة . جيبيها هنا ، كَدامي يوم . هاذي أم حسن نايمة صار لها ساعة . تعاي ، تعاي هنا عيني .

وضعت منيرة الصينية بهدوء قرب فراش عمة مدحت ، وسناء تساعدها وتدور حولها . تكلمت أم منيرة :

– ساعة بيش منيرة ؟ شوكَت جيتي من المدرسة ؟

– كَبل شوية . شلونج انت اليوم ؟

– شوية دايخة . ساعة بيش ؟

– فاتت الوحدة .

ثم جلست بسكون على طرف القريولة حيث ترقد أمها وهي تنظر إلى الأرض وقد بدا عليها التعب ، وأخذت تمسح العرق عن وجهها ورقبتها . كانت عمة مدحت تتفحص الأكل وتلملم نفسها وتتقدم نحو طرف الفراش . سألتها سناء :

– عمة ، اكَعّد بيبي أم حسن ؟

نظرت إليها عمة مدحت متفحصة :

كيفج عيني . هي نومها ثكَيل ، مثل نوم أهل الكهف . ما أدري تكَعد لو لا . كيفج .

ثم تناولت قرص الخبز .

اقتربت سناء من جدتها أم حسن . كانت العجوز تتنفس بعمق وهدوء ، غارقة في نومها . أمسكت بكتفيها ونادت برفق :

– بيبي . بيبي . كَعدي ، بيبي . كَعدي أكلي .

فتحت العجوز عينيها واستدارت ببطء إلى سناء . عادت الصغيرة تتكلم :

– كَومي أكلي بيبي . الغدا حاضر .

– يا غدا ؟ ليش آني مو صايمة ؟

– لا عيني بيبي ، انتِ وين تكَدرين تصومين . كَعدي أكلي غداج .

twitter @baghdad_library

بذلت ام حسن جهدها فاستقامت جالسة في فراشها . قامت سناء . كانت منيرة وأمها ما تزالان على القريولة دون حراك ؛ وعمة مدحت ، محشوة الفم ، تنظر من طرف عينيها إلى ام حسن وهي تزحف لتقترب من صينية الأكل . مدت سناء يدها لجدتها تساعدها على الجلوس براحة . غمغمت عمة مدحت :

– ماي ، سناء . ماي عيني . گلاص ماي الله ينطيج . تره اللگمة وگفت بزردومي . ما أدري منو عيونه على هالأكل مال الوجاعة .

– زين عمة . هسه أجيب لج ماي .

ثم توجهت إلى منيرة قبل أن تخرج :

– أبلة منيرة ، راح أنزل أجيب گلاص ماي لعمة ، تريدين شي ؟

كانت ساهمة العينين . ابتسمت لسناء باعياء ثم هزت رأسها بالنفي ولم تقل شيئاً . خاب أملها . كان بودها أن تطلب منها قضاء أمر ما ، كي تفعله بكل حماس . أما أن تسير كل هذه المسافة من أجل كأس ماء يدفع اللقمة ليمررها من بلعوم عمة مدحت ، فان ذلك سيزيد من تعبها وجوعها .

رأت سها تخرج من المطبخ فوقفت ونادت عليها :

– سها ، لج سها . عيني گلاص ماي لعمة مدحت بالعجل .

– آني شنو . آني گاعدة آكل .

– لج مو راح تختنك زمالة .

– آني ما عليّ .

– لج انت شگد زمالة .

ثم أسرعت ، متذمرة ، خلال الطارمة الضيقة فنزلت السلم المظلم . قابلت أمها تخرج من المطبخ . كلمتها :

– تعاي أكلي سناء .

– عمة مدحت تريد گلاص ماي . اللگمة وگفت بزردومها .

– زين . لعد روحي أكلي وياهم .

– ما يخلوني ماما .

– تعاي أخذي ماعونچ لعد وروحي أكلي فوك . من تخلصين رجعي الصينية وياچ . تعاي آني راح أصب لچ . أريد أغسل المواعين وارتاح شوية گبل الفطور .

– نعم ماما . بس خل دا آخذ ماي لعمة مدحت . تره راح تختنك . هاي ازمالة سها ما قبلت تجيب ألها ماي .

– زين . زين . أدري هالمگموعة شلون تصير مرات لئيمة .

– اي والله ماما . شگد لئيمة . زمالة .

– أخذي ماعونچ وصعدي عد . لا تطوليها .

حملت كأس الماء وصحن تمن مخلوط بالمرق وعادت مرة أخرى ترتقي السلم بأناة وتجتاز الطارمة وتدخل غرفة العجائز . وجدت مكان منيرة فارغاً وأمها مضطجعة تدير ظهرها للباب . تناولت عمة مدحت كأس الماء بلهفة وكرعت منه ثم هتفت :

– وين رحت يا عيني يا سناء ؟ آني تره متت واحتيت . لا أگدر اوگف ما آكل ...

ثم أشارت برأسها إلى أم حسن :

– يخلص الأكل واحنا بعدنا جوعانين . ولا أگدر آگل واللگمة واگفة . اللهُ معاف ، بنص زردومي . يمة الله ينطيچ سناوي . خلصتيني من نار جهنم

رفعت ام حسن رأسها عن الصينية وهي محشوة الفم :

– شكو بجهنم ؟ أكو واحد يحچي على جهنم والناس ديتزقنبون ؟ شلون اصول يمة هاي .

– عيني ام حسن ، انت أنطيني طريق آكل واشبّع بطني ، خاطر ما يجي آبالي الناس اللي راح يخشون بجهنم بصاية ظلمهم .

– انت ليش ما تخافين من ربچ صفية ؟

تربعت سناء على الزولية بين النافذتين ووضعت الماعون في حجرها ثم أخذت تأكل بيدها خليط التمن والمرق بلقيمات صغيرة . كانت تنصت إليهما يتنازعان وهي مستندة على الحائط خلفها ، في الغرفة الدافئة المليئة بشمس الظهيرة الحارة ، وأصوات الصحون التي تغسلها أمها تأتي خافتة غامضة . لم تجد الطعام لذيذاً ؛ بدا لها فاقداً طعمه الخاص

twitter @baghdad_library

الذي تحبه . أخرجت أم حسن من فمها صوتاً غريباً . توقفت عمة مدحت عن الأكل :
– هاي شنو أم حسن ؟ أشو لا هي دريوعة ولا هي شهيگة . شكو عندچ ؟
ضحكت سناء بسكون . لم تجب أم حسن . التفتت إليها عمة مدحت :
– سناوي عيني ، خالچ وينه ؟
انبرت ام حسن :
– صار له اسبوع ، ماكو . ليلة عرسه ، يمة . عبالك جا عليه ملك من السما وشاله . وين ..

قاطعتها عمة مدحت بشدة :

– دا أسئل آني على خالها كرومي . عبالچ قوانة وانصبّتِ ، انتِ شنو ؟ دا أسئل على كرومي ، مو على مدحت .

أجابت سناء :

– ما أدري عمة . يمكن بالحجرة ديقرا .

ثم سألت :

– وخالچ مدحت وينه لعد ، عمة ؟

أسرعت ام حسن :

– ها ؟ مو گاعدة دتسأل عليه ؟ ما دتسمعيها ؟ دتسأل على خالها مدحت .

ثم استدارت نحو سناء ، ووجهها المغضن الصغير المحاط بسواد الفوطة لا ينم عن أي احساس خاص :

– أخذه الملك وطار عيني . جا عليه ليلة عرسه وأخذه . شكو بيها ؟ خو مو أول واحد يأخذه الملك ويطير ؟ تمام يمة ، صفية ؟

بلعت عمة مدحت لقمتها متعجلة :

– شنو هالحچي نامربوط ؟ انت مخرفة ، افتهمنا . بس شنو هالحچي گدام الزغيرة ؟ ملك وسما ؟ شنو هالحچي؟ گولي حظه خلاه يوگع بيها ، يمكن تمام . شگد كلت له . هاي الگبة وحياطينها شهود . عيوني مدحت ، انت يا هو مالتك ، كلمن على خر أذنه .
– آني هم گلت له .

– أنتِ ؟ طيط طيط ، أحسن لچ . نايمة ليلچ ونهارچ . ما حاسه لو شرگت ، لو غربت .

كانت كلماتهما تكرب نفسها بشكل خفي ؛ تعمل في قلبها بقسوة ، ولم تفهم ما كانتا تعنيانه بالضبط . سألت فجأة :

– شوكت يرجع لعد خالو مدحت ، عمة ؟

وكانت في صوتها نغمة توسل واستجداء. تمنت أن تجيبها أحداهما. انهما لا تضمران الحب لمنيرة . ولذلك فقد يصدقانها القول . لبثتا صامتتين . تلمظت عمة مدحت ثم شربت من كأس الماء ؛ كانت ام حسن تمسح فمها بقطعة خبز . انتظرت لحظات بقلق . لم تنقطع ضجة غسل الصحون في المطبخ . قالت عمة مدحت بلامبالاة :

– الله يدري . الله يدري ، عيني .

ثم أعادت الكأس إلى مكانها .

تراجعت أم حسن إلى فراشها . خيبة أمل أخرى . فكرت وهي تنظر إليهما تستعدان لوجبة نوم قصيرة بأن عليها أن تعود بالصينية والصحون الفارغة إلى أمها في المطبخ . كانت متعبة .

رأت أشعة الشمس الحمراء تصبغ التيغة العالية ، حين كانت تروّح بمروحة الخوص لتؤجج جمرات الفحم تحت أسياخ الكباب . كانت مع أمها ، تعملان بعجلة للانتهاء من شوي أسياخ الكباب الأخيرة . سخّنت جدّتها أم مدحت شوربة العدس وصعدت بها قبل دقائق إلى الإيوان حيث سيتناولون الفطور. كذلك تراكضت أختها سها وهي تحمل الخبز والحشائش وصحن الطرشي متظاهرة بأنها مثقلة بحملها. كانت الشمس تسحب أشعتها من أعالي أشجار الحديقة الصغيرة لترميها على الحيطان الترابية ؛ وكانوا يسرعون وصوت قارىء القرآن يأتي من عدة جهات ، خشناً متراجفاً يمس قلبها ، وبعض حبات العرق تتجمع على صدغ أمها المنهمكة في تقليب أسياخ الكباب بحذر .

– عيني .

رفعت رأسها . كانت عمة مدحت واقفة قرب المحجر الخشبي تنظر إليهما من عل:

– عيني مدح . الله ينطيچ العافية . الدخان موتنا وريحة الكباب صار لها ساعة تروح

twitter @baghdad_library

وتجي بلا قبض . أشو العين تشوف ...

قاطعتها أمها :

— صبري عمة . الصبر طيب . گبل ساعتين أكلتِ . هسه كلشي يجيج . لا تستعجلي . مو اكو ناس صايمين .

ثم غمغمت :

— الله ما دياخذ امانته عد . شكو باقية ثگل على هالگاع . سبحانك اللهم يا ربي تفعل ما تشاء .

— عيني مدح ، على كيفج . بس آني گلبي شوية ساح ، والصايمين أجرهم عند ربهم . عشر دقايق إذا زادت ، أجرهم هم يزيد عيني . د يالله عيوني مدح . ولو لفة زغيرة ، كباب وخبز وشوية طرشي وخضورات والله ينطيج مرادج .

هزت أمها رأسها :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

جاء نداء جدتها ام مدحت من الإيوان :

— مديحة . مديحة . شوية بالعجل بنتي . تره ما بقى شي على الأوذان .

أجابت أمها بصوت مبحوح :

— زين . زين . لا تخبلوني عد .. كل وحدة من صفحة . صبروا شوية .

سألت هي أمها :

— يوم ، شنو الصبر طيب ؟

نظرت إليها بحقد :

— لا تلغين انتِ . أنبش گبره اللي يگول الصبر طيب . أحترك بحياته ومماته . هفي زين ولچ وسكتي .

ازادت من سرعة تحريك ذراعها ، خافضة البصر . كانت الجمرات الحمراء تتوهج تحت الأسياخ ، فتتساقط قطرات الدهن عليها فينبعث الدخان ذو الرائحة الطيبة ويرتفع إلى الأعلى أبيض ملتوياً . وكان الحوش قد امتلأ بالظلال حولهما وأصوات

الأواني في الايوان ترتفع مختلطة بوشوشة الماء المغلي الموضوع على الفرن منذ مدة . لم يُصنع الشاي بعد ؛ ستصنعه أمها بعد الانتهاء من شوي الكباب ثم تضعه في المنقلة قرب هذه الجمرات كي يتخدر . جدتها أم مدحت وجدها وأمها وأم منيرة وابلة منيرة نفسها وخالها كريم ، ميشربون الشاي بعد أن يأكلوا الكباب .

فاجأتها نفحة من الدخان فأرجعت رأسها إلى الوراء وشعرت بحرقة في عينيها فأخذت تفركهما بيدها اليسرى الطليقة .

— هفي زين ولچ . يالله راح نخلّص . يالله بالعجل . عندي بعد ألف شغل .

— خش الدخان بعيني ، يوم .

رأت أمها تبدأ بجمع بعض أسياخ الكباب وتفرغها في صحن كبير ثم تغطيها بكمية من الحشيش وبقرص من الخبز الأبيض . ثم سمعتها :

— گومي . بس عاد . گومي أخذي هذا الماعون ليفوك . آني راح اسوي الچاي .

برزت منيرة من بين الظلال مسرعة واقتربت منهما :

— العفو عيني مديحة . شوية انشغلت فوك . صعدي انت وسناء روحوا أكلوا . آني أكمل شغل المطبخ .

— لاع . ما بقى شي والطوب ما ضرب بعد . راح أسوي الچاي و أصعدتعبت هواية اليوم .

— أدري . أدري عيني مديحة . كل وكت انتِ تعبانة . خليني أساعدچ شوية .

سمعن من فوق رؤوسهن عمة مدحت تنادي :

— لا تنسونا عيني مدح . أحنا بدخلكم . واگعين فد نوبة .

حملت منيرة صحن الكباب الكبير دون أن ترفع نظرها وطلبت من سناء أن تجلب أقراص الخبز وبعض الصحون الفارغة والماء ؛ ثم مضت تسير نحو مدخل السلم المظلم . بقيت تراقبها فترة . أحست بقلبها يفيض بشعور حاد يتجه نحوها . أنها لا تمل من البقاء معها والنظر إليها والاستماع إلى حديثها . عصر اليوم دخلت غرفتها ؛ تلك الغرفة السحرية الزرقاء . كانت منيرة مضطجعة على السرير الواسع الأزرق بكامل ثيابها وهي تائهة البصر . أرادت أن تخبرها بأنهم سيبدأون بالتحضير لصنع الكباب . جلست في

twitter @baghdad_library

الفراش منحنية الظهر تنصت إليها. تكلمت هي طويلاً دون أن يكون لذلك التطويل حاجة . كانت تريد البقاء معها ، في غرفتها ، تمسك بها وتنصت إليها .

سمعت أمها تقترب منها فقامت من مكانها أمام المنقلة :

– ليش واگفة ولچ ؟ أخذي الخبز والماي وصعدي گبلي . خليني أخلّص شغلي . لا تنسي المواعين .

ركضت إلى المطبخ فتناولت اقراص الخبز ثم ملأت سراحية الماء ووضعتها على المائدة . دست أقراص الخبز تحت ابطها ثم أمسكت بعدة صحون فارغة بيد والسراحية باليد الأخرى وسارت ببطء متحاشية النظر إلى أمها .

ارتقت درجات السلم ، التي كانت تظهر لعينيها بصعوبة ، دون حادث ومضت بحملها إلى الايوان . تلقوها بوجوه باشة وأخذوا منها الصحون والخبز واناء الماء . أراحها ذلك واتخذت لها مكاناً قريباً من أم منيرة على القنفة . كانت الصينية الكبيرة مليئة بشتى أنواع الصحون تتوسطها طاسة ضخمة مغطاة خمنت أنها لا بد أن تكون طاسة الشوربة . بعد جلوسها بقليل جاءت سها مع خالها عبد الكريم . كلمتها ام مدحت أختها سها :

– هاي وين چنت سها ؟ خليتي اختچ الزغيرة تشتغل بوحدها . ميصير عيني . انتِ الچبيرة آخر .

أثلجت هذه الكلمات قلبها ولبثت منتبهة إلى جواب سها . لم تتكلم سها. جاءت لتجلس قربها . كلمتها هي بحدة :

– وين چنت ولچ ؟ ها ، وين چنت ؟

لم تجبها سها ولم تنظر إليها .

جاءت منيرة تسير ببطء ثم جلست قربهم على القنفة . سألتها ام مدحت :

– انطيتيهم اللفات ، عيني منيرة ؟

– اى خالة .

كانت تجلس على القنفة معها ، ومعهما أمها وسها . هي في طرف وقربها اختها سها ثم ام منيرة ومنيرة . في الجهة المقابلة يجلس خالها عبد الكريم ملبد الوجه صامتاً ، لا ينظر إلى أي شيء . جدتها ام مدحت متربعة قرب الصينية على الأرض وتحتها مندر

صغير . تقدمت إلى الأمام ونظرت إلى منيرة . كان وجهها ملوناً بشكل غير اعتيادي . انها جميلة دائماً ؛ ملونة الوجه بألوان مبهجة . رأتها تتطلع إلى جهة عبد الكريم . كان الضوء شاحباً في الايوان والظلال تخفي أغلب الأشياء . نادت أم مدحت :

– مديحة . يا مديحة . يالله عيني ، تعاي عد . خلي الچاي يتخدر على كتفيه وتعاي عد . تره الطوب راح يضرب .

تردد صوت أمها من الأسفل :

– زين يو م . زين . جايّة .

تساءل عبد الكريم فجأة :

– شلونه ابويه اليوم ؟ ما راح ياكل ويانا ؟

أجابته أمه :

– لا . خلي يرتاح هسه . شرب چاي وحليب العصر . ما عنده صخونة ، لاكت تعبان بعده . يصير زين انشالله .

صدرت من الراديو فرقعة عالية أفزعتها ، تبعها صوت المؤذن . همست سها :

– لچ والله فزيت سناء .

رفعت ام مدحت الغطاء عن صحن الشوربة فتعالت في الجو غمامة بيضاء ورائحة الدهن الفاغمة . قامت ام منيرة فجلست قرب الصينية . قفزت هي وسها مرة واحدة فجلستا على الأرض . نادت أم مدحت ثانية :

– مديحة . دتعاي الله يخليچ . هذا فطور يطلع لو عشا .

ثم التفتت إلى منيرة :

– يالله عيني منيرة . أصب لك كريم شوية شوربة ؟

قامت منيرة بتثاقل وتكلمت وهي واقفة :

– انطيني الماعون ، آني أصب له .

– شكراً . لا . آني آكل . شبيّه ؟

قام من مكانه وسحب المندر من ورائه ثم وضعه على الأرض وجلس عليه قريباً

twitter @baghdad_library

منها ومن سها وأمه وبمواجهة منيرة وأمها . فكرت سناء بأن أمها حين تحضر ستجلس بين جدتها ام مدحت وبين ام منيرة . كانت جدتها تصب الشوربة بملعقة كبيرة في صحون توزعها على الجالسين . لم تكن هي ترى غير البخار المتصاعد من صحن الشوربة وأطراف الحشائش والخبز الموضوع على صحن الكباب . كانت الصينية مرتفعة أكثر مما يجب .

جلست بصمت تنتظر ، واضعة يديها في حجرها . كانت جائعة تتمنى أن يصلها الطعام بأسرع ما يمكن . سمعت بعضهم يتلمظ وارتفعت أصوات الملاعق تصطدم بالصحون ثم رأت منيرة تجلس بهدوء . كان وجهها مظلماً غير واضح المعالم . تكلمت جدتها :

— أخذي سها .

تناولت أختها الصحن وبدأت حالاً بشرب الشوربة . كان خالها عبد الكريم يأكل منذ فترة .بقيت هي ومنيرة تنتظران . أمضها ذلك قليلاً . لم ترد أن تتكلم :

— بيبي ، أبلة منيرة مدا تاكل .

توقفوا جميعاً عن الأكل لحظات . أسرعت منيرة :

— ما عليج انت سناء . هسه آكل . أكلي انت .. آني ...

قاطعها عبد الكريم :

— ليش ما فطرتِ ؟ ما يصير تتأخرين عن الفطور . لازم تاكلين هسه ، مو تمام ، يوم ؟

— اي عيني كرومي . ما يصلح واحد يتأخر عن الفطور ورا ما يضرب الطوب . آني هسه أصب ألها . ألها ولسناء . نسيت عيني .

— شكراً خالة .

بصوت هامس تكلمت منيرة ، وشعرت سناء أنها تتطلع إليها ببعض العتاب فأحنت رأسها . سمعت وهي تنتظر أن يصلها صحن الشوربة ولفة الكباب ، اقدام أمها تخترق الحوش ببعض السرعة ثم تضاءل الصوت . مدت جدتها يدها بصحن الشوربة فتناولته ووضعته في حجرها ثم أمسكت الملعقة بحذر ورفعتها إلى فمها . سمعت ، مرة

أخرى ، اقدام أمها تضرب أرض الطارمة ثم رأتها تظهر أمام الايوان حاملة المنقلة وتضعها قريباً منهم جوار المحجر . هتفت ام مدحت :

— هاي شنو مديحة عيني ! لويش معذبة نفسچ هيچي . چان أحنا ننزل ونصب الچاي. شكو بيها . هو والمنقلة شايلته وانت هلكانة من الشغل . دتعاي عيني ، ما يصلح تبقين بلا أكل ورا ما يضرب الطوب . تعاي الله يخليچ . راح تبرد الشوربة

— جاية يوم . دا أغسل أيدي . هذولة البنات يمكم ؟

— نعم ماما .

— نعم .

كانت الشوربة مستساغة الطعم لكنها لم تكن حارة . لعقت ، دون أن يلحظها أحد، آخر قطرة منها ؛ ثم وضعت الملعقة في الصحن وأعادته إلى الصينية أمامها . كانت منيرة تنظر إليها . تأكل بهدوء وتنظر إليها . هل رأتها وهي تلعق صحن الشوربة ؟ لقد خبأت رأسها تحت الصينية . أقبلت أمها فجلست بين منيرة وكريم وسألتها :

— وين ماعونچ ، سناء ؟

— خلصت يوم الشوربة . دا أنطر الكباب .

— وانت سها ، خلصتِ ؟ يوم الله يخليچ سويلهم كل وحدة لفة لمن أشرب الشوربة.

— أي عيني أي . هسه هسه .

— يمة ، يا أهل الرحم . يا فاينين . وينكم يا أهل البيت ؟ وين صرتوا ، عيني ؟

كانت عمة مدحت واقفة في باب غرفتهم تطلق نداءاتها المتواصلة :

— ... قابل انشگت الگاع وبلعتكم كلكم ! يمة ، مدح ، عيني . وين صرتِ حبوبة ؟ وانتِ سناوي باباتي ؟ شنو ؟ أنت مخبلة ام حسن . وين يروحون خطار ؟ هسه وكت خطار ! گاعدين دياكلون بالظلمة ، هاي هي الحچاية . المسعدين . وخاليني آني ويا چ يا غراب البين . مچبورين هنا ، جواعة وراح يكتلنا الجوع . حيل بينا . عسانا بأبو زايد .

ثم عادت تنادي :

— عيني ، يا أهل البيت . يا أهل الرحم .

twitter @baghdad_library

ضحكت هي وتبعتها أختها سها . سألت أم مدحت :

– انت مو سويتي لهم لفات كباب ، مديحة ؟

– كل لفة نص گرصة خبز وشيش كباب وطرشي وخضورات . لاكت هم هذوله يعرفون الشبع شنو

– ... يا فاينين ... عيي ... أگرل ...

هتفت أم مدحت تقاطعها :

– على كيفچ صفية . أحنا هنا .

– وينكم عيني . صار لي ساعتين أعيّط وارجع ليورا.

– زين . زين . هسه يجيكم الأكل . أنطو صبر شوية

– ديالله عد ، الله يخليچ . هو الصبر واگع بالأيد . أحنا واكفين على شعراية .

تناولت قطعة الخبز الملفوفة باتقان من يد جدتها وأسرعت تقضمها . كان طعم الكباب مخلوطاً بالطرشي والمخضرات ، لذيذاً جداً ؛ وكانت تاوك اللقمة في فمها ببطء وتتطلع إلى الوجوه الغامضة حولها . خفت النور في الايوان ولم يعد بوسعها أن تميز ملامح الجالسين . غير أن ذلك لم يهمها كثيراً . كان الأكل ، بعد الجوع والتعب ، يخدرها بشكل خاص ويمنحها شعوراً بالرضى الشديد عن العالم حولها . ستشرب الشاي معهم بعد ذلك . تضع فيه ملعقة سكر زائدة وتشربه . سيكون له مذاق خاص جداً بعد الكباب والطرشي ؛ شرط أن تشربه قبل غسل الفم . سيجعله ذلك يزداد نكهة .

دفعت قطعة اللفة الأخيرة إلى فمها المحشو ثم رفعت نظرها تتطلع إلى ما يحدث حولها وهي تمضغ اللقمة بتأن . كانوا جميعاً في أماكنهم يأكلون بسكون والظلام يحيطهم . سمعت أمها :

– سناء ، خلصت؟

– لا ، ماما .

– انت ، سها ؟

– نعم خلصت ، ماما .

– گومي لعد ودي هذا الماعون لجديتچ ام حسن وعمة مدحت.

ـ آني شنو ، خلي سناء .
ـ گومي ولچ ملعونة الأهل . گومي أحسن لچ . هسه اگوم أكسر راسچ . آني متحلفة بيچ . يالله بالعجل .

قامت أختها بتثاقل بعد أن دفعتها بساقها دفعة خفيفة لم تبال هي بها ، وتناولت الماعون ثم مضت نحو غرفة العجائز . كانت ممتلئة القلب سروراً وهي لا تزال تلوك اللقمة الأخيرة في فمها وتراقب أختها تسير بحزن من بعيد . ستشرب الشاي قبلها . لو كانت سها قرب أمها لضربتها على رأسها وأجبرتها على السير بسرعة . لعل هذه الحادثة تؤدبها قليلاً . سمعت خالها عبد الكريم يسأل جدتها :
ـ أكو فد گلاص ماي ، يوم ؟
ـ اى يابه . عيني سناوي ، جيبي گلاص ماي لخالچ من السراحية .
ـ نعم ، بيبي .

قامت متعجلة . لن تذهب بعيداً . ملأت الكأس ماء وجلبته لخالها . داعبها قبل أن يأخذ منها الكأس ويشكرها . جلست على القنفة وسألت أمها :
ـ ماما ، أشعل الضوا ؟

أجابت أم مدحت :
ـ اى ، عيني . آني مدا أشوف دربي .

قفزت من مكانها وضغطت على الزر الكهربائي. كان خالها عبد الكريم يهم بالجلوس على القنفة البعيدة ومنيرة تقوم وتضع صحنها في الصينية . بقيت أمها وجدتها وام منيرة جالسات في أماكنهن . قالت منيرة :
ـ أصب الچاي هسه ؟
ـ شوية لاخ . يمكن بعده ما تخدر .

سارت منيرة إلى جهة المغسلة واختفت . سألت هي امها :
ـ ماما ، أروح أشوف جدو ؟
ـ لويش ؟ فرجة هو جدو ؟

twitter @baghdad_library

قالت ام مدحت :

ـ خليها تروح عيني مديحة . أخاف يريد شي ويتعاجز يصيح علينا .

ـ زين . زين . روحي .

كان جالساً في سريره يسبّح :

ـ ها ، سناوي ؟ فطرتِ ؟

جلست على حافة السرير :

ـ ليش آني صايمة ؟ لاكت شلون كباب جدو عيني ! يخبل . يخبل.

ـ أكلت زين بالعافية ؟

ـ اي . أشكرك عيني جدو . تريد أجيب لك شي ؟

مد يده يتلمس شعرها :

ـ شوية لاخ سناوي . أريد شوربة ونومي حامض عليها .

ـ شلون شوربة طيبة عدنا ! تخبل ، عيني جدو ، تخبل . أجيب لك هسه ؟

ـ لاع . شوية لاخ . بيبي خليها تجيبها . تعصر نومي حامض فوگاها ، افتهمتِ ؟

ـ نعم ، جدو . بس مو هسه . شوية لاخ ، مو ؟

هز رأسه

كانوا في الايوان يتهيأون لشرب الشاي . رأت أختها سها تجلس قرب خالها عبد الكريم . فتشت عن منيرة فلم تجدها . كذلك أمها . أخبرت جدتها بما أراده جدها فأومأت لها برأسها دون كلام . كانت مشغولة بترتيب الاستكانات في صينية صغيرة على الأرض وقربها أم منيرة تدخن سيجارة بهدوء .

كان السكون مطبقاً ، سكون غير متوقع . شعرت بالحيرة فجأة . لم تدر أين يمكنها أن تستقر رغم خلو الايوان . خطر لها أن تذهب إلى غرفتهم لتفتح التلفزيون . رأت أمها تسير ببطء مقبلة من الجهة الشرقية وثوبها الغامق يندمج مع الظلام ليترك وجهها الأبيض ظاهراً . لم تكن تسمع لأقدامها وقعاً . همست أم منيرة كلاماً مبهماً لجدتها لم تميزه رغم قربها منهما . كان كل شيء ، الجو والبيت والضوء والحيطان ، ملفوفاً

بغشاء من الصمت الهش غير المحسوس . استندت بجسمها على حافة القنفة الخشبية ونظرت لحظة إلى السماء ثم عادت تراقب أمها تقبل نحوهم ، حين تعالت تلك الطرقات الغريبة الغامضة على الباب الخارجية . بهتت والتفتت إلى جدتها ثم إلى أمها وإلى خالها . وقفت أمها قرب المنقلة تتطلع بشكل غير محدد إلى الحوش المظلم . قالت جدتها :

— اللهم اجعله خيراً .

قال خالها فجأة :

— آني راح أشوف منو .

سار ماراً قربها . رأت وجهه هنيهة يملؤه القلق . قالت أمها وهي تتبعه :

— على كيفك كريم . آني راح أجي وياك .

لم يجبها . اختفيا عند مدخل السلم . ظهرت منيرة من غرفتها :

— الباب دتندك ؟

أجابتها هي :

— نعم أبلة منيرة . خالو وماما نزلوا يشوفون منو ديدك الباب .

— خير انشالله .

عاد الطرق يتوالى؛ دقتين قويتين ثم دقة واحدة تتبعها اخرى ثم أخرى . استضاء الحوش . ركضت تقف قرب المحجر . كان خالها وأمها يسيران بعجلة متجهين إلى الباب الوسطي . لمحت منيرة تمشي نحو السلم . كلمتها جدتها ام مدحت :

— وين رايحة انت منيرة ؟ ابقي عيني يمنا .

— نعم ، خالة . بس أريد أشوف منه .. هذا .

واستمرت تسير على مهل وهي تنظر إلى الحوش ، إلى الباب الكبير البعيدة التي تفصل المجاز عن البيت . تبعتها هي بسكون . تحركت ببطء شديد بحيث لا ينتبه إليها أحد ، وأخذت تتبع منيرة في تقدمها نحو السلم . سمعت جدها ينادي جدتها ، فهتفت :

— بيبي ، بيبي . جدو ديصيح عليج ، ما أدري شيريد .

twitter @baghdad_library

كانت قلقة لئلا تلاحظ جدتها أنها تتقدم لاحقة منيرة التي اختفت في مدخل السلم ؛ قامت أم مدحت بتثاقل :

– خير انشالله يا ربي . اي عيني ، راح أشوف شيريد .

ثم أخذت تمشي وهي تتكئ على الحائط القريب بيدها دون أن تتطلع إلى سناء. رأت سها تحت الضوء جالسة في مكانها تنظر إليها . كانت أم منيرة تدخن سيجارتها كأنها في عالم آخر . هذه اللعينة سها تستطيع وحدها أن تفضحها . انها تراقبها . دخلت جدتها الغرفة . ولكن ... لم يبق أحد يمكن أن يمنعها من النزول . ركضت . صاحت سها :

– لج هاي وين رايحة زمالة ؟ والله ...

لم تسمع بقية كلامها . ترددت عند بداية السلم المظلم .أمسكت بجداره ثم أخذت تهبط في تقفزات . رأت منيرة واقفة قرب الباب الوسطي تفتحها قليلاً وتنظر إلى ما يجري في نهاية المجاز . التفتت إليها :

– سناء ؟

ثم وضعت يدها برفق على كتفها . كانت أنفاسها سريعة وأحست بملمس ذراع منيرة الناعم وهي تلتصق بها . قالت لها :

– راح أشوف منو بالباب وأرجع أبلة منيرة ؟

لم تجبها .

بدا لها المجاز أشد ظلاماً وأكثر طولاً وهي تحاول أن تجد موضع قدميها تحت ضوء السماء . كانوا واقفين في آخره قرب الباب . تعثرت عند الدرجة التي تلي المجاز العريض ؛ ثم بدأت تسمع حواراً خيل إليها أنه يدور بين أشخاص تألف أصواتهم . كان الباب الكبير مشرعاً ، تمسك به أمها وتستند إلى حافته ، وكان خالها عبد الكريم وشخص آخر يقفان خارج اطاره ، في الطريق . سمعت أمها تهتف بصوت مرتفع :

– اى ليش ما تخش وتحچي وياهم ؟ شبيك دتستحي ؟

تكلم الشخص الآخر :

– لا . لويش ؟ يعني ، ماكو مانع . بس ، اكو حاجة ؟ المسئلة ما بيها شي .

كانت نغمة كلماته الممطوطة المتراخية المترددة ، غير غريبة عنها ، عن نفسها ، عن حياتها . سأل خالها :

— شوف حسين ، عندك شغل ويانا ؟ محتاج شي ، يعني ؟ أو إذا تريد تحچي آني وياك بس .

كان في ملابس سوداء أو زرقاء غامقة ، لا يبين من وجهه غير الأنف المعوج إلى جانب :

— لا ، ما عندي شغل . ما عندي شي مهم . شكو عندنا آني وياك ؟ لا . لا . بس القضية .. يعني قضية مدحت فاذا ..

قاطعاه ، خالها وأمها ، صارخين :

— مدحت ؟ شبيه مدحت ؟

ادار ابوها رأسه بينهما لحظة :

— مدحت ؟ شنو شبيه ؟ ليش ... آني ما گلت لكم ... آني جاي على قضيته ؟

صرخت أمها مرة أخرى :

— ما تحچي لعد . عندك خبر عنه ؟ شبيك ؟ حلگك مسدود ؟ فات وكت الشرب عليك ؟

تراجع قليلاً . قال خالها :

— على كيفج مديحة . على كيفج .

— يا شرب ؟ انت حقج عصبية . على كل حال المهم .

بدا كأنه يعتدل في وقفته ويزداد طولاً :

— نعم ، عندج خبر .. أقصد ، عندي خبر طبعاً عن مدحت . ولعلمج .. بعد الى هالساعة ما خليت شي بحلگي . هاي هي كل المسئلة .

أمسك خالها بذراعه وسحبه معه داخلين . أفسحت أمها لهما الطريق وقفزت هي إلى جانب . قال خالها :

— تعال حسين ، تعال خش . لازم تشوف ابويه وأمي .. ومنيرة . تعال ، لازم انشوفك كلنا .

تعثر أبوها وانتبهت إليها أمها وهي تغلق الباب :

twitter @baghdad_library

– ولچ هاي أشد تسوين هنا ؟ خشي بالعجل .

أخذت تسير جنب أمها تتبعان خالها واباها . سمعت أباها :

– ليش ما تخلون ضوا ؛ كهرباء ، شمعة ، بهالمجاز الأگشر .. العفو .

تعثر مرة أخرى قبيل المجاز العريض . همهم بحنق وهو يتشبث بخالها . دفعوا الباب الوسطي ودخلوا إلى الحوش . كان المصباح الكهربائي فوق المطبخ مضاء ، يرمي بنوره الأحمر على قسم من الحديقة . سأل أبوها :

– وين رايحين ، عيني كريم ؟ تره آني ما عندي غير حچاية زغيرة . ماكو حاجة نگعد .. يعني عالرجل .

– أبويه مريض حسين وانت لازم تشوفه . ما تريد تسلم عليه ؟ اگعد اشرب چاي على الأقل ؟

كانوا ، خالها وابوها في المقدمة وهي وأمها خلفهما ، يجتازون الحوش بخطوات مترددة . لمحت منيرة تقف في زاوية قرب الباب فأمسكت بيد أمها وضغطت عليها . تركتها أمها واتجهت إلى منيرة تتهامس معها . كان ابوها وخالها قد وصلا قريباً من السلم . وقفت هي تنتظر بقلق جوار الحوض الصغير ومائه الأسود . لحقتا بها وأحست بيد تسحبها برفق من ذراعها . كن ، ثلاثتهن ، يتبعن خالها وأباها اللذين غابا في مدخل السلم . لم يتكلمن . صعدن الدرجات ببعض الارتباك .

رأت أمها ومنيرة تسرعان بالدخول إلى غرفة جدها فاندست بينهما ودخلت هي الأخرى . انسلت ، في الغرفة شبه المظلمة ، إلى طرف منها خلف سرير جدها حيث تتكوم عدة دواشك بعضها فوق بعض ، فانزوت أسفلها . أخفت نفسها بين الحائط والأغطية وأطلت برأسها . كانت أنفاسها متسارعة وهي تتطلع من مكانها الخفي إليهم . رأت منيرة تغلق الباب خلفها وتجلس على كرسي جنب أمها ، قرب المدخل .

لم يتكلم أحد لفترة من الزمن . كانت جدتها تجلس على السرير قرب جدها ، ويتخذ أبوهـا وخالها مجلسين لهما أمام السرير على كرسيين متباعدين قليلاً . انهم لا يتكلمون ؛ والجو في الغرفة ذات الضوء الأحمر الخافت ، يبدو ذا طابع سري غير معتاد . مثل الأحلام أو المناظر المخيفة في التلفزيون . سمعت حبات سبحة جدها

تتصادم مع بعضها . كان أبوها ببدلة سوداء ووجه بلا لون ، يجلس صافاً رجليه إلى بعضهما وواضعاً يديه في حضنه . قال جدها بصوت لين :

– أي سيد حسين ، شلون صحتك ؟ ما دنشوفك .

رفع أبوها يداً لمس بها أنفه وفمه ثم أعادها إلى مكانها :

– الحمد لله عمي . شكراً . أي والله . حقكم .. عليّ . مشغول شوية . شلون صحتكم عمي ؟

– الحمد لله . الحمد لله . تنگضي . انشالله . تنگضي . خير انشالله سيد حسين .

– نعم . خير .. انشالله .

رفع ذراعه مرة أخرى فعدل من وضع شعره ثم مسح أنفه . كانت ترى وجه منيرة من الجانب الأيسر وهي تتطلع إلى أبيها باهتمام . عاد جدها :

– شكو ماكو ، سيد حسين ؟ وين راح يوصلنا هالمخبل ؟

– يا مخبل ، عمي ؟

– ها ؟ أي حقك . هواية مخابيل هالأيام مصيرنا بيدهم . منو آكو غير عبد الكريم قاسم ؟

رفع يديه من حجره وشبكهما أمامه لحظة ثم وضعهما إلى جانبه :

– والله ... ما أدري . يعني شأگلك .

ثم ضحك ضحكة قصيرة قطعها حالاً :

– ماأدري والله وين .. راح توصل .. ما أدري .

ولوى رقبته لوية قوية كأنه يصلح عظماً فيها . تكلمت أمها فجأة :

– حسين ، انت ليش دتسوي نفسك ما تفتهم ؟ عندك خبر عن مدحت ؟ گول بالعجل ، گلوبنا محروگة أحنا .

تراجع قليلاً كمن أخافه سيل كلماتها . رأت عينيه ترمشان بسرعة . نظر إلى منيرة كأنه يراها للمرة الأولى . لبث يتمعن فيها . لم تتكلم ولم تنزل بصرها . قال :

– الأخت ... منيرة ، مو ؟

twitter @baghdad_library

ثم التفت إلى خالها متسائلاً فهز كريم راسه بالايجاب . بدا على أبيها كأنه يعود إلى الحياة :

– اهلاً ... وسهلا .

هزت منيرة رأسها هزة خفيفة . لم تقل شيئاً . بقيت تنظر إليه بحدة . هتف :

– آني ما عندي .. شي مهم تره ؛ بس ردت أگول لكم ، يعني مدحت مثل أخويه . ومشاكله هي مشاكلي .

تكلمت أمها مرة أخرى بصوت عال :

– انت أشچابك على مدحت ، ما دگولي ؟ شكو عندك وياه ؟ ما دگولي خاطر الله ؟

بهت لحظة وهو يتطلع إلى أمها ثم ينحرف بنظره إلى منيرة ويعود إلى التطلع ببعض الحيرة إلى أمها :

– ماكو شي .. بالحقيقة. يعني أگول .. ما اعتقد اكو علاقة . بالواقع تره .. آني وين وهو وين ! بس القضية هي .. صار له يمكن يومين او تلاثة .. ساكن بالغرفة ويايه . يعني اذا يهمكم تعرفون ...

هتفت جدتها وأمها وخالها :

– وين ؟ شنو ؟ وين ؟

واندفعت منيرة قليلاً إلى أمام وهي تحد بصرها نحو أبيها . سأله جدها :

– شگد صار له وهو وياك ؟

– يومين عمي ، ثلاثة يمكن .

قال خالها :

– آني رحت له گبل خمسة أيام يابه . لازم جا ورايه .

– أي . فعلاً . بس آني أرجوكم .. أرجوكم .

كانوا منفعلين . مدت هي رجلها فاصطدمت بشيء قربها ، فسحبت نفسها واختفت في زاويتها . فتح ابوها ذراعيه وهو يرفع صوته :

– أرجوكم . الله يخليكم . تره .. آني جيت بلا ما يدري هو . خليته وجيت . گلت له اليوم خميس وآني عندي شغل . حسبا له رايح أشرب . أرجوكم . تره قسماً

بالله ما حطيت شي بحلكّي إلى حد الآن . بس هو ما يدري . آني ما گلت له .. وين رايح . يعني .. فأرجوكم .

سأله خالها :

– شلونه هو ، شلون صحته ؟ لازم آني أشوفه . راح أجي وياك .

هتفت أمها :

– آني هم أجي .

والتفتت إلى منيرة :

– أحنا هم نجي .

رفع أبرها ذراعيه إلى أعلى فوق رأسه ، لحظات :

– لاع . لاع . لا ، الله يخليكم . لاع ، خاطر الله . انتو ما داتفتهمون . على كيفكم شوية ، الله يخليكم .

ثم أنزل يديه يغطي بهما عينيه ، كأنه يشكو ألماً . سمعت أمها تهمس لمنيرة :

– فايت عليه وكت الشرب . آني أعرف .

مدت منيرة يدها فلمست ذراع أمها لمسة خفيفة وهزت رأسها . أعاد ذراعيه إلى حضنه :

– العفو ، يا جماعة . انتو .. ماد اتفتهمون ، وآني شوية .. شوية تعبان . لاكت الموضوع يتعلق بحياة مدحت . لا .. أرجوكم . اسمحوا لي دقيقة . فد دقيقة بس ، أركز بيها على هالموضوع وأخلص منه . اسمحوا لي دقيقة . القضية .. شلون بالله .. ألعن ابو الشيطان ، القضية .. يعني .. هو ما دياكل ولا ديشرب صار له يومين . يمكن أكثر .. لا .. لا .. مو مريض . لا عيني كرومي ، ليش ما أعرف المريض من الصحيح ؟ بس .. هو الله يسلمه ما يعجبه الاكل ولا الشرب .

هتفت جدتها بحرقة :

– ليش ؟ ليش يابه ليش ؟ ماتت أمه . الله يدري شلون أكل هذا . ماتت أمه .

انبرى خالها :

– على كيفج يوم . على كيفج .

twitter @baghdad_library

تدخل أبوها :

– والله خالة ، تعرفين ...

– دقيقة حسين .

– نعم . بس يعني .. هالموجود .

– اسمح لي حسين . آني أريد أفتهم منك شي واحد أو اثنين . أولا وهذا المهم ، مدحت مريض أو يحتاج إلى مساعدة صحية ؟

فتح أبوها ذراعيه بشكل عشوائي ووضع ساقاً على ساق بسرعة :

– لا أخي . مو مريض دا أگلك . مو مريض .

نظر حواليه . خيل إليها أنه توقف ثانية عند وجه منيرة :

– لاكت .. يعني فكره مشغول . انت تعرف مدحت . بس هو بالمية مية مو .. مو مريض . أكيد . نعم ، هو ما دياكل ولا ديشرب ونومه مو هالگد زين ، على گولتهم ؛ لاكت هو مو مريض .

– وين دينام ، ماتت أمه ؟

– عندي . بغرفتي خالة .

همست أمها :

– قصر يلدزلار .

التفت إليها . ضحك فجأة ضحكة قصيرة بترها وقطع عدة مرات :

– نعم . بس ، بالمقابل ، نومة القنفة يعني ..

قاطعه خالها :

– خلينا من تعليقاتچ بالله مديحة . اسمح لي حسين . عندي شي لاخ أريد أسألك عنه . شوكت نگدر نشوفه ؟ اگدر أجي وياك هسه ، آني على الأقل ؟

– لاع . لاع . انطيني مهلة أخوية كرومي . انطوني مهلة أرجوكم . يومين تلاثة . اسمحوا لي أتفاهم وياه . تره المسئلة شوية معقدة يا جماعة . بس انشالله ، ماكو شي . آني جيت ، يعني ، جيت اطمنكم بس .

– الله ينطيك يابه . هم الله ينطيك .

– شكراً خالة . واجب هذا .

ساد سكون مفاجيء قطعه جدها ابو مدحت :

– شوف سيد حسين .

كان صوته خشناً جداً ، متهدجاً :

– آني أعرفك زين . انت نفسك طيبة وشهم وتخاف من ربك .

نظر إليه أبوها بحيرة . استمر :

– لاكت الظروف تدّخل أحياناً بحياة بعض الناس وتغيرها بلا ما يردون . بس الله سبحانه وتعالى يخلي بگلوبهم رغم تقلبات الدهر ، الشفقة والرحمة والمحبة . لأن هم من الأصل أشراف ومنبتهم طيب . انت يا حسين ، الله سبحانه وتعالى ، وضع ابني مدحت أمانة بعنقك . واردادة الله ماكو أحد يگدر يردها . لا أحنا نگدر ولا أنت ولا غيرنا . أمانة الله خلاه بعنقك سيد حسين . دتفتهم ؟ أمانة انت مسؤول عنها .

تطلع أبوها حواليه ببعض الدهشة :

– نعم ، نعم عمي .

– فأحنا ما عندنا اعتراض على حكمه سبحانه وتعالى . وابني مدحت .. اللي ما جا يراجعني وهو يعرف آني ...

توقف :

– آني مؤمن وعندي عقيدة بالله وبرسوله . وهسه آني على فراش المرض ، وكل شي أبيد ربنا ؛ أريد منك يا سيد حسين تنقل له حچاية وحدة من عندي ، من عند أبره . قول كريم أريدك توصله له وآني استعيره من القرآن العزيز .

ثم أخفض صوته وأخذ يهمهم :

– بسم الله الرحمن الرحيم . أفرأيت الذي تولى . واعطى قليلاً . أعنده علم الغيب فهو يرى . أم لم .. صحف موسى . وابراهيم ...

رفع صوته وسط الصمت الذي ران على الجميع :

twitter @baghdad_library

— ... وابراهيم الذي وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . ألا تزر وازرة وزر أخرى. وان ليس للانسان إلا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزأه الجزاء الأوفى . وان إلى ربك المنتهى . وانه هو الذي أضحك وأبكى ...

سمعت نشيجاً مكتوماً :

— وأنه هو الذي أضحك وأبكى . وأنه هو الذي أمات وأحيا . صدق الله العظيم .

كانت جدتها تنشج نشيجاً خافتاً وهي تضع يدها على عينيها . انتبهت إلى حركة مباغتة من منيرة . رأتها تقوم بخفة ثم تخرج بخطوات سريعة لا صوت لها من الغرفة . نظرت أمها إلى منيرة نظرة متسائلة ، الا أن هذه الأخيرة لم ترها وهي تترك مكانها . رجعت أمها بوجه مندهش حزين تتطلع إلى أم مدحت . كان ابوها جامداً في مكانه . كذلك خالها . لم يلاحظوها تخرج ، تلك العزيزة ابلة منيرة . أحست ثقلاً في قلبها وداخلها بعض الخوف . انها لا تفهم شيئاً كثيراً مما يدور بينهم . تكلم أبوها :

— صدق الله العظيم .

ثم قح عدة مرات وعاد إلى جموده . وجه جدها الكلام إلى جدتها :

— انت لويش دتبچين ام مدحت ؟ أكو سبب ؟ يائسة من رحمة ربج ؟

توقفت جدتها عن النشيج حالاً ومسحت عينيها بيدها :

— آني ما دابچي ابو مدحت . علويش ابچي ؟ زاتاً ما بقت عندي دمع أبچي بيها . يا ريت . لاكت آني كل ما أسمع القرآن أگوم اگهد.

— سبحان الله .

— گومي مديحة عيني جيبي استكان چاي للرجال .

انتفض ابوها حال سماعه اسم الشاي وقام من مكانه :

— لا ، خالة ، أشكرچ . شكراً ، واصل . مو وكت چاي . تسمحوا لي عمي لازم أروح هسه .

ثم توقف :

— آني عند حسن ظنكم عمي انشالله . لا يظل بالكم . يومين ثلاثة وكل شي ينتهي بخير . صبروا عليّ شوية .

– انشالله ابني . لا تنسى توصل لمدحت كلامي . گول له أبوك يريدك تسمع كلام الله وتفهمه وتسترشد بيه . گول له هو على فراش المرض ويوصيك . دتفتهم ؟

– انشا .. نعم . نعم . كل شي راح اگول له . تسمحوا لي . عندك العافية عمي . تصبحون على خير . فيمالله .

رفع يده محيياً ثم خطا نحو الباب . قامت أمها وكذلك خالها . تنحت أمها إلى جانب فمر قربها دون أن ينظر إليها . تبعه خالها . خرجا من الغرفة . التفتت أمها إلى جدتها :

– ولا سأل ولا نوبة على البنات .

ضربت جدتها يداً بيد . قالت أمها وهي تستعد لمغادرة الغرفة :

– الله يحفظ مدحت ، اذا هالشكول راح يديرون بالهم عليه .

ثم خرجت .

قامت هي بسكون فأخذت تسير جوار الحائط دون أن تنظر ناحية جديها . كانت تسمع صوت حبات المسبحة تتساقط على بعضها برتابة . تنهدت جدتها . وصلت الباب فمرقت منه . كانت الطارمة والايوان خاليين . أسرعت نحو المحجر . رأت خالها واباها يختفيان وراء الباب الوسطي وأمها تمشي على مهل وسط الحوش المنار بضوء المصباح الكهربائي الشاحب . تلامعت المياه لحظة في الحوض الصغير . أرادت أن تنادي أمها ، لكنها أحجمت . كانت مفعمة النفس بعواطف مختلطة غير مفهومة . أتعبها كل شيء هذا اليوم ، وأهملها جميع أفراد العائلة . تثاءبت تثاؤبة قصيرة وهي تضع يديها على المحجر الخشبي . مرت بجسمها رجفة مفاجئة . تثاءبت مرة أخرى . وقفت أمها عند الباب الوسطي . انها تراقب أباها وخالها . سمعت نداء خافتاً باسمها :

– سناء . سناوي .

أدارت رأسها . كان الصوت ناعماً رخيماً . رأت منيرة تشير لها أن تأتي . كانت واقفة أمام باب غرفتها . ركضت نحوها دون انتظار لاشارة أخرى . سحبتها من يد ودخلت معها إلى الغرفة ثم أغلقت الباب خلفهما . تكلمت بسرعة :

– شوفي سناوي . أريد منج فد شي .

رفعت يدها :

twitter @baghdad_library

كانت تمسك بورقة بيضاء مطوية بين أناملها :

— ... هاي الورقة أريد توديها لأبوج . تركضين هسه وراه وتنطهياه وتگوليله ينطيها.. لمدحت .. لخالو مدحت .

وكانت عيناها الصفراوان غائمتين غير صافيتين ، وقد مُسح الكحل من جوانبهما . بقيت سناء تنظر إليها . أمسكتها من ذراعها :

— سناء ، افتهمتِ ؟

ضغطت عليها بيدها . أجابتها :

— نعم ، أبلة منيرة .

— أنت تحبيني سناء ؟

بلعت ريقها وأرادت أن تجيب ، لكن منيرة عادت تتكلم بعجلة :

— هسه أريدج تركضين . لا تخلين أحد يشوفج . تنطين الورقة لأبوج وتگوليله هاي من أبلة منيرة خلي يوصلها لخالو ... مدحت . ها ؟ يالله سناوي حبيبتي ، يالله ركضي .

ثم سلمتها الورقة وفتحت لها الباب . ركضت خافقة القلب تجتاز الطارمة وتنزل السلم ثم تقف في نهايته . لاحظت أن أمها قد تركت الباب ودخلت إلى المطبخ . كان الضوء فيه مشعلاً وأصوات الصحون تُرفع وتُوضع . ركضت بمحاذاة الجدران البعيدة عن المطبخ ، حتى وصلت الباب الوسطي المواربة . انسابت منها وواجهت المجاز الطويل . كانا واقفين هناك . أمام الباب الخارجية المفتوحة على سعتها ، في الطريق ، يتكلمان . لبثت ساكنة تلتقط أنفاسها في الظلام وتضغط على الورقة في راحة يدها . لن تتذكرها أمها لفترة . انها مشغولة بغسل الصحون وتهيئة أسباب السحور . ستقول لها إنها كانت مع خالها إذا ما سألتها عندماتعود . تقدمت بخطوات بطيئة خفيفة فارتقت الدرجة ثم توقفت مرة أخرى . لم تكن تفهم ما كانا يقولانه لبعضهما بأصوات مبهمة . رأت في يد أبيها سيجارة حمراء النهاية ، كان يرفعها إلى فمه بين الحين والآخر ثم يقح وينفث الدخان . وكان الظلام حولها دامساً وضوء الطريق لا يكاد يجعلها تميز حركاتهما إلا بصعوبة . عادت تتقدم بحذر . رأتهما يتصافحان وسمعت أباها :

– نعم .. طبعاً .. طبعاً .. على خير . فيمالله .

أجابه خالها فاختفى أبوها . شعرت بالقلق ينتابها . مكث خالها واقفاً يتطلع إلى الناحية التي اتجه إليها أبوها . سارت ، غير مصممة على شيء معين ، حتى وصلت قريباً من خالها فنادته :

– خالو . خالو .

استدار بسرعة . بدا كأنه فوجيء بندائها :

– منو ؟ سناء ؟ شكو عندچ هنا بهالظلمة ؟

لم تتردد :

– خالو ، عندي شغل ويه ابويه ؟

– شكو عندچ وياه ؟

– عندنا شغل . أريد أحچي وياه فد حچاية . دزوني أحچي وياه .

كان ينظر إليها ، ولم تكن تميز وجهه جيداً في الظلام . هل سيسألها عمن أرسلها ؟ وماذا ستقول له ؟ لقد طلبت منها ألا يراها أحد . أما هو ، خالها ، فلعله سيرغمها على أن تريه الورقة . سيفتحها ويقرأ ما فيها .

كانت الهواجس تتصارع في نفسها ، فلم تنتظر ما قد يقرره خالها وارتقت الدرجة المؤدية إلى الطريق :

– هسه أجي خالو .

ثم ركضت بالاتجاه الذي رأت اباها يسلكه . سمعت خالها :

– على كيفچ . لا تركضين هيچي . تخبلتِ ولچ ؟

كان الطريق ، الذي تعرف أرضه جيداً ، مضاءً بنور شاحب من مصباح كهربائي بعيد . المهم أن تلحق بأبيها قبل أن يضيع في زحمة الشارع . رأته فجأة قرب دار سيد مصطفى النجار ، الدار ذات شجرة النبق الضخمة ، وهو يتهادى مترنحاً أمامها . كان مرفوع الصدر ، يهتز عند سيره بشكل غريب . ذات اليمين وذات الشمال . ثم ينحرف نحو جهة أخرى من الطريق ليعتدل بعدها ويعود يترنح بانتظام .

twitter @baghdad_library

نادته :

ـ بابا . بابا .

لم يبد عليه أنه سمع النداء . نادت ثانية وهي على مبعدة مترين منه أو أقل :

ـ بابا . بابا .

ثم أمسكت بذيل سيرته وسحبته برفق . لم يلتفت . بقي يسير غير شاعر بها تتشبث بطرف سترته وتتبعه . ابتسمت مستغربة . اجتازا دار السيد مصطفى النجار بخطوات ، حين أدركت أن الأمر تعدى الحدود وأن الوقت يضيع فسحبت القماش بقوة وهتفت :

ـ بابا .

قفز مذعوراً :

ـ ها ؟ شكو ؟

ـ العفو بابا . داأصيح عليك وانت ما داتسمع .

كان يحدق في وجهها :

ـ انتِ منين ؟ شتردين ؟

ـ بابا ، آني سناء .

ـ منو ؟ ها ، اي ، اي . اي عيني سناء . شلونج ؟ وين رايحة ؟ شتردين بابا ؟ تردين شي ؟

ـ لا ، بابا . لا . لاكت ...

كانت تمسك بقصاصة الورق الصغيرة وتضغط عليها :

ـ أبلة منيرة تگول .. تگول .

ثم مدت يدها :

ـ هاي الورقة تنطيها لخالو مدحت .

لبث جامداً كالحجر ، ينظر إليها وذراعاه مسبلان إلى جانبه . لم تدرِ ما العمل ؟ هزت يدها بالورقة :

ـ بابا ، هاي الورقة ، هاي . أخذها ووديها لخالو مدحت . گول له هاي من أبلة

منيرة .

– اي . اي . جيبيها . ميخالف . بس ...

تناول القصاصة بحذر :

– أخاف ما اشوف مدحت هالليلة . ميخالف باچر ؟ شكو بيها . باچر ، مو ؟

– ما أدري بابا . أبلة منيرة گالت لي وديها بالعجل .

– صارِ . صار . ألف صار .

أخفاها في جيب سترته الداخلية ثم انحنى عليها بغتة :

– لا يظل بالها . گولي لها لا يظل بالها ابدا

قبّلها في وجنتيها مرتين . كانت رائحته نتنة لا تطاق . تهدج صوته وهو يعتدل :

– سلمي عليها هواية ، سناوي ، بابا . گولي لها الرسالة وصلت ولا يتم فكرها ابدا . يالله ، بابا ، رجعي عد للبيت .

– نعم ، بابا .

ركضت مرة أخرى ، عائدة ، على الطريق المظلم المتعكر ، إلى البيت . رأت خالها ينتظرها في نفس المكان الذي تركته فيه . رأته من بعيد ، فسرها ذلك . أنبها وهما يجتازان المجاز في طريقهما إلى الداخل وسألها عدة مرات عما أرادته من أبيها . لم تجبه بصراحة فأزعجه ذلك وعاد يؤنبها . أغلقا الباب بالمزلاج ثم تبعا أمها التي صعدت إلى الطابق الأعلى . لاحظت أن غرفة منيرة كانت مظلمة. تركها خالها ليدخل على جديها . ركضت . كانت خفيفة القلب سعيدة ، تشعر بأنها تخفي سراً عزيزاً يهون معه التأنيب والتعب والمخاطر الأخرى . لقيتهم جالسين أمام التلفزيون. أمها وأختها وأم منيرة وأم حسن . لم تكن منيرة معهم . جلست بهدوء إلى جانب . خشيت أن تراها أمها وتسألها أين كانت ، وخشيت أكثر ألا يكون بمقدورها الكذب عليها . التفتت إليها أختها مرة أو مرتين ، لكنها لم تكلمها . هدأ خفقان قلبها قليلاً . سمعت أمها تسأل أختها :

– لچ سها ، اكو فيلم اليوم ؟

– اي ، ماما . عربي .

twitter @baghdad_library

— صخام يصخمچ اذا صدك .

— اي والله يوم . لو فلم ، لو تمثيلية ..

— نزول نزلچ اذا تعرفين تحچين الصدك فد يوم .

— والله ماما .

— انجبي ، مگموعة .

كانت أم منيرة تدخن بسكون وهي مشدودة النظر إلى الشاشة الصغيرة . سمعت خطوات في الطارمة عرفت فيها خطوات منيرة . فتح الباب ودخلت . سألت :

— مديحة ؟ أگدر احچي فد حچاية وياچ عيني ؟

نظرت هي إلى منيرة وأرادت أن تشير إليها من بعيد . سألتها أمها :

— اكو شي؟

هزت منيرة رأسها هزات خفيفة . قامت أمها بتثاقل . لم تنظر إليها منيرة وهي تمسك بذراع أمها وتخرج بها . كان عليها أن تخبرها بأن الرسالة ستصل إلى خالها مدحت غداً كما قال ابوها ، وأن عليها أن تطمئن . إلا أنهم لا يتركون لها أن تختلي بمنيرة . ستحاول بعد فترة أن تدخل عليها في غرفتها الجميلة تلك ذات الضوء الأزرق الخافت ، وأن تصف لها كيف سلمت الرسالة إلى أبيها . إلا أن أبلة منيرة تبدو مشغولة أكثر من المعتاد ، كأنها نسيت أنها كلفتها بمهمة خاصة جداً نفذتها بكل اخلاص وليس بدون أرهاق . انهم ينشغلون هكذا فجأة كلما جاءهم شخص ما بخبر من الأخبار . ثم خطر لها ان لزيارة أبيها وحديثه علاقة بانشغالهم الآن . وسرتها فكرة أخرى هي أن خالها مدحت موجود مع أبيها وأنه قد يعود إليهم بين يوم وآخر . لم يسافر بعيداً إذن ولم يحدث له مكروه كما كانت تحس بابهام ، ولعله يعود عن قريب إليهم . سمعت جدتها أم حسن تتكلم :

— عيني نجية ، بعدچ هنا ؟

أجابتها أم منيرة :

— اي ، يوم . شكو ؟

— هيچي . دا أسأل عليچ عيني .

كانت سناء تجلس على كرسي عتيق مغطى ببطانية حمراء . أحست بأجفانها ثقيلة وبرأسها يدور . أغلقت عينيها لحظة فشعرت بأنها تكاد تغرق في دوامة من الاسترخاء . لن يمكنها هذه الليلة أن تحدث أبلة منيرة على انفراد . قامت من مكانها واستلقت على فراشها . سرت في جسدها نشوة ارتياح شديد ولذتها لمسة اللحاف الباردة لذراعها . ستراها غداً وتخبرها بما جرى . غداً ، ستراها بالتأكيد . ستخبرها بما جرى وستضحك طويلاً اذ تقص عليها كيف جرّت اباها من ذيله ... من سترته . ستضحك أبلة منيرة وستسعد هي كثيراً برؤيتها تستغرق في الضحك . ستسعد كثيراً .

* * *

twitter @baghdad_library

١٢

(الزخم والبقاء)

(١)

أيقظته صرخته . فتح عينيه في الظلمة الرمادية . كان فكاه يرتجفان وقلبه يخفق بشدة . قام من ضجعته فسالت من احدى عينيه دمعة باردة . كان يلهث وينفث أنفاساً متسارعة . مسح وجهه ورقبته المبللين . علم منذ البداية أنه كان يحلم . رأى نفسه في الحلم وهو يعرف ذلك ويقول أنه يحلم وأنه سيستيقظ بعد قليل . ومع هذا ، مع هذا رآها أمامه . رآها ، وهو يحلم ويعلم أنه يحلم ، وشهر عليها خنجراً . كانت مستكينة مستسلمة . تلقت طعناته المجنونة تمزقها ، ولمست برفق ذراعه الأخرى . بغاية الرفق لمستها ، فصرخ . غطى وجهه براحتيه . كان مهزوماً ، خارجاً من الجحيم . ثم بكى . انفجر صدره ببكاء كموج البحر . كانت دموعه تتسايل من بين أصابعه والجهشات تتصاعد من أعماق نفسه . أراد ان يخفض يديه وأن يتوقف وأن يهدأ ؛ ولكنه في عتمة الغرفة الجرداء ، بدا فاقداً كل عزم وإرادة واهتمام . ولبثت الدموع تفيض منه . مزق صدرها والبطن والحاجبين ؛ وتذكر أنه بدأ يبكي وهو يرتكب جريمته الوهمية . ولم يرعبه ، رعباً لا مثيل له ، غير أن يراها تلمسه . لم تكن تمنعه عن اكمال عمله . كانت تلمسه بتفهم وحنان . وصرخ متألماً ؛ وكان مخنوقاً بلوعة كبرى تمسك عنقه وتجثم على صدره . ولعله لم يصرخ ؛ لكنه كان على وشك الانفجار أو الموت خنقاً .

أنزل يديه . فتش في جيبه عن منديل . مسح وجهه ورقبته وعينيه . انتبه إلى شخير وهمهمات متقطعة إلى جانبه . كانت الغرفة ذات ظلمة شفافة . يرتمي على جهة من الحائط قرب النافذة شعاع فضي من القمر . لا بد أن حسين قد عاد دون أن يشعر به . كان يراه ، هو والقنفة التي ينام عليها ، كومة أشد سواداً مما يحيطها . شعر بفمه وبلعومه يابسين . دفع عنه اللحاف المهترىء وانزل ساقيه من السرير . تحسس الأرض الباردة . بقدميه مفتشاً عن الحذاء . لم يجده . كرر المحاولة ثانية . لم يجده . قام . آلمته عضلات فخذيه . كانت الأرض باردة . سار بحذر على رؤوس أصابعه نحو الباب . مسح أنفه . اقترب من القنفة . سمع حسين يتنفس بضجة ويهمهم بحروف وكلمات لا علاقة لها بلغات البشر . فتح الباب فصرّ صريراً كمواء القط . أشعل المصباح الكهربائي ثم نظر إلى ساعته . جاوزت الرابعة بدقائق . وقف أمام المغسلة . عكست المرآة الملبدة وجهه الملتحي وعينيه الحمراوين . غسل يديه ووجهه بالماء البارد . أمرّ أصابعه في شعره المضطرب . شعر بقذارته . أعاد غسل يديه . تناول الخاولي . نشف يديه ثم أراد أن يمسح وجهه المبلل فهاجمته رائحة الخاولي العطنة . أعاده إلى مكانه . شعر ببرودة الأرض تحز أسفل قدميه . أخرج منديله فنشّف به وجهه . نظر إلى المرآة ثانية . جامد الملامح ؛ لا يمكن أن يظهر للمتمعن في وجهه أنه من بين الذين يوضطهدون لغير سبب . أو لسبب لا يفهمونه . ثم خيل إليه أن في عينيه شيئاً يشبه النداء ، سبق له أن رآه ، أن واجهه يوماً ، في مكان ما غير بعيد . كلا . لا يبدو على وجهه مطلقاً أن بمقدوره أن يكون قاتلا. في الحلم أو في الحقيقة . وهذان الخطان اللذان يحيطان بأنفه وفمه ، وتلك الأعوجاجة الخفيفة في شفتيه ، هم بالأحرى ، مع الانطباع السري لما تبعثه عيناه ، امارات شخص يورد مورد الهلاك . اخترقت ظهره قشعريرة سريعة . سيماهم في وجوههم . ثم أضاءت ذهنه ، لحظة ، صورة خاطفة لعيني الكلب المدهوس . العينان ، الحمرتان . اشارتا الاستغاثة الأخيرة . الاستغاثة التي لا مجيب لها . شعر بالانزعاج . فتح الحنفية مرة أخرى . شرب من الماء البارد . غسل عينيه . عاد ينشفهما بمنديله . قصد المرحاض . تملكه دوار خفيف . رجع فأطفأ المصباح الكهربائي وفتح الباب . توقف قليلاً . كانت الغرفة دافئة ، ثقيلة الهواء ، تختلط في جوها روائح الأحذية والجوارب القذرة والأنفاس المشبعة بالعرق والبصل . تردد في الدخول . ثم استنشق طويلاً الهواء النقي

twitter @baghdad_library

نسبياً خارج الغرفة . دخل واغلق الباب . تلاشت الروائح بعد خطوات . كان فراشه على مبعدة . أخذ يتلمس طريقه إليه . بدا له حسين خامد الأنفاس . وصل السرير فتوقف قربه . كان شعاع القمر الفضي قد انزوى في حفرة النافذة الصغيرة . شخر حسين فجأة وتنهد عدة مرات . أراد أن يصعد إلى الفراش . رفع ساقاً . هاجمته ، من الداخل موجة عارمة من العواطف المبهمة . فيضان لا إرادي ولا معقول ، كتّف قلبه وهزه بشدة . عادت إليه يدها الناعمة الرقيقة ، تستجيب له وللهول الذي ينزله بها . أمسكته ، في الظلمة الخفيفة ، عبرة رهيبة مفاجئة رجعت به إلى حلمه ، إلى حالته الجنونية التي كان عليها وهو يمارس اغتيالها . ارتجف جسمه كله وسمع جهشة قصيرة تندفع من صدره . أغلق فمه بقوة . ثم أراد أن يعتدل فلم تطاوعه ساقه المرفوعة ، فوقع ، كالخشبة ، على أرض الغرفة الصلدة قرب السرير .

ارتطمت كتفاه وقسم من ظهره بالطابوق الصلب ثم تبعهم رأسه . لم يشعر بألم كبير وأرخى ذراعيه إلى جانبه مستسلماً لهذا الانهيار غير المتوقع لجسده . لسعت برودة الأرض ظهره . اعتدل جالساً وأخذ يفرك جبهته وكتفيه . تشنجت عضلة في أعلى ذراعه فتوقف عن تحريك كتفه . كان رأسه يرن وكان يعلم أي خور في قوى جسمه ينتابه الآن . لم يرد ذلك عن تصميم ، لكنه أهمل ، أو نسي ، كل ما من شأنه أن يحتفظ له بنشاطه . كان الاهمال والنسيان ، حيث يعيش ، سهلين . ولقد تمنى ، قبل هذه الليلة ، أن يفقد كل قواه ، لعل ذلك يريحه. إلا أنه الآن يشك في ذلك . سيبقى اه عقله بكل درجاته الواعية وغير الواعية ، المتزنة والمجنونة . الحلم الذي رآه الليلة ، كان سيراه ولو كان على فراش الموت ، على الحافة الدنيا للحياة . أنه ، هذا الحلم وما يختفي وراءه ، العرق الذي يصله بكل قذارات أجداده وتفاهاتهم وعقدهم وجنون حبهم للشرف والقتل . وهو ، بعد كل شيء ، التحقيق الوهمي لارادتهم . أنه العمل الذي يريدونه منه . ولقد عمله، وماذا يهم ان كان ما نعمل في الحلم أم في الحياة المعاشة ، ما دام كل شيء سيمضي وسيجرفنا معه ؟

كان متربعاً على الأرض ، أسفل السرير ، في الظلام ؛ لا يرى شيئاً ولا يريد أن يتطلع إلى أي شيء . ماذا يريدون من المرأة ؟ ماذا كانوا يريدون .. على طول الزمان ،

على مدى القرون الموغلة في القدم ؛ منذ أن تكوّن ذلك الحيوان الذكر .. الرجل ، ثم رآها ؟ لو أخبرته .. لو أخبرته . ضرب الأرض براحة يده اليمنى . المرأة العزيزة . الأنثى الحبيبة . زوجة القلب . لو أخبرته .. لو أخبرته . رفع يده بتحفز وأراد أن يضرب الأرض . توقف لحظة ثم أخرى ؛ وإذا بالعبرة تتماوج أسفل صدره وتفيض ، تبدأ بالفيضان . أرعبه ذلك . وضع يده على فمه وأغلقه بقوة . كأنه يريد أن يخنق صراخه ! كان خافق القلب ، يحس بشيء يضغط على عظام جمجمته ويدفع بكرتي عينيه إلى الخارج . ثوانٍ ، وهو قابض على فمه وأنفاسه تعتدل وتتوافق رويداً رويداً مع هدوء نفسه . لو ... كانت ... أخبرته . كان جسمه يرتجف ؛ من نهاية قدميه حتى شعر رأسه . مثل ورقة تضربها الريح في أعلى الشجرة . ولكنه ، مع ارتجافه ، شعر أنه يملك أدنى حد من التوازن ؛ يحتفظ بأقل كمية كافية من الإرادة كي لا يجن مرة أخرى . أنزل يده . كان ذلك شيئاً جديداً . لن يموت أو يقتل أحداً دون أن يعلم . هذا شيء جديد حقاً . ماذا لو أخبرته ؟ الآن ، لن تخيفه هذه الكلمات أو الفكرة التي تحتويها . سيعيدها ثانية وثالثة . بنفس الصياغة أو بصياغة أخرى ، لا يهم . ماذا لو قالت له كل شيء ؟ لماذا لم تنبته بالسر ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ كان يطلق همهمات هي أقرب إلى الأنفاس المكبوتة . سمعها ، كان يسمعها وكان ارتجافه يشتد وكذلك خفقان قلبه . لكن ذلك لم يحدث ، وهي لم تقل شيئاً . ذلك لم يكن . لم يوجد . ما كان ليوجد . ما كان ليحصل . ولو كان قد وجد وحصل ... لكان تلافاه . كان سيتركها .. كان سيتركها . سيتركها . ساوره بعض الهدوء . كان سينجو بجلده . هذا ما كان سيحدث ، ولعلها عرفته . ولذلك اختارت له .... ماذا ؟ الهلاك البطيء ؟ الموت على أربعة أقسام أو خمسة ؟

أول صباح في هذا الجحر مع حسين ؛ استيقظ ضحىً ونفسه مليئة بصورتها وهو معها في حلم جنسي طويل لا رقيب عليه . أذهله ، أول الأمر ، وجوده في تلك الغرفة . ثم عاد إلى رشده ودخل في تسلسل الأشياء . تقيأ وتهوع ثم تقيأ وتقيأ ؛ حتى كاد يرمي بأحشائه إلى الخارج . ولم يدرِ ماذا كان يروم من القاء ما في جوفه على الأرض والمغسلة والمرحاض . أكان يحاول ازالة آثار الحلم عنه ؟

twitter @baghdad_library

كان ذلك موتاً من الدرجة الثامنة ؛ وهي لم ترده له. بأية لغة كانت تتحدث إذن ، فلم يفهمها ؟ حتى أنه يشك الآن أنه سمعها ! أهي الخديعة ؟ أم أنها ثقة من نوع خاص ؟ أم أنه التحدي الجنوني ؟ اقتلوني واغسلوا نفوسكم بدمي . قام من جلسته ؛ تحامل على أطرافه واتكأ على السرير ثم رمى بنفسه عليه . تغطى جيداً . كان الضوء في النافذة قاتماً شاحباً وأنفاس حسين منتظمة على غير العادة . اقتلوني ، دون أن تقارفوا جريمة القتل . هذا هو الوضع الصحيح لمعادلتها . وهو مقبول لغوياً ، إلا أنه لا يتحقق في الطبيعة الخرقاء هذه . لا يقبلون للانسان أن يموت ثم يعود فيحيا ؛ ولا يشفع لهذا الانسان أن يكون امرأة جميلة عزيزة على القلب مثلها . وحتى لو سمح لها باستثناء البعث ، أكانت... أكانت تعود نقية بيضاء مثل ندى الفجر ؟

كان جالساً في سريرة ينظر إلى النافذة الصغيرة . انقضى زمن قصير عليه وهو هنا . انه لا يفكر بنفسه . لم يعد يستطيع ذلك . حتى طعامه وشرابه ، صارا أموراً يحددها له حسين أو هذان المخبولان اللذان يملكان البيت . كان يظنهما عجوزين رقيقي الاحساس ، عطوفين . أرادا أن يطرداه في اليوم الثاني ، منتهزين فرصة غياب حسين الذي يخدعهما ويسيطر عليهما بما لا يدري من أمور . أرادا أن يجراه من أذنه كالكلب المبلول ويرميا به في الزقاق . كان ساكتاً منكمشاً ، يفكر في نوبة التقيؤ التي لازمته طوال النهار الفائت ؛ ولم يجدهما خطرين عليه . وكانت هي معه أيضاً ؛ نابضة في قلبه كجرح لا يندمل ؛ وكان مشغولاً بها . مشغولاً باستكمال أسباب هروبه ، لا يريد أن يرى الدنيا . وعندما أمسك به الشيخ من طرف سترته المجعدة ، نظر إليه فلمح ، وراء العينين الصغيرتين القذرتين بدون أهداب والفم المطوي إلى الداخل والشارب واللحية الملطخين ببقايا الحناء واللغة المشوهة ، ضعفاً مقنعاً بقناع قسوة طفولية . تذكر أنه يحمل نقوداً ، لا يدري إن كانت لا تزال معه . مدّ يده إلى محفظته . كان الشيخ والامرأة العجوز خلفه يتكلمان بحدة عن الفوضى والقذارة والسكر والطعام حينما عثر على نقوده . لم يجبهما بشيء . أخرج ورقة نقدية ذات خمسة دنانير وقدمها لهما .

تقلب حسين على القنفة العتيقة التي ينام عليها . وضع مخدة وبعض البطانيات عليها وهو يتبجح بأنه لا يعلم متى ينام ومتى يستيقظ . إلا أنه لم يستسغ نومته تلك . يشمّ

العجوزين حين يصحو ضحى ويشكو عظامه التي تتكسر. ولم يبدِ له هو استعداده لاستبدال السرير بتلك القنفة ما دام يحمل بعض المال معه . أما ماذا يعمل بعد أن تنضب نقوده فذلك سؤال لا جواب عليه الآن . انها المعضلة التي تتصل بصلب حياته والتي لا يريد أن يواجهها . ولكن .. هل بمقدوره ذلك ؟ هل بوسعه الاختيار ؟ انه-منذ حين- ينقب في أعماقه السفلى مثل حيوان الخلد ؛ وليس ذلك من أجل متعته الشخصية . ليس من المعقول أن تكون كل عذاباته تلك وارتجافات نفسه واصطدامه مع الذات والواقع هي من أجل المتعة الصرفة ! من أجل أن يمارس لذة سرية بضرب رأسه بالجدار ! الجدار ؟ الجدار ؟

كانت تقف قرب جدار من طين . كلا . أخذت أنفاسه تتسارع . جرها ، أمسك بها وهو ينظر في وجهها .. فمها المقوس الشفتين مع مسحة من التصميم عليه ، ولم يظهر عليه ما كان ينوي القيام به . وطافا زمناً ، لا يعلم أين ولا كيف ؛ حتى وصلا جدار الطين فشهر عليها عند ذاك خنجره. لم يعد يرى وجهها بعد ذلك. حتى الحاجبين الدقيقين اللذين مزقهما ، لم يرهما فوق عينيها . كانت عيناها أحب إليه من كل شيء في الدنيا . حتى في ثنايا عقله اللاواعي المختل . وكم ابتسمت حين كان يقبلها في عينها ، في طرف عينها اليسرى الكحيلة . وراح بعدئذ يمزق الصدر والبطن ، تحت جدار الطين القذر ذاك . ولم يصفق له أحد . لم يصفق له أحد ؛ واو لم تلمس ذراعه بكل ذاك الحنان لمضى كل شيء بسلام . لما كان صرخ ولا كان بكى . مثلما يبكي الآن . تنزل دموعه ، كالجداول ، بهدوء ؛ كما يجب أن يكون الأمر . بهدوء تام . جالس على السرير في الغرفة الجرداء التي يطل عليها فجر جديد ، وهو بملابسه منذ أكثر من أسبوع ، يتباكى ، مثل طفل ، على صور وأحلام تروح وتجيء . وماذا يعني هذا على كل حال ؟ ماذا يعني كل شيء ، على انفراد او مجتمعاً ؟ الدموع ، مثلاً ؟ هذا الماء المالح المخزون في محل ما وراء الصدغ والذي يُضغط عليه لسبب أو لآخر فيمر سائلاً من قناة إلى قناة حتى ينتهي الأمر به أن ينبجس قطرات من داخل العينين ؛ كيف يمكن أن نستنبط من هذه القطرات المالحة المنبثقة من مكان غير ملائم ، انها تمثل الضعف والانخذال والتراخي وفقدان الارادة والاستسلام والميوعة والاحباط ؟ بماذا يرتبط ملح هذه القطرات اللعينة ؟ بالجنة والنار ؟

twitter @baghdad_library

بآدم وحواء ؟ بالخليقة ؟ بكل أجدادنا وآبائنا ، وما قالوه أو لمحوا إليه وما أرادوا أن يقولوه فلم يسنح لهم الوقت ؟ أم أن كل عمل يبدر من الانسان له تفسير ودلالة ؟ وله ارتباطات أيضاً ؟ وله نتائج ؟ ولهذا توارث البشر خوفهم من الأعمال والدلالات ؟ وهل للانسان دلالة ؟ وماذا يمكن أن تكون ، عدا أن الانسان هو الانسان ؟ بدلالة أم بغير دلالة ؟ وبعد ذلك ، ما هي دلالته ، هو ؟ بأي شيء يوصم، يحتمل أن يوصم ؟ بلا شيء ؛ لأنه لا يعمل شيئاً . هكذا يقولون . وهي إذن ، من الجهة الأخرى ؟ هي التي تربطه إلى العجز والخذلان ، ما دلالتها ؟ الآن ، يمكن أن نجد دلالة على هذه الدلالة . انها تفتقد شيئاً ، يسبغ عليها ، بفقدانه ، دلالة . انه المعنى الذي ينقص منها . ذلك الغشاء الممزق ، أهو دلالتها ؟ أهو معناها ؟ أهو الذي يمنحها ، أو لا يمنحها الحياة؟غطى وجهه المبلل بيديه . ان دلالتها هي في نفسه . هو الذي أسبغ عليها كل هذه العلامات السوداء التي كانت مترسبة في أعماقه حين كان يضم ذلك الطائر الدافيء إلى قلبه . لم يراع تلك الرقة والشفافية ، ولطخ كل شيء بأسرع ما يستطيع ثم انصرف نافضاً يديه ، ناجياً بنفسه وخارجاً من المعركة نقياً شريفاً . ولكنها هي ، كيف سمحت .. آه .. وأين سيقوده تقصي العذابات هذا ومصادرها ؟ وهو ، أهو حقاً الانسان الذي بمقدوره أن يستقصي عنها ... بنزاهة وحب ؟

لم يقل لها كلمة وهو يغلق الباب على حياتها ويتركها بمفردها . استطاع أن يهرب بذاته ؛ ألم يستطع ؟ والتزم الصمت وتسلل كاللص خارجاً . لم يتدهور ، مع كل ترسباته القذرة ؛ ولم يصرخ بها أو يعربد . فوجيء ، فقط . فوجيء لأنها أرادت له ذلك . فوجيء ، وضُرب على رأسه . لم يرَ في عينيها الغائمتين الصفراوين ، أي نداء استغاثة ، أي نداء حب لانقاذها . أكانت يائسة منه ؟ يائسة ، وهي تضمه إلى صدرها ويشعر بالذراعين الرقيقين يحيطان به ويضغطان على ظهره ؟ يائسة ، وهي تغطي النهد المتوثب بخجل ؟ وهي تهمس في أذنه ، في قلبه ؟ وهي تشرق عليه مبتسمة له بكل روحها كالشمس ، كالحياة ؟

أكانا إذن ، انزل يديه عن وجهه ، مخلوقين هالكين ؛ لا رجاء لهما ، لا أفق أمامهما ؟

كان الضوء في الكوة قد ازداد سطوعاً ، وامتلأ جو الغرفة بغبش مبهم . امسكته ،

بكل حنان الأنثى ، وقادته معها نحو الهوة . هي التي اختارت ذلك . كانت تعلم ما بها ولم تخبره ؛ لأنها لم تُرد أن تُترك وحيدة . لانها لاتقوى على مواجهتهم بمفردها . أم أنها .. لعلها وثقت به وأحبته .. وأحبته ، فأرادت له أن يفهم ما هي فيه . ثم .. قد . كان هو إذن الأصل والأساس والبدء . أتكون أحبته حقاً ؟ يا للفكرة الجنونية . ولم تقل له ؛ ولعلها توسمت فيه ملامح بطل ؛ إذ ، أن نحب هكذا ، يعني أن نوصم معاً .. أن نرتبط بوثاق سري مدى الحياة . أكانت تعبث هي الأخرى بأمور مثل هذه ؟ وتزوجته بعد حساب ، لكنهما كانا ، منذ البداية ، من الهالكين . هالكان لأنهما غير مقطوعي الجذور. لو قطعا جذورهما لملكا طوق نجاة مضمون . إلا أنها لا تعلم بكل هذا ، والشخص الوحيد الذي راهنت عليه هو الذي شهر خنجراً عليها . وماذا يهم أو يغير من الأمر أنه حصل في الأحلام ؟ لقد وُجد وضع ، في الخيال أو في السماء أو في زاوية قصية من الكون ، أمكنه فيه هو بذاته أن يطعنها .. هي بنفسها .. وأن يستمر في الطعن إلى أن تلمسه وتقول له كفى .. كفى موتاً ، كفى غسلاً للعار . كفى ، لأنك تريد أن تغسل الهواء بدمك ، تريد أن تمسح على النجوم بأناملك .

كان ممسكاً بيديه الاثنتين ، تحت الغطاء ، يشد أحدهما إلى الأخرى بقوة . استنارت الغرفة وبدا الحائط أمامه يأتيه الضوء من النافذة الصغيرة في الزاوية اليمنى . كان الشرخ الأسود الذي يخرقه من الأعلى إلى الأسفل يظهر أشد عمقاً الآن ، تحيطه خطوط متقاطعة ومنحنية ومتشابكة ، وبقع الرطوبة الداكنة . مثل سهوب ضربها زلزال ، فشقّ أرضها دون رحمة وافنى الحياة عليها . عملاق مجنون يحمل منجله ويتراكض ليقطع رقاب الأطفال ، يفني كل أثر للحياة. وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت . يدفنونها وهي لم تذق بعد حليب أمها . الفناء . هذا هو الفناء حقاً . وهل سيوقفه أحد ؟

•

شخر حسين وتقلب ، فصدرت منه ومن القنفة التي ينام عليها أصوات مختلطة . كان أصفر الوجه صفرة نحاسية ، وتحت عينيه المغمضتين هالتان سوداوان ، وقد تغطى بما لا يدري ، معطفاً أو بطانية عسكرية ثقيلة . وكان منضماً على نفسه كدودة في شرنقة ، لا يبين منه غير وجهه وشعره المنكوش . متى عاد ليلة أمس ؟ لم يكن يملك

twitter @baghdad_library

ثمن المشروب وكان قلقاً لأن مساء الخميس مهيء بالضرورة لجلسة شراب . ولم يغير من هذه الحقيقة أنه يجلس إلى مائدة الشراب كل مساء . كانت لليلة الجمعة صفة خاصة تفرض نفسها عليه . إلا أنه لم يطلب نقوداً . غادره بعيد الفطور . تلبث أمامه أطول مما يجب وبدا مشغولاً بشيء غامض . لم يحب أن يعطيه نقوداً قد يحتاجها هو بعد حين . لذلك لم يرفع رأسه وتظاهر بانهماكه في التفكير رغم انزعاجه من موقفه هذا . كان بوده أن يساعد حسين بشكل من الأشكال ؛ خاصة بعد أن فتح له نفسه خلال هذه الأيام . أخبره بأشياء غريبة عن حياته . الغسيل والثياب والطعام والعلاقات مع الناس . لم يخدعه ، هذه المرة ، بأقاويل الأدب والفلسفة والذات والآخرين . قال له أنه يفهم أقل ما يمكن من الأمور . وجده أطيب قلباً مما تصور ، وبدت له حياته الحاضرة النموذج الوحيد الذي يلائمه . لم يكن متمرداً على الحياة الانسانية بشكلها العام ، لكنه كان يتلافى ضرورات المجتمع وقيوده ؛ وكان يدفع ثمناً جيداً مقابل ذلك من كرامته وقذارته وجوعه . كان راضياً مطمئناً بشكل يُحسد عليه ؛ وكان يعلم ، بعمق وبايمان، أنه إنسان محكوم عليه بالفناء خلال وقت قصير . كان الخوف يهاجمه أحياناً على حين غرة ، خوف أعمى لا يستند إلى منطق ، فيسرع إلى الكأس يفتش فيها عن الاطمئنان ، وغالباً ما كان يجده .

شخر مرة ثانية ؛ كمن يحتضر . انه يقف ، بوعي خاص به ، على حافة النهاية . يترنح على الفوهة ؛ ولكنه يبذل قصارى جهده كي يطيل ترنحه .

كانت تقاسيم وجهه ذي الوجنتين العظميتين ، تعكس انطباعاً بالانطفاء ، بالانقضاء . آلمه التطلع إلى حسين وهو نائم . لم يكن شخصاً ، بل صورة الموت ، حلماً ، وهماً ، شيئاً أثيرياً . لو رأى نفسه الآن ، على هذه الشاكلة ، لارتعب ؛ لما أمكنه أن يقبل حقيقة الهلاك القريب التي يؤمن بها ، لأنه في ايمانه هذا ، يتلافى المستقبل، يتلافى أية غاية . لقد اختار أن يؤمن بأسوأ ما يمكن تصوره ... ثم استراح .أية خدعة هذه !

ابتعد بنظره عنه إلى الحائط المشروخ ، المضاء . كانت على صفحته رسوم بقلم رصاص . قلب مطعون بسهم وحروف ، وآثار مسامير صدئة ولطخة حبر أسود

ضخمة . كمن رمى مخبرة وكسرها عليه . أغمض عينيه . وخزته معدته وقلبه . ضغط على بطنه بيده اليمنى ثم فرك صدره واستنشق الهواء بعمق . هذه الأعمال الصغيرة قد تفيد آخر الأمر . كان مستهلكاً فارغاً ، مرتخي الجسد . هدأ كل شيء فيه تقريباً الا جيشان الجنس . الشهوة اللاعينة ؛ لا تزال هناك ، تشعلها أفكاره . عصر ساقيه . لا تنطفيء ناره . حركتها وهي تفتح ساقيها الحمريتين . الاحساس السماوي بأنك في أعماق تلك الأنثى الجميلة ، الأنثى الحبيبة . تخفي النهد المرتجف بأصابعها الملونة ، وحين تلتصق عليه شفاهه ، تمسك برأسه وتداعبه برفق . كان في كامل يقظته ، واسع العينين ، يحدق في الفراغ الأغبش أمامه . خامره شعور ببهجة خفية ، تتماوج في وسطه بغموض وتتسامى إلى أعلى صدره . بهجة سرية بالحياة ، لا سبب لها ، لا مبرر لها غير نفسها . انها هي البهجة بذاتها ، لأنها هي الحياة .

كان يحس بلذة شبه جسدية تنبثق من موضع مجهول في حشاياه ، لذة خجولة مبرقعة . لذة مخدرة أنسته ، لحظات ، كل آلامه وما يحيط به . أغمض عينيه . كم يبدو كل شيء مضحكاً أحياناً ، يمكن العبث معه . حتى الموت . نداوره ونحاوره ونسخر منه ونتلافاه ببراعة ونرفضه عن يقين . نرفضه عن تصميم وليس بداهة . سمع من بعيد زقزقة عصفور . فتح عينيه مستغرباً . كان الصباح قد انبلج أو كاد ، وحسين يغط في نوم عميق . أراح رأسه على الجهة اليسرى . لم ير حذاء حسين أسفل القنفة . لعله لم يجد الوقت لنزعه . ما الفرق ؟ ابتسم . كان متعباً . أغلق جفنيه ...

... فتح عينيه . كان حسين جالساً على القنفة يتطلع إليه . تلاقت نظراتهما في سكون الغرفة التي تملؤها الشمس . مرت عليهما فترة من الوقت ولم يتكلما . بقيا يتبادلان النظر . كان الجو غريباً مبهما لغير سبب . سمع فجأة انفجاراً بعيداً مخنوقاً . قعد في سريره . قال حسين بصوت أجش :

— سمعت ؟ هذا رابع واحد .

— شنو يعني ؟

حك حسين رأسه :

twitter @baghdad_library

— لو الحجي أكل بصل هواية بالسحور ، لو ، أخي مدحت . هاي هي الثورة الگاعدين ننتظرها كليتنا . وأعتقد صاحبنا كريم قاسم راح يواجه يوماً عصيباً ، مثل ما يگولون.

ثم تمطى وتثاءب فاتحاً فمه على سعته .

خالجه شعور بالقلق وهو يستمع إلى كلمات حسين . كان الصباح جميلاً ، مهيأ لنزهة خلوية مع شخص يميل إليه القلب ، وليس لثورة جديدة أخرى . ولكن .. إذا كان اعتقاد السلطة مثل اعتقاده ، فان الثوار قد اختاروا يومهم بدقة وتوفيق . قطع سلسلة أفكاره انفجار آخر أعقبته زخة من الطلقات النارية . قال حسين وهو ينزل رجليه من القنفة :

— لا . هذا مو الحجي . أكيد .

وضحك ثم قام يتمطى ثانية .

كان بملابسه الزرقاء المجعدة ، وكان ثوبه الحائل اللون مفتوح الياقة والرباط الأسود مشدوداً إليها . عاوده القلق وهو جالس على السرير ورجلاه متدليتان يستمع إلى حسين يكلمه ويتثاءب :

— تسمح لي مدحت أروح گبلك للخلاء ؟ لازم نستعجل شوية .

— تفضل . طبعا .

حك حسين ساقه اليمنى وسار وهو يعرج نحو الباب .

عثر على حذائه تحت السرير محشواً بالجوارب . وضعه في رجليه باشمئزاز ثم قام يتمشى . كان قلقاً مكتئباً بعض الشيء ، يدرك أنه لم ينته إلى شيء ملموس في تفكيره . لقد انكفأ عن العالم ، عنهم جميعاً ، لأنه شعر أنه كان مكشوف العورة خجلاً من كل شيء . ولم يقم بعمل ما ، واعتبر ذلك ، قبل ساعات ، انجازاً بطولياً . والآن ، والانفجارات تتعالى في الأفق ، يتراءى له أنه لا يملك كل وقته ولا دنياه ، وكان خائفاً أيضاً ، لأن البشر وأعمالهم ودلالاتهم يفلتون من أفكاره ومن منطقه وتوقعاته .

فتح الباب بعنف ودخل حسين يمسح شعره ويسويه :

– العفو . تأخرت شوية . ما سمعت شي ؟
– لا بْشأسمع ؟

ثم أسرع يخرج هو الآخر .

كان الجو دافئاً في الباحة الخارجية . توقف أمام المغسلة . كانت عيناه حمراوين متورمتين قليلاً وشعره مضطرباً . غسل وجهه بالماء البارد والصابون . آلمته عيناه . خيل إليه أنه سمع انفجاراً أو اثنين . كان الشعور بالقلق يخزه بين لحظة ولحظة مثل دبوس خفي في جنبه . أخذ يمسح وجهه حينما رأى حسين يغادر الغرفة :
– آني رايح عيني مدحت ، أشوف شكو ماكو . تجي وياية ؟

تردد قليلاً :
– آني ؟ لا . لا . روح انت حسين . إذا اكو شي .. ترجع طبعا ؟
– طبعا . طبعاً ارجع . وين أروح ؟

ومضى يعرج نحو السلم .

أرجع المنشفة إلى مكانها ونظر إلى المرآة وصورته المشوهة فيها . لمس لحيته السوداء الطويلة . كانت الانفجارات تتردد من بعيد . قصد الغرفة ثم توقف أمام بابها المفتوح . كانت جحراً كريه الرائحة ، لا تزيدها حزمة الأشعة في وسطها ، إلا بؤساً . تراجع ونزل ليفتش عما يأكله . لم يجد أحداً في المطبخ المظلم . أشعل ناراً ووضع عليها ابريق الماء . نادى على العجوز عطية وعلى الحجي ، فلم يجبه أحد . كان دائخ الرأس ، ناضباً . فارقته كل أفكاره ، ولم يتبق لديه ما يتذكره . غلى الماء فصنع لنفسه شاياً سكبه في كأس وعاد به إلى الغرفة مع كسرة من الخبز اليابس عثر عليها صدفة . جلس على السرير . ثم قام ففتح النافذة . دخلت نفحة من الهواء الربيعي الدافيء وبعض الانفجارات والضوضاء . غمس الخبز في الشاي ذي الحمرة القانية ثم قضم قطعة منه . وجدها ذات طعم مستساغ . نظر إلى ساعته . جاوزت العاشرة والنصف بقليل . ماذا حدث له ليلة أمس ؟ عاد يجلس على سريره. كان التراب على أرض الغرفة يشكل طبقة تنطبع عليها

twitter @baghdad_library

أقدامهم . لاحظ محل سقوطه مطبوعاً قرب قدميه . شرب رشفة من الشاي . ماذا حدث له ليلة أمس ؟ ذلك الحلم الفظيع . يالله ! يقتلها ويصرخ ثم يبكي معها . ياالله! تتصارع في نفسه كل تلك القوى المجهولة ولا يستطيع التدخل . أيستطيع ؟ ولكن .. من هو ؟

كانت يداه ترتجفان قليلاً . قضم قطعة أخرى من الخبز . أحس ببعض المرارة في حلقه . كانت أصداء طلقات نارية تتوالى على أذنيه تعقبها أحياناً انفجارات بعيدة جداً . ماذا حدث له ليلة أمس ، حقيقة ؟ أكان طرفاً في الموضوع ، أم ساحة فقط لنزعات وحشية خفية تتقاتل فيما بينها ؟ وهو ؟ من هو إذن ؟

مدحت عبد الرزاق الحاج اسماعيل . عراقي بغدادي من محلة باب الشيخ أباً عن جد . حقوقي ، موظف منذ خمس سنوات . لا يملك نقوداً ولا بيتاً ولا مستقبلاً معيناً . له أخوة وهو متزوج .. منذ أسبوع . هكذا يمكن أن يكتبوا على قبره ؛ وقد يضيفون إليها أشياء أخرى . وكل هذا ليس هو بالتأكيد ؛ هذا الجالس في غرفة جرداء في حي الاكراد ، يشرب شاياً أسود بملابسه التي لم ينزعها منذ خمسة أيام ويقضم خبزة عفنة ولا يهمه أن تقوم ثورة أو يسقط طاغية . ما الأمر الجوهري ، الحيوي ، الأمر الذي يكوّنه هو ، الذي لا يعيش – كما هو – بدونه ؟ كان السائل الأرجواني في كأس الزجاج ، يترجرج بهدوء ويعكس التماع الشمس في النافذة . رأى عدة بقع دهنة داكنة على سرواله . يدخل دارهم كأنه لم يغب عنها . لا يستقبله أحد . يسرع إلى الحمام ليغتسل ثم يجلس ليأكل جيداً . يرتاح قليلاً . يصعد إلى غرفتهم . يراها . تراه . يتبادلان النظرات . يطعنها طعنة واحدة في القلب . يعود ليخبرهم بما عمل . تراه . يراها . لامعة العينين ، يتهدل شعرها الأشقر على كتفيها . امرأته . يضمها .. يضمها .. يضمها إليه .

تلاعبت الأشعة في كأس الشاي . يده المرتجفة . أمس ، مزقته أخيلة ، حراب من هواء . واليوم ، صاحياً وفي وضح النهار ، ترجّه ذكراها . أهي إذن ، تلك الفتاة المعيبة ، هي إذن حبله السري ؟ وحبه لها هو الذي يعمل به كل هذه الأمور العجيبة ؟

هو الذي يدور به كالثور حول مصيره ؟ و لكن ، أي مجنون يمكن أن يصدق هذا ؟

لو كان الأمر صحيحاً ، أما كان قد عاد قبل هذا الوقت ليجثو تحت قدميها ويريح نفسه ؟ أو . أكان ، منذ البدء ، قد استطاع أن ينهزم منها ؟ وهل انهزم منها حقيقة .. منها هي ؟

قام بتثاقل يضع كأس الشاي وبقايا الخبز على حافة النافذة . كانت السماء براقة الزرقة وشمس الضحى المتوهجة ترسل دفئاً لذيذاً شعر به على وجهه . سمع هديراً يأتي من الأفق وأزيز طائرة وصوت اطلاقة مكبوتة . انهم يتقاتلون بحمية . هنالك ، يتقاتلون بكل ما لديهم من أسلحة مادية وروحية ؛ وهو ، هاهنا بين الحيطان القذرة الجرداء ، يباحث نفسه عما جرى له .

ذلك أنه في غير عالمهم ، هذا هو السبب . لقد رمت به خارج مدار هذا العالم . هي التي استطاعت، بعطبها وبحبه لها ، أن تخرجه عن القاعدة ، أن تجعله استثناءا . لم تعد سلسلة الكهوف المظلمة من رغبات الأجداد وأمزجتهم تحيط به . ما عاد يسبح مع القطيع في تيار النهر النجس لترسبات وعقد أولئك الذين نحتوا ، خفية ، أعماقه . لا . انه ليس منغرساً في طينهم الأسود . لقد ارتمى على الشاطىء المنزر ، وباستطاعته أن يحيا وأن يموت إذا أراد . ولكن .. ماذا بمقدور الانسان الوحيد أن يعمل ؟ أن يكون أمثولة ، فحسب ؟ أم ان الطريق الذي يبدأ برفض الفناء يجب أن ينتهي بسعادة الانسان بشكل من الأشكال ، لأنها هي الغاية الأخيرة المشروعة ، الغاية المقبولة ؟

رجع يتمشى ببطء ثم جلس على السرير . كان متعب الجسم ،وقد فارقته فورة الجنس التي باغتته ليلاً . انطوى في جلسته على نفسه وهو يحس باضطراب في خفقات قلبه . لم يزل القلق المستور ينخر فيه . قلق غير ذي موضوع . كالسراب ، لا يُنال ولا يختفي . لم يعد الأفق منفسحاً لا نهائياً ، أمامه . ان الأحداث الضخمة التي لم يتوقعها تحاصره من كل جانب . هل يخشى أن يصاب بمكروه أم أن قلقه هذا ينصب على مصير أهله ؟ أم أنه ، آخر الأمر ، يريد أن يكون معهم فقط مهما تكن الظروف .. معهم فقط ؟

twitter @baghdad_library

كان الهدير بعيداً ، مخيفاً مستمراً ؛ ينصب في أذنيه من فم النافذة المفتوح . مخلوق خرافي مجنون يهمهم بلغة لا تُفهم ، بل ترعب . انفجار آخر ذو صدى أجوف . خطوات خفيفة في الباحة الخارجية . رشة من الطلقات المتتابعة ؛ والهدير ، الهدير . هناك من يدفع الباب . أطلت العجوز عطية :

– صباح الخير أستاد مدحت .

بهت لرؤية طلعتها المنكمشة الصفراء بين سواد الفوطة :

– صباح الخير خالة .

– العفو استاد مدحت ، ما أريد أسوى زحمة عليك .

كان وجهها نحيلاً مجعداً لا تبين فيه الملامح بشكل متميز :

– ... بلاكت الحجي الله يرضى عليه ، خاكسز شوية هالمصباح ، وخالتك ما عندها خبز للتشريب وانت عزيز علينا . أخاف تريد تتغدى وخبز ما يلتگي ، والدنيا خبصات اليوم . ما أدري ، آني دا أسمع شي ، لو شوية مخرفة

– تريدين أشتري خبز خالة ؟

– بلي ، أستاد مدحت .

– والخباز ، وين صاير تكانه ؟

– بالفضوة استاد ، وراء الگهوة .

في الفضوة وراء المقهى ، كان الناس يتحلقون جماعات ، يتحدثون بحماس ويتطلعون إلى السماء ثم يهرع أحدهم إلى المقهى أو يلتحق بجماعة أخرى ، وينصرف آخرون . كان المذياع يرسل خليطاً من البيانات والموسيقى والأناشيد الوطنية ، وكان صوته يهز زجاج الشبابيك في المقهى . انتبه بعد خروجه بقليل من البيت إلى أشخاص ثلاثة يمرون قربه راكضين . رأى أمام باب الشيخ السامقة المزوقة ، جماعة يسيطر عليها الانفعال وبعض أفرادها يشيرون بالأيدي نحو الأفق . كانت الانفجارات تصك الآذان ، عالية في ذلك المكان المفتوح ؛ وكان الجو الجميل والسماء الصافية الزرقاء يوحيان بفرح طفولي لا وجود له على الأرض . تطلع إلى الأفق ، حيث يشيرون ، فلم

يرَ شيئاً ، إلا أن قلقه ازداد مع ذلك . سأل عن المخبز فدله عليه طفل في الثامنة . سمع حوله من يتحدث عن مظاهرات مؤيدة للسلطة وعن فشل المؤامرة وعن تدمير وزارة الدفاع . وفي وسط الفضوة ، وضجة البيانات والأحاديث والانفجارات تسد عليه حواسه ، أدرك في أي عالم هادىء كان يعيش . دقت الساعة عدة دقات . حوالي الظهر . قصد المخبز . لم يجد إلا قرصين من الخبز . أزعجته نظرة العامل الطويلة إليه. عاد يسير بتمهل . كان جسمه رخواً ضعيفاً ، وخطواته بطيئة قصيرة . دخل الزقاق فارتاحت عيناه إلى الفيء الداكن . لاحظ عدة مرات ، جماعات تمر به ركضاً خلال الأزقة المتشعبة . أربعة شبان أو خمسة ، لاهثين وعيونهم تكاد تقطر دماً . كانوا مسلحين ، ولم يجد ذلك أمراً مفهوماً .

لقي العجوز تنتظره في المطبخ ، جالسة على كرسي خشبي . سألها عن حسين فلم تجبه فعرف أنه لم يعد بعد . أخذ يراقبها تشعل النار وتهيء مرق التشريب . سألها مرة خرى :

– شنو هاي منطقتكم ، خالة عطية ؟ هواية متحركين ، رايحين جايين ، شكو عدهم هنا ؟

كانت تضع المرق على الموقد :

– أهنا ؟ كل شي يلتگي هنا يا ابني ، وكل شي يضيع . الله وحده بس سبحانه وتعالى يعرف راس الشليلة وين .

ثم نظرت إليه نظرة خاطفة أحس فيها روح اتهام له بشيء لا يعرفه ولا يسره . خطر له أنها قد تجده ضيفاً ثقيلاً لا يستحب وجوده في مثل هذه الظروف ؛ أو أنها تريد منه مزيداً من المال . سألها عن الحاج فأخبرته بأنه لا يزال نائماً . أضجره ، بغتة ، أن يكون مع هذه العجوز التي لا تود مبادلته الحديث . استأذنها وصعد إلى الطابق الأعلى . لم يسعده زمن الاقتراب من هؤلاء البشر . اضطجع على فراشه واضعاً ذراعيه تحت رأسه ؛ ينظر إلى السقف ولا يرى منه غير بياض مختاط . لم يكن جائعاً ولا متعباً . كان فريسة لشعور ، لهاجس ، لانطباع عام بفكرة توشك أن تولد في نفسه ؛ وبأن أمراً عظيماً يمكن أن يحدث له . لم يشابه شعوره هذا ، ذلك الاحساس الجنسي الذي واتاه

twitter @baghdad_library

أمس . كان في طور مخاض ؛ تموج أعماقه بتوقع ، بانتظار . كانت تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين ، غائمتين ، يلتمع اصفرارهما الذهبي بين الجفنين الأسودين ، وخصلة من الشعر على جبينها المغطى بالعرق . تسارعت أنفاسه قليلاً . منيرة ، زوجته . بدت له هذه الكلمات ذات جرس غريب . تلك الفتاة التي أحبها وعاشرها وكشفت له عن نفسها وقسمت دنياه إلى قسمين . انها ، وهو كذلك ، ضمن اطار رهيب المتانة من العلاقات والعلامات والدلالات . كلها ، إذا أردنا ، كلمات لا معنى لها . وكل واحدة منها ، إذا اردنا ، بمقدورها أن تقتل الانسان وتسحقه كما تُسحق البعوضة . وعبثاً تسأل وانت تعلم الا مجيب . عبثاً تتساءل في هذا الوضع عن الموؤودة وبأي ذنب قُتلت وذُريت مع الريح . عبثاً تسأل عنه ... عن الفناء وأسبابه .

سمع نداء العجوز عليه من الطابق الأسفل . كانت الشمس قد مالت قليلاً ، والانفجارات البعيدة لا تزال تتردد . جلس في سريره . ما معنى هذه الحال التي يجد فيها نفسه كأن أمراً عظيماً سيحدث له ؟ هل يمكن أن يحصل له ذلك ؟ أن ينفذ إلى موضع ما ، أن ينتقل إلى زمان ما ، بحيث يستطيع أن يرى بوضوح وأن يقرر .. أن يقرر . قام بتثاقل . لا توجد في اطار هذا العالم حدود واضحة . عليك أنت أن تفرز الأشياء وتضعها بين أقواس كي يمكنك أن تعمل بعد ذلك . الرجال الأقوياء بدؤا هكذا . لم يستسلموا للهواجس والخيالات ؛ بل شطبوا على الأمور التافهة من الحياة وأرادوا شيئاً معيناً ثم خططوا لنواله .

كانت قد وضعت صحن التشريب على المائدة الصغيرة في مدخل المطبخ . سمع صوتيهما يتبادلان الحديث في الغرفة هي والحاج . اخرج ملعقة ووقف قرب المائدة . كان البخار يتصاعد من خليط المرق والخبز . مد يده بالملعقة وأراد أن يغرف من الصحن المليء . دوى انفجار عال هز المنزل وما فيه . ارتجف فتساقطت محتويات الملعقة . خرجت العجوز مسرعة وأطل الحاج من باب الغرفة . كلمته :

— الله اكبر ، استاد مدحت .

نظر إليهما كأنه يعتذر . خاطبه الحاج :

— صبحك الله بالخير أفندم .

هز له رأسه . سمعوا فرقعات قريبة لا يمكن تحديد مصدرها ، تبعها انفجار ضعيف . رأى ساعته صدفة ، الثانية والنصف تقريباً . كانوا ينظرون في وجوه بعضهم ويترقعون شيئاً ما . سأله الحاج :

— افندم ، راديون ما يلتكّي عند جنابك ؟

أجابه بالنفي . أزعجه أنه كان خائفاً ، تتقلص معدته وامعاؤه . اختفى الحاج في الغرفة ثانية وهمت العجوز أن تتبعه حين طرقت الباب الخارجية . تطلعت إليه بقلق . قال لها :

— آني راح أشوف منو .

عاد الحاج يطل برأسه . فتح الباب الكبير فدخل حسين كالعاصفة :

— الله يساعدك مدحت . شلونج خالة عطية ؟ سويت الغدا ، الله يخليج ؟ تره آني إذا مو ميت من الجوع ، فنص ميت . خاطر الله .

رأى صحن التشريب :

— اهلاً ، أهلاً بالخدود الحمر . ألمن صابين هالتشريب ؟ ويه الطماطة هماتين ! ديهلهل انعل مذهبه .

مد يده فتناول لقمة كبيرة بأصابعه حشا بها فمه وبدأ ياوكها حالاً ويتكلم :

— الأخبار رهيبة مدحت . رهيبة . مظاهرات هائلة ، لاكت فاشوشية على بختك . عرض عضلات ، يعني . آخر وكت يگلون صاحبنا كريم قاسم خش بوزارة الدفاع وانحصر هناك .

وقف ينصت إليه ثم أمسك بالملعقة ثانية وصار يشاركه الأكل . كان يسمعه يلهث وهو يقضم ويلوك طعامه ويمص أصابعه أحياناً :

— بلاكت راح يروحون ضحايا هواية ، على بختك . عامي شامي .

كان المرق الأحمر يلوث فمه وشاربه وقسماً من خده . سأله :

— لويش ؟

ابقى اللقمة بين أصابعه قرب فمه ، لا يأكلها :

— شنو لويش ؟ بركان أخي . غليان عظيم . آني تقريباً خميت كل بغداد . شفت ابو

twitter @baghdad_library

جلال صدفة . جانت عنده سيارة . سوينا جولة طويلة ، شوية خطرة جانت . المسئلة عيني مدحت مو مسئلة انقلاب وبس . لا. الگاع دتفور . كل العراقيين داخلين بالمعركة . هواية راح يرحون ضحايا على بختك . هيچي دا أشوف .

ثم فتح فمه وابتلع اللقمة . كانت وجنتاه ارجوانيتين تميلان إلى صفرة داكنة ، وتحت عينيه ، اللتين فقدتا لونهما ، اسوداد حائل . هتف حسين بالعجوز :

– خالة عطية الله يخليج ، گلاص ماي .

قامت من مكانها وسارت ببطء إلى المطبخ . عاد يتكلم :

– شوية تشريب إذا أكو ، هماتين . تعبت هواية . الشمس حارة اليوم .

ثم نظر إليه :

– عندي حچاية وياك عيني مدحت . نسيتها الصبح . خليني استراح شوية . البارحة ما نمت زين . بلكي آخذ غفة ورا الأكل .

تناول كأس الماء :

– لا تطلع هسه مدحت . ما تسووه . انتظر الجو يصفي شوية والله كريم .

هز رأسه :

كان مستمراً في تناول الطعام الذي وجده لذيذاً ، وكان يشعر بارتياح في داخله . لعل حسين ، هذا السكير النقي الحدس ، يقصد بكلماته هذه مسألة عودته هو إلى البيت ، عودته إليها . إلا أن ذلك أمر غير وارد الآن . لا يمكن أن يرجع اليهم كالطفل المذعور . لن يجدي ذلك في شيء . سمع حسين يجيب على سؤال للحاج :

– شلون ؟ شلون ؟ حجي ، انت شكو عليك الله يخليك . لا بيها ولا عليها. لا منا ولا منا .

قالت العجوز :

– اى عيني ابو سها ، الله ينطيك يابه .

تكلم الحاج :

– نعم أفندم . بلاكت لا تنسى حچاية الحصيني أفندم .

شهق حسين بلقمته ، وأخذ يقح متراجعاً إلى الوراء وداخلاً إلى المطبخ يبصق ويتمخط أمام المغسلة . هتف :

ـ آه . الله . الله اكبر . هاي منين لك هالحچايات ؟

وأطلق ضحكة رنانة قطعتها سعله عنيفة . عاد وهو يمسح وجهه بالمنشفة :

ـ لا يظل بالكم أبداً . كلشي ماكو . وانشالله كل شيء ينتهي بخير .

رمى المنشفة على المائدة :

ـ آني راح آخذ لي غفة فوك .

دوى انفجار كبير بعيد ، تبعه آخر أضعف منه . رفع حسين رأسه :

ـ اذا خاونا الجماعة .

ثم سار بخطوات واسعة نحو السلم .

رفع هو اللقمة الأخيرة إلى فمه وابتلعها دون مضغ ثم حمل الصحن الفارغ معه إلى المطبخ .

سمع العجوز :

ـ لا يصير زحمة عليك استاد مدحت . آني أغسل المواعين .

ـ شكراً خالة عطية .

ثم مضى هو الآخر إلى السلم فأخذ يرتقي الدرجات ببطء . غسل يديه وفمه ووجهه عدة مرات . كانت رائحة الزفرة في الشعر النابت حول فمه تزعجه كثيراً . قصد الغرفة بعد ذلك . رأى حسين مضطجعاً بملابسه على القنفة دون غطاء ، والشمس منزوية في ركن قرب النافذة . كلمه حسين :

ـ مدحت عيني تره عندي حچاية مهمة وياك ، مدا أتذكرها هسه . خليني أنام فد نص ساعة وشوف شلون انطيك كل التفاصيل .

لم يجبه . قعد على الفراش لحظة ثم تراجع متمدداً على السرير ، واضعاً المخدة وراء ظهره . سرى في جسمه ارتخاء لذيذ بعد تناول الغذاء . لم يعد يعير اهتماماً خاصاً لأصوات القذائف المتعاقبة . لعله يستطيع أن يغفو قليلاً مثل حسين . لم ينم أمس إلا

twitter @baghdad_library

ساعات معدودة ، نوماً مزعجاً أروح منه الأرق . سيسترجع ، لو نام ، نشاطه .

نزع حذاءيه وسحب الغطاء إلى صدره ثم أغمض عينيه . ماذا في جعبة حسين ؟ أينسى حقاً أم يتناسى ؟ كلمه :

— حسين ، انت رحت شفت الجماعة ؟

لا جواب . فتح عينيه واستدار بنظره إليه . كان واضعاً ذراعيه في حضنه ، كالمستسلم إلى أمر مجهول ، وهو ينفث أنفاساً عميقة من فمه المفتوح . وكان وجهه ممتقعاً باهتاً ناحلاً . رجع بنظره عنه وأغمض عينيه ثانيه . لا بد أنه قابل أحداً من العائلة . إلا أن من السخف أن يعتبر ذلك أمراً مهماً . انه أمر لا دلالة له ؛ وبالتالي فلا أهمية له . هذا عالم الدلالات . حتى لو كان قد قابلها هي ، لما كان الامر هاماً . ذلك انه لا يعرف دلالتها . هو أيضاً ، زوجها ، مثل غيره لا يعرف عنها شيئاً جوهرياً . وهو لهذا إذن ، وبعد كل شيء ، يتخبط في الظلام؛ يسير كأعمى ، يفتش عن شيء لم يره ولا يعلم ما هو . شعر بأعصابه تتوتر وتملكه ذلك الهاجس بأنه يوشك أن يعثر على شيء فذ . كان قلبه يخفق بشدة . انه يخفق هكذا بعد الأكل عادة ، إلا أنه يخفق الآن لسبب آخر .

هي ، مثلاً . كانت عذراء بالتأكيد ، مثل كل فتاة أخرى . ألا يكنّ ، جميعهن ، عذراوات لمرة واحدة ؟ ثم .. ويلبث قلب الحبيب يريد لها ألا تُمس ، أن تتجدد عذريتها بعد كل وصال . ولكن ، هيهات . لو أبقت إذن ، تلك المتهورة العزيزة عليه.. لو لم .. وعصرت نفسه رغبته فيها . دافئة لينة ناعمة . يتوسدها وتحتضنه . تحتضنه وتضمه إليها . تريده وتلصقه إلى جسمها . مسح جبينه النابض عدة مرات . كانت أنفاسه ، مرة أخرى ، متسارعة ، لكنه أحس أن باستطاعته أن يبعد تلك الصور عن نفسه . ثم ... وهو في عالمه الأثيري ذاك أمسكت به قبضة حديدية لا ترحم ورمته بكل وحشية خارج مداره . خارج عالمه ، خارج عالمها ؟ لا يعلم ، وليس لذلك أهمية . كان ضحية لارادة همجية نُفذت فيه دون سابق انذار . ما هي هذه الارادة ؟ ما كنه هذه القوة المبهمة التي تبلغ هذا الحد من القسوة والعنف وعدم الرحمة ؟ ما هي ؟ ما هي ؟ ما هي ؟

كانت قبضتا يديه متشنجتين على بعضهما وجسده كله منوتراً متحفزاً كمن يهم بمهاجمة وحش يقف أمامه كي ينقذ نفسه . فتح عينيه ثم اعتدل وجلس في الفراش . كانت الغرفة ، في غسق العصر ، تبدو بلا جدران ؛ والهدير يأتيه من النافذة المفتوحة دون انقطاع . لعله ، في حقيقة أمره ، بمواجهة وحش ذي تكوين مجهول وبلا هوية . وحش تكمن قوته في أنه مجهول ، مظلم الأصول ومبهم الغايات ، فاذا ألقيت عليه الأضواء ، بشكل من الأشكال ، أو وُجد من ينظر باصرار في عينيه ، في باطنه ؛ لبدا مضحكاً مهلهلاً كسيف من ورق .

كان حسين مسبل الذراعين ، داكن الألوان ؛ كشخص غائب عن العالم . شعر ، بغتة ، بأنه وحيد ، متعب غاية التعب . عاد يسند ظهره إلى المخدة ويغلق أجفانه . متعب ، وحيد ، متخاذل ، خائف . أن تكشف عن وجه الوحش الذي يتخافى عنك ، أن تواجهه ؛ هذه الفكرة هي النداء الأخير له كي يعيد النظر ، بأعصاب هادئة ، في حياته وفي أسباب ما يجري له . انها دعوة لقلب الأسس . ولكن ... كيف نقلب الأسس إذا كانت الحقائق ثابتة ثبات الليل والنهار ؟ كيف يمكن أن يغير من أساس نظرته إلى الحقيقة القائلة بأن زوجته منيرة لم تكن عذراء حينما تزوجا ؟ لم تكن عذراء . منيرة كانت على اتصال بشخص قبله ، اتصلت به ولعلها أحبته . اتصات به ولعلها ... كانت العبرة في صدره ضعيفة لا تقاوم خنقه لها . وحين قبلت الزواج به كانت تعلم أنها ليست عذراء وكانت تعلم أن ذلك سيؤلمه، وسيجرحه،وقد يودي به . ولم يعد هذا مهماً الآن ؛ ولكن ماذا ينبني على حقيقتها هذه ؟

انها ليست عذراء ، فهي فاقدة الشرف ويجب أن تعاقب على يديه أو على يد أي متبرع آخر من العائلة . هذه المعادلة معروفة . انها تضع الشرف في عضو الأنثى العذراء، وهي توكل لها أن تحافظ عليه إلى حين من الزمن مقرر . لماذا ؟ هذا بحث آخر ، لا أحد يبحثه . ولكنه في صميم الموضوع . أهو السعي لنظافة النسل والعائلة والعشيرة والأمة ومن ثم البشرية كلها ؟ أي عبث هذا ! ولكن ، لماذا ترد كلمة النظافة إلى ذهنه ؟

كانت كالضوء شفافية ونعومة وبهجة ؛ وكانت أبعد المخلوقات طراً عن القبح والقذارة . ومع هذا ، كانت قد افتضت ودنست وكانت تعلم ذلك . كانت تعلم ذلك

twitter @baghdad_library

حين تزوجته ، ولم تقل له شيئاً . ها هو يعود إلى تلك الهاجسة القديمة . لم تقل له شيئاً . لم تقل له شيئاً . ولعلها قالته ، أكان تبدل جوهر المسألة في شيء ؟ انها من خلال منظور متوطد في نفسه وفي جذوره ، تُعتبر قد فقدت دلالتها كامرأة في هذا المجتمع وكزوجة وكأم . فقدت دلالتها ؛ فقدت معناها الذي يجب أن تحتفظ به ، أن تتلبسه وأن تسبغه على وجودها الأنثوي . فقدت دلالتها بشكل غير مشروع . هذا هو الوضع الصحيح . فقدتها ، تلك القطعة الحساسة اللعينة من اللحم البشري ، بشكل غير مشروع ، غير مسموح به . ذلك أنها ، من الجهة الثانية ، تستطيع أن تفقدها ولكن بشكل آخر .. شكل مشروع . هنا مسألة جوهرية أخرى . إذن ، الفقدان ليس أساساً ثابتاً مهماً ؛ لأنه سيتم إن عاجلاً أم آجلاً . إذ لا يسمح ، في هذا العالم المدنس ، للمرأة أن تكون عذراء مرتين . إنما ... كيف تفقد عذريتها وبأية طريقة ؛ هنا ، وضمن مخارج ومداخل البشر وعواطفهم ونفاقهم وضعفهم وضعتهم وخبثهم وتهورهم ومخاوفهم ، يمكننا أن نسكب نهراً من الدموع ، ولن يكفي .

بدأت أجفانه تثقل . دوى انفجار قصي ذو صدى غريب . كان متعباً لغير سبب ؛ يتمنى من أعماقه أن يجد وقتاً ، مهما قصر ، للراحة والنسيان . ان تشابك أمور الحياة هكذا ومحاولاته لتفسير ما لا يفسر ، يبعث في القلب هماً ثقيلاً ويشعر بالسويداء .

لم تكن أفكاره مبهجة . انتبه إلى أنه يفكر بدلاً عنها . يسلسل الحقائق بحيث يصير في صف المدافع عنها ؛ عن تلك الفتاة التي يحبها رغم كل شيء . الوجه الملون الضاحك والعينان المبتسمتان ، وأشاراتها وحركاتها وايماءاتها وجسدها ورقتها وتلك الهالة من الضوء التي تحيط بها !

ألأنه يحبها ، ينكر الوقائع ويزورها ويحاول اخفاءها ؟

وأين سينتهي به كل هذا ؟

لن يصل إلى قرار إذن ، إلى الحقيقة . كلا . ليس هذا صحيحاً . انها لم تمنحه نفسها فقط . كان يعرف ذلك . لقد سلمته عارها أيضاً . وضعته ، هو ، بجانبها . خلطت عيبها وحبه وحياتهما وذكرياته وأحلامه ، ونامت في أحضانه مستسلمة إلى حكمه .. أي حكم .

تنام في أحضانه مستسلمة له !

أية أحلام عجيبة يحلم . كان وجهها المتورد ، المحمر ، المعرق قليلاً ، وجهها الجميل المنور ، منطبعاً بطابع استسلامها له .

كانت تعطيه نفسها برضا ، بحب الأنثى . لم تكن متزلفة ولا مخادعة . وعادت إليه لحظة رأى بطنها الحمري تحته تتردد فيه أنفاسها السريعة ويتصاعد اللحم اللين كأنه يسعى إليه ثم ينخفض ؛ وكيف خطف في ذهنه آنذاك أنها بكل كيانها تريد منه أن يمتلكها .

تقلب في فراشه بقلق. شعر بنشاط في دمائه وعدل من وضع رقبته ورأسه على المخدة .

لم تكن الانفجارات كثيرة ، إلا أن الضوضاء بقيت كالعاصفة في الأفق .

هل كان من حقها أن تدع له الحكم عليها ... عليهما ؟

ولكن .. هل من حق أحد أن يسألها لماذا تمنحين حياتك لشخص ما ؟ حياتها وما فيها وما عليها ؟ هل من حقها ؟

كان يهوم ؛ تجيئه الفكرة ثم تبتعد ، ورأسه يدور وهو يحس بنفسه يتلاشى مع لجة النوم التي كانت تقترب منه وتقترب ثم تغرقه ببطء .

* * *

twitter @baghdad_library

- ١٣ -

انتهت الزيارة قبل السادسة مساء ؛ وعندما خرجنا من بناية المستشفى الحزينة ، ضيعنا ربع ساعة في انتظار سيارة تاكسي لم تأتِ . كان الهواء لطيفاً في الشارع الخالي وضوء الشمس ، الذي لم يختف بعد ، يضفي على المكان مسحة من الابهام واللاواقعية . وكنّ ، الصغيرتان ومديحة ملفوفة بعباءتها ، يقفن قربي صامتات . خطر لي أن العاصفة الترابية والمطر الذي تساقط ليلة أمس ، هو الذي جعل الجو معتدلاً هكذا . اعتدنا ألا نرى ربيعاً في منتصف نيسان ، اعتدنا ألا نرى ربيعاً على الاطلاق . يقرض الشتاء عظامك ببرده ، ثم يفتتها الصيف ، على حين غرة ، بحره المريع . كنا واقفين إذن ، أمام غروب الشمس ، قريباً من شاطيء النهر ، ننظر يميناً وشمالاً متأملين قدوم عربة تقلنا إلى البيت . لم تستمر الزيارة غير ساعة أو أقل . فرح بنا حين فتحنا باب الغرفة عليه . كان مستلقياً على فراشه بدشداشة بيضاء طويلة . قفز كالزنبرك واحتضن ابنتيه . وبدا عليه كأنه يريد أن يحتضن مديحة أيضاً . إلا أنه خجل وتلاعبت الحمرة في وجنتيه ثم لوى فمه ومسح أنفه وعاد يضم ابنتيه إلى صدره . جلسنا حوله ووضعنا أكيس الهدايا التي احضرناها معنا على الأرض قرب السرير . قعدت سناء وسها على الفراش قربه . كان شاحب الوجه ، تكثر التغضنات في رقبته وحول فمه ؛ وكان يتكلم بتردد دائم وعدم ثقة وهو يشير بيديه لغير سبب . أخبرنا حالما جلسنا أنه لم ينم منذ يومين وأن مديره السابق جاء لزيارته وأنه يشتهي تدخين سيجارة ولا يدري لماذا لا يسمحون له بذلك .

ثم قام ففتح نافذة تطل على الحديقة ووقف قربها مديراً ظهره إلينا وقال كأنه يحدث نفسه :

– الكوكوختي ، اليوم الصبح ، هواية چان حلو حسها . ما أدري وينها هسه ؟

نظرت مديحة إليّ . كانت في عينيها الحائرتين أسئلة وامارات قلق عميق . سألته :

– حسين ، المهم انت شلون دتحس بنفسك ؟

رفع ذراعيه قليلاً ثم كتفيه ولم يستدر وهو يجيبها :

– آني ! آني زين . شكو بيّ ؟

ران علينا الصمت لحظات . كانت الصغيرتان على طرف السرير ، كعصفورتين ، تنظران إليّ وإلي أمهما بعيون لامعة . كنت منزعجاً منذ البدء ، ولكنني اعتدت ، هذه الأيام السوداء ، أن أتقوقع وأن أستطيع الابتعاد بنفسي عن العالم . لم أكن جباناً بشكل خاص ولا يائساً ؛ ولكني اقنعت نفسي أن أموت ميتتي الخاصة . ولقد خيل إليّ ، في الأسابيع الأخيرة ، أن هذا الانجاز يجب أن يسجل لي . اذ ، في هذا العالم المخبول المحطم ، لم تعد للموت خصوصيته التي طالما تشدق بها المفكرون والشعراء ؛ وهو قد فقد مجانيته أيضاً ، وصار ، عدا أنه يُمنح بالجملة ، حيوانياً .

تراجع حسين عن النافذة ووقف أمامنا :

– آني مديحة ، ما بيّ شي تره . يعني .. جوّه .

ضرب على صدره عدة مرات فارتفع صوت أجوف :

– داخلياً أريد اكول ، روحياً .. كلشي ما بيّ . بالعكس . تأكدي بالعكس . كريم يعرف . كلش قوي داخلياً ، روحياً .

كانت كتفاه هزيلتين ، احداهما أعلى من الأخرى ، وقماش الدشداشة الطري ينسدل على عظام صدره وانخفاض بطنه :

– حچيت للمدير شلون اختاريت أدخل المصح . گلت له ماكو أحد يگدر يأثر عليّ . آني صرت .. يعني .. صار عندي ايمان مفاجيء . الحياة دتبدل . ماكو واحد گواد يگول ...

القى نظرة سريعة على ابنتيه :

twitter @baghdad_library

– ... الحياة دتتراجع . تمام ؟

كنت أنظر إليه ، أريد أن أصدقه . وصف لي ، أول مرة زرته بعد اسبوع من دخوله المصح ، كيف فاجأه ذلك الرعب من الموت . كان يسير صباحاً قرب ساحة باب الشيخ حينما وقع في شباك ذلك الشعور . لم يعرف كيف ولا لماذا . امتلأ قلبه بفزع من الموت ، موت أكيد سيحل به عن قريب . لم يكن الأمر مجرد فكرة تجول في الذهن وتبعث على الخشية . كان مرتاعاً هلعاً ، كأن قاتلاً يسدد نحوه سلاحه وسيرديه ، عن تصميم ، خلال لحظات . اضطربت نفسه وارتبك سيره . دخل احدى المقاهي القريبة وارتمى على تخت خشبي . لم يكن قد شرب الليلة السابقة وكان يلهث مثل كلب جائع مبلل رُفس الف مرة . وفي تلك الحالة المزرية من الانهيار والفزع واللاتوازن ، خطر له أن يخرج من دائرة حياته وان يبدلها كما يقول :

– ... چان عندي ايمان گلت له . شفت اكو أمل كبير بالعالم داير مدايري . الثورة وأفق ... يمكن آفاق تجديد واصلاح . كل هالشي شجعني . لاكت هالملاعين الوالدين ديصعبوها هواية عليّ . هسه الچگاير ليش ما نعيها ؟ سرسرية .

ثم أسرع متجهاً نحو النافذة ، وقبل أن يصلها استدار وعاد إلى السرير فقعد قرب ابنتيه . سألته مديحة :

– أشراد منك ابو سرمد ؟

نظر اليها بعينين غائمتين :

– منو ؟

– ابو سرمد .

– منو ابو سرمد ؟

– الله لا يحير عبده . ابو سرمد يابه ، هذا الچان مديرك .

– المدير ؟ ها . ابو سرمد . كلشي ما راد . چا ديشوفنيّ . آني گلت له راح اكتب مقال عن تجربتي هاي ، يمكن أحد يستفاد منه . گال كلش ممتاز .

– يعني ما گال لك شي عن الوظيفة .. شي ؟

– طبعاً . طبعاً .

ثم أخذ يقطع شعيرات في طرف رقبته وهو يلوي تقاطيعه كلما انتزع شعرة .

– شنو طبعا ؟

توقف لحظة :

– اصبري شوية عيني مديحة خل دا أتفرغ واكتب المقال وأنشره والله كريم .

– يا مقال ، يابه ؟ أحنا نريدك تصير زين وترجع تشتغل ، لو ...

– ميخالف . ميخالف . صبري شوية الله يخليج كلشي يصير زين . بس هذوله الأطباء لو تحچون وياهم على الچگاير .

ثم مد يده واخذ يعبث بشعر ابنته سها . ابتسمت هذه بخجل ونظرت إلى أمها . عاد يتكلم .

– المسألة مديحة ، آني هسه صار عندي تطور . هسه دا أعرف آني چنت مريض ولازم أتعالج . هاي تره خطوة عظيمة يعني . گبل ماچنت أعرف آني بيا حال . هسه .. دا أعرف .

ثم انكمش على نفسه . سحب يده من شعر ابنته وتشابك كفاه وهما مطروحان على حجره :

– هسه دا أعرف . الله ، سبحانه وتعالى ، خلاني أعرف . سبحانه وتعالى ، سبحانه وتعالى . ورا قدر مدحت الله يرحمه ، بقيت عشر تيام ما خليت قطرة بحلگي . قطرة وحدة ما خليت بحلگي . عشر تيام ! چنت مثل النايم : ما عندي وكت أشرب لو أفكر بالشرب . شاون هاي ؟ ما أدري . بلاكت سبحانه وتعالى ...

كان يتكلم باخلاص وصدق ، هذا السكير الذي استعاد وعيه ؛ وقد أسبغ على وجهه ونظراته الشاردة هيئة الموحى إليه . ولم يكن ذلك يلائمه كثيراً . ويخيل إليّ أن سبحانه وتعالى لم يتدخل إلا في بث رعب غير محدود الأفق في قلب هذا الرجل ، تلك الأيام . كان الرعب في الهواء ، في ذرات الهواء ، على مدى الساعات ؛ ولم يكن رعبه ولا رعبي ، لم يكن رعباً شخصياً . كنت اراه ، اصطدم به ، في الوجوه والاشارات والأصوات ؛ وكنا ننوء بحمله . وحين جاءنا حسين ، السبت ضحى ، بعد ليلة لم يذق فيها النوم أحد من أهل البيت ، شاحباً مضمخاً بالعرق وأخبرنا بقصته ، كان ينتز

twitter @baghdad_library

رعباً . وصف ليلته ، يتجول هائماً على وجهه في شوارع بغداد وأزقتها ، هو واصدقاء له، وكيف لم يستطع العودة إلى حيث يسكن لأن الحي كان محاصراً . لم نسمع منه سوى أن مدحت لم يكن معه وانه ، ربما ، قد حوصر هناك . كنا قرب المطبخ . متحلقين حوله . أنا ووالدتي ومديحة وهي ، ثم جاء ابي . لم يبق لنا سوى أن نستخلص أكثر ما نستطيع من معلومات من هذا المخاوق المتكسر .

كان العتاب والتأنيب والتقريع أموراً غير ذات موضوع . وكنت أخشى أن يكون كاذباً في كل ما يقوله . اخذته معي بعد أن غسل وجهه وأكل لقمة . أصرت هي أن ترافقنا . لبست عباءتها وأخفت نصف وجهها وأبقت العينين الصفراوين المبتلتين ، ظاهرتين . سرنا دون كلام . كان حسين يعرج ويسير بتثاقل كأنه يريد أن يدعنا نسبقه . هز رأسه حين سألته هي هل أجاب مدحت بشيء عما أرسلته له ، ولم ينظر إليها ولاحظت فمه يتقلص وجفونه ترتجف .

كان الهياج في الشارع لا حدود له ، والانفجارات تتتابع مختلطة مع أصوات الراديوات العالية في المقاهي . وكان النهار جميلاً مع بعض الغيوم والشمس مبهجة . دخلنا الجامع واجتزنا ساحته وتوقفنا قرب الباب الأخرى . كان الحصار حقيقياً ولقد لمسناه عن كثب . لبثنا وقتاً طويلاً في مكاننا ذاك . رأيتها تتطلع ، عبر مقهى ياس ، إلى مدخل الحي ، دون أن تريم أهدابها ، دون أن تتعب . لم يكن كل أولئك المسرعين ، مسلحين وخائفين وغيرهم ، ليدخلوا ضمن اطار رؤاها . كان العالم عندها ، شخصاً واحداً لا يأتي . وانهكنا الانتظار والجوع وما يدور حولنا ؛ وعدت معها بمفردنا إلى البيت . لم نتحدث في طريق العودة . كنا ، أنا وهي ، قد انقطعنا عن تبادل الكلام منذ أسابيع . قال لنا هذا المجنون أنه سيبقى وقد يستطيع تدبير أمره والدخول إلى الحي ، ووعدنا أن يأتي إلينا بعد ذلك . كان من المضحك أن نصدقه .

— ... هذوله الأطباء هنا يگولون هاي أول خطوة للأمام . يگولون انت أول مساعد لنفسك . انت اذا تريد تشفى ، تمشي ؛ اذا تريد تصير زين ، تصير زين . يگولون أحنا نگدر نساعدك ، لاكت انت ...

— وإلى متى راح تبقى هنا ؟

ـ آني أدري ! هم يقررون شوكت أطلع ، الأطباء . تره مديحة هاي مو مستشفى اعتيادي . أقصد ، هم الأطباء ، ديعتبرون هاي فد تجربة يعني . يگولون رائدة.. يعني بالعراق . الناس المدمنين ، يعالجوهم ويخلوهم يواجهون الحياة مرة لاخ يگولون هاي أول نوبة . ما أدري عد ، صدك چذب . بس آني واثق ...

قطع كلامه وقام إلى النافذة .

لم أرد أن أكلمه . كنت مشاهداً وكنت مصراً على أن أبقى هكذا . بدا لي أنه يحدث نفسه كي يرمت ما ينهدم منها مع الزمن ؛ ولم أكن مشفقاً عليه ولا متحمساً لمشروع تغيير حياته . لعلي لم أفهم الفرق بين ماضيه وبين ما يحاول أن يخلقه . لم أفهم تفاؤله بين أنقاض عالم بريء يتخرب . لم أفهم كيف يمكن أن يجد انسان الحياة جميلة والموت مطبق على الأفق . ذلك اليوم ، بعد الظهر ، والمطر يتساقط اثر الاعلان عن اعدام عبد الكريم قاسم ، شعرت بطعم غريب في فمي ، وقلت في نفسي أني سأموت عن قريب . كنت واقفاً ، قرب الزيتونة ، تحت مخبأ ، أتطلع إلى الباب الكبير . أخلد والداي إلى غرفتهما بعد أن فقدا كل طاقة للاستمرار على التظاهر بالصبر . كانا ، لا شك ، يبكيان سوية بمعزل عنا . لا بد أنهما قد أدركا ، مثلي ومثلها ، بأن مصير مدحت اختلط ، بصدفة قاتلة ، مع الأحداث الفائرة ، وأن حياته وموته متوقفان على أمور يجهلها ولا يد لنا فيها . كان المطر يتساقط بغزارة وأوراق الأشجار تتلاعب . رأيت جدتي ام حسن أول الأمر . خرجت تتمشى من غرفتهم بمفردها ، ثم توقفت تنظر إلى السماء . مكثت تنظر إلى الأعلى بشكل غير مفهوم . كأنها رأت اشارة ما في الغيوم الكثيفة ، أو كأنها كانت تكلم أحداً . مضت بعد قليل لتدخل غرفة أخرى . كانت متشحة بالسواد ، بيضاء الوجه ، لا تبين عليها أية امارة على عاطفة ما . ثم سمعت ، بين نقرات المطر على ورق الزيتونة ، باباً يصفق في جهة من الطابق الأعلى ، ولمحت شبحاً أسود آخر من طرف عيني . كانت تحمل عباءتها في يدها وتسير بسرعة وخفة نحو السلم . توقفتْ قليلاً أمام غرفتي ثم تابعت مسيرها . أحسست دون سبب ببعض الاضطراب . عرفت قصدها ولبثت في مكاني . ترددتْ قليلاً عند خروجها من فتحة السلم . كانت بثياب زرقاء داكنة، شاحبة الوجه . نشرت العباءة بين يديها وهمّت

بوضعها على رأسها حين رأتني . توقفتْ ، لحظة ، عن الحركة وهي تتطلع إليّ . ثم بدا عليها كأنها صممت على شيء فالتفت بالعباءة وغطت بها جسمها . كانت المسافة بيننا حوالي عشرة أمتـار ، قطعتها بخطوات قصيرة متعجلة ، وحين وصلت قربي همست :

– آني رايحة مرة لخ . بلكي ...

ومرت . كانت عيناها تبرقان ، طويلتين لوزيتين فوق الأنف الدقيق . تبعتها . تناثرت قطرات المطر على وجهي وشعري . سألتها هل أخبرت أحداً بخروجها فأجابت بأنهم نائمون جميعاً . كنا نسير صامتين ، بحذر على الأرض الترابية المبللة . كلمتني دون أن تنظر إليّ متسائلة عما إذا كان كل شيء سينتهي بعد أن مات عبد الكريم قاسم . لم أجبها . أردت أن أقول لها بأني لا أدري . توقفنا في منعطف زقاق قريب من مكاننا السابق قبالة الحي المحاصر . قيل لنا ان المنطقة ستقصف بالمدافع وان الهجوم عليها لن يتأخر . كان الرصاص يلعلع باستمرار ومن كل ناحية ؛ وكانت متوجهة بكليتها إلى المدخل المظلم البعيد ، واقفة جنب الحائط ، لا يبرز منها غير وجهها ، وجهها الجميل المشرق رغم القلق والرعب . تمنيت لو كنت أسبّب مثل هذه اللهفة في نفس امرأة مثلها ! وكانت ، دون أن تراني أراقبها ، تتنفس بعمق وتتنهد ثم تمسح قطرات المطر عن جبينها . بقينا بعض الوقت . كنت قلقاً ، لا أتوقع خيراً ؛ وكانوا حولنا يتراكضون ويتدافعون وتختلط شتائمهم وضحكاتهم ، والرصاص يتعالى وتتردد أصداؤه . سمعت ساعة الجامع ترن وتدق دقات لم أستطع عدها . كنت أقف على مبعدة منها . لاحظت أحدهم يقترب منها أكثر مما يجب . تحركت ببطء فالتفتت نحوي . دنوت منها . نظرت في عينيها . رأيت فيهما عذاباً غريباً لا يسعه العالم . كانت شقية بمعنى الشقاء المطلق . اتكأتُ جوارها على الحائط وسكت .

ثم توتر الجو خلال دقائق . ركضت جماعات من جهة شارع الكفاح وعاد أفراد مدججين بالسلاح نحو الشارع مرة أخرى . بعد ذلك علا هدير وقرقعة غير مألوفين ، فتراجع الناس وتراجعنا مثلهم . لم يتسن لنا أن نتكلم ، حين ارتفع انفجار كبير على مبعدة منا . هتف شخص بأن القصف قد بدأ وسيخربون كل البيوت هناك ، كم كانت

مرتعبة ، هلعة ! تقاصت ملامحها وتطايرت نظراتها على الأشياء والوجوه . أمسكتُ بذراعها من خلف العباءة فسحبتها بشدة . عدت أمسكها باصرار . كنت أتمسك بها في الحقيقة ، بالرمز الذي تبقى في حياتي . نظرتْ إليّ ؛ شاحبة الوجه مرتجفة الشفتين ، تبدو رقبتها الفضية مغطاة بخصلة هاربة من شعرها . كانت عيناها المتلامعتان بغضب تسألانني عما أروم ، عما أسعى إليه . وخلال هنيهة ، ذرة زمنية ، ونحن الاثنين في خضم تلك الموجة العارمة من الصخب والموت والتخريب والفزع اللامتناهي ، تدفعنا الأيدي وتتقاذفنا الأجساد ، أضاء منها بشكل ما ، بزغ من مجمل وجودها ، خيالُ ذلك الرمز الآخر في حياتي : فواد . تداخلت امارات وجهه كما اعتدت رؤيتها ، مع هذه الخطوط اللينة لوجهها الجميل . صارت ، أمامي ، مخلوقاً ذا وجهين ، ذا حياتين . وانتهت الرؤيا مع الصراخ واللهاث والتراكض عبر الساحة خلفنا . هجمت علينا جموع خائفة فبعثرتنا ؛ لكنني لم أتركها ، وكنت مهاناً معها ونحن نرجع منخذلين نقصد البيت . ثم رأيتها تلتفت بذعر إلى الوراء حين رجّع الأفق صدى انفجار عظيم آخر وقع على مبعدة . كأنها كانت تتلقى تلك القنابل بقلبها ، بروحها ! وكانت ، سائرة على الرصيف ، بين أضواء الغروب ، بين الليل والنهار ، رقيقة نحيلة تطرق إلى الأرض وتعيد على نفسي كل ذكريات العذاب الطويل الذي مضى . وكنت أتساءل ، ليس عن سبب هذا التلاحم بين مخلوقين في نفسي ، بل عما سيعمله بي . لقد أُستل فواد من حياتي بقسوة دون أن أستطيع الوصول إليه ، الاقتراب من قلبه ؛ وها هي ، ملفوفة بغموضها وبما يعمله الآخرون بها ، توشك على الانفلات من حياتي . كنت قد نقصت ، فقدت شيئاً ، منذ ذلك المساء الذي تحدثنا فيه ؛ وبسبب ذلك الحديث لم أشعر أن بامكاني ، ذاتياً أو اعتماداً على ما في نفسها تجاهي ، أن أدنو منها بعد الزواج . كان بامكاني أن اتمزق قريباً منها . ذلك حق لم أفقده . وكنت أستطيع أن أتذوق دم حبيبتي المجروحة . ذلك أيضاً حق لم أفقده . ولكني كنت محروماً حرماناً مطلقاً ، بكل ما يحمله الاطلاق من تحجر وبلادة ، من التفوه بكلمة أمامها ، من نفخ الهواء باتجاهها . كانت خلف قلبي ؛ وكنت بكل هذه الموازين التي تثقل كاهلي أريد أن أصدق بأن هنالك ، من جانبي ، تضحية ذات شكل خاص ، وبأن ليس من المستحيل أن نفرح . كنت خارج حياتها ،

twitter @baghdad_library

وكانت هي تنظر إليّ كخارج ، إلى الأبد ، من حياتها . ولم نتبادل ، كما قلت ، حديثاً ذا معنى خلال تلك الأشهر . وكنت غير رافض لكل ذلك ؛ لأنها قد تنعم بحياتها وقد أستطيع ، بعد كل هذا ، أن أشفى أو أتلاشى مثل نبتة في صحراء .

ثم ... ثم ، ولغير سبب ظاهر وعلى حين غرة ، اختل كل شيء . فقد نظام الحياة معناه ؛ وبدا أننا ، المذهولين ، لن نستغرب ان تسقط الشمس علينا خلال النهار . وارتبكنا لأننا صرنا ، عداها ، شخصاً واحداً ، طفلاً صغيراً تتملكه رغبة في البكاء لأن لغز الحياة لا يُحل . وذهبت أفتش عن أخي ، كما يعملون في الأساطير . ليس من أجل أحد . أبداً . ليس من أجل أحد ، بل من أجل أن أستطيع أن أحيا أنا . وفشلتُ ولم تقترب هي مني . حتى حين شحبتْ واظلمت نظراتها ، كانت أبعد عني من الجميع . تستمع إليّ أحدثهم ووجهها يضيء في نفسي وهي لا توجه إليّ كلاماً . ولم تترك لي الأحداث المتلاحقة بسرعة أن أمعن النظر في مصيري . ولكني ، وأنا أسير بتثاقل خلفها ذلك المساء المدلهم من شباط ، قررت ألا أموت بعدها . ركبنا العربة العتيقة دون شكوى . أرهقنا الانتظار العقيم في الشارع الموحش الخالي . جلستُ قرب مديحة وتلاصقت سها وسناء على المقعد الصغير أمامنا ، مبتسمتين تتبادلان الهمس . لم يبق من الشمس إلا حمرة داكنة في طرف الأفق الغربي ؛ وسارت العربة تتمايل ببطء فهب نسيم بارد علينا . تركنا حسين حين لم يعد لديه ما يقوله ، وصار الصمت يثقل عليه وعلينا . ضحكت سها وكلمت أمها :

– يوم ، شوفي سناء شد گول على بابا .

سألت مديحة :

– كريم ، أگول اكو فايدة منه ؟ أشو خبصات وأطباء وروحة وجيّة وآني ما شفت بيه لهسه فد تغيير ، فد تقدم . شدگول انت كرومي ؟

– على كل حال .. يعني .. أحسن من گبل . أكيد .

بماذا يمكن أن نقيس حياة الانسان وتقدمه وتطوره ؛ حين نجد ، على المدى البعيد ، أن ليس للقيم أو لزوايا النظر ، أي ثبات ؟ وكنت أريد أن أقول لمديحة بأني لست مهتماً بزوجها ، لم أكن مهتماً به . انه اشارة لسراب ؛ ولكنها لا تستطيع العيش

دون سراب من هذا النوع ، ما دام هو حياً . عادت سها إلى حديثها :

– يوم . يوم

– شبيچ ولچ ؟

كانت العربة تتراقص بتمهل على أرض الشارع العكرة :

– يوم ، شوفي سناء شد گول على بابا . تگول عبالك خراعة خضرة . اى والله يوم ، هي گالت .

وكان الهواء منعشاً يثير الخيال لسبب مجهول . هتفت مديحة :

– ولچ مو عيب عليچ ؟ ذاك اليوم چنت وجعانة ما تعرفين تحچين حچاية عدلة . ولچ مو ابوچ هذا .

كانت سناء تنظر إليها ساكنة . اجابت :

– يوم ، ليش هو مريض ابويه ؟ أشو آني شفته كلشي ما بيه .

وقعتْ طريحة الفراش حين كان الجميع مشغولين بوفاة مدحت . لم يعرها أحد انتباهاً ، حتّى جاء الوقت الذي أصابتها فيه نوبة هلوسة رهيبة . أيقظتنا بعد منتصف الليل بصرخاتها الثاقبة . ركضتُ إلى غرفتهم . كانت على فراشهم الواسع تحتضن أمها وشعرها القصير مضطرباً ووجهها وعيناها في احمرار الدم وهي تصرخ :

– لا . لا . لا يوم ، لا . لا .

وأمها تضمها إلى صدرها بشدة وتهتف بآيات من القرآن وببعض التعاويذ . ثم دخلت أمي وعمّي واشتركن مع مديحة في محاولة تهدئتها . قالت عمّي :

– عيني هاي سنونها . لا يظل بالكم .

وكانت الصغيرة قد ابتعدت عن أمها وأخذت تنظر إلى لحافها نظرات رعب . تمسكت بها أمها مرة ثانية تريد اعادتها إلى أحضانها ، لكن سناء كانت تقاوم بشكل لا شعوري وهي تتمتم بكلمات غير متميزة وتقرض أسنانها فيما بينها ثم أخذت مديحة تبكي وتصرخ هي الأخرى فأسرعت إليهما أمي ودفعتها جانباً واحتضنت الصغير على الرغم منها .

twitter @baghdad_library

كنت أشقى من أن أستطيع مساعدتهم في تهدئة سناء ، ولذلك بقيت على جهة من الغرفة ، متوتر الأعصاب ، أراقبهم يحاولون بحنانهم اعادتها إلى رشدها ، إلى عالمنا المعقول . وكانت عمتي قد استقرت على الفراش ، تردد أقوالها عن المرض وأسبابه ، حينما طرقت أذني كلمة أو كلمتان مما كانت تقذفه الصغيرة من فمها :

– لاع . لاع . ركضي عليّ . خالو . خالو . لاع . لاع . لاع .

ثم صرخت صرخة عالية وأغمي عليها .

وها هي الآن أمامي ، لم يبق عليها أثر من مواجهتها الأولى لقسوة الحياه ، غير هذه المسحة من الأسى التي لا تخطؤها العين والتي تكسو وجهها بشكل غامض . لم تنعزل عنا ، مثلها ، ولم يفتر حماسها لكل شيء يجري في البيت ، لكنها فقدت شيئاً من نغمتها المرحة وسرورها التلقائي في علاقاتها مع الآخرين . وكانت الوحيدة تقريباً التي ترافق منيرة وتجالسها وتحادثها وتجرؤ أن تضحك معها أحياناً . ولقد رأيتها تقبل يدها بخفة ونحن نخرج عصر ذلك الثلاثاء المظلم ، أنا وهي وحسين وسناء ، لنذهب إلى الحي في خطوتنا الأخيرة لمعرفة مصير مدحت . لم يكن منطقياً أن تأتي معنا رغم اصرارها الطفولي . كنا نعلم أننا بصدد ان نرى أشياء قد لا تسر القلب ، ثم ان المهمة جدية وعسيرة على نفوسنا بما يكفي ، دون حاجة لتعقيدها باحضار الأطفال . شكت إليها وتوسلت واحتضنتها دامعة العينين ، كي تتغلب على اعترافات أمها . ورأيتها تقبل يدها ونحن نترك الباب الكبير خلفنا .

كان الحي بعد مضي أيام من الحوادث ، لا يزال كبيت ورق ديس بالأقدام . لم تكن الأزقة مظلمة كما تصورتها وكنا نسير مسرعين أكثر مما يجب . كنت أشعر بنبضات قوية تشمل جسدي كله وتدق كياني ؛ وكنت على يقين بأننا سنجد أخي أو نكشف عن محله . ولهذا كانت خيبتي عظيمة حين فتحت لنا الباب تلك العجوز البيضاء الوجه وأدخلتنا إلى الحوش المظلم بعد أن تعرفت بوجوم على حسين ثم بادرته بالسؤال عن مدحت . كيف سنجد أثراً له في محل يسألونك عنه فيه ؟ ورأينا ذلك الحاج الذي التاث عقله فراح يردد الأسماء والحكايات الغريبة باللغة التركية ؛ ثم اجتمعتْ هي بالعجوز . كأن هذه الأخيرة أدركت بغريزتها أن هذه المرأة هي ذات الشأن فيما يخص مدحت .

أمسكت بيدها وأجلستها قربها على التخت ثم راحت تحدثها عن أيامهم الأخيرة . كنت مضطرباً حزيناً ، أحس بشيء يتشقق في داخلي . كانت تصغي إليها وفي وجهها لهفة شديدة . قالت انه خرج قبل أيام ، مساء السبت كما تتذكر ، حينما كانت السماء تمطر..ولم يعد؛تركهما بمفردهما جائعين. وقالت أنها عرفت أنه لن يعود وكانت تتمنى أن يبقى معهما ولكن قلبها أعلمها أنه مشغول الفكر والنفس بأمور مهمة أخرى.وقالت أنها ودعته وتمنت له السلامة ، ولعله لا يزال في مكان ما سالماً غانماً . ثم مدت يدها بشكل عفوي وضغطت على ذراع منيرة وسألتها ألا تقلق لأنه من الرجال الطيبين الذين لا يمكن لأحد أن يصيبهم بمكروه .

كنت أنصت إلى كلام العجوز المتقطع ، يفترسني احساس بأنها تنعيه لنا . كان صوت الحاج ، المستمر في انشاده المجنون ، يأتي من الغرفة الصغيرة المجاورة متراخياً خافتاً ، وكنت أريد أن أبعد عن نفسي ذلك الاحساس الكريه بأية طريقة . سألتها أين قضى أيامه ولياليه في البيت . تقطّع صوتي الأجش عدة مرات خلال الجملة القصيرة التي تفوهت بها . التفتوا إليّ . كانت عينا منيرة حادتي النظر رغم تلألؤ الدموع فيهما . أشارت العجوز إلى أعلى في نفس الوقت الذي تكلم فيه حسين :

— فوك . فوك . بغرفتي . بفراشي چان ينام .

قامت منيرة فجأة وأرادت أن تصعد إلى الطابق الأعلى ، كأن ذلك أمر مقرر مفروغ منه . كانت سناء ملتصقة بها بشكل من الأشكال ؛تختفي أحياناً وراء قماش العباءة الأسود أو تندس قربها أو تسير بخفة جنبها . لم نجد شيئاً معيناً في الغرفة الجرداء ومكثنا واقفين ندير أبصارنا الفارغة فيها . اقتربت هي من الفراش القذر ثم مدت يدها،مترددة وقلبت مخدة تنظر ما تحتها . تراجعت . كانت الأرض مكسوة بطبقة من التراب وببعض القاذورات . لم نكن نبحث عن شيء معين ، إلا أن أمراً غامضاً لعله وجود مدحت السابق في المكان ، جعلنا ننتظر أن نعثر على اشارة ما . هنالك ، خلال لحظات الصمت المخيم مع الظلام ، التفتت منيرة إلى حسين وسألته :

— أنطيت الورقة لمدحت ، ابو سها ؟

كان خجلاً حينما رافقنا إلى غرفته وهو يكرر عبارات الاعتذار ، أما حين سمعها

twitter @baghdad_library

تسأله ذلك السؤال فقد بدا عليه أنه يريد أن ينهزم منا . أشعل سيجارة . كانت رائحة العرق تفوح منه :

– طبعاً . طبعا .

– يعني ، ما نسيتها ابو سها ؟

– طبعا . شلون آخر . معقولة أنسى ؟

– العفو . شكرا .

ثم اقترحتُ أن ننزل .

وسرنا بعد لك على غير هدى في تلك الطرقات الملتوية المظلمة ؛ ولم تكن ندري عماذا يجب أن نبحث وبأي شيء يجب أن نبدأ . رأينا أناساً كثيرين وبيوتاً مفتوحة الأبواب وأخرى مهدمة ومقاهي مسدودة وبقايا صخب وهلع منطبعة على الوجوه . كنت حزيناً أمر الحزن ، خائر القوى ، أحاول أن أخفي كل ذلك . كان الحزن سهلاً وقتئذٍ ، وكنا بحاجة لمن يبدو غير حزين لسبب معقول لديه ، من أجل أن يصير امارة خير وتفاؤل بالحياة . وعدنا قبيل منتصف الليل وكانت سناء تعرج في سيرها المضطرب قرب منيرة . تاه منا حسين بعد قليل من اجتيازنا باب الجامع الثانية . لم ينهكنا الحزن أو الارهاق أو معاني الرعب ، قدر ما استنزف نفوسنا القلق . القلق الحاد الواخز بأن كل شيء يمكن أن يقع لمدحت وأن ليس بامكاننا أن نمنعه . ووجدت والديّ ينتظران قرب السرداب الصغير منكمشين على التخت تحت ضوء المصباح الكهربائي البعيد . جلستُ قربهما وأسرعت منيرة وسناء إلى الطابق الأعلى دون كلام . كانا منهوكين أكثر مني وظهر على ابي أنه يوشك على البكاء بين لحظة وأخرى . كان يضع لفافاً غامقاً من الصوف حول رأسه ويتشبث بأطراف عباءته الصوفية . وسألاني وسألاني وبقيا يسألان ، كأني كنت أملك مصير أخي وأخفيه عنهما . وكان بودي أن أشرح لهما ما تركت في نفسي كل هذه المشاهد وكل هذا البحث والتقصي ، وكيف كنت أحس بشكل غامض بأن المستقبل المظلم جداً لن يلبث أن يكشف عن وجهه . الا أن تلك الكتلة من الغضون في وجه أمي ، يعمّقها نور المصباح الشاحب ، وشفتيها المعوجتين ونظرة التوسل اللانهائي في عينيها ، جعلوني أتراجع من أمامهما . كانت العربه المتمايلة بوهن تهز

رأسيّ سها وسناء ذات اليمين وذات اليسار ، وكانت أنوار الشارع المتلاحقة على سحنتيهما تبدي مدى التعب الذي ينتابهما ؛ وكنت أتمتع ببرودة النسمات، غير متمنٍ أن نصل إلى أي مكان . لم تعد الأهداف عندي ، موضوعاً يمكن البحث فيه ؛ ورغم ذلك فان هنالك قرارات سرية كنت متأكداً في أعماق نفسي أن شخصاً ما يجب أن يتخذها . ذلك أن النهاية تتواجد أحياناً ضمن بعدين : أحدهما اللا تناهي الأبدي والثاني شريان القلب . وفي تلك الأمسية ، أواخر رمضان ، حين أطلا أخيراً ،عدنان وحسين ، بوجهيّ من يبتّ بالمصائر ،وأخبرانا بما جاءا من أجله ، شعرت كأنني أواجه نهاية من نوع خاص .

جاءا دون مقدمات وبضجة مفتعلة ؛ وكنا ، على حافة اليأس ، نتلمس أتفه الاشارات إلى مدحت . أرادا أن يقابلا منيرة . خرجت من غرفتها في الطابق الأول دون أن تعلم من كان يطلبها . كانا جالسين في الطارمة قرب السرداب الصغير على التخت الخشبي ، ينفثان دخان سيكارتيهما بعنف . أسرعتُ قبلها . كانت مديحة وأمي معهما . لاحظت حالاً أن عدنان يلبس ثياباً خاكية وينتفخ بشكل من الأشكال . نظر إليّ نظرة حادة وصافحني دون اهتمام . كانت أمي تكلمهما بلهجتها المستكينة المتوسلة لغير سبب . لم أدر ما يريدان بالتحديد وخمنت أن لحضورهما علاقة بأخي . كانـا ساكتين،لا يجيبان على أسئلة أمي المستمرة. سألتُ حسين ، كما أذكر، عما لديه وهل هنالك أخبار جديدة فأشار برأسه إلى عدنان . التفت إليه . سمعت وقع أقدامها على الباحة قرب السلم . وقف فجأة . كان طويلاً عريض الصدر . أطفأ سيجارته باضطراب تحت قدميه . تقدمتْ منا ، ترتدي ثوباً أزرق فضفاضاً وفي عينيها امارات تساؤل . توقفت على بعد خطوات . سكنت حين تعرفت على عدنان . لبثت ساكنة لا تتقدم ؛ مصفرة الوجه ، تتجمد ذراعها اليمنى أمامها ، لم نتكلم ، جميعاً ، لحظات كانت أطول من أعمارنا . خاطبها عدنان :

– شلونج خالة ؟

خيل إليّ أن الارتجاف في صوته يعبر عن رهبة خفية . تلامعت عيناها الطويلتان وتحركت أجفانها بسرعة لبعض الوقت . لم تجب . تكلم وهو يعبث في جيوبه :

– آني .. آني متأسف .. مو خوش وكت جيت . بس آني قصدي المساعدة

twitter @baghdad_library

بهالظروف . الأخ ابو سها جاني أول البارحة ورحنا . رحت وياه .

أخرج بطاقة صغيرة أبقاها في يده :

— رحت وياه .. من أجل .. المهم أحنا ما ننسى أقرباءنا .

صمت لحظات متردداً :

— آني متأسف خالة منيرة ، بس أعتقد تره .. يعني مدحت ...

لحظات أخرى :

— هاي بطاقة هويته، أخذتها من الجماعة ، اصدقائي . لگوها .. لگوها بجيبه . آني متأسف . البقية بحياتچ .

كان قلبي يخفق بشدة ، ولم يمنعني العويل الذي أطلقته مديحة وأمي بعدها ، من ملاحظتها وهي تتكىء على الحائط قربها وترفع يدها لتخفي عينيها. ومنذ تلك اللحظة في الزمان ـ وأنا محاط بهم ، وأنا معها بمفردنا ، وأنا وسط العالم لا أجد أحداً غيرها ، وهم يتبادلون عبارات التعزية وهي تنهار على كرسي بجانبها وهم متشبثون بعدنان يسألونه عن التفاصيل وعن القتل والجسد والدفن ، وابي ينزل وصراخ الأطفال ـ وأنا لا أرى غير النهاية التي بدت لي الآن على أوضح صورة : طريقين اثنين .. بدأ أحدهما ذات مساء مع وجه فواد أمام غروب الشمس ، وانجرفت معه فأخذته اللجة إلى الهاوية المظلمة وبقي في نفسي وانطبعت نهايته على حياتي ؛ وكانت الطريق الأخرى مع الغسق الأحمر وهي تملأ سمائي ، ولم انجرف معها ، جبناً وغباوة ، ونجوت مقطوع الأوصال ؛ ووصلت إلى النهاية الثانية وأنا ما أزال أحمل نهايتي الأولى ؛ وهكذا صار في حسابي أن تتكرر النهايات ، وكان ذلك هو الجحيم بعينه .

كانت العربة ، بخيولها الهرمة المتعبة ، تجرجر نفسها على الشارع ، ونحن سكوت وأنا أعجب كيف ينقضي كل شيء وكيف يرى الناس ذلك ولا يتحركون ولا يموتون. دفنا أخي مدحت بخيالنا وتحاشينا أن يزعج حزننا أحداً . كنا ، حتى النهاية ، خجلين مرتبكين ، لا يعتورنا وهم الشهداء أو الأبطال . وجاءوا يعزوننا على استحياء ، الأقارب وبعض الأصدقاء . وجلس حسين مع أبي في الايوان ، وشعرت أنه كان سعيداً بهذا الانتماء الجديد وبهذه اللحية الشعثاء وبالمهمات الصغيرة التي كان يسرع

لانجازها . كما حضر عدنان مرتين أو ثلاثاً برفقة والديه . اراد كل مرة أن يرى خالته منيرة ، وكان ذلك سلوكاً لا يسير مع التقاليد بسهولة . ولم ينل مبتغاه ؛ وكنت أحس ، ليلاً والكل نيام ، أنها تريد أن تضع نهاية أخرى على حياتي . لم أكن أستطيع الكلام معها ، وكان ذلك الوجه الشاحب يبعث فيّ اضطراباً لا مثيل له . كانت والسواد يشملها ، تتلألأ بينهم ؛ وكلما أردتُ أن أرى العالم حولها فشلت وتركزت أنظاري على الجدائل المتهدلة حول كتفها النحيلة وعلى الفم المطبق بتصميم .

ملنا مع استدارة العربة فتضاحكت الصغيرتان . نهرتهما مديحة وكانت أضواء شارع الكيلاني حمراء خافتة والضجة فيه على أشدها . أوقف الحوذي عربته على مبعدة من مدخل الطريق فنزلنا نسير . تأخرت عنهن ،فصرن أمامي كتلاً سوداء متحركة . كانت الرغبة لا تزال تموج في نفسي : ألا أصل إلى أي مكان . ودفعنا الباب الكبير الموارب ثم اجتزنا المجاز المظلم . كان الحوش ساكناً إلا من زقزقة عصافير مترددة . صعدت إلى الطابق الأعلى وجلست على التخت قرب السرداب الصغير . كنت متعباً ولم يكن مصدر تعبي هذه المعيشة الحزينة المتقلبة فقط ؛ ولا الأفق المسدود أمامي ولا هذه المخلوقات المشوهة المريضة التي أحيا معها . كنت متعباً من عجزي ، من ارتباكي ، من تملص الأشياء من بين يديّ ؛ وكانت هي أول وآخر اهتماماتي . صارت هكذا منذ وفاته وأخذت تكبر في نفسي يوماً بعد يوم ؛ وكان كل شيء يخصني ويخصها يبعث فيّ التعب ، كل شيء .

سمعت نداء باسمي :

– كرومي يابه .

ظننتها أمي ، وبدهني أن اكتشف أنه ابي . كان صوته متكسراً خفيضاً :

– كرومي يابه . ليش گاعد چوه ؟ تعال شوية يمنا .

– نعم . نعم .

ثم قمت دون عجلة .

لقيت أمي مضطجعة على القنفة في الايوان ، متلفعة بالسواد ، تشد صدغها بخرقة

twitter @baghdad_library

سوداء أيضاً وتجلس عند راسها أم منيرة تدخن بهدوء . سألتهما عن حالهما فأجابت باقتضاب . جلست قرب قدمي أمي . كان الغطاء يخفيهما فأمسكت بهما وضغطت عليهما برفق . كلمتني أمي :

– شلونه ابو سها، عيني كرومي ؟ أشو مديحة ما جچت شي . راحت هي وبناتها وختلو بالگبة .

– زين والله حسين . هواية زين . يگول مر عليه ابو سرمد ، مديره السابق .

– لويش ؟ قابل راح يشغلوه مرة لاخ ؟

– إذا صار زين .. ليش لا .

علقت أم منيرة :

– سبحان الله .

عادت أمي تتساءل :

– يعني تگول بعد ما يشرب ؟ ما يحط المشروب بحلگه ؟

– الله يدري . يمكن .

– سبحان الله .

– الله يسمع من حلگك . بلكي يرجع لأهله ويصير براسه خير .

– تالي عمره .

رأيت أبي يخرج من غرفته ويضغط على زر المصباح الكهربائي :

– ليش گاعدين بالظلمة ؟

ثم قعد على كرسي قريب . سمعت خطوات خفيفة . كانت سناء في ثوبها الأسود القصير تبدو كالطير المصبوغ الريش . كلمتها أم منيرة :

– سناوي عيني ، وينها منيرة ؟؟

– بالگبة يمكن بيبي . أروح عليها أشوفها ؟

– مو هسه عيني . شوية لاخ . أريد الشيشة مال حبوب النوم . أخذتها أول البارحة وما رجعتها .

– وينها أمچ سناوي ؟

ـ نايمة بيبي
ـ شنو نايمة ؟ لويش ؟
ـ شوية داخت من العربانة ، بيبي .
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

تساءل أبي :

ـ شنو دايخة ، جدو ؟
ـ دايخة جدو . ما أدري والله شنو . هي گالت دايخة .

حاولت أمي النهوض :

ـ يمكن تعبانه . خلي اگوم آني أشوف درد العشا مالكم .

كلمني أبي :

ـ شلونه حسين ، كريم ؟
ـ زين بابا . يصير أحسن .
ـ انشالله . يستاهل . خوش ولد .

كانت أمي تهم بالقيام فأجابته :

ـ اذا خوش مثل ما تگول ، الله ما يگطع بيه .

وأخذت تفتش عن نعالها . سألتها سناء :

ـ وين رايحة ، بيبي ؟
ـ للمطبخ .
ـ أجي وياچ ؟
ـ لاع . روحي شوفي أمچ ، سناوي .

كنت قلقاً ، تبهظ قلبي الأفكار المضنية المجهولة الأساس . أردت أن أراه أتبادل معها حديثاً منذ أسابيع وكانت تتحاشاني مثلما كنت أفعل ؛ وكان يجب أن يـ شيء بيننا . قمت :

ـ آني راح أروح أشوف مديحة .

twitter @baghdad_library

كلم ابي امي :

– دگعدي انتِ لعد . بعد وكت على العشا . بلكي استراحت مديحة . هسه تگوم هي وتنزل تحضر العشا .

كانت السماء وضاءة وأنا أمر أمام باب غرفتها وألمحها خلال زجاج النافذة جالسة في ناحية . وجدت مديحة منحنية الرأس مضطربة الشعر . سألتها عما بها . لم تقل شيئاً محدداً وكانت عيناها غائرتين . ثم نهضت بهدوء وخرجت .

بقيت بمفردي في الغرفة الرمادية الخالية . كان العالم مشعثاً حولي ، لا تربطني به صلة ؛ وكنت أحس بفوضاي ولا مبالاتي ترتدان إلى قلبي . ارتميت على كرسي أخفف من اضطراب أطرافي . كانوا يضجون في الخارج كعادتهم التي لم تتغير ، طعاماً وشراباً إلى آخر العمر .

سمعت باباً يفتح ثم يغلق . كانت هي في الغرفة المجاورة ولقد خرجت منها هذه اللحظة لتعاود المشاركة في الحياة . أقول تعاود ، لأنها تتراجع بانتظام عن دورة الحياة . أخذت تقلص من وقت وجودها مع الآخرين . لا تكلم احداً ولا يكلمها أحد ؛ خشية أو رهبة أو احتراماً لحزنها . لا أدري . بالنسبة إليّ ، خوفاً من الانهيار . وهي لا تساعد في شؤون البيت ، لم تعد تساعد . تذهب إلى مدرستها يومين أو ثلاثة وتغيب بقية أيام الأسبوع . بعذر المرض مرة وبأعذار أجهلها مرة ثانية . لأي شيء تهيء نفسها ؟ وماذا يتبقى لي لو اختفت من هذا العالم ؟ كنت جزعاً ، غارقاً في فزعي ؛ غير قادر على فهم شيء معين . ماذا يلم بي إذن ؟ وكانت الظلمة تحتويني ؛ تبعث في جسدي راحة واستقراراً وتشعرني بأني بعيد عن كل شيء وبأني حققت رغبتي في ألا أصل إلى أي مكان . مددت ساقيّ أمامي ثم أغمضت عينيّ برهة . هنالك سلسلة من التراكيب، التي لا أفهمها ، تصوغ حياتي بشكل ما . سلسلة تتألف من ماضيّ وشخصياته وما عملته أو لم أعمله ومن حسراتي وتمنياتي . وهي ، هذه السلسلة ، إذا ظننتها فكرة مجردة فانها ستغتالني بالتأكيد . لكنني أتحسسها فقط ؛ لا أفهمها ولا أنكرها . مثل هذا الجزع الذي يتآكلني منذ بعض الوقت . جزع مجنون يكمن في زاوية خفية مني ، لا أناله ولا أستطيع التخلص منه . ما سببه ، يا ربي ؟ وهل هو النذير لي بأني سأموت عن قريب ؟ وهل ان

ملازمة هذه الفكرة لي تعني أنها ستتحقق ؟

كنت أضع يدي على خدي ، أنظر خلال الظلام الخفيف ولا أصدق شيئاً مما يمر في ذهني . أني أنجرف مع هواجسي . ولكني ، كي لا أنجرف على الأقل . يجب أن أعرف سبب هذه الهواجس اللعينة . أني أفكر دائماً ، إلا أني لا أصوغ فكرة محددة . ان ينبوع الذهن الأزلي يأخذني من هنا إلى هناك ، في نزهات كئيبة أو مفرحة ، دون أن أثبت المكان الذي أملكه . ومع ذلك ، فانا معرض ، خلال هذه النزهات الفكرية الروحية ، أن أخدع بفكرة تدفعني إلى عمل مهلك . أنا شخص ضعيف إذن ؛ لا يملك قراراً يصدره لأنه مسوق بنوازع لا يعرفها . أيمكن أن يكون البشر جميعاً على هذه الشاكلة العرجاء ؟ نادوا عليّ فجأة . هببت من مكاني مسرعاً . كانوا في كل مكان من البيت والمصابيح مضاءة . لم أجد من ناداني ؛ كلهم مشغولون بشيء ما ، يروحون ويجيئون وأنا أراهم جميعاً .. عداها . كان أبي متربعاً على القنفة في الايوان . لعله هو الذي ناداني . انه يخشى الوحدة بشكل غريب . سرت إليه . مررت بغرفتها المغلقة دائماً . ثم بغرفتي . توقفت . غيّرت فكري ودخلت الغرفة . سمعت ابي ينادي . لم أجبه . كنت أريد البقاء هنيهات أخرى لوحدي . استلقيت على الفراش . أمسكت بالحائط . انه يعزلني عنها . هذا الخليط من المواد الغبية ، يفصل بيننا . إلا أن الأمر ليس كذلك كما أعرف جيداً . لا يمكن الفصل بين اثنين يريدان اللقاء . والعكس أيضاً يجب أن يكون صحيحاً ؛ حين لا تنفع قوى الدنيا كلها كي تتلامس الأنامل . وحينذاك . ماذا سيتبقى ؟

كنت حزيناً بالطبع وأنا استلقي هكذا ، تاركاً الأفكار تتوارد عليّ وتشكل مزاجي حسب لونها . هذه السنة ، لو رسبت في صفي فسوف أطرد من الكلية ، وأضيف لحزن العائلة آنذاك مادة جديدة . إلا أنهم لن يلوموني ، بل سيجدون لي كل المعاذير والأسباب التي تبرر سقوطي مرة أخرى . وهكذا سأنجو ، ولكن .. هل ينتهي العذاب ؟ فتحت باب غرفتي ببطء وأطل عليّ خيال أبي متوجساً :

— كرومي يابه .. نايم ؟

أجبته ثم قمت من الفراش وخرجت .

twitter @baghdad_library

ما هو الموت لدى الانسان ؟ أن يفقد عزيزاً إلى قلبه ؟ أن يفقده في العالم المادي ولا يستطيع أن يجده ؟ وما معنى ذلك ؟

ان الفناء لا يفسر ، مثل الكون اللامحدود . لا يمكن للعقل أن يقبله ؛ ولذلك نشأت الاديان ، ربما . أما الموت .. فلماذا يؤلم هكذا .. يؤلم الأحياء ؟ ألأنه يحمل إليهم التناقض الأزلي بين الموجود واللاموجود ؟ لأن العزيز الغائب يعيش في النفس ، يبقى عائشاً بعد غيابه المادي ؟

فواد ، العزيز الذي غاب ، أعرف أنه غاب إلى الأبد ، سيموت معي مرة ثانية . سيموت مع موت أبيه مرة أخرى . عند ذاك سينتهي الألم في حياتنا ، سينتهي التناقض . أما قبل ذلك ...

كنت أتمشى في الظلام بعيداً قرب السلم ، في الجانب الآخر من الطابق الأعلى . وكانت السماء داكنة بلورية ، يضيؤها القمر الذي لا اراه . كنوا بعد العشاء ، منذ ساعةأوساعتين ؛ وبقيت ألوب بمفردي في الظلمة . ثم انطفأت الأنوار واحداً اثر الآخر ، إلا النور الخافت جداً في غرفتها . كنت أتأمل بحياتي ، محاولاً أن ادفع القلق الذي لم يتركني منذ أمد . ان بعض الأمور الخفية تتبدى لي على حين غرة . لماذا يرتبط موت أخي بتيار عميق الابهام من تأنيب الضمير في نفسي ؟ ماذا عملت ، من ناحية أخرى ، كي يلقى فواد حتفه ؟ ألأنا مخلوق مشوه ، يتأرجح وجوده بين إله الشر المطلق وبين سبابة الطفل الوليد ؟

تلك الليلة ، حين كنا سوية ، انا وفواد ؛ كنت في أوج غروري ، واثقاً ليس من قوتي بل من ضعفه ، سعيداً بهذه الثقة . لم يكن يستطيع الاقتراب منها ، امتلاكها ؛ وكان ذلك بسبب علمه ان هذا العمل سيؤدي به أخيراً . كنا في الهول المختنق بالدخان ومن حولنا رواح ومجيء مستمران . الزبائن والقحاب ومن يدور بينهم ، وكنت أراقبه باصرار واحصي علامات ضعفه وتردده وخوفه . ذلك العزيز ! وكنت شبه سعيد لأني كنت أظن أن بمقدوري أن أعمل ما يخشاه هو . كان يعلم أن حياته لن تبقى كما هي بعد أن يمتلكها عن هذه الطريق ؛ وكنت منتشياً لأن رفيق روحي يتعذب ! يا للانسان .. يا للانسان !

كنت في بطن الظلمة ، قرب الأغصان العالية لشجرة الزيتون ، أقف متخاذلاً . بعثت فيّ الرهبة هذه الأفكار . كنت أخشى أن أكتشف في ساعة الصراحة هذه ، أموراً أخرى قد تقضي عليّ . كان النور في غرفتها خافتاً وكانت بعيدة عني . لقد ارتبطتُ به . رضيتُ بذلك لأني لم أقل لها شيئاً . ثم وقعت لهما الفاجعة الغامضة .. لأني لم أقل لها شيئاً . هل يمكن أن تكون الأمور على هذا المنوال ؟ هل يمكن أن يحدث لي شيء كهذا ؟ وهي لم تكلمني منذ ذلك المساء . أعرف ذلك ؛ ولا أدري لماذا أفكر بكل هذا الآن . ومدحت نفسه ، لماذا حصل له أن ابتعد عنها بهذا الشكل المرفوض ؟ عنها هي دون غيرها ؟ وماذا يرتبط ، أخيراً ، بين حديثها معي وعمله ؟

كنت مأخوذاً بشيء سحري ، فكرة أو وحي أو هاجس ؛ وكنت مرعوباً وأنا أعمل الذهن وأحاول أن أتذكر كل كلماتها ذلك المساء في السطح عند غروب الشمس . لم أكن أسمع منها كلمات مفهومة ، بل كنت أنصت إلى صوتها فقط . إلى النغمة التي ترافقه وتلهب قلبي . كان بودي أن أطير بها ، أن أشق صفحة السماء مبتعداً معها عن كل عوالمي هذه .

لم تقل لي شيئاً ؛ هذا هو كل شيء . ولم أفهم أنا شيئاً ولا أزال .

كنت أتطلع ، عبر الحوش الأسود ، إلى غرفتها وأنا أشعر بنفسي مهدود الكيان . انها تبدو كالفنار الأخير في حياتي . بعدها ، ستوجد الظلمات والقسوة والضياع .

لمحت طيفاً ، شيئاً كالطيف ، يقطع النور الخافت في غرفتها . يقطعه لحظة واحدة ، رمشة عين . ألا تزال إذن مسهدة .. مثلي .

كنت خائفاً من كل شيء ، منها ومن العالم ومن فعل الحياة ؛ وكانت هي ، رغم ذلك ، ملجئي الوحيد . سرت ببطء شديد ممسكاً بالمحجر الخشبي . لقد تجمعت في يدها مفاتيح نفسي ؛ هلاكي ونجاتي ، ربما . كان الصمت تاماً ، يلفني وأنا أدب متردداً نحوها . لن تسد الباب بوجهي ، لأني لا أطلب منها شيئاً . سأقف على حافة عالمها أتساءل ، أتساءل فقط . تعثرت قرب غرفتي ، لكني تشبثت بالمحجر وتوقفت مجهداً على بعد خطوتين أو أقل . كان الباب مواربا،مفتوحاً ومغلقاً في نفس الوقت؛ لايترك

twitter @baghdad_library

أي انطباع بوجود أحد داخل المكان . تحركت بتثاقل نحوه فسقط عمود الضوء الشاحب على وجهي ، ورأيتها تراني . كانت جالسة على القنفة الطويلة ، في الزاوية المقابلة ؛ وهي ما تزال في ثيابها السوداء ، تضع احدى ذراعيها على الأخرى وتنظر نحوي . لم أتقدم بعد أن دفعت الباب وتسمرت على العتبة . كنت أمامها ؛ لا أرى شيئاً بوضوح ، ولكني أحسست أن أعماقي تزدحم بقوى عنيفة لا أدركها . وكانت تتطلع إليّ ، ولون عينيها وسط الأهداب السوداء الطويلة يبدو أصفر لامعاً . همستُ :

– العفو ، حبوب النوم عندج ؟

هزت رأسها بالنفي ، ولم تحول بصرها عني . شعرت أن تلك الكلمات التي تفوهتُ بها أتعبتني . لبثت أنتظر منها أن تتكلم . كان فمها مطبقاً وخصلات من شعرها الأشقر تتلاعب قربه . تساءلتُ :

– حبوب النوم ... وينها ؟

– ما أدري .

بارداً صوتها كان كحد السكين .

–لويش ... تخليها عندج ؟

خيل إليّ أنها تعتدل قليلاً عند كلامها :

– ما عندي حبوب النوم أگلك . روح للصيدلية جوا دوّر عليها . لويش جاي عليّ ؟

– لاع .

صمتُ هنيهة :

– عندج هي . انت أخذتيها من أمج . هي گالت . أخذتِ الشيشة كلها .

أغمضت عينيها لحظات ثم رمت يديها بضجر إلى حجرها وأمالت رأسها إلى اليمين :

– شنو هالحچي ؟ شتريد تگول من فضلك ؟

لم تعد تنظر إليّ . انتبهت إلى أن صوتي كان مرتجفاً طوال الوقت ،متكسراً لا قرار له . سكتُ ؛ مثل الدنيا الصامتة حولنا . شعرت أني وصلت في كلامي معها إلى الحدود التي تفصلنا . كنت قلقاً ، كما أنا منذ أمد الدهر ، ولكني فهمت الآن معنى هذا القلق . الآن ، فقط ؛ وبسبب أني أقف أمامها هكذا ، كالمتسول ، واطلب منها ، دون

كلام ، أن تمنحني معنى ما لحياتي ، أن تمنحني حياتها . كانت تعرف جيداً أن لكلماتي أبعادها الأخرى ، ولم أكن بوضع أستطيع معه أن أنكر أي شيء .

رفعت عينيها إليّ بغتة ، بكل سعتهما ، بكل عمق وسحر لونهما المضيء المترجرج :

– لاع . ما عندي هيچي فكرة .

كانت حزينة الصوت ، حزينة الهيئة ، حزينة الملامح ، حزينة الروح :

– ما عندي استعداد للموت ، اذا تقصد هالشي .

ثم أبعدت وجهها عني وسكتت بعض الوقت :

– انت تتصورني كريم بصور غريبة . كل وكت انت هالشكل . ما أدري لويش . يمكن شكلي ديأثر عليك . يمكن عندك عواطف ما تعرفها انت نفسك . ما أدري .

حركت كتفيها إلى الأعلى حركة بالغة الصغر أعطت لكلمتها الأخيرة معناها المؤلم الذي أرادته :

– بس آني فد بنية من هالبنات ، ما عندها حظ . وحدة من بنات الناس الله ما راضي عليها . لازم عندي ذنوب ما أدري بيها . لازم . بس الله لازم يرحم بيّ بالتالي ويخليبي أنسى .

– تنسين ؟

– ليش لا ؟ ليش لا ؟

كانت لهجتها حادة يساورها الغضب :

– آني هم مثل الناس . يمكن ما عندي ...

توقفت :

– يمكن ما عندي أمل بالمستقبل ، لاكت ...

لم أعرف لِمَ قاطعتها :

– منيرة . .

كان اسمها أغنية في فمي ، هتافاً سعيداً من القلب وددت أن أهتف به ؛ ولم يكن بوسعي النكوص . تراجعتْ في جلستها بشكل ما ، وحادت بوجهها عني . وقع بصري

twitter @baghdad_library

على صدرها ، على الارتفاعين اللذين كان يعلوان ويهبطان ببعض السرعة . سمعتها :

– يبين ماكو فايدة من الحچي الواضح .

لحظة :

– آني تعبانة من فضلك كريم وما اعتقد هذا فد شي جديد عليك . كلنا تعبانين . بس كل شي اله حدود . اكو ناس يتحملون ...

توقفت . وضعت يدها ، في هيئة ذهول ، على حنكها أسفل فمها وهي زائغة البصر . بدا عليها كأنها أضاعت فكرة كلامها فجأة ، وأن ليس لها رغبة بمعاودة البحث عنها .

– منيرة .

كنت ، هذه المرة ، أناديها ؛ أسعى إليها كي تسمعني :

– منيرة .

رفعت وجهها إليّ ، الوجه المنور ، وجه حبيبتي البعيدة عني

– لا تخليني بوحدي . لا تتركيني منيرة .

ظهرت عليها علامات دهشة طفيفة مع حركة حاجبيها . أنزلت رأسها فتكورت خصلات الشعر حول وجهها ووجنتيها :

– وين أروح من فضلك إذا أريد .. اترك ؟ انت ما تدري آني صرت مملوكة للعائلة .. مسجلة باسمكم ؟

– لا تحجين هالشكل . انت تعرفين قصدي كلش زين .

– ارجوك . ارجوك . ما أعرف شي آني .

– لا . تعرفين . تعرفين انت منيرة نوع عواطفي نحوچ .

– عواطفك خليها الك . دتفتهم ؟ عواطفك ...

كانت نارية النظرات . انقلبت ، بين جملة وأخرى ، إلى لبوة غاضبة ؛ رفعت يدها بحركة قاطعة ووضعتها حاجزاً بيننا :

– ... خليها لنفسك . لا تدخلني بأمورك الخاصة . ما الك علاقة بيّ . دتفتهم ؟

لم يكن صوتها ، الحاد النبرات ، مرتفعاً ؛ إلا أنه كان يعمل تمزيقاً في أحشائي .

علوبت كلامها :

– لا ، ما أريد عواطف بعد ولا أريدك تدخلني بحياتك . روح عني ، خليني ارتاح . تعبانة آني . تعبانة منكم كلكم . ما أريد شي . خلوني أرتاح بس

كانت مرتجفة اليدين ، تتنفس ببعض الاضطراب ، غير أن صوتها بقي ثابتاً . شعرت بحيرة رغم توقعي لما يمكن أن تقوله . انها لا تفهم أني لا أريد شيئاً :

– منيرة ، عبالي أكدر أساعدچ . عذريني . عبالي ...

بدوت متوسلاً بها أكثر مما قدرت ، فتوقفت . كانت جامدة في جلستها كأنها تسمع ما قلت ، تتطلع إلى جهة أخرى غير وجهي . خيل إليّ ، لغير سبب ، أنها على وشك الانهيار أو الصراخ . تكلمت :

– منيرة أرجوچ ، لا تقسين عليّ . انت أعز شخص بحياتي . لاكت آني انسان عاجز ومتردد . ما أعرف شسوي . صدگيني منيرة ، انت هسه كل شي بحياتي . لا تخليني أفقد الأمل .

– انت مو انسان عاجز . انت مثلي ومثل كل الناس هنا ؛ انسان مشوه ، مريض .

كانت باردة النظرات ، متقبضة الملامح

– آني جنت أعرف هالشي ؛ جنت أعرف كلش زين ، وردت أعيش منعزلة ، على الهامش . ما خليتوني . ما خلاني . هو چان مريض أكثر مني . چان عاجز ومشوه أكثر مني ومنك ؛ وجبان .

كان الحقد يفور من وجهها ، من فوهتي عينيها ، وهي تطلق كلماتها كالمجنون الهادىء الأعصاب :

– انت تخاف منه . لاكت آني ما أخاف من أحد . آني أعرف هسه حقيقتكم . جبناء . ما تعرفون منو يحتاج مساعدة ومنو المخلص ومنو السيء الحظ والدنيا واكعة بيه . جبناء وأغبياء . ما يريد يفتهم ولا يريد يعرف منو المجرم ومنو البريء . انت ! هسه ! انت ! وجاي تگول لي انت عاجز ! ليش ما أعرف آني ؟ ليش ما أعرف آني ؟

تمسكت بحافة الباب قربي واتكأت عليها . كنت أرتعش ؛ كل ذرة في جسمي كانت ترتعش . لم يكن بمقدوري أن أتحمل كراهية هذه الفتاة التي أعيش من أجلها :

twitter @baghdad_library

– لا تحچين هالشكل منيرة . الله يخليچ ، لا تحچين هالشكل .
– شكو چاي واگف فوك راسي لعد ؟ شتريد مي ؟ اذا حچي ما نريد احچي . شتريد أسوي لعد ؟ شتريد مني ؟ گول ؟ شتريد ؟ تريدوني أموت ؟ لا ، ما أموت . ما انتحر . فات الو كت على هالأشياء . وانت آخر واحد اله حق يطلب مني أي شي .
– آني ما أريد منچ شي منيرة . ما أريد شي . بس انطيني فرصة أعيش . انطيني فرصة أعيش . لا تحطمين حياتنا دون سبب .
– يا حياة ! حياة من أحطم ؟ انت مجنون ؟

ونظرت إليّ بحدة .

أردت أن أقترب منها ، إلا أن شيئاً ما في وجهها أوقفني . ذلك الاحمرار البسيط في عينيها وتلك الرجفة في شفتها السفلى وما كسا هيئتها بشكل غامض ... نوع من التحفز وقسوة غير اعتيادية في ملامح الوجه الجميل . لبثت أنظر إليها ، شاعراً بأني أفترس على مهل وأني ، رغم ذلك ، غير قادر على الفرار . تكلمتْ :
– لا تخليني أعيد عليك الحچي . گلت لك آني تعبانة هواية .

ثم صمتت هنيهات :
– انت لازم تعرف انت ما ألك علاقة بيّ . لا هسه ولا بالمستقبل . ما أريد واحد لاخ منكم . خلوني ارتاح أگول لك . ما عندي بعد طاقة للحياة هالشكل . كلهم يسألون ويحچون ، كلهم عبالهم عندي شي خفي أضمه عليهم . كلهم يعاتبون ويتهمون وهم أجبن الناس وهم أغبى الناس .
– أرجوچ منيرة .

أخرجتْ منديلاً أبيض مسحت به فمها :
– ماكو واحد يقدّر شقاء غيره وسوء حظه . كل واحد يريد حقه بس . مجانين . وين اكو حق بهالدنيا !

ركعتُ ، دون علمي ، أمامها . كانت دمرعها تسيح ، تفيض من عينيها البالغتي الصفرة ، وهي لا تبالي بها ؛ تحدق في نقطة معينة ثم تبعد بصرها إلى نقطة أخرى . مرت

نظراتها على وجهي وأنا راكع :

– ما يقبل يتفاهم . يموت وما يتفاهم . ما يتنازل يسمع كلمة ، كلمة وحدة ، وآني عبالي ...

رفعت يدها بالمنديل واشارت بها :

– گات يمكن .. يختلف . يمكن يعرف حالي ، يحن عليّ . بلكي الله يخلي يعرف ويشفق .

تقلص فمها بعلامة استهزاء ويأس ، ثم رأيتها تراني راكعاً ، بلا جدوى ، قربها :

– كلكم جبناء كريم ، لأن ما عندكم گلوب تشفق على أحد . حتى بعد ما تعرفون الغلط ، ما تهتمون بالبريء والمظلوم .

أخفت وجهها المبلل بين يديها ثم زفرت زفرة حارة وهمست :

– راح انخبل . يگول لي آني حبيبته ويموت بلا كلمة . بلا اشارة . راح انخبل . لويش هالقسوة يا ربي ؟ لويش ؟

كنت ، مثلها ، أبكي وأنا أتأمل كتلة الشعر عن كثب وأصابعها الدقيقة البيضاء . كنا ، نحن الاثنين ، أمام الباب المسدود . عرفت ذلك الآن بعد أن استمعت إليها . كأني كنت أجهل كل شيء !

قمت ثم مددت يدي فلمست صدغها الندي برقة . لم تتحرك . لبثت تنشج وجسمها يختض ويهتز مضطرباً . تراجعتُ ببطء ثم انسللت من غرفتها وأغلقت الباب خلفي .

كان الليل صامتاً . وقفت مستنداً على المحجر الخشبي أتطلع حولي في الظلام . لم يبق لدي ، بشكل أكيد ، شيء يمكن أن أفقده في المستقبل . ذلك احساس فريد لا يجربه كل الأحياء ؛ حين تبدأ مع الخاتمة . وكنت هادىء النفس كمن خدر ؛ لا أرى شيئاً أمامي شاعراً أني قد أستطيع ، بمساعدتها ، أن أدرك معنى الانتهاء .

* * *

twitter @baghdad_library

- ١٢ -

(الزخم والبقاء)

(٢)

ادركوا بشكل مبهم، هو والعجوز عطية والحاج ، أن شيئاً ما قد انتهى . كان المطر يتساقط بحزن والساعة تشير إلى ما بعد الثالثة والنصف ؛ والانفجارات المختلفة الأصداء تتردد دون انقطاع . أكلوا قبل ذلك خبزاً يابساً غمسوه في مرق حائل اللون ثم اختبأوا في الغرفة الصغيرة المطلة على الحوش ، يتحدثون حديثاً متقطعاً لا معنى له . جمع بينهم الخوف وهاجس الوصول إلى النهاية . لم يرد مدحت أن يقول لهما ما كان يدور في ذهنه وما يحاول أن يقرره . ترك لهما أن يشعرا أنه منتمٍ إليهما في محنتهما هذه ؛ وكانوا يشربون الشاي المر المذاق في الغرفة الرطبة ، من بعد ظهيرة السبت المظلم ذاك ، حينما ران عليهم صمت غريب . انسحبت من عالم الأصوات الذي يغمرهم ، جوقة معينة ذات وقع خاص وتركت الساحة لحوار الحرب المخبول . صار هدير آلات القتل أكثر صفاء وشدة . كان الحاج قد لفّ نفسه ببطانية خضراء سميكة وجلس على السرير ، آخذاً على نفسه أن يحكي لغير أحد قصة حياته الطويلة . بدأ بها ليلة أمس فجأة ولم ينتهِ منها . وأمس أيضاً بُعيد العصر حينما استيقظ ، لم يجد حسين مكانه . غادر البيت أثناء نومه ولم يعد . جلس في فراشه. كان يسمع الرشاشات تلعلع باستمرار. ثم قام فغسل وجهه ونزل قربهما . رآهما مثل جرذين في مصيدة . لم يتكلموا ؛ اكتفوا بتبادل النظرات

صامتين . شعر ، بعد وقت وجيز ، بنفسه تضيق . كانت الغرفة الصغيرة داكنة ، قاتمة . واتته فكرة الخروج للطواف في الحي آنذاك . ثم صارت رغبة ملحة التخلص من كربه وقلقه . قال لهما أنه سيعود بعد نصف ساعة . كان خالي الذهن وهو يجوب الطرقات والأزقة على غير هدى ؛ ثم غمره تدريجياً الوضع الذي وجد فيه نفسه . كانوا في حالة حرب ، مشغولين باعداد أنفسهم لحصار طويل ؛ وكان هاجسه الوحيد وهو يستجيب لمنعهم له من الاقتراب من فتحات الطرق ، هو أن يعرف امكانياته . وجد كل المنافذ مغلقة . كانت الطلقات تقشط الجدران وتنثر حجارتها وتترك فيها ثقوباً عميقة . وكانوا يحتمون وراء منحنيات الأزقة والطرق . لاحظ بعض البيوت الخالية ؛ ولم يخطر له وهو يجول بين أولئك البشر الذين كانوا يتحركون بشكل بدا له منظماً ، انه واحد منهم رغم أنه ، لسبب غامض ، يشاركهم مصيرهم المجهول . كان خائفاً ، لا يريد أن يدفعه خوفه هذا فقط لمحاولة النجاة .

ثم عاد بعد أقل من ساعة ، يمشي بتثاقل تحت المسنايات ذات الشبابيك الخشبية . كان الجو ربيعياً والهواء مشبعاً برائحة رطبة ذات نكهة خضراء . كأنه يدفن وجهه في حشيش أخضر مبتل تتوهج فوقه الشمس . رآها بين المسرعين المتراكضين في الأزقة حواليه ، تلتف بعباءتها كاشفة صفحة وجهها اليمنى وخصلة من الشعر تغطي جبينها . ارتعب لحظة وخفق قلبه . كانت مضطربة في سيرها لا تستطيع ، كما يبدو ، أن تقرر وجهتها . أراد أن يتراجع أو يخفي نفسه عنها . لكنها استدارت إليه بغتة فانمحى الخيال الجميل الذي انبثق من أعماقه في خضم تشويهات وجه الفتاة . الأنف والعينان والحنك ؛ كلها اشارات أخرى . أخرى . كيف أمكنه أن يُخدع هكذا ؟

وبقي منفعلاً وهو يدخل الدار عليهما . استقبلاه كأنه يحمل لهما كل مفاجآت العالم . كانا جالسين في حجرتهما المضببة بدخان السجاير ، متكومين على منقلة ذات جمرات خابية ، يكرعان الشاي الأسود استكاناً بعد استكان . حدثهما عما رأى وهو يشرب شايه وكان يحس بقتامة في نفسه تحل محل الانفعال الذي ساوره وهو يشبّه احدى الفتيات لها . سألته العجوز عن حسين وهل سيتأخر في العودة هذا المساء أيضاً . كانت الاطلاقات النارية تملأ عليهم الجو وتكاد تمنعهم من سماع كلماتهم أحياناً . لم يجبها .

twitter @baghdad_library

سمع الحاج :
ـ محية أصلي ، چانم .

أضحكته بمرارة ، تلك الكلمات العرجاء . لا يزال يتذكرها الآن وهو يراقب المطر الحزين . كانت بداية البداية لحديث الحاج الذي استرسل فيه مساء أمس ساعات طويلة :

– بالكوت جانم . بحصار بالكوت ، داعيك موجود . وصلنا من قصر شيرين إلى السيليات. جنرال انكليزي طاوزند.ملعون والدين.محصور مع خمط .. خمصطعش الف نفس . خمصطعش لُك ، چانم .

كانت قسمات وجهه تتحرك بعنف مع كل اته وعيناه الصغيرتان تشعان بين لحظة وأخرى وسط كثافة الشعر الأبيض :

– نبديد . هلكان وصلنا . راسي خليت على أيدي ونمت چانم مثل زمال على الگاع ، بطريق العام . چا الخيل راد يسحگني . لاكت . الحمد لله . اشتغلت المدفعية ساعتين . احنا بالخندق . ساعتين مدفعية تشتغل . هجوم . سلاح أبيض . نصيح « الله اكبر . الله اكبر » نضرب . نشك بطون الانكليز . واحد بيزونك هندي يشلح علينا يگول آني مسلم ، آني مطهر . بيزونك ، أحنا قشمر مال ابوه . نشك بطنه . هو وأبوه .

وكان يشير بذراعيه شارحاً كيفية الطعن بالحراب وقد اصطبغت تقاطيعه بقسوة حيوانية شاذة .

أراد هو أن يصعد إلى غرفته ، غير انه فضل أن يبقى معهما ؛ مثلما يفعل الآن . يتطلع إلى المطر الحزين يتساقط مع غروب شمس السبت المظلم . لبث الحاج يثرثر دون انقطاع ساعات طويلة بين رعد الرصاص المتواصل . أدهشه وهو يستمع إلى ذلك الانطباع البدهي الذي واتاه بتأثير أحاديث الحاج : انطباع بأن قوة ما ، قوة غامضة لا تسمى .. الحياة أو الاله او أي اسم آخر ، كانت تعبث بهذه الجموع الغفيرة من البشر بشكل عشوائي وحسب ارادتها العمياء.تدفع بهم آلاف الأميال من كل الجهات وتجمعهم لتضرب أحدهم بالآخر فتميت بعضهم وتترك البعض الآخر يتعذب ويجوع ويسوح في

الأرض هائماً على وجهه . وخلال هذه الحركات الجماعية العنيفة المتقابلة ، لا يعي الفرد منهم شيئاً . انه يطفو كالقشة على سطح نهر يفيض . ينجو من كل الأخطار ولكن دون ادراك للسبب ، دون ادراك كيف اختير ليكون موضوعاً في لعبة لا تسر أحداً .

— ... نره يه كيد يورسك ترك أوغللي كارمان شاهمي ؟ نره يه كيد يورسك ترك اوغلي كارمان شاهمي ؟

كان الحاج ينشد ووجهه مستضاء بفرح طفولي :

— نمشي چانم ، نمشي . اي نعم . سربول وكرنت وملهذاشت . أي نعم . وكرمنشاه . نره يه كيد يورسك ترك وغلي كارمان شاهمي ؟ مدينة چبير ، چبير . ناس راكبين زمايل ويگول .. دستور .. دستور . يعني .. طريق .. طريق . والخبز ، ذراع ونص طوله ، چانم . ذراع ونص . وهناك چانم فقر شديد . مگادي يبوس ايديك . هناك صناري ، يعني مية ألف دينار ، يعني چانم .. فلس واحد .

ثم أطلق ضحكة مفاجئة خرجت من فمه كالفرقعة .

ازاداد سقوط المطر . خيل إليه أنه يسمع طرقاً على الباب ، طرقاً شديداً لا تخفيه الانفجارات . تبادل النظر معهما . توقف الحاج عن تمسيد لحيته بيده ووضع استكان الشاي الفارغ جنبه .

— اللهم يا أرحم الراحمين .

تكررت الطرقات . قام من مكانه شاعراً ببعض الاضطراب . صرّت الباب الثقيلة . كانا شابين مسلحين ملتحيين . سألاه بصرامة وبايجاز عما إذا كان لديهم جهاز تلفزيون أو راديو . أجابهما بالنفي . كانا ينصتان وهما يحدقان في وجهه . أكد جوابه ذلك الصمت الذي كان يملأ الحوش خلفه .

— شكراً رفيق .

ومضيا .

أسرع عائداً تحت المطر الذي خفت حدته . أخبرهما بما أراد الشابان . كانا صورة للقلق والفزع . أخذا يتحدثان باللغة التركية . شعر بضيقه يزداد بعد قليل . سأل العجوز :

— خالة عطية ، إذا عندكم شي تريدون تحچون بيه على كيفكم فآني ...

twitter @baghdad_library

لبثت تنظر إليه نظرات فارغة . بدا عليه أنها لم تفهم ما كان يعنيه :

– راح أصعد فوك خاطر تحچون على كيفكم .

– ما عندنا شي نحچي ، ابني . هذا الكور فهم يگول كل شي خلص وارح يقتلونا .

– لويش ؟

- ما أدري ، يا ابني . هذا نوبات الملائكة تحچي وياه . ما أعرف عد مخرف لو شنو . الله هو أرحم الراحمين .

لم يكن الحاج ينظر إليهما :

– السلام عليكم قصاب باشي . بربارچه أبيت ايسترم ، نه اركلك او لوب نه ديشي نه يازي كوروب نه قيشي . اي خانم سنك صاچو يلاندر صالبو ينمه دولاندر سنك ايستديك داغده كي طو مبلاندر .

صار يتدفق كالسيل ، دون أن تتحرك عضلة في وجهه . تذكر أنه أصيب بمثل هذه النوبة مساء أمس لكن بشكل مغاير . كان قد تركهما بعد أن جاوزت الساعة الحادية عشرة وصعد يواجه وحدته . ظنهما يريدان أن يناما وظن أن بمقدوره أن يستريح قليلاً هو الآخر .

كانت الغرفة باردة عطنة الرائحة ، يملؤها ما يشبه الضوء . لم ير شيئاً أول دخوله ، ثم بدأت الأشياء تتمايز وتنفصل عن الظلام . لاح له سريره فمشى ببطء نحوه . كانت النافذة هي مصدر النور الفضي الخافت الذي منح الغرفة هذا الغبش المريح . جلس بعد أن دفع اللحاف جانباً . وخزه ظهره فتمطى وحرّك عضلاته . كانت الانفجارات مستمرة ، متوالية . لا عجب أن يتذكر الحاج ماضيه الحربي . كانوا مقادين كالأغنام بشكل يبعث على الفزع . نعم . ولكنهم . خلال الدقائق التي كانت تسبق لعبة الحرب ، حين تضرب المدفعية كما يقولون ، ألم يكن الوقت يتهيأ لبعضهم كي يدركوا أنهم يدخلون ضمن لعبة مميتة وأنهم على وشك أن يمارسوا عملية تقتيل جماعية حيوانية ، ليسوا هم آخر ضحاياها ؟ لا بد أن أفراداً منهم استشعروا هذه الحقيقة ؛ إلا أن الأوان يكون قد فات ؛ وعبثاً ، حينئذ ، تختار السلام ، مثل ذلك الهندي المسلم . يريهم عورته ليثبت لهم أنه منهم وأنه اختار ألا يحارب أخوانه في الدين . ولكن ، أية اشارة غير

مقنعة ! خيل إليه ، وهو جالس على سريره في خضم اللامرئيات واللاضوء ، ان الصمت الذي ينجشر بين كل تلك الانفجارات يبدو أعمق من الصمت الذي اعتاده . يدك الرأس والحواس هدير الطلقات ، ثم ينقطع فجأة فيسود هذا الصمت العجيب البالغ العمق . كالبئر الأسود . كالموت . ثم يتبعه رعد وقصف ؛ ورعود وقصوف أخرى . ذلك لأننا في زمن الفناء المقنع . الفناء الذي يخاتل ويداور وينصب الشباك . أم أنه مخطيء في هذه التسمية أيضاً ، فالفناء اليوم غير مقنع ، أنه يقترب ، غير مخف بشاعته . ولكننا لا نصدق أن بمقدوره أن يطيلنا ، الا حين نكون منه وجهاً لوجه . آنذاك ...

لم تكن للغرفة جدران ولا حدود ؛ ووسط تلك الأصداء المرعبة للموت المحيطة به ، نبع في نفسه خوف ذو مضمون خاص . خوف ذو طعم حاد . كأنه يرى جثته ؛ يتمعن فيها .. في بقاياه . أغمض عينيه فترة . كان كيانه يخفق بشدة مثل قلبه . لا يمكن أن نفنى . كيف يمكن أن نفنى ؟ لا يمكننا أن نعيش فناءنا . انه ضد المعقول ، ولهذا فلا يمكن أن يوجد . ارتخى فكه الاسفل قليلاً . اي لعب بالألفاظ ، لن ينجي أحداً ! قالت له مرة : « كلشي يخلص . كلشي » . كانت مبتسمة متفتحة الأسارير . سألها ما هي الأشياء التي ستنتهي فأجابته وقد ازداد احمرار خدودها : « كلشي .. كلشي » والحيرة تمازج كلماتها . أخبرها أن ذلك لعب بالألفاظ لا جدوى منه .

لماذا تعود له تلك الكلمات البسيطة التي قالتها له والتي لا يمكن أن نمسك بمعناها لأنها قد تكون بغير معنى ؟ لعلها أرادت أن تقول شيئاً معيناً لم تواتها أعصابها على قوله . بدهته هذه الفكرة . كانت .. هي .. معه .. تقول .. له .. شيئاً معيناً . كانت هي معه ، وكان معها . كانا معاً . في نفس المكان والزمان ؛ وكانت تحدثه وهو يستمع لها ؛ فاذا أراد ، لو واتته الرغبة ، للمسها ، لاستشعر حرارة يدها الناعمة . أما الآن .. ثم .. أفزعته عدة انفجارات قريبة متلاحقة . كأنها تُطلق من البيت المجاور . هبّ من مكانه ومشى نحو النافذة . خطر له أن يصعد إلى السطح . كانت السماء رائقة مضيئة . انبعث من الأفق هدير طلقات بعيدة أجابه بعد لحظات هدير آخر . يا للمحاورة المدمرة ! انكفأ عن النافذة المنورة ومكث واقفاً دون حراك . كانت الأشياء في الغرفة أمامه ، تخطيطات مبهمة ولطخاً سوداء . أحس بغتة بأعصابه تتوفز وبجلد رأسه يرتجف بشكل

twitter @baghdad_library

غريب . انها بجانبه ؛ يشعر بوجودها قربه ، متكئة على كتفه اليسرى . لا تقول شيئاً ولكنها تهم بالكلام وهي تلمسه برفق . يحس بثقل ذراعها اللامرئية عليه . او استدار قليلاً لداعبت ، جنته خصلات شعرها . التفت . كانت النجوم تزهو ببريقها في سماء صافية داكنة الزرقة . امتزجت لهفته الطفولية بشعور من الذل والانكسار ؛ واسترجع كل أفكاره وذكرياته الذاهبة والمستعادة وما تركته فيه وما جرى له معها وما يمكن أن يجري ، ثم استرجع ، في لمحة ، تمزقات نفسه وضياعه واصراره على الضياع وهروبه واصراره على الهروب ، وكبرياءه الجوفاء ونزقه وارتماءه تحت الأقدام وحبه المقهور الملوث . ارتكى على جدار النافذة ؛ كان مضطرباً بشكل لا مثيل له ، مهدوداً ؛ ومن جهد عواطفه كي ينفي لنفسه أنها معه ، ولد ذلك السؤال الفريد المتأخر : ما العمل إذن ؟ ما العمل ؟

لم يبق له الشيء الكثير ، ولقد ضاقت أمامه السبل حقاً . سار ببطء . شعر بهزال يسري في رجليه وفخذيه . خشي أن يكون على وشك الاغماء أو التقيؤ . خرج من غرفته ونزل السلم . رأى عقربي الساعة اللامعين يشيران إلى الواحدة بعد منتصف الليل . توقف في الحوش متردداً . لعلهما لم يناما بعد . سمع ما يشبه الحديث الخافت . اقترب من الباب ودفعها برفق . رأى الحاج ، تحت ضوء القنديل النفطي الصغير ، جالساً في فراشه يلف رأسه بخرقة سوداء وهو يسبّح ويخاطب العجوز عطية الراقدة في فراشها . توقف عن القائه عندما رآه ونهضت العجوز . قال لهما :

— الله يساعدكم . مدا اگدر أنام . اشدتسون ؟

— ... خريبط مخربط دشر . ريكان بوري جريب . رشم خويم . ايه ، جانم . نعم . ايه.

كان الحاج يهز رأسه بتمهل من جهة لأخرى مع الكلمات التي بدت كالنشيد . تطلع إليه ثم إلى العجوز . كان القنديل يلقي أمواجاً من الضوء الأحمر على وجهها المغضن . قالت :

— تفضل استاد مدحت . مادنسوي شي ، بعد بيتي . بس هذا خالك ديتذكر جماعته الجنود . ماتوا الله يرحمهم گبل خمسين سنة ، لاكت شوف ربك من يريد . يعرفهم واحد واحد .

— مريوش عبد الحسن جافل . عجة چرك . بچاي گريص كاوي . نعم . چانم . زوير خلف شندي . جوعان جعيول شخير . أي خانم سنك صاجو يلاندر ...

دخل وجلس على كرسي قبالة سرير العجوز . تضاءلت الانفجارات بعد أن أغلق الباب ، وقلل من شأنها هذ الالقاء العجيب لأسماء الرفاق .

— أسوي لك چاي استاذ مدحت .

كان الحاج ، مغلق العينين ، يتمايل مع كلماته كأنه يغني ، وملامح وجهه الأشيب جامدة لا تتحرك . هز رأسه رافضاً وشاكراً:

— ... سلام عليكم قصاب باشي . برباجه ابيت أيستر ، نه اركك اولوب نه ديش نه ياري كوروب نه قيشي .

ضحكت العجوز دون اهتمام .

— گلاص بطوش . منيشن گاگولة . حلواص دخينة طاهر . عباله صعيصع . مهوس مايع عنب . معيدي ندوان واوي . دردوچ رشكة . خينار خريس مشچل .

بدهه منظر الحاج . ماذا يعمل هذا الشيخ الفاني ؟ لماذا يستحضر ، في هذا الوقت بالذات ، اشارات الموت هذه ؟ أبسبب أنه يجد ألا مناص منه، او ان من الحكمة أن يروض النفس على قبوله ؟ ولِمَ يجب أن نقبل الموت ... الفناء ؟

— ... بطي ماجود . مرعيد كطيف دليهم . يا الله . يا الله . يا الله .

ألم يكن جواب الانسان للفناء واضحاً ، على الدوام ، كالشمس : الرفض البات ، الرفض البات ؟ حتى حين تدلهم الأمور وتسوء ، حين يسقط الانسان ، حين يختار السقوط ويرفض الحياة ، أكان راضياً بالفناء ؟ وكيف يمكن أن يحصل ذلك ؟ أنه مناف للطبيعة ولتكوين البشر الأساسي . انه ، إذن ، يقع للانسان ولا يفعله هو بمحض ارادته . يقع له ، ولا يريده . يهاجمه ، هذا الشيء المريع ، على حين غرة ، وينتصر ، بقتل الانسان ، غفلة . فاذا أمعن الفكر وعرف طبيعة العدو المهاجم ...

— أسوي لك چاي أستاذ مدحت؟

— فراكه چثير عراك . صحن مايع . شبوط سماري . چحف .. چحف .. شنو ؟

كانت العجوز تنظر إليه ، جالسة في فراشها متشحة بالسواد ، تتلاعب أضواء القنديل على وجهها المنكمش المصفر . أحس في لهجتها وفي تطلعها نحوه أنها تشكو إليه

twitter @baghdad_library

خوفها الذي تريد أن تخفيه ، تخجل أن تبديه له .
– اشكرج خالة ، اشكرج . ماكو حاجة للچاي هسه .

سمعوا انفجاراً عالياً مكتوماً ؛ كأن الأرض تهتز تحتهم وتغمغم .
– أللهم يا أرحم الراحمين .

ولكن المبدأ المطلق هو البقاء ؛ وليس هو الالتماع الموقت ثم الفناء . لا بد للانسان أن يبقى ، مهما غلا الثمن . اذ لا بديل للحياة . انها هي الأولى .. الأولى .
– ... شناوة عيال مناتي . حميد حنون د لبوري . چحف . چحف .. شنو ؟
– ما تعرف أستاد مدحت ، شلون تاليها ؟ يعني الله سبحانه وتعالى راح يفرجها علينا ؟

أبطأ الحاج في إنشاده وتوقفت حركة رأسه ، كأنه ينتظر جوابه . تطلع إليها . أراد أن ينقل إليها فكرته التي استنارت في ذهنه عن الحياة وعن البقاء . الفكرة التي أحس انها قد تمنحه قوة جديدة يفتقدها منذ زمن . قال :
– لا تخافين خالة عطية . لا تخافين . ماكوشي ...
– مكو طرمد هوش . راهي سنيد راهي . تعبان مرعيد چوعان . ريكان دخينة شلر . چحف ... چحف .
– مو بيدنا يا ابني . أحنا ما بقى لنا شي من هالدنيا . لاكت .. لاكت سبحان الله .. شگد الدنيا حلوة .

ثم رأى فمها يتقلص قليلاً :
– أللهم اگضيها علينا بالتي هي أحسن انك أرحم الراحمين .

لم يدر كيف يكلمها وبأية لغة يجعلها تطمئن نفساً :
– انشالله خالة . انشالله .

ثم سكت . بقيا يتبادلان النظر . شعر أنهما متفاهمان على بعض الأمور الأساسية دون أن يدرك لماذا . كانت الاطلاقات تملأ الدنيا المظلمة من حولهم ؛ تزعق وتهدر وترعد وتعوي . انها تفهم أنهم في موقف مجنون ، لا تقدير ممكناً لنهايته ، وان الحياة أعز من أن تضيع في أمور لا نفهمها أحياناً . اراد أن يقول لها شيئاً ، أن يسألها عن رأيها

في فكرته ، حينما ارتفع شخير الحاج ، يعلو على صوت الرصاص . كان غافياً في جلسته على السرير ، يطوي رأسه على صدره ويطلق شخيره العالي . قامت العجوز بهدوء ، فسوّت فراشه ثم أرقدته وغطته بلحافه بعد أن تناولت مسبحته ووضعتها تحت المخدة .

نهض من مكانه وهمس :

— تسمحي لي خالة ، نامي انتِ هم وارتاحي . كلشي ينگضي بخير انشالله . آني صاعد أنام . اذا ردتِ شي صيحي عليّ بس . تصبحين على خير .

كانت ملامحها تفيض بتعاسة مستسلمة . تعاسة قبول لا مناص منها . فتحت ذراعيها :

— انشا لله ابني .. انشالله . نام اذا تگدر . وإذا ردت شي تاكل لو تشرب ، انزل ابني لهنا . آني گاعدة . لا يظل بالك يمنا . تصبح على خير .

أحزنته لهجتها وطريقة كلامها . كان الهواء بارداً في الحوش والطلقات تلعلع باستمرار . انه يخشى الأناس الحزانى اليائسين ، لأنهم لا يمنحونه القوة التي يريدها لفكرته ؛ الفكرة التي يجب أن يعيش بها ، لا مفر منها كي يعيش .

صعد السلم ببطء . يجري منطق الأمور أحياناً ، بحيث لا يدع لك أن تتأمل في شيء مهم تظنه لباب حياتك . يجري كل شيء سهلاً هيناً بغير تعقيد . مثلما حدث له هو حتى ... كانت الغرفة لا تزال كريهة الرائحة ، يختلط فيها الضوء والظلام ويتلاشيان . لم يشعل مرة أخرى المصباح الكهربائي . سار إلى النافذة ، منبع النور ، ووقف بمواجهتها ... مثلما حدث له هو حتى دخلت منيرة حياته .... كانت السماء مستوية تتلألأ ، تتلألأ . اضطرب قليلاً وتسارعت بعض الشيء دقات قلبه . أيمر بمثل تلك الأزمة ، قبل يوم أو يومين ، حين تراءى له أنه يقف في مفترق طرق ؟ وحين أضاعه أنه لم يملك آنئذٍ أية اشارة تهديه ؟

شعر باعماق نفسه السفلى تبدأ بالجيشان ، كأنها تغلي . نشر ذراعيه وأمسك بحافة النافذة . لماذا يجعل من منيرة قاطعاً لحياته ؟ لماذا وضعته هكذا أمام مصيره ، أمام اختيار حاسم لم يكن مهيأ له ؟ أهي حقاً ، مخلوق هش لا قدرة له ولا قيمة أو دلالة ؟

twitter @baghdad_library

أسند جبهته النابضة على الجدار البارد وأغمض عينيه . أراحه ذلك . ان ما يخالط الأمور عليه ويجعل رؤياه قاصرة ، هو هذا الامتزاج بين عواطفه وأفكاره ؛ الامتزاج الذي لا محيد عنه والذي لا يستطيع له رداً . هنالك حقائق أساسية تتملص منه . يشعر بها،بحضورها الأكيد في نفسه ، ثم تختفي فجأة . فاذا استطاع بشكل ما ، أن يمسك بالخيط الرفيع الذي يفترض أنه يربط بين تلك الحقائق ، أسيقدر بعدئذ ...

في البدء ، أو على الأصح اذا ابتدأ من واقع حاله الآني : أين هو ، على سبيل المثال ؟ محاصر ، مطرود ، منهوك القوى ، مهدود ، مطارد ؛ وكل هذا لايجدي.لا يمكن أن يجدي . كان قلبه ضيقاً وهو يحس بتيارات غامضة تعتمل في داخله ، في جهة من نفسه . ولا يد له عليها . في البدء ، هو هارب منها ؛ هذه هي الحقيقة الأولى . هارب من الجسد النحيل المتلاين حول جسمه ؛ من حرارتها ، من حبه لها . هارب من حبيبته ، من زوجته . من القبلات والابتسامات ومن نظرات الحب . من سعادته . غير ان هذا ... لا يجب أن يكون . انه من الحقيقة مظهرها فقط ؛ وهو آخر الأمر لا معنى له . لكنه أيضاً ... أيوجد شيء آخر وراء هذه الاشارات الظاهرة ؟ المعنى الآخر ، مثلاً ، الذي يلازم منيرة ؛ ويختفي وراء صورتها الفذة المشرقة . أمورها الأخرى التي تخيفه ، وترعبه حتى الموت . أمورها الغامضة المعقدة ، التي تركبت ، بمعزل عنها ، واحتوتها ثم حملت إليه ، بعد ذلك ، ما أرادته ، هذه الأمور ، له ... الفناء . الدمار . انه هو نفسه وجه الموت الذي يحيطه هذه الساعة . تبدى له أولاً في وجه حبيبته ، وهو يعلن عن نفسه الآن بهذه الأصوات المتوحشة . إلا أن هذا ليس كل شيء . كان مهتز الأوصال . يرتجف في وقفته أمام النافذة ، أمام الليل الصاخب . لأن منيرة أيضاً ، تلك التي منحته عيبها ومأساتها ، لم تختر هي بالذات أن تكون معيبة . هي ، منيرته الرائقة كالسماء ، لم ترد عيبها . لقد حدث لها ذلك ، حدث لها . لم تفعله هي . لكنها ، تلك الصافية كنجمة الصباح ، اختارته هو نفسه ، بذاته ، من أجل أن تكون له ، وهذه ... وهذه هي دلالتها الأصيلة ؛ وكل ما عداها أقنعة زائفة لا علاقة لها بروحها . أقنعة الفناء التي أمكنه أن يمزقها أخيراً .

تمسك بأطراف السرير قربه . خيل إليه أن اصوات الرصاص تبتعد عنه وأن الدنيا

تصمت من أجله . كان في أشد حالات الانفعال والاضطراب ، غير عارف ما سيحصل له . انها البقاء إذن ، حبيبته تلك ، انها الحياة في جوهرها .

صرخ بفرح طاغ وهو يهز السرير بعنف ؛ صرخ هاتفاً بما لا يدري . باسمها ، ربما. يناديها . بحبه لها ، ربما . وتفجرت دموعه وهو يلقي بجسده المتعب على الفراش .

وبكى طويلاً دون أن يفارقه شعور بالفرح يفيض من داخله ، وأحس بيقين أن من بين ظلام غرفته الصغيرة الكريهة الرائحة هذه ، سيلد فجره ، فجر حياته . ثم أغرقته لجة من النوم مباغتة . نام مثلما لم ينم منذ سنين ، نوم الأطفال الهادىء العميق .

ولم توقظه الأصوات الراعدة إلا حوالي الحادية عشرة صباحاً من يوم السبت الحزين هذا .

لم يقل لهما شيئاً حين نزل قربهما قبل الظهر بقليل . وجد العجوز في المطبخ تهيء لهم الغداء ، والحاج جالساً على السرير ملتفاً ببطانية خضراء ينثر نظراته العدائية في الفضاء ولا يتكلم إلا بالتركية . وأكلوا واجمين الخبز اليابس العفن المنقع بالمرق .

ثم بدأ المطر الحزين يتساقط ، بُعيد الظهر ؛ وكان يشرب شايه بصمت وقد صمم أن يتركهما بعد أن يهبط الظلام . لم يقل لهما ذلك وشعر أنه غير ملزم باخبارهما عنه . ماذا يربط بينهم ، إذا وضعنا جانباً تآلفهم خلال الساعات الأخيرة ؟ انهما ينتميان إلى هذا المكان بشكل من الأشكال وقد ينجوان ببقائهما فيه . اضافة إلى أنه يشعر الآن بأن لديه ما يجعله متفرداً عنهما . لقد صار العالم وتفاصيله الأخرى شيئاً ثانوياً بالنسبة إليه . حتى الخوف أصبح ضمن اطار فكرته أحد العوائق ذات المواصفات الخاصة التي يجب اجتيازها . والشخص الوحيد بين البشر الذي يمكن أن يكون لوجوده معه الآن معنى ما، لا يوجد معه . وحسراته في هذا المجال ، عدا أنها لا تنفع ، هي التي تزيد من شده إلى هذا الشخص الغائب ... إليها .

ومرّ الشابان الملتحيان ، وأخبرهما بما أرادا فعادت للحاج هاوسته التركية اللامترابطة. أعلمته العجوز أنه يعتقد أنهم سيموتون جميعاً هذه المرة . بقي يعبث باستكان الشاي الفارغ بين يديه . سمع العجوز تسأله :

twitter @baghdad_library

– استاد مدحت ، يعني تگول ، أبوسها يرجع علينا الليلة ؟

توقف الحاج ، ناظراً إليه كأنه كان يريد أن يوجه إليه هذا السؤال أيضاً . لقد نسي حسين وما يخصه . أدهشه ذلك . لم يفكر به منذ آماد ! قال لهما :

– انشالله . عندچ فد چگّارة خالة ؟

– لا والله يا ابني . خلصت جگـايرنا من الصبح .

هتف الحاج بحنق كلاماً سريعاً بالتركية أجابته عليه فعاد إلى لغطه زائغ البصر .

لم يهتم كثيراً برد فعلهما ولم يحاكم نفسه عن تصميمه على تركهما . لقد كان سيتركهما ولو كانا ابويه . انه أمام امتحان حياته الذي اختاره بنفسه وعن اقتناع ؛ ولم تكن فرحة الأمس وراحة البال لتأتيانه اعتباطاً . لقد كشف ، إلى الأبد ، سرها وسره ؛ علاقتهما ودلالتها . وكان بوده ، رغم انفعاله ، أن يحدث العجوزين بهدوء وأن يطمئنهما قبل رحيله . أراد ان يحدثهما عن أمور جوهرية يستطيعان فهمها بحيث يسهل عليهما الانتظار ؛ وكان عقربا الساعة في رسغه يشيران إلى الخامسة إلا بضع دقائق حينما دوى الانفجار الأول . اهتز البيت اهتزازاً مروعاً ووقع استكانه على الارض فانكسر حالاً . صرخت العجوز :

– الله . يا أرحم الراحمين .

قفز هو من مكانه وخرج من الغرفة . كان الحوش ، باهت الضوء ، يبدو خرباً لغير سبب . سمع أصوات صراخ غير بعيدة عنهم . اتجه نحو باب الدار . نادته العجوز. كانت واقفة ، مقوسة الظهر ، تحت سقيفة الطارمة تستند بيدها على اطار الباب :

– ابني مدحت . استاد مدحت .

تلاقت نظراتهما . كانت تبكي بلا دموع ، مغضنة الوجه كمن يقاسي ألماً لا يطاق . لبث صامتاً ، خافق القلب . سمعها :

– رايح ؟

لم يجبها .

– الله وياك ابني . الله وياك . بس لا تنسانا . الله وياك .

– لا يظل بالج خالة . آنيَ لازم أرجع ، لا يظل بـالج .

فتح الباب الخارجي أثناء ما كان يتكلم معها ، وخيل إليه أنها لم تسمع كلماته الأخيرة . كان الدرب ضاجاً بالنداءات والصراخ وبأصوات الرصاص والناس يتراكضون بفزع مجرورين نحو موضع معين . ركض معهم . كانت الدار تبعد حوالي المائة متر ؛ وكانت مقطوعة الرأس منهارة الجدران ، يحيطها المسلحون ويتصاعد منها الدخان. قيل له دون أن يسأل أن قنبلة سقطت عليها ؛ وكان عويل بعض النساء من المتجمعين يزيد من شدة الانفعال . علم أن الدار كانت خالية وأن عبد الكريم قاسم أعدم بعد الظهر بقليل . أحس بالمطر ، الذي خف كثيراً ، يبلل شعره ووجهه وثيابه . ابتعد بهدوء عن الجمع . خطر له ان انتظار الظلام أمر ضروري له في حالته هذه؛ وقرر أن يقوم بجولة خلال الأزقة . وجد بعد نصف ساعة من السير المتعرج في دروب المنطقة المبللة القذرة أنها لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، وأن كل زقاق يبدأ من درب لينتهي بآخر وليبدأ الآخر لينتهي في ثالث . وحين عثر ، صدفة ، على فسحة يبين منها الشارع عن بعد ، كان عليه أن يبتعد مسرعاً تحاشياً للطلقات ولصرخات التحذير التي انهالت عليه من حيث لا يعلم .

حوالي السادسة مساء ، عندما كان قريباً من احدى المقاهي الفارغة ، والظلام قد تكاثف ، انفجرت القنبلة الثانية في مكان ما من الحي . جلس على قنفة خشبية عارية ينشد الراحة ويحاول أن ينظم أفكاره . كانت المقهى في ناحية منعزلة نسبياً . لاحظ قبل أن يصلها شخصاً يسلم سلاحه إلى آخر ثم يصافحه ويمضي. حيرته هذه البادرة الغريبة وكانت وجوه المارين القلة تعكس خوفاً غير مستتر . اضطرب بعض الشيء . ليس الأمر بمثل السهولة التي تصورها . مسح المطر عن وجهه وشعره . أحس لأول مرة بخشونة الشعر في لحيته . ماذا ستقول له حين تراه ؟ اشتهى أن يشرب شاياً حاراً . هل سيستطيعان الكلام ؟ يمسكها ويلمسها ويتحسس نعومتها، يديها وذراعيها وشعرها؛ ويتملى من رؤيتها ويمر بأنامله على وجهها . على العينين اللوزيتين والفم والشفتين . يلمس امرأته فيها ، حبيبته . ويعتذر لها . يهمس لها باعتذاراته كلها ؛ ويقول لها ما هي منه وكيف أعطت حياته شكلاً ووجهة أخرى . اشتهى أن يشرب شاياً حاراً . تلفت حواليه . انتبه إلى فتى صغير يقف في زاوية داخل المقهى الفارغ . أشار إليه . لم يبال

twitter @baghdad_library

باشارته . يالله ، كم يعجبه أن يدخن سيجارة ويعقبها باستكان شاي !

سينتظر بعض الوقت كي يهدأ قليلاً . لا بد له أن يتسال قبل ارتفاع القمر . أشار مرة أخرى إلى الفتى فرآه يقترب منه ببطء . مرت أمامه جماعة مسرعة من النساء يسحبن أطفالاً معهن . كان جميل الوجه ، يضع على رأسه عرقجيناً كبيراً ينزل إلى ما فوق عينيه . سأله ألا يوجد أحد يخدم في المقهى . هز له راسه بالنفي ولم يتكلم . كان دقيق الملامح تنطوي نظراته على الكثير من الشك والخشية . كلمه مرة أخرى برفق . طغى على صوته هدير عال لاطلاقات قريبة . رأى الفتى يتلفت برعب وعلى وجهه علامات توجع . أعاد عليه طلبه . انتبه إلى نفسه يتكلم بلهجة متوسلة . بقي الفتى صامتاً . كان في حوالي الثانية عشرة من عمره ، تبدو عليه بعض مظاهر الانوثة . سأله أين يمكنه أن يشتري سجائر ، وقبل أن يجيبه ارتفع من ورائه نداء :

— جوانا ، جوانا . تعاي لج بالعجل .

كان أحد الشبان يقف أمام باب داخل المقهى وهو يشير بذراعه إلى الفتاة . ركضت حالاً بعد أن القت عليه نظرة تعاطف غريب . أقبل الشاب نحوه . كان ملتحياً ، عدائي المظهر :

— نعم ، أخي ؟

— العفو ، ردت فد جاي من فضلك .

— ماكو أخي .

قالها بلهجة قاطعة . استغرب مدحت ذلك :

— زين . من فضلك ، أگدر أطلب فد جگارة ؟

— آني ما يدخن

كانت عينا الشاب تحاولان النفاذ إلى أعماقه لمعرفة جنسه ونوع انتمائه

— ها ! العفو . أگدر استراح شوية هنا ؟

— ماكو مانع . هذا مو گهوة أخي . حسينية .

ثم رآه يمضي متعجلاً كأنه انهى عملاً معقداً .

استضاء بعد لحظات مصباح كهربائي ضعيف في نهاية المكان . أراحه ذلك . انه اشارة مودة من نوع خاص ؛ وهو يحتاج إليها . صار حساساً تجاه كل إيماءة لها دلالة. خاصة تلك التي لا تعلن عن نفسها ؛ تتركه أن يفهمها ، أن يسبر غورها مفتشاً عن المعنى . لم يكن معقولاً أن تحدثه عن الأمر قبل الزواج . كان سيكون جبناً ، معاهدة ، عقداً رخيصاً من عقود العبودية ، تدبيراً احترازياً يبعث على التقزز . اما أن تمنحه حياتها دون شروط ، لأن العلاقات الانسانية الأصيلة لا تحتمل الشروط ، فذلك لأنها مخاصة شجاعة . وهي لم ترد أن تمتحنه . لقد لمست حبه عن كثب ، ولعلها أحست أن بمقدورها أن تثق بفهمه لها . تلك العزيزة !

ماج قلبه ، وهو جالس بمفرده على التخت الخشبي في زاوية شبه مظلمة ، بشوق طاغ لمنيرة . شوق لرؤيتها ، للحديث معها ، للاحساس بوجودها قربه . شعر بخفقان في صدره كله ، فعصر أصابعه فيما بينها بشدة . كان بحاجة إلى عمل عنيف يقوم به ليقترب منها . عمل متميز ذو دلالة يعبر فيه لها ولنفسه عن أنه تمسك بالحياة ، بالبقاء ؛ وأنه استوعب شقاءه — موته ، وانه هزم هذ الشقاء — الموت لأنه كان أكبر منه حين أدرك طبيعته . أما هي ، فانها قمة اختياره للتوهج الحياتي الذي يحتوي ويستوعب كل أشكال الفناء .

شعر بحركة خفيفة جنبه . كانت الفتاة جوانا ؛ تقف حاملة بين أصابعها سيجارة وشخاطة ، ووجهها تضيؤه بشكل غير مرئي ابتسامة خجولة . تناولهما منها وهو يشكرها بحرارة . انتبه إلى خصلات صغيرة من الشعر الذهبي تتبدى من تحت العرقچين وإلى الارتفاع غير الاعتيادي في صدرها . ابتسم لها وسألها عن اسمها فأجابته . كان صوتها رخيماً ناعماً . لو تكلمت أول الأمر لما انخدع بمظهرها .
أشعل السيجارة وسحب منها نفساً طويلاً . شعر بدوار لذيذ في رأسه . نفث الدخان ، مغمض العينين . ما ألذ هذه الممارسة البسيطة لمباهج الحياة ! رأى جوانا لا تزال قربه ، تتطلع إليه بفضول وعطف . قال لها ألا يمكن أن تدبر له قدحاً من الشاي فأجابته وهي تبتسم :

twitter @baghdad_library

– لا . ماكو .

كانت عيناها زرقاوين كبيرتين ، تنطقان حين لا تتكلم هي . كم كان غبياً حين حسبها صبياً ! سألها مرة أخرى عن الطريق إلى الشارع العام . بدا الاهتمام على وجهها في الحال . تطلعت ناحية الباب لحظة ثم عادت تنظر إليه . أشارت اشارة خفيفة ناحية اليسار :

– منا .

كانت تومىء إلى زقاق سلكه من قبل يؤدي إلى فسحة مكشوفة ثم منحدر نحو شارع الكفاح ، وكان ذلك أخطر مسلك عرفه ، وهو مرصود من الجانبين .

– أشكرج . هذا ما يفيدني .

– وين تريد تروح ؟

حرك ذراعه باتجاه الأفق البعيد ، من اليمين إلى اليسار :

– لهناك .. بره .

– لويش ؟ تشرب چاي ؟

ثم ابتسمت بخفة . ترددت آنذاك أصداء رهيبة لاطلاقات متلاحقة . تلفتت الفتاة بهلع ولاحظ كتفيها يرتجفان قليلاً .

– لا تخافين عمو . روحي خشي للبيت .

نظرت إليه صامتة ، يختلط ، على وجهها ، الرعب بالقلق والتذمر . ثم أشارت إلى الشخاطة :

– انطيني الشخاطة .

أعادها إليها معتذراً . بحث في جيوبه فعثر على نصف دينار مدعوك . أخرجه وقدمه إليها :

– هاي إلج ، عمو .

هزت رأسها ثم مدت يدها بتردد وأخذت منه العملة الورقية .

– سمعي چوانا ، عمو . ارچوچ ، أكو فد درب ما يبين يوصلني للشارع ؟ مو هذا . واحد لاخ . آني أريد أروح لأهلي .

سكنت . بان عليها كأنها تمعن الفكر في أمرما . طوت النصف دينار وهي تزم شفتيها ثم رفعت نظرها ومرت به على الباب لحظة . همست :

– من الخرابة

وأشارت بيدها نحو اليمين بشكل مستتر :

– آمشي منا . أول عگد على اليمنة . فوت بيه للتالي . اكو دربونه ما تطلع عل اليسرة . بيها الخرابة . مناك تگدر ...

قطعت جملتها وتراجعت إلى الوراء قليلاً . تلفت . لم يجد أحداً . كانت عيناها حزينتين فابتسم لها وشكرها . سحب نفساً عميقاً من سيجارته . رآها تتراجع وتمشي على مهل نحو المدخل ، ثم سمع انصفاق الباب . لم يشعر أن هنالك موجباً لخداعه . كانت أصداء الطلقات النارية ما تزال تتعالى في الهواء . سينهي سيجارته هذه ثم يمضي . أن تقرر مرة عن قناعة ، يعني أن تتلاشى التساؤلات والشكوك ؛ فإذا بقيت تنخر القلب ، فيجب أن تُعامل كأمور من الدرجة الثانية أو الثالثة من الأهمية ؛ أو إذا أمكن أن تُعتبر كميات معينة ، أو غير معينة ، من المشاعر تنتاب شخصاً ليس هو انت بالذات ولكنه يمت إليك بشكل من الأشكال . عند ذاك يمكن أن تصير أو لا تصير ، أن تكون أو لا تكون كما يقولون . وكل هذا بعبارة جديدة أن تَستوعب أو أن تنجو . أخذ نفساً آخر من سيجارته فشعر بالدخان حاراً في فمه فرماها . لبث ساكناً لحظات ثم قام من مكانه . زرر سترته واتجه في سيره إلى اليمين . كان الجو ، بعد المطر ، منعشاً مشوباً برائحة التراب ، والدرب مستقيماً عكر الأرض ، يضفي عليه المصباح الكهربائي الوحيد صبغة من الابهام . وكان يسير بحذر ، منصتاً إلى الانفجارات وإلى وقع أقدام غامضة تأتي مسرعة من جهة وتمر دون أن يرى أحداً . لاحظ مدخل الزقاق المنشود عن يمينه بعد حوالي عشرين متراً . كان مضاء هو الآخر بمصباح كهربائي أحمر ولا يتجاوز عرضه المترين . دخله وأخذ يسير بمحاذاة الجدار . لم يكن هنالك أحد . أفاده السير والهواء البارد الرطب . مرّ من تحت المصباح الكهربائي . ارتسم ظله على الأرض السوداء، طويلاً متمايلاً ثم اختفى فجأة . لم ير غير بابين تطلان على الزقاق . كانتا مغلقتين. سقطت، عدة قطرات من الماء على رأسه أثناء تقدمه . زلقت قدمه مرة فتمسك

twitter @baghdad_library

بالحائط وعاود سيره . أحدّ بصره وهو يحاول أن يتبين موقع الزقاق الآخر ، وكان يتنفس بعمق وبعض القلق يداخله . ماذا سيفعل إذا لم يجد الخرابة ؟

كان الظلام دامساً حينما انتهى الزقاق إلى مفترق طرق صغير . على اليمين استمر الدرب في تلويه ، أما على اليسار فانها الدربونة التي لا منفذ لها كما يبدو . كان الأمر بدهياً ، لا يمكن لمثل هذا المسلك الذي لا يزيد عرضه على المتر والنصف . أن يؤدي إلى منفذ ما . سار خطوات قليلة في بطن الدربونة ، ثم توقف . كان النور الشاحب المنبعث من المصباح البعيد ، لا يضيء غير مدخل الزقاق الضيق . رأى باباً كبيرة سوداء ذات مسامير بارزة على يمينه ، وارتفع عن اليسار حائط مقوس . أمامه كانت الظلمة . تقدم متحسساً بحذر موضع قدميه . شعر بالأرض لينة ، ذات زلق . أمسك بالحائط جنبه . كان الظلام داكناً لا يخترقه البصربسهولة . رفع عينيه فتبين له الأفق منكشفاً على مبعدة ، وخيل إليه أنه يلمح ، تحت النجوم المتألقة ، بقايا بناء مهدم . عاد يمشي بثقة محاولاً أن يميز موقع أقدامه . لم يكن مطمئن النفس كثيراً ، ولا خائفاً . فارقته هواجس متعددة ، إلا أن ثقل قلبه لم يخف ؛ وكان يريد أن يعتقد أن ذلك أمر طبيعي . بعد خطوات ، وتحت النور الخفيف جداً المنثال من السماء والنجوم تميز الخطوط المبهمة المتداخلة لحيطان الخرابة . توقف مبهوراً . أدرك في تلك اللحظة أنه في دخيلة نفسه لم يكن يصدق تلك الفتاة الصغيرة جوانا ؛ وأنه كان يائساً حتى قبل أن يجرب . اقترب متهجساً من الدار المهدومة . كان السياج واطئاً ، وعامودا الباب المخلوع يرتفعان حوالي المترين . صعد الدرجة العالية وتوقف في اطار المدخل . أتسعت رقعة السماء أمامه بكل بهرجها ولمعانها . لم يكن القمر قد ارتفع بعد ، إلا أنه لن يتأخر طويلاً . اعتادت عيناه على العتمة التي تخفي المكان . أخذ يحدق في المسافات القريبة منه على الأرض . كانت الخرابة داراً صغيرة لم يكمل بناؤها لسبب أو لآخر ؛ وكان عليه أن ينتقل إلى الجهة الأخرى منها المطلة على الشارع العام . ارتجف فجأة لرشقة عنيفة من الطلقات ، بدت له أكثر رهبة مما اعتاد . خطر له أن من الممكن أن يسير بمحاذاة السياج وأن يصل إلى الجهة المقابلة دون خطر الوقوع في حفرة أو الاصطدام بشيء ما . أمسك بالجدار المتصل بعامود الباب وبدأ مسيرته . شعر بسترته تحتك بالحجارة فابتعد قليلاً . كانت عيناه

تزوغان وهو يمعن النظر أمامه ؛ وكانتا تعميان أحياناً ثم تعود بعض الكتل والألوان الغامقة تتميز عما حولها. اصطدم بكومة سوداء صلبة لم يستطع معرفة كنهها . ترك الحائط ودار حول الكومة . زلت به قدمه ففقد توازنه وكاد يسقط ، إلا أنه استند على الأرض فاستقام جسده . تلوثت أصابع يديه بالطين . تطلع حواليه . كانت الانفجارات تشتد وتتعالى باستمرار دون هوادة . بعضها خشن الصدى ينبعث من الأفق والبعض الآخر قريب كأنه ينطلق من الشارع المقابل . رأى الجدار قريباً منه فخطا نحوه محاذراً السقوط وتشبث به . ألمته ذراعاه وخدشت راحتي يديه الحجارة المسننة . عاود السير وهو ينفض الطين عنه . كان يلهث وأنفاسه تتردد بسرعة . أزعجه أن يترك هذا الجهد البسيط مثل هذه الآثار على جسمه . كيف سيمكنه إذن ... ؟

انعطف السياج فوجد نفسه يطل على الشارع العام . كانت الخرابة تبعد عنه حوالي الخمسين أو الستين متراً ؛ وهي مرتفعة ما يقرب من المترين عن مستواه . هكذا قدر المسافات . بدا له الشارع خالياً بشكل رهيب ، مظلماً ، تتعاكس على أرضه السوداء أضوية مجهولة المصدر. الأرض الفارغة التي تفصل الخرابة عن الشارع ، كانت محاطة بالبيوت . عبر الشارع ، ميزت عيناه وهو يطل من وراء السياج ، مداخل بعض الطرق والأبواب . لم يشاهد أحداً ، وكانت أنفاسه لا تزال سريعة وقلبه خافقاً . هبت عليه نسمة باردة منعشة . رفع نظره إلى السماء . الصيف الماضي ، في السطح قبيل الفجر ، وقف أمام سريرها وهي جالسة تحلم ، لا تحس له وجوداً كأنها في عالم آخر ! كان الفجر فضياً يخالطه نور القمر ، وكان باستطاعته أن يتفوه باسمها وأن تسمعه . كم يبدو كل شيء بعيداً ، بعد النجوم ، بعد الأزل ! ولكم تغيرت دنياهما منذ ذلك الحين ! لم يرتكبا جرماً ، ولكنهما استسلما للأحداث التي لفتهما بمنطقها المعوج ، المهلك . صارا ضحايا للآخرين . الآخرون .. الآخرون ؛ أولئك الخونة .

كان حزيناً وهو يقف هكذا وراء الحاجز الحجري ، يعبث بأصابعه وينظفها من الطين ، وتراوده أفكار وذكريات لا معنى لها الآن . سمع صوتاً حاداً ولمح في الشارع سيارة تقبل من اليمين كالسهم المجنون وتمرق أمامه ثم تختفي في الجهة الأخرى .

twitter @baghdad_library

كان الماء يتطاير حواليها وعجلاتها تصرخ كالحيوان الجريح . أرعبته رؤيتها . ماذا ينتظره ، ترى ، وهو يحاول العبور ؟ إلا أن النجاة ، ثم البقاء ، لا تستمد قيمتها الحقيقية إلا من الأخطار التي أحاطتها ، من معوقاتها . ورغم ذلك ، فالنتيجة ، لا الوسيلة ، هي المهمة ؛ وسيكون للحياة والبقاء دائماً أبطال من نوع خاص .

تلاعب ضوء قوي عدة مرات ، في الناحية الأخرى ، ثم اختفى . نبهه هذا إلى أن وقته محدود وأن عليه أن يعمل الآن . كان السياج يصل إلى أسفل صدره . تحسس سطحه فوجده مبللاً ، لزجاً بعض الشيء . قرر أن يصل الزاوية الحادة التي يشكلها جدار البيت على اليمين مع الشارع . كانت تلك هي أقرب نقطة بين طرفي الشارع . رفع جسمه وأخذ يتمعن أسفل السياج . خيل إليه ، على الضوء الضعيف الذي أحال الرؤيا إلى سراب ، ان كميات من الحجارة الصغيرة تتكوم تحته على مسافات مختلفة . جمع قوته ورفع احدى ساقيه ثم تحول ، بحركات مقتصدة ، إلى الجانب الآخر . تدلى بعد ذلك رويداً رويداً . لمست قدماه ما ظنه الأرض ، فتمهل قليلاً ثم أفلتت يده السياج . لم يستطع حفظ توازنه فانزلق ووقع على ظهره . فاجأه سقوطه . اعتدل مرتبكاً وجلس على الأرض بمواجهة الشارع . شعر بألم في ظهره وجنبه . تطلع يميناً ويساراً . لم يتحرك شيء أو ضوء أو إنسان . تحسس مواطن الألم في جسمه وفركها . زكمت أنفه رائحة كريهة هي خليط من روائح البول والبراز والأطعمة الفاسدة . قام من مكانه منحني الظهر وسار جوار الخرابة متجهاً إلى اليمين . تعثر عدة مرات . توقف يستجمع أنفاسه ونفسه . كانت لعلعة الرصاص تزداد حدة بين فترة وأخرى . هذه الأصوات التي لا معنى لها ، هي الآن في صراع معه ضد فكرته . لعله ينجو لو اختبأ في هذه الخرابة حتى تنقشع الأمور . لكن الدلالة ستختلف آنذاك ؛ دلالته هو . وقف ملتصقاً بحجارة الجدار المطل على الشارع الفسيح . التصق به كأنه يريد أن يندس بين مسالك الحجر الضيقة . لن ينجو من نفسه ، لو انتظر مستسلماً إلى أن يأتي من ينقذه . لن تكون هذه هي النجاة . كلا . كان الشارع طويلاً ، يمتد دون التواء ، لامع الصفحة مستوياً ؛ وكان الرصيف الترابي الذي يفصله عنه يبلغ عرضه ثلاثة أمتار أو أكثر بقليل . أما الشارع المبلط فقد قدر عرضه بحوالي عشرة أمتار ، يبدأ بعده الرصيف الترابي الآخر الذي

يجب أن يكون عرضه ، افتراضاً ، ثلاثة أمتار أخرى . بعد ذلك ، تتفتح مسالك النجاة وطرقها. كانت أمامه إذن مسافة تتألف من ستة عشر متراً . قل عشرين . كم يحتاج من وقت ليقطعها ركضاً ؟

ان متسابقي مسافة المائة متر يقطعونها في اثني عشرة ثانية أو أكثر . لنقل انها خمس عشرة ثانية بالنسبة له . حسناً . بكم يقطع العشرين متراً ؟ التناسب طردي . خمسة عشرة في عشرين تقسيم مائة . الناتج هو ثلاثة . ثلاث ثوان ! لنقل مرة أخرى ، انها خمس . خمس ثوان وينتهي كل شيء ... أم يبدأ كل شيء ؟

أطل ، حذراً ، برأسه من حافة الجدار . كان الشارع ، آتياً من الأفق ، معتماً في بدايته ثم يضاء بمصابيح متفرقة حمراء . لا أحد هناك ، وقد يبقى الوضع هكذا خمس ثوان أخرى وعند ذاك ...

سحب نفسه إلى الوراء . يطرق الباب عليهم . كان قلبه قوي النبضات خافقاً ولعلهم لن يعرفوه للوهلة الأولى . ثم سيراها . سيناديها أول ما يدخل. وسيراها . يرى ذلك الوجه الحبيب إلى نفسه ، وسيأخذها إلى ناحية ليضمها إليه ويعتذر لها . كلا . ان يعتذر لها . تحرك فجأة . لم يدر لماذا اختار أن يتحرك تلك اللحظة. اندفع بحماس وخفة ، فلامست وجهه نسائم الليل الباردة . اجتاز الرصيف بلمحة خاطفة . لم تخذله رجلاه . لن يعتذر لها بالطبع ، لتلك العزيزة . سيقول لها فقط انه جاء إليها ، من أجلها ، هي زوجته ؛ لأنه انتصر على كل أفكار الفناء فيه . بدأ الشارع المبالل وأرضه المباطة بالقير . كان يركض بثقة وهو يتطلع إلى الأفق وإلى انفتاح السماء فوقه ، حينما شعر باسع النار في فخذه الأيمن . لم يسمع صوت الاطلاقات النارية . انكب على ركبتيه بعنف وكان مندهشاً مبهوتاً . لم تمر تلك الثواني الخمس من عمره بسلام إذن . أمسك بموضع الألم المهول في فخذه فتبللت أصابع يده بسائل دافيء . تلفت حائراً . لم ير أحداً . أراد أن يهتف مستنجداً ؛ أن يقول لهم ان عليهم أن يتركوه يحيا والا شأن لهم بموته . رأى لمعة نور خافت في زاوية مظلمة من اقصى الجهة الأخرى . فهم معناها . لبث منتظراً فترة زمنية لم تتجاوز عشر معشار الثانية ودامت ، له ، دوام العالم والانسان ؛ ثم عرف ، قبل أن يفترسه الألم الرهيب في صدره وكتفه ، أنه لم ينجح . وتلوى جسده الملوث بالطين والدماء ، يرتجف بشكل مروع على اسفلت الشارع الخالي .

باريس : ٩ — ٢ — ١٩٦٦ ، بغداد : ٥ — ٩ — ١٩٧٧

twitter @baghdad_library

هذه الكتلة من الورق لا تحوي ما ينسب إليها من تنهدات وكلام وأنين وابتسام ، أو من سمو وعذاب ورعب وأشواق ، أو من عيون وشفاه ودم ودموع .

وهي إذ تُرمى بعيداً فلن يصدر منها احتجاج أو عتاب . انها صفحات خرساء لا ضرر منها ولا فائدة أيضاً ؛ ومن الخير لها وللجميع أن تُهمل بسكون وأن تُنسى .

دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - كورنيش المزرعة - بناية موسى - ت ٣١١٠٣٠

twitter @baghdad_library